المكتوبات للإمام الرباني

تأليف

الإمام الربّاني المجدِّد للألف الثاني

أحمد الفاروقي السرهندي

قدس الله سره العزيز

الجزء الثاني

الكتاب: **المكتوبات للإمام الرباني**

المؤلف: **الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي**

الطبعة الأولى: **١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م**

الطبعة الثانية: **١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م**

ISBN: 978-625-7284-03-5

Siraç Yayınevi

Balat Mah. Murat Molla Sok. No: 10/1, Fatih/İstanbul

حي بلاط، زقاق مراد ملا، رقم: ١/١٠، الفاتح - إستانبول

0 (212) 521 72 45 | 0 (212) 635 10 10

bilgi@ismailagayayinevi.com | www.siracpazarlama.com

Baskı-Cilt

Sistem Matbaacılık

Yılanlı Ayazma Yolu, No: 8 Davutpaşa,

Zeytinburnu/İstanbul

0 (212) 482 11 01

المكتوبات للإمام الرباني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

الجزء الثاني من معرب المكتوبات الشريفة الموسوم بالدرر المكنونات
النفيسة للفقير المحتاج إلى لطف رب العباد محمد مراد المنزلوي تولداً
المكي توطناً عرَّبتُها رجاء أن ينتفع بها إخوان طريقتنا الذين
لا معرفة لهم باللغة الفارسية التي هي أصلها والتركية
التي هي ترجمتها وأسأل الله سبحانه أن يجعل
خالصاً لوجهه الكريم وأن يجيرني
به من العذاب الأليم إنه
رؤوف رحيم حليم

للمؤلف المعرِّب اللاشي:

أَمُوتُ ويَبْلَى أَعْظُمِي فِي المَقَابِرِ ❋ وسَوْفَ أَرَى مَا قَدْ حَوَتْهُ دَفَاتِرِي

فرُمْتُ ادِّخَاراً بَعْدَ مَوْتِيَ مِنَ الدُّعَا ❋ فَأَبْقَيْتُ تَذْكَاراً نِتَاجَ خَوَاطِرِي

الموفّقُ وعليه التُّكلان.

المكتوبُ الأوّلُ

إلى الشَّيخ عبدِ العَزيزِ الجُونْپُورِيِّ في بيانِ تَحريرِ مَذهَب الشَّيخ مُحيي الدِّينِ ابنِ العَربيِّ قدِّس سِرُّه في مَسألَة وَحدةِ الوُجودِ، وما هو مُختارُ حَضرَةِ شَيخِنا سلَّمه اللهُ تَعالى فيها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي جعل الإمكانَ مرآةً للوجوب، وصيَّر العدمَ مظهراً للوجود، والوجوبُ والوجودُ وإن كانا صفتي كماله سبحانه، فهو تعالى وراء جميع الأسماء والصِّفات، ووراءَ الشُّؤون والاعتبارات، ووراء الظُّهور والبطون، ووراء البُرُوز والكُمُون، ووراء التجلِّيات والظهورات، ووراء المشاهدات والمكاشفات، ووراءَ كلِّ محسوسٍ ومعقولٍ، ووراء كلِّ موهومٍ ومتخيَّلٍ، فهو سبحانه وراء الوراء، ثم وراء الوراء، ثم وراء الوراء: (شعر)

وَمَا أُبْدِيكَ مِنْ طَيْرِي عَلَامَهْ ... وَأَضْحَى مِثْلَ عَنْقَاءَ وَهَامَهْ
وَلِلْعَنْقَاءِ بَيْنَ النَّاسِ اسْمٌ ... وَلَيْسَتْ لِاسْمِ طَيْرِي اسْتِدَامَهْ

فلا يصل حمدُ حامدٍ إلى جناب قدس ذاته، بل منتهى جميع المحامد دون سُرادقات عزَّته، فهو الذي أثنى على نفسه، وحَمِد ذاته بذاته، فهو سبحانه الحامدُ والمحمودُ، وما سواه عاجزٌ عن أداء الحمد المقصود، وقد عجز عن حمده سبحانه من هو حاملُ لواء الحمد يوم القيامة تحتَه آدم ومن دونه، وهو أفضلُ البرايا، وأكمَلُهم ظهوراً، وأقربُهم منزلةً، وأجمعهم كمالاً، وأشملهم جمالاً، وأتمُّهم بدراً، وأرفعهم قدراً، وأعظمهم أُبَّهةً وشرفاً، وأقومهم ديناً، وأعدلهم ملَّةً، وأكرمهم حسباً، وأشرفهم نسباً، وأعرفهم بيتاً، لولاه لَمَا خلق الله سبحانه الخلقَ، ولَمَا أظهرَ الربوبيَّةَ، وكان نبيّاً وآدم بين الماء والطِّين، وإذا كان يوم القيامة كان هو إمامَ النبيِّين وخطيبَهم وصاحبَ شفاعتهم، الذي قال: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنِّي قَائِلٌ قَوْلاً غَيْرَ فَخْرٍ، وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا نَصَتُوا، وَأَنَا مُسْتَشْفِعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَئِسُوا، وَالْمَفَاتِيحُ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي**»:

(شعر) در قافله ای كه اوت دانـم نرسـم ... اين بس كه رسد ز دور بانگ جرسم
(ترجمة): كَيْفَ اللَّحَاقُ بِرَكْبٍ وَهُوَ قَائِدُهُمْ ... يَا نِعْمَ إِنْ جَاءَ مِنْ بُعْدٍ صَدَا جَرَسِهِ

صلواتُ الله سبحانه وتسليماتُه تعالى، وتحياتُه عزّ شأنه، وبركاتُه جلَّ برهانه، عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، وعلى أهل الطاعة أجمعين، صلاةً وسلاماً، وتحيّةً وبركةً هو لها أهلٌ، وهم لها أهلٌ، كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون.

وبعدَ الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، وإرسال التحيات، ليعلم أنَّ الصَّحيفةَ الشَّريفةَ المرسلة إلى هذا الفقير بلَّغها أخي الأعزّ الشَّيخ محمد طاهر، فطاب الوقتُ، وحصل السرورُ، وحيث كانت متضمِّنةً لحقائق أرباب الكشف والشُّهود ومعارفهم؛ زادت الفرحَ على الفرح، جزاكم الله سبحانه، فصار الفقيرُ أيضاً باعثاً على التَّصديع بإيراد كلماتٍ في البين من أذواق هذه الطَّائفة العليّة ومذاقهم على وفق ما في صحيفتكم.

أيُّها المخدومُ، إنَّ من..

المعلوم أنَّ الوجودَ مبدأُ كلِّ خيرٍ وكمالٍ، والعدمَ منشأُ كلِّ نقصٍ وشرٍّ وزوالٍ، فيكون الوجودُ ثابتًا للواجب، والعدمُ يكون نصيبَ الممكن، حتى يكون جميعُ الخير والكمال عائداً إليه تعالى، وكلُّ نقصٍ وشرٍّ راجعًا إلى الممكن، وإثباتُ الوجود للممكن وإرجاعُ الخير والكمال إليه إشراكُه في الحقيقة به سبحانه في مُلْكه ومِلْكه جلّ سلطانه، وكذلك القولُ بعينيَّة الممكن للواجب تعالى شأنه، وجعلُ صفاته وأفعاله عينَ صفاته وأفعاله سبحانه إساءةُ أدب، وإلحادٌ في أسمائه وصفاته تعالى، وأين المجالُ للكنّاس الخسيس المتَّسم بالنَّقص والخُبْث الذاتيّ أن يتصوَّرَ نفسه عينَ سلطانٍ ذي شأنٍ منشأ كلّ خيراتٍ وكمالاتٍ، ويتوهَّمَ صفاته وأفعاله الذَّميمة عينَ صفاته وأفعاله الجميلة؟ وعلماءُ الظَّاهر أثبتوا للممكن وجوداً، وجعلوا وجودَ الواجب تعالى ووجودَ الممكن من أفراد مطلق الوجود، **وغَايَةُ مَا فِي البَابِ**: أنَّهم قالوا بأقدميَّة وجود الواجب وأولويَّته بناءً على قضيَّة التَّشكيك، وهذا المعنى موجبٌ لتشريك الممكن للواجب تعالى في الكمالات والفضائل النَّاشئة من الوجود، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وقد ورد في الحديث القدسيّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**»، فلو كان لعلماء الظَّاهر تنبُّهٌ لهذا المعنى؛ لَمَا أثبتوا للممكن وجوداً أصلاً، ولَمَا أعطوا له الخيرَ والكمالَ اللذين هما مختصان به سبحانه باعتبار اختصاص الوجود به تعالى، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأكثرُ الصوفيَّة - خصوصًا المتأخرين منهم - يعتقدون أنَّ الممكنَ عينُ الواجب تعالى، ويزعمون صفاتِه وأفعالَه عينَ صفاتِه وأفعاله تعالى، ويقولون (رباعيّ)[(١)]:

(شعر)	همسايه و همنشين و همره، همه اوست	در دلق گدا و اطلسِ شه، همه اوست
	در انجمن فِرق و نهانخانهٔ جمع	بالله همه اوست، ثم بالله همه اوست
(ترجمة):	الجَارُ وَالصَّحْبُ وَالرُّكْبَانُ كُلُّهُ هُو	فِي كِسْوَةِ الْفَقْرِ وَالسُّلْطَانِ كُلُّهُ هُو
	فِي جَلْوَةِ الْفَرْقِ أَوْ فِي خَلْوَةِ الْجَمْعِ هُو	بِاللهِ كُلُّه هُوَ، وَاللهِ كُلُّهُ هُو

وهؤلاء الأكابر وإن تنزَّهوا وتخلَّصوا عن الإشراك في الوجود، وهربوا من الاثنينيَّة، ولكنَّهم وجدوا غيرَ الوجود وجوداً، واعتقدوا النقائصَ كمالاتٍ، وقالوا: لا شيءَ من النَّقص والشرّ الذاتيّين أصلاً، وإن كان فنسبيٌّ وإضافيٌّ، فالسمُّ القاتلُ فيه شرٌّ وقبحٌ بالنِّسبة إلى الإنسان مثلاً لكونه مزيلاً لحياته، وأما بالنِّسبة إلى الحيوان الذي فيه سمٌّ؛ فماءُ الحياة والترياقُ النافعُ. ومقتداهم في هذا الأمر ومستندُهم فيه: الكشفُ والشُّهودُ، فإنَّهم وجدوا على قدر ما ظهر لهم من عالم الغيب. اللهم أَرِنا حقائق الأشياء كما هي.

وها نحن نبيِّنُ أوَّلاً مذهبَ الشَّيخ مُحيِي الدين ابن العربي قدس سره، فإنَّه إمامُ متأخري الصوفيَّة ومقتداهم في هذه المسألة، ثم نحرِّرُ ما ظهر لنا في هذا الباب وانكشف؛ ليحصل الفرقُ بين المذهبين على الوجه الأتمّ، ولا يختلطَ أحدهما بالآخر من الدقَّة.

قال الشَّيخُ مُحيِي الدين ابن العربي وأتباعُه: إنَّ أسماءَ الواجب وصفاتِه جلَّ وعلا عينُ ذات الواجب سبحانه، وكذلك بعضُها عينُ بعض الآخر، مثلاً: العلمُ والقدرةُ كما أنَّهما عينُ ذاته تعالى؛ كذلك كلٌّ منهما عينُ الآخر أيضًا، فلا يكون في ذلك الموطن اسمُ التعدُّد والتكثُّر ورسمُه أصلاً، ولا التمايزُ والتباين قطعًا.

غَايَةُ مَا فِي البَابِ:..

(١) لمولانا الجامي أورده في «لوائحه». من المعرب.

أنَّ تلك الأسماءَ والصِّفاتِ والشُّؤون والاعتبارات حصل لها التَّمايزُ والتباينُ في حضرة العلم إجمالاً وتفصيلاً، فإن كان التَّمايزُ إجماليّـاً؛ يعبَّرُ عنه بالتعيّن الأوّل، وإنْ تفصيليّـاً؛ يسمى بالتعيّن الثّاني، ويسمون الأوّل: وحدةً، ويرونه الحقيقة المحمديَّةَ، ويقولون للتعيّن الثّاني: واحديَّةً، ويظنونه حقائق سائر الممكنات، ويسمون حقائق الممكنات: أعياناً ثابتةً، ويُثْبِتُون هذين التعيّنين العلميين في مرتبة الوجوب، ويقولون: إنَّ تلك الأعيانَ ما شمَّتْ رائحةً من الوجود الخارجيّ، ولا موجودَ في الخارج غيرُ الأحديَّة المجرَّدة أصلاً، وهذه الكثرةُ التي تُرى في الخارج إنّما هي عكسُ تلك الأعيان الثّابتة، انعكست في مرآة ظاهر الوجود الذي لا موجودَ في الخارج غيرُه، وعَرَضَ لها الوجودُ التَّخيُّليّ، كما أنَّ صورةَ شخصٍ إذا انعكست في المرآة يعرض لها وجودٌ تخيُّليٌّ في المرآة، وهذه الصُّورةُ المنعكسةُ ليس لها وجودٌ إلا في التَّخيُّل، ولم يتحلَّلْ في المرآة ولم ينتقشْ في وجهها شيءٌ أصلاً، فإن كان الانتقاشُ؛ فهو في التخيُّل، حيث يتوهَّم أنَّه في وجه المرآة، وحيث كان هذا المتخيَّلُ المتوهَّمُ صنعَ الحق جلَّ سلطانه الذي له إتقانٌ تامٌّ لا يرتفع برفع الوهم والخيال، ويترتَّبُ عليه الثوابُ والعذابُ الأبديّان، وهذه الكثرةُ الموهومةُ المتخيَّلةُ في الخارج منقسمةٌ على ثلاثة أقسامٍ: القسمُ الأوّلُ: التعيّنُ الروحيُّ، والثّانِي: التعيّنُ المثاليُّ، والثّالثُ: التعيّنُ الجسديُّ.

وله تعلّقٌ بالشَّهادة، ويقولون لهذه التعيّنات الثلاثة: تعيّنات خارجيَّةً، ويثبتونها في مرتبة الإمكان، والتنزلاتُ الخمسةُ عبارةٌ عن هذه التعيّنات الخمسة، ويقولون لهذه التنزلات الخمسة: الحضرات الخمس، ولَمّا لم يثبتْ عندهم شيءٌ في العلم ولا في الخارج غيرُ ذات الواجب تعالى وغيرُ صفاته وأسمائه جلّ سلطانه التي هي عين ذاته تعالى وتقدس، وتوهَّموا أنَّ الصُّورةَ العلميَّة عينُ تلك الصورة لا شبحُها ومثالُها، وكذلك تصوَّروا صور الأعيان الثَّابتة التي صارت منعكسةً في مرآة ظاهر الوجود عينَ تلك الأعيان لا شبحَها؛ حكموا بالاتحاد ضرورةً، وقالوا: الكلُّ هو. هذا هو بيانُ مذهب الشَّيخ محيي الدين ابن العربيّ في مسألة وحدة الوجود على وجه الإجمال.

وهذه العلومُ وأمثالها هي التي يزعُمُها الشَّيخ مخصوصة بخاتم الولاية، ويقول: إنَّ خاتمَ النبوَّة يأخذ هذه العلومَ من خاتم الولاية، ولشرَّاح «الفصوص» تكلّفاتٌ في توجيه هذا الكلام. وبالجملة لم يتكلّمْ أحدٌ من هذه الطَّائفة بهذه العلوم والأسرار قبل الشَّيخ أصلاً، ولم يبيِّنْ هذا الحديثَ على هذا النهج قطعـاً، وإن ظهر منهم كلماتٌ مشعرةٌ بالتَّوحيد والاتِّحاد في غَلَبات السُّكر، وقالوا: أنا الحقّ، وسبحاني، ولكنَّهم لم يبيِّنوا وجهَ الاتحاد، ولم يجدوا منشأ التَّوحيد، فصار الشَّيخُ برهانَ متقدِّمي هؤلاء الطَّائفة، وحجَّةَ متأخِّريهم، ومع ذلك بقي في هذه المسألة دقائقُ كثيرةٌ مختفيةٌ، وما جاءت الأسرارُ الغامضةُ من هذا الباب في منصَّة الظهور، فوفَّقَ هذا الفقيرُ بإظهارها، وبشَّرَ بتحريرها، والله يحقّ الحقَّ وهو يهدي السَّبيل.

أيُّها المخدومُ، إنَّ صفاتِ الواجب تعالى وتقدَّس الثَّمانيةَ التي هي موجودةٌ في الخارج عند أهل الحق شكر الله تعالى سعيهم تكون متميزةً عن ذاته تعالى وتقدَّس في الخارج بالضَّرورة تميُّزاً لا كيفيّـاً ولا مثليّـاً، وكذلك بعضُ تلك الصِّفات متميِّزٌ عن بعضٍ آخر منها بتميُّزٍ لا كيفيٍّ، بل التميُّزُ اللاكيفيّ ثابتٌ أيضـاً في مرتبة الذات تعالت وتقدست؛ لأنَّه الواسعُ بالوسع المجهول الكيفيَّة، والتَّميُّزُ الذي يحصل في حوصلةِ فهمنا وإدراكنا مسلوبٌ عن جناب..........

قدسه تعالى، فإنَّ التجزِّي والتَّبعُّض غيرُ متصوَّرٍ فيه، والتحلُّل والتركُّب لا سبيل لهما إلى تلك الحضرة جلَّ سلطانها، ولا مجال هناك للحالية والمحلِّية. وبالجملة: كلُّما هو من صفات الممكن ولوازمه مسلوبٌ عن ذلك الجناب المقدس، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا في الذات، ولا في الصِّفات، ولا في الأفعال. ومع وجود هذا التميُّز اللامثليّ والوسعة اللاكيفيَّة عَرَضَ للأسماء والصِّفات تفصيلٌ وتميُّزٌ في موطن العلم أيضاً، وصارت منعكسةً، ولكلِّ اسمٍ وصفةٍ متميِّزةٍ مقابلٌ ونقيضٌ في مرتبة العدم، مثلاً: لصفة العلم مقابلٌ ونقيضٌ في مرتبة العدم، وهو عدمُ العلم المعبَّر عنه بالجهل، ولصفة القدرة مقابلٌ هو العجزُ الذي عدم القدرة، على هذا القياس في بقية الصِّفات. وعرض لهذه العدمات المقابلة أيضاً تفصيلٌ وتميُّزٌ في علم الواجب جلّ شأنه، وصارت مرايا الأسماء والصِّفات المتقابلة لها، وكانت مجالي ظهور عكوسها، وتلك العدماتُ مع عكوس تلك الأسماء والصِّفات حقائقُ الممكنات عند الفقير.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ تلك العدمات كأصول تلك الماهيات وموادها، وتلك العكوس بمثابة الصُّوَر الحالَّة في تلك الموادّ، فحقائقُ الممكنات عند الشَّيخ محيي الدين هي تلك الأسماءُ والصِّفاتُ المتميِّزةُ في مرتبة العلم، وعند الفقير حقائقُ الممكنات العدماتُ التي هي نقائضُ الأسماء والصِّفات مع عكوس تلك الأسماء والصِّفات التي ظهرتْ في مرايا تلك العدمات في موطن العلم، وامتزجتْ بها، ومتى أراد المختارُ جلّ سلطانه أن يجعل ماهيَّةً من تلك الماهيات الممتزجة متَّصفةً بالوجود الظليّ الذي هو ظلٌّ من ظلال حضرة الوجود، وأن يجعلها موجودةً خارجيّةً؛ يلقي إليها ظلّاً من ظلال حضرة الوجود، ويصيِّرُها مبدأً للآثار الخارجية، فوجودُ الممكن في العلم والخارج كسائر صفاته ظلٌّ من ظلال حضرة الوجود، ومن كمالاته التَّابعة له. مثلاً: علمُ الممكن ظلٌّ من علم الواجب تعالى وتقدَّس الذي انعكس في مقابله، وقدرةُ الممكن ظلٌّ من القدرة المنعكسة في العجز الذي هو مقابلُها، فكذلك وجودُ الممكن ظلٌّ من ظلال حضرة الوجود الذي انعكس في مرآة العدم الذي هو مقابلُه: (شعر)

وَمَا جِئْتُ مِنْ مُلْكِي بِشَيْءٍ وَإِنَّمَا ... وُهِبْتُ الذِي عِنْدِي وَذَاتِي وَأَوْصَافِي

ولكنَّ ظلَّ شيءٍ ليس عينَ شيءٍ عند الفقير، بل شبحُ ذلك الشيء ومثالُه، وحملُ أحدهما على الآخر ممتنعٌ، فعند الفقير لم يكن الممكنُ عينَ الواجب، فإنَّ حقيقةَ الممكن عدمٌ، والعكسُ الذي انعكس فيه من الأسماء والصِّفات شبحُ تلك الأسماء والصِّفات ومثالُها لا عينُها، فلا يصحُّ (كلّه هو)، بل (كلُّه منه)؛ لأنَّ ما هو ذاتِيّ للممكن العدم الذي هو منشأٌ للشرّ والنَّقص والخباثة، وكلُّما هو في الممكن من جنس الكمالات من الوجود وتوابعه؛ كلُّه مستفادٌ من تلك الحضرة جلّ سلطانها، وظلٌّ من كمالاته الذاتيّة سبحانه وتعالى، فيكون هو سبحانه نور السّموات والأرض بالضَّرورة، وما وراءه تعالى يكون كلّه ظلمةً، كيف لا والعدمُ فوق جميع الظلمات؟ وتحقيقُ هذا المبحث مسطورٌ في المكتوب الذي حرّر إلى ولدي الأعظم المرحوم في بيان حقيقة الوجود، وتحقيق ماهيات الممكنات، فليطلب من هناك. فالعالمُ بأسره عبارةٌ عند الشَّيخ محيي الدين عن الأسماء والصِّفات التي عرض لها تميُّزٌ في مرتبة العلم، وظهورٌ في مرآة ظاهر الوجود، وعند الفقير العالم عبارةٌ عن العدمات التي انعكست عليها أسماءُ الواجب وصفاتُه في موطن العلم، ووجدتْ تلك العدماتُ مع تلك العكوس في الخارج بإيجاد الحقّ سبحانه بوجودٍ ظليٍّ، فظهر في العالم الخباثةُ الذاتيّة ....

والشرُّ الجبلِّيُّ، وكان الخيرُ والكمالُ كلُّه عائداً إلى جناب قدسه جل وعلا، وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] مؤيِّدٌ لهذه المعرفة، والله سبحانه الملهم.

فعلم من هذا التَّحقيق: أنَّ العالمَ موجودٌ في الخارج بوجودٍ ظليٍّ، كما أنَّ الحقَّ سبحانه موجودٌ في الخارج بوجودٍ أصليٍّ، بل بذاته.

غايةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذا الخارجَ أيضاً ظلُّ ذلك الخارج مثل الوجود والصِّفات، فلا يمكن أن يقال للعالم: إنَّه عينُ الحق جلّ وعلا، ولا يجوز حملُ أحدهما على الآخر، فإنَّه لا يمكن أن يقال لظلّ شخصٍ: إنَّه عينُ الشَّخص لوجود التَّغاير بينهما في الخارج؛ لأنَّ الاثنين متغايران، فإن قال شخصٌ لظلِّ شخصٍ: إنَّه عينُ ذلك الشَّخص؛ إنّما يقول ذلك على سبيل التَّسامح والتَّجوُّز، وهو خارجٌ عن المبحث.

فإن قيل: إنَّ الشَّيخَ محيي الدين وتوابعه أيضاً يقولون: إنَّ العالمَ ظلُّ الحق تعالى، فما يكون الفرقُ؟

قلنا: إنَّهم لا يرون وجودَ ذلك الظلّ في غير الوهم، ولا يجوِّزون وصولَ رائحةٍ من الوجود الخارجيّ إليه، وبالجملة إنَّهم يعبِّرون عن الكثرة الموهومة بظلّ الوحدة الموجودة، ويرون الموجودَ واحداً في الخارج، شتّان ما بينهما، فصار منشأُ حمل الظلّ على الأصل وعدمُ ذلك الحمل هو إثباتُ الوجود الخارجيّ للظلّ وعدم إثباته، وهم لَمّا لم يُثْبِتوا للظلّ وجوداً خارجيّاً؛ حملوه على الأصل بالضَّرورة، وحيث يرى هذا الفقير الظلّ موجوداً في الخارج لا يبادِرُ إلى الحمل، والفقيرُ متَّفقٌ معهم في نفي الوجود الأصليّ عن الظلّ، ومتَّفِقٌ أيضاً في إثبات الوجود الظليّ، ولكنَّ هذا الفقيرَ يثبت الوجود الظليَّ في الخارج، وهم يظنون الوجودَ الظليَّ في الوهم والتخيُّل، ولا يقولون بوجود موجودٍ في الخارج غير الأحديَّة المجردة، ولا يثبتون الصِّفات الثمانية التي ثبت وجودُها في الخارج على آراء أهل السنة والجماعة ﷺ في غير موطن العلم، فوقع العلماءُ الظَّاهريَّةُ وهؤلاء الأكابرُ رضي الله عنهم في طرفي الاقتصاد، وكان الحقُّ المتوسِّطُ نصيبَ هذا الفقير، ووُفِّق به، فإن عرف هؤلاء الأكابر أنَّ هذا الخارجَ ظلُّ ذلك الخارج؛ لَمَا أنكروا وجودَ العالم في الخارج، ولم يقتصروا على الوهم والخيال، ولا أنكروا أيضاً وجودَ صفات واجب الوجود في الخارج، ولئن تنبَّه العلماءُ أيضاً؛ لَمَا أثبتوا للممكن وجوداً أصليّاً، بل اكتفوا بالوجود الظليّ. وما كتبه الفقيرُ في بعض مكتوباته: إنَّ إطلاقَ الوجود على الممكن بطريق الحقيقة لا بطريق المجاز ليس بمنافٍ لهذا التَّحقيق، فإنَّ الممكنَ موجودٌ في الخارج بوجودٍ ظليٍّ بطريق الحقيقة، لا على سبيل التخيل والتوهُّم كما زعموا.

فإن قيل: إنَّ صاحبَ «الفتوحات المكية» قال بأنَّ الأعيانَ الثَّابتةَ برزخٌ بين الوجود والعدم، فصار العدمُ داخلاً في حقائق الممكنات على طريقه وطوره أيضاً، فما يكون الفرقُ بين التَّحقيق وبين هذا القول؟

قلنا: إنَّه إنّما قال لها برزخاً باعتبار أنَّ للصُّوَر العلميَّة وجهين: وجهٌ إلى الوجود بواسطة ثبوت العلم، ووجهٌ إلى العدم بواسطة الخارج، وأنَّ الأعيانَ ما شمَّت رائحةَ الوجود الخارجيّ عنده، والعدمُ الذي اندرج في هذا التَّحقيق له حقيقةٌ أخرى، وكذا المرادُ بما وقع في عبارة بعض الأعزَّة من إطلاق العدم على الممكن هو العدمُ الخارجيُّ، لا العدمُ الذي حقِّقَ فيما سبق، وهو سبحانه وتعالى وراء وراء تلك الأسماء والصِّفات المفصلة المتميِّزة في موطن العلم التي انعكست في مرايا العدمات، وصارت حقائقَ الممكنات، فلا يكون بينه سبحانه وبين العالم مناسبةٌ بوجهٍ من الوجوه أصلاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وجعلُ الحقّ سبحانه عينَ العالم ومتَّحداً به.........................

- بل نسبتُه إلى العالم - ثقيلٌ على هذا الفقير جداً:

(ع) وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المكتوب الثاني

إلى المِير شَمسِ الدِّينِ الخَلْخَالِيِّ في بيانِ أنَّ مَرتَبةَ ذاتِ الحقِّ تعالى وتقدَّس ومَرتَبةَ صفاتِه سُبحانَه فَوق اعتِبارِ الوُجودِ والوُجوبِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد حصل الفرحُ والابتهاجُ بوصول الصحيفة الشَّريفة الصَّادرة على وجه المحبَّة والإخلاص، كثرةُ إخوان الدِّين سببُ الرَّجاء في الآخرة، اللهم كَثِّرْ إخواننا في الدين، وثبِّتنا وإياهم على متابعة سيد المرسلين، عليه وعليهم من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها:

(ع) وَأَحْسَنُ مَا يُمْلَى حَدِيثُ الْأَحِبَّةِ

أيُّها المحبُّ، إنَّ صفاتِ واجب الوجود السَّبعة أو الثَّمانية - على اختلاف الآراء - صفاتٌ حقيقيَّةٌ موجودةٌ في الخارج، ولم يقل أحدٌ من الفرق المخالفة بوجود صفات واجب الوجود تعالى وتقدس غير أهل الحقّ شكر الله تعالى سعيهم، حتى إنَّ المتأخرين من الصوفيَّة منهم أنكروا وجود الصِّفات، بل جعلوا زيادة الصِّفات راجعةً إلى العلم فقط، وقالوا: (شعر) وَصِفَاتُ حَقٍّ فِي التَّعَقُّلِ غَيْرُ ذَا تِ الْحَقِّ لَكِنْ فِي التَّحَقُّقِ عَيْنُهَا

والحقُّ: أنَّ كلامَ أهل الحق حقٌّ ومقتبسٌ من مشكاة النبوَّة، ومؤيَّدٌ بنور الكشف والفراسة. **غَايةُ ما فِي البابِ:** أنَّ الإشكالَ الذي أورده المخالفون في وجود الصِّفات قوي؛ لأنَّ الصِّفات لو كانت موجودةً، فلا تخلو: إما أن تكون ممكنةً أو واجبةً، والإمكانُ مستلزمٌ للحدوث؛ لأنَّ كلَّ ممكنٍ حادثٌ عندهم، والقولُ بتعدُّد الواجب منافٍ للتَّوحيد. وأيضاً على تقدير الإمكان يلزم جوازُ انفكاك الصِّفات عن الذات تعالت وتقدَّستْ، وهذا موجبٌ لجواز الجهل والعجز للواجب سبحانه. وحلُّ هذا الإشكال على ما ظهر لهذا الفقير: أنَّ حضرةَ الحقِّ سبحانه موجودٌ بذاته، لا بوجودٍ يكون عيناً لها أو زائداً عليها، وصفاتُه تعالى موجودةٌ بذاته تعالى، لا بوجودٍ، فإنَّه لا مجال للوجود في ذلك الموطن، وقد أشار الشَّيخ ركن الدين أبو المكارم علاء الدَّولة السُّمنانيّ قدس سره إلى هذا المقام حيث قال: فوق عالم الوجود عالمُ الملك الودود، فلا تكون نسبةُ الإمكان والوجوب أيضاً متصوَّرةً في ذلك الموطن، فإنَّ كُلّاً من الإمكان والوجوب نسبةٌ بين الماهية والوجود، فحيث لا وجودَ لا إمكانَ ولا وجوبَ. وهذه المعرفةُ وراء طَوْر النَّظر والفكر، وأيّ شيء يجد المقيَّدون بعقال العقل من هذه المعرفة؟ وما يكون نصيبُهم منها غيرَ الإنكار، إلا من عصمه الله سبحانه وتعالى؟ وباقي المرام: أنَّ السيد محب الله أقام هنا مدَّةً، والآن صار متوجّهاً إلى تلك الجهات والحدود، فليغتنم صحبتُه. والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المكتوب الثالث

إلى المَخدومِ زَادَه مَعدِنِ الحَقائِقِ، ومَنبَعِ المَعارفِ اللَّامتَناهيَة، ومَظهَر الفُيوضاتِ الإلَهيَّة، الخواجه محمَّدٍ سعيدٍ سلَّمه الله تعالى، في بيانِ أنَّ مُعاملَة الآفاقِ والأنفُس داخِلَة في دائرةِ الظِّلالِ، وبيانِ الولايَة الصُّغرى والكُبرَى، وكَمالاتِ النُّبوَّة، وتَحقيقِ حَقيقَة تجَلِّي الأفعالِ الذي ظَهرَ لبَعضِ الصُّوفيَّة، وأنَّه ظلُّ فعلِ الحقِّ، لا عَينُ فعلِه تعالى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ كلَّما يظهر في مرايا الآفاق والأنفس؛ فهو متَّسمٌ

بِسِمَة الظليَّة، فيكون مستحقّاً للنَّفي ليحصل الإثباتُ، ولَمّا جاوزتِ المعاملةُ حدَّ الآفاق والأنفس؛ تخلَّصت عن قيد الظليَّة، وتيسّر الشُّروعُ في تجلِّي الفعل والصفة، وعلم أنَّ كل تجلٍّ ظهر قبل ذلك في السَّير الآفاقيّ والأنفسيّ - وإن اعتقدوه تجلِّياً ذاتيّاً -؛ كان متعلّقاً بظلال الفعل والصفة، لا بنفس الفعل والصفة، فضلاً عن كونه متعلّقاً بالذات، فإنَّ دائرةَ الظليَّة تنتهي بنهاية الأنفس، فكلُّما يظهر في الآفاق والأنفس يكون داخلاً في تلك الدائرة، والفعلُ والصفةُ وإن كانا في الحقيقة من ظلال حضرة الذات تعالت وتقدست، ولكنَّهما داخلان في دائرة الأصل، وولايةُ تلك المرتبة ولايةٌ أصليَّةٌ، بخلاف ولاية المرتبة السَّابقة التي تتعلّقُ بالآفاق والأنفس، فإنَّها ولايةٌ ظليَّةٌ، والتجلِّي البرقيُّ الذي ناشٍ من مرتبة الأصل ميسَّرٌ لمنتهي دائرة الظلّ، فإنَّهم يتخلَّصون ساعةً واحدةً من قيد الآفاق والأنفس، والذين جاوزوا دائرةَ الآفاق والأنفس، وترقَّوا عنها، وخلَّفوا الظلَّ وراءهم، ولحقوا بالأصل؛ فالتجلِّي البرقيُّ دائميٌّ في حقِّهم، فإنَّ مسكنَ هؤلاء الأكابر ومأواهم دائرةُ الأصل التي منها ينشأ التجلِّي البرقيُّ، بل معاملةُ هؤلاء الأكابر فوق التجلِّيات والظهورات، فإنَّ كلَّ تجلٍّ وظهورٍ بأيِّ مرتبةٍ يتعلّقُ لا يخلو عن شائبة الظليَّة، وقد جعلهم التعلّقُ بأصل الأصل فارغين عن الظلّ، وخلَّصهم عن زيغ البصر، ونهايةُ الكمال في الولاية الظليَّة التي هي الولايةُ الصغرى إنّما تحصل بالتجلِّي البرقيّ، وهذا التجلِّي البرقيُّ قَدَمٌ أوَّلُ في الولاية الكبرى التي هي ولايةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والولايةُ الصغرى هي ولايةُ الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم.

ومن ههنا يعرف التفاوتُ بين ولاية الأولياء وولاية الأنبياء صلوات الله وتسليماته سبحانه عليهم، فإنَّ بدايةَ تلك الولاية نهايةُ هذه الولاية، وماذا نقولُ من كمالات نبوَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ فإنَّ بدايةَ النبوَّة نهايةُ هذه الولاية، ولعلَّ حضرة الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدس الله سره نال نصيباً وافراً من ولاية الأنبياء عليهم الصلوات والتحيات بالتبعيَّة والوراثة، فإنَّه قال: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية، ومبلغُ علم هذا الفقير أنَّ النِّسبةَ النقشبنديَّةَ وحضورها إذا بلغا حدَّ الكمال يتَّصلان بالولاية الكبرى، ويحصل لهم حظٌّ وافرٌ من كمالات تلك الولاية، بخلاف طُرُق غيرهم، فإنَّ نهايةَ كمالهم حصولُ التجلِّي البرقيّ.

ينبغي أن يعلم أنَّ السَّيرَ الذي يتيسّر بعد سير الآفاق والأنفس هو سيرٌ في أقربيَّة الحقّ سبحانه وتعالى، فإنَّ فعلَه تعالى أيضاً أقربُ إلينا منا، وكذلك صفتُه تعالى أقرب إلينا منا ومن فعله تعالى أيضاً، وذاتُه تعالى أقربُ إلينا منا ومن فعله وصفته تعالى، والسيرُ في هذه المراتب هو السَّيرُ في الأقربية، وحقيقةُ تجلِّي الفعل وتجلِّي الصفة وتجلِّي الذات تتحقّقُ في هذا الموطن، ويحصل النَّجاةُ هنا من سلطنة الوهم ودائرة الخيال، فإنَّه لا سلطنةَ لسلطان الوهم والخيال في خارج دائرة الآفاق والأنفس، ونهايةُ تصرُّف الوهم نهايةُ دائرة الظلّ، فحيث لا ظلَّ لا وهمَ، فالتخلُّصُ عن قيد الوهم في الولاية الظليَّة إنّما يحصل بعد الموت، فإنَّ الوهمَ ينعدم بالموت، وفي الولاية الأصليَّة التي هي الولايةُ الكبرى الخلاصُ عن قيد الوهم والخيال ميسَّرٌ في هذه النَّشأة، ومع وجود الوهم فيها خلاصٌ عن قيد الوهم، وما أُجِّلَ للطائفة الأولى في الآخرة يتيسّرُ للطَّائفة الأخرى في هذه النشأة، وفي الولاية الظليَّة لا يحصل شيءٌ من المطلوب في هذه النَّشأة........

غير منحوت الوهم والخيال، وفي الولاية الأصليَّة المطلوبُ منزَّهٌ ومبرَّأٌ عن علَّة نحت الوهم، وكأنَّ مولانا الروميَّ تضايق من حيطة الوهم وقيد الخيال، فتمنَّى الموتَ لينال المطلوبَ عاريـًا عن لباس الوهم والخيال، ومنع من أن يقول: عافاك الله في مبادئ الموت، وقال:

(شعر) مـن شـوم عريـان ز تـن، او از خـيـال تا خرامـم در نـهـايـاتِ الـوصـال

(ترجمة): أَعْرُو مِنَ الْأَشْـبَـاحِ وَهُوَ مِنَ الْخَيَالْ كَيْمَا أَتَبَخْتَرْ فِي نِهَايَاتِ الْوِصَـالْ

وما قلت من أنَّ في الآفاق والأنفس تجلّيات ظلال الأسماء والصِّفات، لا تجلِّيات نفس الأسماء والصِّفات، بيانُه: هو أنَّ التَّكوينَ من الصِّفات الحقيقيَّة كما هو مذهب العلماء الماتريديَّة شكر الله سعيهم، لا من الصِّفات الإضافيَّة كما زعمت الأشعريَّة، وحيث كانت الإضافةُ غالبةً في هذه الصِّفة ظنُّوها من الصِّفات الإضافية نظراً إلى صفاتٍ أخرى، وليس كذلك، بل هي من الصِّفات الحقيقية، امتزج بها وصفُ الإضافة، وهذه الصفةُ تحت جميع الصِّفات، وفيها لونُ جميع الصِّفات التي فوقها، مثلاً: لها نصيبٌ من العلم والحياة، وحظٌّ من القدرة والإرادة أيضـًا، ولها جزئياتٌ هي في الحقيقة ظلالُها، مثل: التَّرزيق والتَّخليق، والإحياء والإماتة، والإنعام والإيلام، وهذه الجزئياتُ داخلةٌ في الأفعال التي هي في الحقيقة ظلالُ تلك الصفة خارجةٌ عن دائرة الصِّفات الحقيقيَّة، ولهذا الفعل وجهان: وجهٌ نحو الفاعل، ووجهٌ إلى المفعول، وهذان الوجهان متمايزان في النَّظر الكشفيّ، يرى الوجه الأوّل عاليـًا، والوجهُ الثّاني سافلاً، وأيضـًا يرى الوجهُ الأوّلُ في النَّظر كالأصل، والوجهُ الثّاني مثلَ ظلِّ ذلك الأصل، وأيضـًا الوجهُ الأوّلُ فيه لونٌ من الوجوب، والوجهُ الثّاني له لونٌ من الإمكان، وهذا الوجهُ الثّاني مبادئُ تعيّنات غير الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات من الأولياء الكرام وسائر الأنام، وحيث كان لهذا الفعل باعتبار الجهتين لونٌ من الوجوب ولونٌ من الإمكان يكون ممكنـًا بالضَّرورة، فإنَّ المركَّبَ من الواجب والممكن ممكنٌ، وأيضـًا إنَّ هذا الفعل حيث كان له وجهٌ إلى القدم باعتبار الجهة الفوقانيَّة، وقدمٌ في الحدوث باعتبار الجهة التحتانيَّة؛ يكون حادثـًا بالضَّرورة، فإنَّ المركَّبَ من القديم والحادث حادثٌ، فالذين قالوا بقِدَم فعل الحقّ سبحانه إنّما نظروا إلى الجهة الأولى، والذين ذهبوا إلى حدوثه؛ فمنظورهم هو الجهة الأخرى، ونظرُ الطَّائفة الأولى عالٍ، ونظرُ الثّانية سافلٌ، وإن وقع كِلَا الفريقين في طرفي الحقّ المتوسط، وهو الذي امتاز به هذا الفقيرُ. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ووقع مثل هذا التَّحقيق في بعض المكاتيب في شأن الصِّفات الحقيقية أيضـًا، فليطلب.

ينبغي أن يعلم أنَّ الوجهَ الثّاني في الفعل عبارةٌ عن الخلق الخاصّ الذي متعلّقٌ بزيد مثلاً، فخلق زيدٍ كأنَّه جزئيٌّ من جزئيات مطلق الخلق مثلاً، وهذا الخلقُ الخاصُّ الذي تعلّق بزيد له جزئيات أيضـًا كخلق ذات زيد وخلق صفاته وأفعاله، وهذه الجزئياتُ كالظلال لخلق زيدٍ، وهو كالكليِّ لها، ولخلق فعل زيد أيضـًا ظلٌّ ومظهرٌ، وهو كسبُ زيدٍ الذي تعلّقَ بالفعل، فإنَّ هذا الكسبَ ما جاء به زيد من بيت أبيه، بل هو ظلٌّ من خلق الحقّ جل وعلا. فعلم من هذه المعارف أنَّ الفعلَ ظلُّ التَّكوين، وأنَّ الوجهَ الثّاني من الفعل ظلُّ الوجه الأوّل منه كما حُقِّقَ، وأنَّ للوجه الثّاني أيضـًا ظلاًّ هو خلقُ زيد مثلاً، ولخلق زيد أيضـًا ظلاًّ هو خلقُ فعل زيد، ولهذا الظلِّ أيضـًا ظلٌّ هو كسبُ زيد. فإذا.........................

عرفت هذه العلوم؛ فاعلم أنَّ نسبةَ كسب زيد إلى زيدٍ مثلاً إذا انتفت في نظر السَّالك وقت السُّلوك عن زيدٍ وارتفعت إضافتُه إلى زيد يرى فاعل ذلك الفعل هو الحقّ سبحانه، بل يجد الأفعالَ المتكثرةَ المتباينةَ للخلائق فعلَ فاعلٍ واحدٍ، فيظنون ظهورَ هذا المعنى تجلّياً فعلياً، ينبغي أن ينصف هل هذا التجلّي هو تجلّي فعل الحقّ أو تجلّي ظلٍّ من ظلال ذلك الفعل الذي تنزّل بمراتب كثيرةٍ، وعرض له اسمُ الظليَّة؟ وينبغي أن يقيس التجلّيات الأخرى على التجلّي الفعلي، فإنَّهم اكتفوا فيها أيضاً بظلٍّ من الظلال، وظنُّوه أصل الأصل، واطمئنُّوا بالجوز والموز.

ينبغي أن يعلم أنَّ وجوبَ الوجود حيث كان من النِّسَب والإضافات يوجد في مرتبة الفعل بالضَّرورة، ولَمّا لم يكن لهذه النِّسبة مناسبةٌ بالعلم، بل هي مخصوصةٌ بصانع العالم تعالى وتقدس؛ كانت مناسبةً بالوجه الأوّل من الفعل الذي مرّ ذكره.

فإن قيل: يلزم من هذا البيان أن لا يكون الوجوبُ ثابتاً في مرتبة الذات والصِّفات، ولا يقال لذاته وصفاته تعالى وتقدس واجبةٌ، فيكون الوجوبُ مسلوباً عن حضرة الذات والصِّفات، كما أنَّ الإمكانَ والامتناعَ مسلوبان عنه تعالى، فظهر قسمٌ رابعٌ من المفهوم سوى الوجوب والإمكان والامتناع، والحالُ أنَّ انحصارَ المفهوم في هذه الثلاثة كان ثابتاً بالحصر العقليّ.

قلنا: إنَّ هذا الانحصارَ إنّما هو للماهية بالنِّسبة إلى الوجود، فحيث لا نسبةَ للماهية إلى الوجود؛ لا انحصارَ، كما في ذات الواجب تعالى وصفاته سبحانه، فإنَّ ذاته تعالى موجودٌ بذاته لا بالوجود، عيناً كان أو زائداً، وصفاتُه تعالى موجودةٌ بذاته تعالى من غير أن يتخلّلَ فيها وجودٌ، فذاتُه تعالى وصفاته سبحانه فوق هذه الثَّلاثة المنحصرة.

غَايةُ ما فِي البابِ: إذا تُصُوِّرَ ذاته تعالى، وتعلّقت صفاتُه سبحانه بالوجوه والاعتبارات - إذ لا سبيل إلى الكنه -؛ يَعْرِضُ لذاته سبحانه في الوجود التصوريّ الظليّ الوجوبُ كما هو المناسب واللائقُ بذاته تعالى، ويعرض لصفاته سبحانه في الوجود الذهنيّ الإمكانُ لما هو المناسبُ لها لاحتياجها إلى الذات، فذاتُه تعالى وصفاتُه سبحانه في حدِّ أنفسها فوق مرتبة الوجوب والإمكان، بل فوقَ مرتبة الوجود أيضاً، وباعتبار الوجود التَّصوّر الظليّ الوجوبُ يناسب الذاتَ، والإمكانُ يناسب الصِّفات، فالصِّفاتُ من حيث الوجود الخارجيّ لا واجبةٌ ولا ممكنةٌ، بل هي فوق الوجوب والإمكان، وباعتبار الوجود الذهنيّ ممكنةٌ، ولا يلزم من هذا الإمكان الحدوثُ؛ لِمَا أنَّه ليس لذواتها كما للممكنات، بل لوجوداتها الظليَّة.

ويناسبُ هذه المعرفةَ ما قاله أربابُ المعقول من أنَّ الكليَّةَ والجزئيَّةَ تعرضان للماهيَّة باعتبار خصوصيَّة الوجود الذهنيّ، فلا توصفُ بهما الماهيّةُ حالَ الوجود الخارجيّ، فزيدٌ الموجودُ في الخارج مثلاً قبل التعقُّل ليس بجزئيٍّ، كما أنَّه ليس بكليٍّ، بل يعرضُ له الجزئيَّةُ بعد الوجود الذهنيّ الظليّ، بل نقول: جميعُ النِّسَب والإضافات والأحكام والاعتبارات التي تحمل عليه تعالى كالألوهيَّة والأزليَّة مما هي غير الصفات الثَّمانية الموجودة إنّما تصدق عليه سبحانه باعتبار التصوُّر والتعقُّل، وإلا؛ فالذاتُ من حيث هي غيرُ متَّصفةٍ بصفةٍ، ولا مسماةٌ باسمٍ، ولا محكومٌ عليها بحكمٍ، فصاحبُ الشرع تعالى إنّما أطلق على ذاته أسماءً وأحكاماً باعتبار التناسب والتشابه؛ لتكون قريبةً من أفهام المخلوقات، ويكون التكلّمُ معهم على قدر عقولهم، كما يقال لزيدٍ الموجود في الخارج بدون ملاحظة وجوده الذهنيّ: إنَّه جزئيٌّ على سبيل التَّشبيه والتنظير،

ويكون حكمُهم بجزئيَّته أنسبَ وأشبهَ من حكمهم بأنَّه كليٌّ، فكذلك الحكمُ بالوجوب والوجود على الذات الغني العلي أَوْلى وأنسب من الحكم بالإمكان والامتناع، وإلا؛ فلا يصل إلى جناب قدسه تعالى وجوبٌ ولا وجودٌ، كما لا يليق بجناب تنزيهه تعالى إمكانٌ وامتناعٌ، فافهم هذه المعرفةَ الشريفةَ القدسيَّةَ، فإنَّها أساسُ الدين، وخلاصةُ علم الصِّفات والذات تعالت وتقدست، وما تكلّم بها أحدٌ من العظماء، ولا واحدٌ من الكبراء، استأثر الله سبحانه هذا العبدَ بهذه المعرفة. والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الرابع

إلى المِير محمَّد نُعمانَ في بيانِ أنَّ عِلم اليَقين وعَينَ اليقينِ وحقَّ اليقينِ التي قرَّرها بعضُ الصُّوفيَّة شَطرانِ في الحَقيقَة من أقسامِ عِلمِ اليَقينِ الثَّلاثَة، والقِسمُ الثَّالثُ منه لم يَحصُل بعد، فضلاً عنِ الوُصولِ إلى عينِ اليَقينِ، وبيانِ أنَّ صاحِب هذه العلومِ مُجدِّد الألفِ الثَّاني.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد مضت مدَّةٌ وليس لنا اطِّلاعٌ على أحوالكم المحمودة المآلِ، المسؤولُ من الله سبحانه سلامتكم واستقامتكم. اعلم أنَّ علمَ اليقين عبارةٌ عن شهود آياتٍ تفيدُ اليقينَ العلميَّ، وهذا الشُّهودُ في الحقيقة استدلالٌ بالأثر على المؤثِّر، فكلَّما يرى ويشاهَدُ من الظُّهورات والتجلِّيات في مرايا الآفاق والأنفس من قبيل الاستدلال بالأثر على المؤثِّر، وإن سمَّوا تلك التجلِّيات: تجلِّيات ذاتيّةً، وقالوا لتلك الظهورات: ظهوراتٌ لا كيفيّة، فإنَّ ظهورَ شيءٍ في المرآة حصولُ أثرٍ من آثاره، لا حصولُ عين ذلك الشَّيء، فلا يكون قدمُ السَّير الآفاقيّ والأنفسيّ خارجاً عن دائرة علم اليقين بالتمام، ولا يكون له نصيبٌ غيرَ الاستدلال بالأثر على المؤثّر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، واعتقد بعضهم أنَّ السَّيرَ الآفاقيّ من علم اليقين، وأثبتوا عينَ اليقين وحقَّ اليقين في السَّير الأنفسي، ولم يقولوا بسيرٍ في خارج الأنفس:

(ع) وَلِلنَّـاسِ فِيمَـا يَعْشَـقُونَ مَذَاهِبُ

واعلم أنَّ الحقَّ سبحانه أقربُ إلى العبد من العبد نفسه، فمن العبد إلى الحقّ سبحانه سيرٌ آخر في جانب الأقربيَّة، والوصولُ منوطٌ بقطعه، وهذا السَّيرُ الثَّالثُ أيضاً مثبتٌ لعلم اليقين في الحقيقة، فإنَّه وإن كان خارجاً عن دائرة الظليَّة، ولكنَّه ليس بمبرأً من شائبة الظليَّة، فإنَّ أسماءَ الواجب وصفاته سبحانه ظلالُ حضرة الذات في الحقيقة تعالت وتقدست، وكلُّ موضعٍ فيه شوبُ الظليَّة داخلٌ في الآثار والآيات، فهم خصَّصوا بعلم اليقين سيراً واحداً من سيره الثلاثة، وجعلوا سيره الثّاني محصِّلاً لعين اليقين وحق اليقين، ولم يحرِّكوا شفاههم بالسَّيْر الثّالث أصلاً حتى يتمَّ به دائرةُ علم اليقين، وأين بعد عين اليقين وحق اليقين؟

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْـتَانِي رَبِيعِي

وماذا أقول من عين اليقين وحق اليقين؟ ومن يفهمه إن قلت ومن يدرك؟ فإنَّ هذه المعارفَ خارجةٌ من حيطة الولاية، وأربابُ الولاية عاجزون عن إدراكها مثلَ علماء الظَّاهر، وقاصرون في دَرْكها، وهذه العلومُ مقتبسةٌ من مشكاة أنوار النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحيَّة، حصلت لها النَّضارةُ بعد تجدُّد الألف الثّاني، وظهرت بالطراوة، وصاحبُ هذه العلوم والمعارف مجدِّدُ هذا الألف كما لا يخفى على الناظرين في علومه ومعارفه التي تتعلّقُ بالذات والصِّفات والأفعال، وتتلبَّسُ

بالأحوال والمواجيد والتجلِّيات والظهورات، فيعلمون أنَّ هذه المعارفَ والعلومَ وراء علوم العلماء، ووراء معارف الأولياء، بل علومُ هؤلاء بالنِّسبة إلى تلك العلوم قشرٌ، وتلك المعارفُ لبُّ ذلك القشر، والله سبحانه الهادي. واعلم أنّه قد مرَّ على رأس كلِّ مائةٍ مجدِّدٌ ومضى(١)، ولكنَّ مجدِّدَ المائة ليس كمجدِّدِ الألف، بل الفرقُ بين مجدّد المائة ومجدّد الألف كالفرق بين المائة والألف، بل أزيدُ منه، والمجدِّدُ هو الذي بتوسُّطه يرد على الأمة في تلك المدَّة ما يرد من الفيوض، وإن كانوا أقطابَ ذلك الوقت وأوتاده وأبداله ونجباءه: (شعر)

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات العلى، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، وعباد الله الصالحين أجمعين.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ

إلى المِير شَمسِ الدِّين عليٍّ الخَلْخَالِيِّ في بيانِ أنَّ لصِفاتِ الحقِّ سبحانَه اعتِبارَين: الأوَّل: حُصولُها في أنفُسِها، والثَّاني: قِيامُها بذَاتِ الحقِّ سُبحانَه، وكِلا الاعتِبارَينِ متميِّزانِ في الخارِج.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها المخدومُ، إنَّ لصفات الواجب التي هي موجودةٌ وقائمةٌ بذاته تعالى اعتبارين: الاعتبارُ الأوّلُ: ثبوتها في حدّ ذاتها، والاعتبارُ الثّاني: قيامُها بذات الواجب تعالى وتقدّس، ولها بالاعتبار الأوّل مناسبةٌ بالعالم، وبه صارت مبادئَ التعيّنات، وبالاعتبار الثّاني مستغنيةٌ عن العالم، ليس لها توجُّهٌ إلى العالم وما فيه أصلاً، وأيضاً إنَّها بالاعتبار الأوّل ترى في النظر الكشفيّ منفكّةً عن الذات تعالت وتقدست، ونثبت الذاتَ وراءها، وبالاعتبار الثّاني ليست كذلك، بل لا يتصوَّرُ الانفكاك، وأيضاً إنَّها بالاعتبار الأوّل حجبٌ للذات، وبالاعتبار الثّاني الاحتجابُ مرتفعٌ كالبياض القائم بالثوب، فإنَّه ليس بحجابٍ للثوب.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ البياضَ بكلا الاعتبارين - أعني: حصوله في نفسه وقيامه بالثوب - ليس بحجابٍ لذات الثوب، فإنَّه وإن كان المحسوسُ هو ذلك البياضَ، ولكنَّ الحجابيّةَ مرتفعةٌ، بخلاف صفات الواجب تعالى وتقدس، فإنَّها بالاعتبار الأوّل حاجبةٌ، وبالاعتبار الثّاني غيرُ حاجبةٍ، وإياك وتخيّلَ فرقِ ما بين الاعتبارين شيئاً يسيراً، فإنَّ هذا الفقيرَ مع وجود جذبٍ قويٍّ وسرعة سيرٍ قطع ما بين هذين الاعتبارين قريباً من خمس عشرة سنة، ولم يهتد العلماءُ المتقدمون إلى فرق ما بين هذين الاعتبارين، وقالوا: إنَّ حصولَ العرض في نفسه هو عين حصوله القياميّ في الجوهر، وبعضُ العلماء المتأخرين تنبَّه على هذا الفرق، وحقَّق أنَّ حصوله في نفسه غيرُ حصوله القياميّ؛ لأنَّ العرضَ يقال في حقه: إنَّه وجد فقام، فالوجودُ غيرُ القيام، وتحقيقُ ذلك البعض في العرض كان مرتقى العروج لي، ووسيلة لمعرفة محتاج إليها، وقد أمدّ في هذا السَّير والسلوك كثيرٌ من التَّحقيقات الكلاميَّة، والتدقيقات الفلسفيَّة، وصارت واسطةً للمعارف الإلهيّة جلّ سلطانه، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وأصحابه من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ

إلى المخدُومِ زَادَه جامِعِ العُلومِ العَقليَّة والنَّقليَّة الخواجه مَجدِ الدِّين محمَّدٍ مَعصُومٍ في بيانِ بعضِ الأسرارِ الغامِضَة، ويُفهمُ منها وَجْهُ كَونه ﷺ مأموراً

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة ﵁، وللسيوطي رسالةٌ سماها: «تحفة المهتدين بأسماء المجدِّدين» نظم فيها أسماءَ المجدِّدين إلى عصره.

باتِّباع ملَّة إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أظنُّ أنَّ المقصودَ من خلقي: هو أن تكون الولايةُ المحمديّةُ منصبغةً بالولاية الإبراهيميَّة عليهما الصلاة والتحيةُ، وأن يمتزج حسنُ ملاحة هذه الولاية بجمال صباحة تلك الولاية، قد ورد في الحديث: «أَخِي يُوسُفُ أَصْبَحُ، وَأَنَا أَمْلَحُ»، وأن يبلغَ مقام المحبوبيَّة المحمديَّة بهذا الانصباغ درجةً عليا، ويشبه أن يكون المقصودُ من الأمر باتِّباع ملَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حصولَ هذه الدَّولة العظمى، وأنَّ طلبَ الصلوات والبركات المماثلتين لصلوات إبراهيم وبركاته على نبينا وعليه الصلاة والسلام إنّما هو لأجل هذا الغرض، والملاحةُ والصباحةُ كلتاهما منبئتان عن حسن الذات تعالت وتقدست من غير مزج الصِّفات، ولكنَّ حسنَ الصِّفات والأفعال والآثار كلِّها مستفادٌ من حسن الصباحة الكثيرة البركة، وحسنُ الملاحة أنسبُ بحضرة الإجمال، وكأنَّ الملاحةَ مركزٌ للحسن، والصباحةَ دائرةُ ذلك المركز، وكما أنَّ في حضرة الذات بساطةً؛ كذلك فيها وسعةٌ أيضـًا، وليست تلك البساطةُ والوسعةُ مما يجيء في فهمنا، وما ذلك الإجمال والتَّفصيل مما يُدْرَكُ بإدراكنا، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والبساطةُ والوسعةُ اللتان نُثْبِتُهما في حضرة الذات كلُّ واحدةٍ منهما متمايزةٌ عن الأخرى، لا أنَّها عينُ الأخرى كما ظنّ البعضُ، وأما التميُّزُ الذي هو ثابتٌ في تلك المرتبة بين الأنبياء؛ فهو خارجٌ عن حيطة إدراكنا، وبعيدٌ عن دائرة أفهامنا، فتكون الصباحةُ والملاحةُ أيضـًا متمايزتان في تلك المرتبة، وتكون أحكامُ كلّ واحدةٍ منهما مغايرةً لأحكام الأخرى، فعلم أنَّ المقصودَ الذي كنت فهمتُه من خلقي قد حصل، ومسؤولُ ألف سنةٍ صار مقروناً بالإجابة، الحمد لله الذي جعلني صلةً بين البحرين ومصلحـًا بين الفئتين أكملَ الحمد على كلّ حالٍ، والصلاةُ والسلامُ على خير الأنام، وعلى إخوانه الكرام، من الأنبياء والملائكة العظام. ولما صارت الصَّباحةُ أيضـًا متلوِّنةً بلون الملاحة؛ لا جرم حصلت الوسعةُ لمقام الخلَّة الإبراهيمية أيضـًا، ونال المحيطُ حكمَ المركز أيضـًا.

ينبغي أن يعلم أنَّ لمقام المحبة مناسبة بمرتبة الملاحة، ولمقام الخلة بمرتبة الصباحة، وفي المحبَّة كانت المحبوبيَّةُ الصرفةُ نصيب خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، والمحبيّةُ الخالصةُ مخصوصةً بكليم الله عليه الصلاة والسلام، وفي الخليل عليه الصلاة والسلام نسبةُ الجليسيّة والنديميّة، وكلٌّ من المحبّ والمحبوب غيرُ الجليس والنَّديم، ولكلٍّ واحدٍ منها نسبةٌ على حدةٍ، ولَمّا كان هذا الفقيرُ مربّىً بالولاية المحمدية والولاية الموسوية على صاحبيهما الصلاة والسلام والتحيةُ؛ كان له موطنٌ ومسكنٌ في مقام الملاحة، ونسبةُ المحبوبيَّة غالبة فيه بواسطة محبَّته للولاية المحمديَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحيةُ، ونسبةُ المحبيّة مستورةً ومغلوبة.

أيُّها الولدُ، اعلم أنَّه مع وجود هذه المعاملة التي هي مربوطةٌ بخلقتي؛ أحيلت على معاملة أخرى أيضـًا عظيمة، وليس المقصودُ من وجودي، المشيخة والمريديّة، وتكميلُ الخلق وإرشادهم، وهذه المعاملةُ غير تلك المعاملة، وفي ضمن هذه المعاملة يأخذ الفيضَ كلُّ من له مناسبةٌ، وإلا؛ لا، ومعاملةُ التكميل والإرشاد بالنِّسبة إلى هذه المعاملة كأنَّها أمرٌ مطروحٌ في الطَّريق، ولدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالنِّسبة إلى معاملاتهم الباطنيَّة هذا الحكمُ بعينه، ومنصبُ..........

النبوّة وإن كان مختوماً، ولكن لكُمَّل تابعي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نصيبٌ من كمالات النبوّة وخصائصها بطريق التبعيَة والوراثة.

المكتوب السابع

إلى الفَقيرِ الحَقيرِ عَبدِ الحيِّ جامعِ هذه المَكتوبَاتِ الشَّريفَةِ في بيانِ المَراتبِ الخمسِ: المحبِّيَّة، والمَحبوبيَّة، والمَحبَّة، والحُبِّ، والرِّضا، ومَرتَبةٍ أُخرَى فوقَها، وخُصوصيَّة كلِّ واحدٍ منها بنَبيٍّ منَ الأنبياءِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أرشدك الله تعالى أنَّ في المحبَّة الذاتيَّة التي هي محبَّتُه سبحانه وتعالى لذاته بذاته ثلاثة اعتباراتٍ: المحبوبيَّة، والمحبية، والمحبَّةُ، وظهورُ كمالات المحبوبيَّة الذاتيَّة مسلَّمٌ لخاتم الرسل عليه وعلى آله وعليهم الصلوات والتسليمات.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ في جانب المحبوبيَّة كمالين: فعليٌّ وانفعاليٌّ، والفعليُّ أصلٌ، والانفعاليُّ تابعٌ له، ولكنَّ الانفعاليَّ علةٌ غائيةٌ للفعليِّ، فهو وإن كان متأخِّراً في الوجود، لكنَّه متقدِّمٌ في التَّصوُّر، وظهور كمالات المحبَّة نصيبُ كليم الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام، والاعتبارُ الثَّالثُ الذي هو نفس المحبة كان أبو البشر آدم عليه الصلاة والسلام مشهوداً فيه أولاً، ثم إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام ثانياً، ثم نوحٌ عليه الصلاة والسلام ثالثاً، والأمرُ إلى الله سبحانه، وحضرةُ الحق سبحانه كما أنَّه يحبّ ذاته تعالت وتقدست؛ كذلك يحبُّ كمالاته الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة والأفعاليَّة، وظهورُ هذه المحبة الذاتيَّة - يعني: محبته تعالى بذاته - لأسمائه وصفاته أتمُّ في الخليل عليه الصلاة والسلام، وظهورُ المحبوبيَّة الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة والأفعاليَّة متحقِّقٌ في سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كظهور محبيتها، ولَمّا كان للأسماء والصِّفات والأفعال ظلالٌ؛ كان ظهور محبوبيَّة تلك الظلال بتوسُّط أصولها نصيب الأولياء المرادين المحبوبين، كما أنَّ محبيَّة تلك الظلال كانت نصيبَ الأولياء المريدين المحبين، وفوق مقام المحبَّة الذاتيَّة مقامُ الحبِّ الذي هو جامعٌ للاعتبارات الثَّلاثة وإجمالها، ومقامُ الرِّضا فوق مقام المحبَّة والحبِّ، فإنَّ مرتبةَ الرِّضا فوق مرتبة المحبَّة، فإنَّ في المحبَّة وجودَ النِّسبة إجمالاً وتفصيلاً، وفي مقام الرضا حذفَ النِّسبة، وهو مناسبٌ لحضرة الذات تعالت وتقدست، وليس فوق مقام الرضا قَدَمٌ إلا ما أخبر النبي ﷺ عن ذلك المقام، حيث قال: «**لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**»، وكأن في الحديث القدسي إشارةً إلى هذه الخصوصية، حيث ورد: «**يَا مُحَمَّدُ أَنَا وَأَنْتَ، وَمَا سِوَاكَ خَلَقْتُ لِأَجْلِكَ**»، فقال محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ، وَمَا أَنَا وَمَا سِوَاكَ تَرَكْتُ لِأَجْلِكَ**»، ومن أين يُدرَكُ عظمةُ محمد رسول الله ﷺ في هذا اليوم؟ وكيف يعرف جلالةُ قدره عليه الصلاة والسلام في هذه النَّشأة؟ فإنَّ المحقَّ ممتزجٌ في هذه الدار بالمبطل، والحقَّ مختلطٌ بالباطل؛ لكونها دارَ ابتلاءٍ، وسيعلم عظمةُ شأنه يوم القيامة، فإنَّه يكون فيه إمامَ الأنبياء وصاحبَ شفاعتهم، ويكون آدم ومن دونه تحت لوائه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها، ويجوز أن يعطى خادمٌ من خُدّامه الآكلين فضلةَ طعامه النَّائلين عنايةَ إكرامه محلاً في ذلك الموطن الخاصّ الذي هو فوق مقام الرضاء بطريق الوراثة والتبعية، وأن يجعل محرّماً لذلك الجناب بتطفله عليه الصلاة والسلام:

(ع) لَا عُسْرَ ....

.... فِي أَمْرٍ مَعَ الْكِرَامِ

وهذا المعنى ليس بمستلزمٍ لمزيَّة غير الأنبياء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتحية، فإنَّه كيف تُتصوَّرُ المساواةُ بين الخادم وبين أمثال هؤلاء المخاديم؟ وأيُّ نسبةٍ بين التابع وبين أمثال هؤلاء المتابيع؟ الأصلُ مقصودٌ، والتابعُ طفيليٌّ، ونهايةُ معاملة التَّابع تكون منجرَّةً إلى فضلٍ جزئيٍّ، ولا محذورَ فيه، ألا ترى أنَّ لكلِّ حائكٍ وحجَّامٍ فضلاً على عالمٍ ذي فنونٍ باعتبار صنعته المختصَّة به، وهو ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار؟ كلامُنا إشاراتٌ ورموزٌ، وبشاراتٌ وكنوزٌ، لا نصيبَ منها للأكثر إلا أن يؤمنوا بها، فينتج إيمانهم ثمراتٍ تنفعهم. والله سبحانه الموفق، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المكتوب الثامن

إلى خان خانان في بيانِ الفرقِ بينَ إيمانِ أخصِّ الخواصِّ بالغَيبِ، وإيمانِ العَوامِّ، وإيمانِ المتوسِّطين.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]:

(ع) وَأَحْسَنُ مَا يُمْلَى حَدِيثُ الْأَحِبَّةِ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقربُه ومعيَّتُه تعالى منزَّهان – كذاته سبحانه – عن الكيف والمثال، فإنَّه لا سبيل للكيف إلى اللا كيفيّ، فكلُّما يدرك من معنى القرب والمعيَّة بفهمنا وعقلنا، أو يدخل في حيطة كشفنا وشهودنا؛ فهو تعالى منزَّهٌ ومبرَّأٌ عن ذلك المعنى الذي له قدمٌ في مذهب المجسمة، ونؤمن أنَّه تعالى قريبٌ منا، وأنَّه تعالى معنا، لا ندري معنى القرب والمعية أنَّه ما هو، ونهايةُ نصيب الكُمَّل في هذه النشأة هي الإيمانُ بالغيب بذاته وصفاته تعالى: (شعر)

وَمَا فَاهَ أَرْبَابُ النُّهَى وَالْحِجَى بِمَا   سِوَى أَنَّهُ الْمَوْجُودُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

والإيمانُ بالغيب الذي هو نصيبُ أخصِّ الخواصّ ليس كإيمان العوامّ بالغيب، فإنَّ إيمانَ العوامّ بالغيب إنَّما يحصل بالسَّماع أو بالاستدلال، وأخصّ الخواصّ حصَّل إيمانَ الغيب بمطالعة غيب الغيب في حُجُب ظلال الجمال والجلال، ووراءَ سرادقات الظهورات والتجلِّيات، وأما المتوسِّطون؛ فهم مسرورون بالإيمان الشُّهوديّ، ظانين الظلالَ أصلاً، والتجلِّيات عينَ المتجلِّي، والإيمانُ بالغيب نصيبُ الأعداء في حقّهم، يعني: عندهم، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. والباعثُ على التصديع أنَّ مولانا عبد الغفور ومولانا الحاج محمد من الأصحاب المخصوصين، فكلُّ إحسانٍ من كلٍّ يقع في حقّ المشار إليهما موجبٌ لامتنان الفقير: (ع) لَا عُسْرَ فِي أَمْرٍ مَعَ الْكِرَامِ

والسلام.

المكتوب التاسع

إلى الـمُلَّا عارفِ الخَتْنيِّ في بيانِ فضائِل الكَلمَة الطَّيِّبة (لا إلَهَ إلَّا الله)، وتَحقيقِ مَقامِ التَّنزيه، وبيانِ أنَّ الإيمانَ بالغَيبِ إنَّما يَتحقَّق إذا انتهتِ المُعاملَة إلى الأقربيَّة، فإنَّ تلك المُعاملَة خارِجَة عن حِيطَة الوَهمِ والخَيال.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. لِيَنْفِ مولانا عارف الختنيّ أوَّلاً الآلهةَ الباطلةَ، وليُثْبِتْ ثانيًا المعبودَ بالحقّ جلّ سلطانه، وكلُّما هو متَّسمٌ بسمة الكيف والكمّ ينبغي إدخالُها ....

تحت كلمة (لا)، وتحصيلُ الإيمان بأنَّه منزَّهٌ عن الكيف والمثال، وأتمُّ العبارات في النَّفي والإثبات الكلمةُ الطيِّبةُ: (لا إله إلا الله)، قال النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١)، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «**لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ وُضِعْنَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كَفَّةٍ؛ لَمَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٢)، وكيف لا تكون أفضلَ وكيف لا تكون أرجح، فإنَّ كلمةً منها تنفي جميع ما سواه تعالى، سواءٌ كان سمواتٍ، أو أرضين، أو عرشاً، أو كرسياً، أو لوحاً، أو قلماً، أو عالماً، أو آدماً، وكلمةٌ أخرى منها تثبتُ المعبودَ بالحقّ جل برهانه الذي هو خالقُ السّموات والأرضين، وما سوى الحق جل وعلا من الآفاق والأنفس كلّه متَّسمٌ بسمة الكيف والكمّ، فكلّما يتجلّى في مرايا الآفاق والأنفس يكون كيفيّاً وكميّاً بالضّرورة، فيكون مستحقّاً للنفي، فمعلومُنا وموهومُنا ومشهودُنا ومحسوسُنا كلُّها متَّصفةٌ بالكيف والمثال، ومكتنفةٌ بعيوب الحدوث والإمكان، فإنَّ معلومنا ومحسوسنا منحوتٌ ومجعولٌ، والتَّنزيهُ الذي يتعلّق علمُنا به عينُ تشبيهٍ، والكمالُ الذي هو على مقدار فهمنا عينُ نقصٍ، فكلُّما يكون متجلّياً لنا أو مكشوفاً أو مشهوداً؛ فهو غيرُ الحق سبحانه وتعالى، وهو تعالى وراءَ الوراء، قال الله تبارك وتعالى حكايةً عن الخليل عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]، ومنحوتنا كلُّه مخلوقُ الحقّ سبحانه وتعالى، سواءٌ نحتناه بأيدينا أو بعقولنا وأوهامنا، ليس بمستحقٍّ للعبادة، والمستحقُّ للعبادة إنّما هو الإلهُ المنزَّهُ عن الكيف والمثال الذي يدُ وهمنا قاصرةٌ عن الوصول إلى ذيل إدراكه، وعيونُ كشفنا وشهودنا متحيِّرةٌ وعاجزةٌ عن شهود عظمته وجلاله تعالى، فالإيمانُ بمثل هذا الإله المنزَّه عن الكيف والمثال لا يتيسّرُ إلا بطريق الغيب، فإنَّ الإيمانَ الشُّهوديَّ ليس إيماناً به تعالى، بل هو إيمانٌ بمنحوت نفسه الذي هو من مخلوقاته تعالى، وإشراكُ الإيمان بغيره بالإيمان به تعالى، بل إيمانٌ بغيره تعالى فقط، أعاذنا الله سبحانه من ذلك. وإنَّما يتيسّرُ الإيمان بالغيب إذا لم يبقَ للوهم السَّريع السَّير مجالٌ فيه، ولم ينتقشْ منه شيءٌ في المتخيّلة، وهذا المعنى متحقّقٌ في الأقربيَّة التي هي خارجةٌ عن حيطة الوهم والخيال، فإنَّ الشيءَ كلّما يكون أبعدَ؛ يكون مجالُ الوهم فيه أزيدَ وأوسعَ، ويكون في الدُّخول تحت سلطنة الخيال أقربَ وأسرعَ، وهذه الدَّولةُ مخصوصةٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والإيمانُ بالغيب نصيبُ هؤلاء الأكابر عليهم الصلوات والتسليمات بالأصالة، وقد يُشَرَّفُ به كلُّ من أريد في حقّه ذلك بطريق التَّبعية لهم، والوراثة منهم، والإيمانُ الغيبي الذي هو حاصلٌ لعوام المؤمنين ليس بخارجٍ عن حيطة الوهم، فإنَّ وراء الوراء في حقّ العوام في جانب البعد الذي فيه مجالٌ للوهم، ووراء الوراء عند هؤلاء الأكابر في جانب القرب الذي لا مجالَ فيه للوهم، وما دامت الدنيا قائمةً والحياةُ الدنيويَّةُ موجودةً لا بُدَّ من الإيمان بالغيب، فإنَّ الإيمانَ بالمشهود معلولٌ هنا، وإذا كانت النشأةُ الأخرويَّةُ، وانكسرت سورةُ الوهم والخيال؛ يكون الإيمانُ الشُّهوديُّ مقبولاً ومبرَّأً عن علَّة الجعل والنحت، وأظنُّ أنَّ محمداً رسول الله ﷺ لَمّا كان في دار الدُّنيا مشرَّفاً بدولة الرؤية لو أثبتنا الإيمانَ الشُّهوديَّ في حقّه هنا؛ لكان محموداً ومنزهاً عن علة الجعل والنحت، فإنَّ الذي هو موعودٌ لغيره في الآخرة ميسَّرٌ له ﷺ هنا. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ينبغي أن يعلم أنَّ كلمة النَّفي قد أتمَّها...

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر ﷺ، وقال: حسن غريب، وفيه زيادة: «وأفضل الدعاء: الحمدُ لله».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «مسنده» (١٣٩٣)، والحاكم وصححه (١٩٣٦)، وابن حبان (٦٢١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الخليلُ على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولم يترك باباً من أبواب الشِّرك غيرَ مسدودٍ أصلاً، ولهذا صار إمامَ الأنبياء وأسبقهم قَدَماً، فإنَّ ظهورَ نهاية الكمال في النَّشأة الدنياويَّة منوطٌ بإتمام هذا النَّفي، وظهورُ كمالات كلمة الإثبات موقوفٌ على نشأة الآخرة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ خاتمَ الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام لما تشرَّف في هذه النَّشأة بدولة الرؤية؛ وجد نصيباً وافراً من كمالات كلمة الإثبات في هذه النَّشأة أيضاً، حتى يمكن أن يقال: إنَّ كلمةَ الإثبات قد تمَّت ببعثته عليه الصلاة والسلام بمقياس هذه النَّشأة، ويمكن أن يكون إثباتُ التجلِّي الذاتيِّ في حقِّه ﷺ في هذه النَّشأة لهذا المعنى، ووعدٌ في حق الآخرين. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المكتوبُ العاشِر

إلى أخِيه الحَقيقيِّ مِيَان محمَّدٍ مَودودٍ في بيانِ أنَّ كلَّ ظهورٍ لا يكونُ بدونِ شائِبةِ الظِّلِّيَّة، بخِلافِ ظهورِ ما فوقَ العَرشِ، وأنَّ القَلبَ إذا انتَهى إلى نهايَتِه يَقتَبِس لَمعةً من أنوَارِ العَرشِ.

قال الشَّيخ أبو يزيد البسطاميُّ: لو أنَّ العرشَ وما حواه في زاويةٍ من زوايا قلب العارف ما أَحَسَّ به، يعني: من وسعة قلبه، وأيَّد الشَّيخُ الجنيدُ هذا القولَ وأثبته بدليلٍ، وقال: إنَّ الحادثَ إذا اقترن بالقديم لا يبقى منه أثرٌ، يعني: أنَّ العرش وما فيه حادثٌ، فإذا اقترن ذلك الحادثُ بقلب العارف الذي هو محلُّ ظهور أنوار القِدَم؛ يصيرُ مضمحلاً ومتلاشياً، فكيف يكون محسوساً؟ والعجبُ ألف عجبٍ من صدور مثل هذا الكلام عن رؤساء الصوفيَّة سلطان العارفين وسيِّد الطَّائفة، حيث لا يجعلون للعرش المجيد اعتباراً في جنب قلب العارف أصلاً، ويرون العرشَ حادثاً خالياً من ظهور أنوار القِدَم، ويسمُّون القلبَ قديماً بواسطة ظهور أنوار القدم فيه، فماذا أقول من غيرهم؟ وماذا أكتب؟ وعند الفقير الذي هو مربَّى الجذبات الإلهية؛ هو أنَّ قلبَ العارف إذا انتهى إلى نهاية النِّهاية بمقتضى استعداده الخاصّ، وحصَّل الكمالَ الذي لا يتصوَّرُ شيءٌ فوقه؛ يحصل له حينئذٍ قابليَّةُ فيضانِ لمعةٍ من لمعات ظهور أنوار العرش التي لا نهايةَ لها، وتكون تلك اللَّمعةُ بالنِّسبة إلى لمعات العرش قطرةً بالنِّسبة إلى البحر المحيط، بل أقلّ، والعرشُ هو الذي سمّاه اللهُ سبحانه عظيماً، وأثبت فيه سرَّ الاستواء، ويقال لقلب العارف بواسطة جامعيَّته على سبيل التَّمثيل والتَّشبيه: عرشُ الله، يعني: كما أنَّ العرشَ المجيدَ برزخٌ بين عالم الخلق وعالم الأمر في العالم الكبير، وجامعٌ لكِلَا طرفي الخلق والأمر؛ كذلك القلبُ برزخٌ بين عالم الخلق وعالم الأمر في العالم الصَّغير، وجامعٌ لكلا طرفي الخلق والأمر من ذلك العالم الصغير، فيمكن أن يقال للقلب أيضاً عرشاً على سبيل التَّمثيل.

اسمع اسمع، إنَّ قابليَّةَ ظهور أنوار القدم التي هي منزَّهةٌ ومبرَّأةٌ عن شائبة الظليَّة مخصوصةٌ بالعرش المجيد، ليست تلك القابليَّةُ لشيءٍ من عالم الخلق، ولا من عالم الأمر، ولا من العالم الكبير، ولا من العالم الصغير غير العرش المجيد، ويقتبس قلبُ العارف الكامل من تلك الأنوار بواسطة علاقة الجامعيَّة والبرزخيَّة، ويغترف غرفةً من ذلك البحر، وكلُّ ظهورٍ بعد العرش، وقلبُ العارف التامِّ المعرفة متَّسمٌ بسمة الظليَّة لم يجدْ رائحةً من الأصل، ....

فإن قال أبو يزيد كذلك من السُّكر؛ فله ذلك، ولكن صدوره من الجنيد الذي هو مدَّعٍ للصَّحو ليس بحَسَنٍ، وماذا يصنعون؟ فإنَّهم لم يتنبهوا لحقيقة المعاملة، ولم يخرجوا من لُجَّة بحر الظليَّة إلى السَّاحل، وهذا الكلامُ وإن كان اليوم مستبعداً في نظر أكثر الخلق، ولكن الغد قريبٌ من اليوم، فلا يستعجلوا، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى الملائكة المقربين، وعلى سائر عباد الله الصالحين، وعلى المؤمنين والمؤمنات أجمعين.

المكتوب الحادي عشر

إلى المَخدومِ زَادَه مَعدِنِ الحَقائقِ والمَعارفِ اللَّامتَناهيَة، ومَظهرِ الفُيوضاتِ الإلهيَّة، مَجدِ الدِّينِ الخـواجه محمَّدٍ مَعصومٍ في بيانِ بَعضِ خَصائصِ ظهورِ ما فوقَ العَرشِ، ومعنَى قَولِه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التَّأويليِّ، وبَعضِ خواصِّ كَمالاتِ الإنسانِ، وفَضائلِ الجُزءِ الأرضيِّ منه، وما يُناسِب ذلك.

نحمده، ونصلي على عبده وعلى آله الكرام.

اعلم أنَّ العالمَ الكبيرَ مع وجود الوسعة والتَّفصيل فيه لَمّا لم يكن فيه الهيئةُ الوحدانيَّةُ؛ ليست فيه قابليَّةُ ظهور البسيط الحقيقيِّ المجرَّد عن النِّسَب والاعتبارات، المعرى عن تفاصيل الشؤون والصِّفات، وأشرفُ أجزاء العالم الكبير عرشُ الرحمن الذي هو محلُّ ظهور أنوار حضرة الذات المستجمعة لجميع الصِّفات، وما وراء العرش المجيد من العالم الكبير لا تخلو الظُّهوراتُ فيه عن شائبة الظليَّة كائناً ما كان، ولهذا خصَّص ربُّ العالمين سرَّ الاستواء مما بين أجزاء العالم الكبير بالعرش المجيد؛ لكونه أفضلَ أجزاء ذلك العالم، فإنَّ ظهورَ ظلٍّ من الظِّلال ليس هو ظهورَه تعالى في الحقيقة حتى يعبَّر عنه بعبارة الاستواء، وأيضاً إنَّ الظهورَ الذي فيه دائميٌّ من غير تخلُّل الاستتار، وإن كان نورُ السّموات والأرض هو الحقَّ سبحانه وتعالى، ولكنَّ ذلك النورَ مقرونٌ بحجب الظلال، لا ظهورَ له تعالى فيها من غير توسُّط الظليَّة، وجميعُ تلك الظُّهورات مقتبسةٌ من أنوار الظُّهور العرشيِّ ظهرتْ محتجبةً بحجابِ ظلٍّ من الظلال، كماء البحر المحيط يحمل بتوسُّط الظروف إلى الجوانب والأطراف، وكمشعلٍ عظيمٍ تشعل منه المشاعلُ الصغارُ، ويستضاء بها الآفاقُ والأكنافُ، وكأنَّ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] الآية إيماءً إلى هذه المعارف، فإنَّ التَّمثيلَ في هذه الآية الكريمة إنّما اختير لئلا ينفهم ظهورُ ذلك النُّور من غير توسُّطٍ، ولئلا يشتبه الأصلُ بالظلّ، وليعلم أنَّ نورَ الظل موقدٌ مقتبسٌ ومأخوذٌ من الأصل، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية الكريمة محمولةٌ على مراد الله تعالى، ونحن أوَّلنا بتأويلٍ كُشِفَ لنا، فنقول بعون الله تعالى وحسن توفيقه سبحانه:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النُّورُ: هو الذي تُشْرِقُ به الأشياءُ وتستضيءُ، والسّمواتُ والأرضُ إنّما أشرقت به تعالى، فإنَّه سبحانه أخرجها من ظلمات العدم، وجعلها متَّصفةً بالوجود وتوابعه ونورها، ينبغي أن يتصوَّرَ السّموات والأرض التي أشرقت بذلك النور مثل المشكاة، وأن يعلم ذلك النور بمثابة المصباح الذي هو مودعٌ في تلك المشكاة، ودخول كاف التَّمثيل على (المشكاة) لاشتمالها على المصباح، وينبغي أن يلاحظ (الزّجاجة) حجب الأسماء والصِّفات، فإنَّ ذلك النُّورَ متلبِّسٌ..

بالأسماء والصِّفات، وليس بمعرىً عن الشُّؤون والاعتبارات، وزجاجةُ الصِّفات كأنَّها كوكبٌ درِّيٌّ من حسن الوجوب وجمال القدم، وذلك المصباحُ المودعُ في تلك المشكاة موقدٌ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، وهي كنايةٌ عن الظُّهور الجامع العرشيّ الذي الاستواءُ رمزٌ من ذلك الظُّهور، فإنَّ الظهورات التي تتعلّقُ بالسّموات والأرض بمثابة الأجزاء لذلك الظهور الجامع، وحيث كان ذلك الظُّهورُ الجامعُ لا مكانيّاً ولا جهتيّاً؛ جاز أن يقال: إنَّه لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ صفةٌ مادحةٌ لتلك الشَّجرة المباركة التي هي ممثَّلٌ بها، وبيانٌ لصفاء زيتها وتلألُئه. ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ يعني: أنَّ حجابَ الزَّجاجة - لصفائه وإشراقه - ازداد في ذلك النور، وزاد في حسنه وجماله؛ لأنَّه اجتمعت كمالاتُ الصِّفات مع كمال الذات، واقترن حسنُ الصِّفات بجمال الذَّات، مع وجود تضاعف النور، وكمال الظهور. ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ بلى، ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهذا الظهورُ الجامعُ الذي انتسب إلى العرش منتهى المشاهدات والمعاينات والمكاشفات، ونهاية التجلّيات والظهورات، سواءٌ كانت تجلّياتٍ ذاتيّةً أو صفاتيةً، وبعد ذلك تتقرَّرُ المعاملةُ على الجهل كما سيأتي نبذة من بيان ذلك إن شاء الله تعالى، وهذا الظُّهورُ الجامعُ وإن كان مقرونـاً بالصِّفات، ولكنَّ الصِّفاتِ ليست في هذا الموطن حجاباً للذات، وحجابيَّةُ الصِّفات للذَّات مخصوصةٌ بالظهورات الظليَّة التي في مرتبة العلم، وظهورُ الأصل في مقام العين، فالصِّفاتُ حجابٌ للذات في العلم لا في العين، ألا ترى أنَّ زيداً إذا تعقَّلْتَه في مرتبة العلم يكون ظهورُه في العلم بالصِّفات كالطويل أو القصير، أو العالم أو الجاهل، أو الصغير أو الكبير، أو الشاعر أو الكاتب، وكلُّ تلك الصِّفات التي تعقّلها حجابٌ لذاته، وجميعُ تلك التَّقييدات الكليَّة لا تكون مفيدةً لتشخُّصه؟ فإذا خرج زيدٌ من العلم إلى العين، وصار مشهوداً مع وجود الصِّفات، وانتقلت المعاملةُ من الظليَّة، وتقرَّرت على الأصالة؛ فإنَّ الصُّورَ العلميَّةَ لزيدٍ ظلُّ زيد الموجود في الخارج، وهو أصلُه، فحينئذٍ لا تكون الصِّفاتُ حجاباً لذاته، ويكون المحسوسُ شخصـاً مستجمعـاً لجميع الصِّفات، وكذلك مفارقةُ الصِّفات لحضرة الذات تعالت وتقدست إنّما هي في مراتب الظِّلال والتصوُّرات المثاليَّة، وأما إذا تيسّر الوصولُ إلى الأصل لا توجد الصِّفاتُ منفكَّةً عن الذَّات، ولا يكون شهودُ الذات منفكّـاً عن شهود الصِّفات، وتجلِّي الصِّفات الذي ميَّزوه عن تجلِّي الذات، وأثبتوا تجلِّي الأفعال على حدةٍ، كلُّ ذلك في مقامات الظلال، وبعد الوصول إلى الأصل ليس إلا تجلٍّ واحدٌ متضمِّنٌ للتجلِّيات الثَّلاثة، مثلاً: زيدٌ الذي يكون مشهوداً لا يكون شهودُ ذاته منفكّـاً عن شهود صفاته، بل المشاهدُ له يجده حين شهوده عالمـاً فاضلاً، فكما أنَّ علمَه وفضلَه ليسا بحجابٍ لرؤيته؛ كذلك ليسا بمنفكين عنه أيضـاً. نعم، إذا كان زيدٌ متعقَّلاً ومدركـاً بالصور الظليَّة؛ تكون صفاتُه منفكَّةً عن ذاته، وحجابـاً له كما مر، ألا ترى أنَّ المرئيَّ في الآخرة هو الذاتُ المستجمعةُ للصفات، لا الذاتُ المعراةُ عن الأسماء والصِّفات، فإنَّ ذلك مجرَّدُ الاعتبار؛ لأنَّه لا تجرُّدَ للذات عن الصِّفات أصلاً؟ وليست الصِّفاتُ منفكَّةً عن الذات قطعـاً، والتجرُّدُ إنّما يقال باعتبار أنَّ العارفَ الكاملَ إذا استولى عليه التعلّقُ بالذات تعالت وتقدست تسقط عن نظره ملاحظةُ الأسماء والصِّفات، ولا يبقى مشهودُه غير أحديَّة الذات أصلاً، فتجرُّدُ الذات عن الصِّفات ....

إنّما كان باعتبار نظر العارف، لا باعتبار الخارج ونفس الأمر كما سيجيء تحقيقه إن شاء الله تعالى. وأيضـاً إنَّ هذا الظُّهورَ الجامعَ منتهى التَّصوُّرات المثاليَّة، والكمالُ الذي يحصل بعد ذلك لا يمكن كونُه متصوَّراً في مرآة المثال، فإنَّ التصوُّرَ في المثال إنّما يكون لأمرٍ له مشابهةٌ ومناسبةٌ بما في الخارج، وإن كانت تلك المشابهةُ في الاسم فقط، وأما الأمرُ الذي لا مشابهةَ له بشيءٍ في الخارج بوجهٍ من الوجوه؛ فتصويرُه في المثال محالٌ، والكمالاتُ الفوقانيَّةُ من هذا القبيل؛ لأنَّها لا شيءَ يشابهها بوجهٍ من الوجوه حتى يمكن تصويرُها في المثال، ومن ههنا كان الجهلُ من لوازم ذلك الموطن في جميع الأوقات، وصار عدمُ الإدراك فيه علامةَ الإدراك، وفي هذه النَّشأة وإن لم يحصل من ذلك المقام شيءٌ غيرُ الجهل وعدم الوجدان، ولكنَّ المرجوَّ أن يحصل في الآخرة قوَّةٌ وقلبٌ لا يتلاشى في تشعشع النور، ويكون خبيراً عن حقيقة المعاملة: (شعر)

أَلَا أَعْطِنِي قَلْبـاً تَرَى مِنْ جَسَـارَةِ الْـ أُسُـودِ وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي قَبْلُ ثَعْلَبَا

ولا يوقعنَّك بيانُ ظهور ما فوق العرش في توهُّم أنَّ الحقّ سبحانه وتعالى مستقرٌّ فوق العرش، وثابتٌ له تعالى المكانُ والجهةُ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وعما لا يليق بجناب قدسه تعالى، فإنَّ ظهورَ صورة زيد في المرآة لا يستلزم استقرارَ زيدٍ في المرآة، وإن وقع القاصرون في التوهُّم. ولله المثل الأعلى: ألا ترى أنَّ المؤمنين يرون الحقَّ تعالى في الآخرة في الجنة، مع أنَّ الجنَّةَ وغيرها سيَّان بالنِّسبة إليه تعالى، والكلُّ مخلوقُه تعالى، والتجلِّي الواقعُ في جبل الطُّور ليس فيه شائبةُ الحالية والمحليَّة.

غايةُ ما في البابِ: أنَّ بعض المحالِّ فيه قابليَّة الظهور، وبعضُ آخرُ ليست فيه تلك القابليَّة، ألا ترى أنَّ المرآةَ فيها قابليَّةٌ لظهور الصُّوَر، وليست تلك القابليَّةُ لنعال الدوابّ، مع أنَّ كُلّاً منهما من الحديد؟ فالتفاوتُ إنّما هو في المظهر لا في الظَّاهر، وجميعُ المظاهر - قابلةً أو غير قابلةٍ - سواسيةٌ بالنِّسبة إلى الظَّاهر، وكذلك الألفاظُ التي توهم الكليَّةَ والجزئيَّةَ، ويفهم منها الحاليَّةُ والمحليةُ مصروفةٌ عن الظَّاهر، ليست بلائقةٍ بجناب قدسه تعالى، وإنَّما يرتكب إيرادُ هذه الألفاظ من ضيق العبارة:

(شعر) اين قاعده ياد دار كآنجا كه خداست نى جزو، نه كُل، ونه ظرف، نى مظروف است

(ترجمة): تَعَـالَى اللهُ عَـنْ جُـزْءٍ وَكُـلٍّ وَمَظْـرُوفٍ وَظَـرْفٍ أَوْ حُلُـولِ

ولَمّا كان قلبُ الإنسان عرشَ العالم الصغير، ومشابهـاً بعرش العالم الكبير، وكان التجلِّي هناك بدون شائبة الظليَّة؛ كانت لمعةٌ من ذلك التجلِّي بدون تلك الشَّائبة نصيبَ ذلك القلب، وإن كان للسموات والأرض نصيبٌ من ذلك التجلِّي، ولكنَّه في حجاب ظلٍّ من الظِّلال، بخلاف القلب، فإنَّه مبـرَّأٌ عن شائبة الظليَّة مثل العرش، وإن كان الظُّهورُ متفاوتـاً باعتبار الصِّغَر والكبر: (ع) وَيَبْـدُو عَلَـى قَـدْرِ الْـمَـرَايَـا جَـمَـالُـهُ

فالتجلِّي بدون شائبة الظليَّة بعد العرش المجيد نصيبُ قلب كُمَّل الإنسان، وحاصلُ غيرهم الظليَّةُ. ينبغي أن يعلم أنَّ الظهورَ العرشيَّ وإن كان مبـرَّأً عن شائبة الظليَّة، ولكنَّ الصِّفاتِ ممتزجةٌ هناك بالذات تعالت وتقدست، والشؤون والاعتبارات ثابتةٌ في الذات، والشؤون والصِّفاتُ وإن لم تكن حجابـاً للذات في تلك المرتبة، ولكنَّها مشاركةٌ في المشاهدة والإدراك، ومساهمةٌ في المحبة والعلاقة، وأسارى محبَّة الأحدية المجرَّدة تعالت وتقدست لا يرضون بشركة أمرٍ، وبحكم: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٤] ....

يطلبون الدينَ الخالصَ، وعدمُ شركة الصِّفات على تفاوت الدَّرجات نصيبُ الهيئة الوحدانية الإنسانيَّة، ونصيبُ هيئة وحدانية قلب الإنسان، ونصيبُ الجزء الأرضي للإنسان وفوق كلّ ذلك هيئةٌ وحدانيّةٌ للإنسان كائنةٌ بمثابة جزئه الأرضيّ، وآخذةٌ حكمَه. وبالجملة إنَّ العمدةَ في هذه المعاملة هي الجزءُ الأرضيُّ، وبقيَّةُ الأمور - يعني: الأجزاء - كالمحسنات الزائدة، وفي الإنسان شيئان ليس شيءٌ منهما في العرش، ولا نصيبَ منهما للعالم الكبير: فيه جزءٌ أرضيٌّ ليس هو في العرش، وفيه هيئةٌ وحدانيَّةٌ ليستْ هي في العالم الكبير، والشعورُ المتعلّقُ بالهيئة الوحدانيَّة؛ فهو نورٌ على نور، ومخصوصٌ بالعالم الأصغر، فالإنسانُ أعجوبةٌ حصَّل لياقةَ الخلافة، وتحمَّل ثقل الأمانة.

واستمعْ ما يتلى عليك من الخصائص الغريبة الإنسانيَّة: إنَّ معاملةَ الإنسان تبلغ مرتبةً تحصلُ له قابليَّةُ مرآتية الأحدية المجرَّدة، ويصير مظهراً للذَّات الأحد من غير اقتران الصِّفات والشُّؤونات، والحالُ أنَّ حضرة الذات تعالت وتقدست مستجمعةٌ لجميع الصِّفات والشُّؤونات في جميع الأوقات، لا انفكاكَ بينهما أصلاً في وقتٍ من الأوقات. وبيانه: أنَّ الإنسانَ الكاملَ إذا تخلَّص من أسر ما سوى الذات الأحديَّة تعالت وتقدست؛ يحصل له التعلّقُ بالذات الأحد، ولا يكون شيءٌ من الصِّفات والشُّؤون ملحوظاً ومنظوراً ومقصوداً أو مطلوباً له، وبحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» يحصل له نوعٌ من الاتِّصال المجهول الكيفيَّة بحضرة الأحدية المجرَّدة، وذلك التعلّقُ الذي كان له بالذات الأحد يثبت له نسبة القرب المجهولة الكيفيَّة بالذات المنزَّهة عن الكيف، فيكون الإنسانُ الكاملُ في ذلك الوقت مرآةً للذَّات الأحد بحيث لا يكون شيءٌ من الصِّفات والشؤونات مشهوداً ومرئياً فيه، بل تكون الأحديةُ المجردةُ تعالت وتقدست ظاهرةً ومتجلِّيةً فيه. سبحان الله العظيم، إنَّ الذاتَ التي لم يكن من شأنها الانفكاكُ عن الصِّفات أصلاً؛ كانت ظاهرةً ومتجلِّيةً في مرآة مثل هذا الإنسان الكامل بحيثية التجرُّد، وصار الحسنُ الذاتيُّ متميزاً عن الحسن الصِّفاتِي، ولم تتيسّرْ هذه المرآتيةُ لأحدٍ غير الإنسان الكامل، ولم تكن حضرةُ الذات تعالت وتقدست متجلِّيةً في شيءٍ غير الإنسان الكامل بلا اقتران الصِّفات والشؤونات، والعرشُ المجيدُ إنّما كان مظهرَ الحضرة الذَّات المستجمعة لجميع الصِّفات في العالم الكبير، والإنسانُ الكاملُ صار مظهراً للذات الأحد المجرَّدة عن الاعتبارات في العالم الصَّغير، وهذه المرآتيةُ من أعجوبات الإنسان، والله سبحانه المعطي، لا مانعَ لما أعطاه، ولا معطي لما منعه. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وأصحابه الصلواتُ والتسليماتُ العلى.

المَكتُوبُ الثَّاني عَشَرَ

إلى أخِيه الحَقيقيِّ المِيَان غلام محمَّدٍ في بيانِ أنَّ المَلَك وإن كانَ مُشاهداً للأصلِ، وشُهودَ الإنسانِ في مِرآةِ الأنفُسِ، ولكِن جُعلَت تلك الدَّولة فيه كالجُزءِ منه، وترتُّب البَقاءُ عليه، وما يُناسبُه.

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ الملائكةَ الكرامَ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام مشاهدون للأصل، ومتوجِّهون إليه، ومتعلّقون به، وشائبةُ الظليَّة مفقودةٌ في حقّهم، والإنسان المسكين العاجز قلَّما يضع قدمه في خارج الظلية في هذه النَّشأة، ويحصِّل شهوداً دائميّاً بدون وساطة مرايا الآفاق والأنفس، وبعد الوصول إلى الأصل يتجلَّى في مرآة قلبه.........................

لمعةٌ من تشعشع أنوار الأصل، ويرجع إلى العالم، ويحال فيه عليه تربيةُ النَّاقصين، وفي هذا الرجوع تربيةُ نفسه وتربية غيره؛ فإنَّ تلك اللمعةَ التي جعلت كالجزء منه تجعل أجزاءه الأخر منصبغةً بصبغها في مدَّة رجوعه، ومتلوِّنةً بلونها، كما أنَّه يخرج غيره من مضيق النَّقص إلى فضاء الكمال، ويدلُّهم من الغيب إلى الشُّهود، فإذا تمَّتْ مدَّةُ الدَّعوة والرجوع، وبلغ الكتابُ أجله؛ يظهر فيه شوقُ الأصل، ويقوم من باطنه نداءُ (الرفيق الأعلى)، ويتخلَّصُ من تعلّقات شتّى، وينقل حمولَهُ من الغيب إلى الشَّهادة، وتخرج معاملتُه من المراسلة إلى المعانقة، ويصدقُ هنا (الموتُ جسرٌ يوصل الحبيب إلى الحبيب).

ينبغي أن يعلم أنَّ الملكَ وإن كان مشاهدَ الأصل، وشهودَ الإنسان في مرآة الأنفس، ولكن جعلتْ تلك الدَّولةُ في الإنسان كالجزء منه، وأعطي البقاء بها، وجعل متحقّقًا بها، بخلاف الملك، فإنَّ تلك الدَّولةَ ما جعلت فيه كالجزء منه، بل لهم النّظارةُ من الخارج، وليس لهم بقاءٌ وتحقّقٌ بها، وليس فيهم ذلك الانصباغُ والتلوُّنُ بلون الأصل الذي تيسّر للإنسان، والاختصاصُ الذي حصل للفرشيين ليس هو للقدسيين، فإنَّ تفاوتَ ما بين الباطن والخارج كثيرٌ، وإن كانت الدَّولةُ الباطنيَّةُ كالجزء، والدَّولةُ الخارجيَّةُ كالكلّ، ولكنَّ الباطنَ باطنٌ، والخارجَ خارجٌ، كلامنا إشارةٌ وبشارةٌ. ولهذا صارت خواصُّ البشر أفضلَ من خواص الملائكة، ومع جميع ذلك حصل استحقاقُ الخلافة. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]:

(شعر) زمين زاده بر آسمان تاخته ... زمين و زمان را پس انداخته

(ترجمة): عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَلِيدُ أَرْضٍ ... وَخَلَّفَ خَلْفَهُ زَمَنًا وَأَرْضَا

وهذه الدَّولةُ إنّما تيسّرتْ للإنسان بواسطة جزئه الأرضيّ، والقلبُ الذي صار عرشَ الله إنّما هو بدولة العنصر الترابيّ الذي جامعٌ للكلّ، ومركزُ دائرة الإمكان. نعم إنّما نالت الأرضُ كلَّ هذا العلوّ والرفعة من الضَّعَة وعدم الترفع، وجعلها التواضعُ عاليةً، «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ سُبْحَانَهُ رَفَعَهُ اللهُ»، فإذا رجع الإنسانُ إلى الأصل بعد تمام مدَّة رجوعه ودعوته، وبعد انصباغه بصبغ الأصل، وصار متوجّهـًا إلى جناب القدس؛ فاليقينُ أنَّ الاختصاصَ والانبساطَ الذي يتيسّرُ له هناك لا يكون هو لغيره، وقربُ المنزلة الذي يحصل له فيه ليس لغيره، فإنَّه صار واصلاً فانيًا، وحصل له البقاءُ بالأصل، وصار منصبغًا بصبغ الأصل، فأين المجال لغيره حتى يدّعون المساواةَ له؟ فإنَّ انصباغَ الغير وإن كان لاعتبار التجرُّد والتنزُّه أكملَ وأتمَّ، ولكنَّه ناشٍ من خارجٍ، فحكمُه حكمٌ عارضيٌّ، وحيث كان انصباغُ الإنسان باطنيًّا؛ كان حكمه حكمَ الذاتيّ، شتان ما بينهما، وهذا الكمالُ مخصوصٌ بالأنبياء صلوات الله تعالى وتسليماته عليهم أجمعين، وهم المرادون بخواصّ البشر، ومن يبشّرُ بهذه الدَّولة العظمى بالوراثة والتبعيّة، وكان حصولُ هذه الدَّولة في أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببركة الصُّحبة أكثرَ وأزيدَ، ويشرَّفُ بها غيرُ الأصحاب أيضًا، وإن كان قليلاً، بل أقلّ: (شعر)

وَإِذَا أَتَى بَابَ الْعَجُوزِ خَلِيفَةٌ ... إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَنَتْفَ سِبَالِكَا

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعليهم الصلواتُ والتحياتُ والتسليماتُ..

المكتوب الثالث عشر

إلى المِيرزا شَمسِ الدِّين في جوابِ كِتابِه، وبيانِ أنَّ نصيبَ عُلماءِ الظَّاهرِ، ونصيبَ الصُّوفيَّة العَليَّة، ونصيبَ العلَماءِ الرَّاسِخين الذينَ هم وَرثَة الأنبياءِ ما هو، وما يُناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليعلم أنَّ الصَّحيفةَ الشَّريفةَ الصادرةَ على وجه الكرم قد بلَّغها أخي الأعزّ الشَّيخ محمد طاهر، فحصل بورودها الفرحُ والسرورُ، وقد اندرج فيها التماسُ النصائح بواسطة المكاتيب إلى زمن الملاقاة.

أيُّها المخدومُ المكرَّمُ، إنَّ النَّصيحةَ هي الدينُ ومتابعةُ سيد المرسلين عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التحيات أكملها، ونصيبُ علماء الظَّاهر من الدّين ومتابعةِ سيد المرسلين بعد تصحيح العقائد هو علمُ الشَّرائع والأحكام، والعملُ بمقتضى ذلك العلم، ونصيبُ الصوفيَّة مع ما هو للعلماء الأحوالُ والمواجيدُ والعلومُ والمعارفُ، ونصيبُ العلماء الراسخين الذين هم ورثةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع ما هو لعلماء الظَّاهر ومع ما امتاز به الصوفيَّةُ هو الأسرارُ والدَّقائقُ التي جرى الرمزُ والإشارةُ إليها في المتشابهات القرآنية، واندرجت فيها على سبيل التأويل، فهم الكاملون في المتابعة، والمتحقّقون بالوراثة، وهم شركاءُ في دولة الأنبياء عليهم السلام الخاصّة بهم، ومحارمُ المخدع الخاصّ، فلا جَرَمَ تشرَّفوا بشرف «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، فعليكم بمتابعة سيّد المرسلين، وحبيب رب العالمين، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وأهل الطاعة أجمعين الصلواتُ والتحياتُ، علماً وعملاً ووجداً وحالاً؛ لتكون وسيلةً إلى حصول الوراثة التي هي نهايةُ درجات السعادة.

المكتوب الرابع عشر

إلى مَولانا أحمَدَ البَركِيِّ في جَوابِ استِفسارِه أنَّ صاحِبَ المَنصبِ هل يَكون صاحِبَ عِلْمٍ ألبتَّة أو لا؟ وعن سَببِ عَدمِ الاطِّلاعِ على الأحوالِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصحيفتان متتابعتين، وقد كتبت خبر المصيبة، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليكرِّر الأصحابُ والأحبابُ كلمة (لا إله إلا الله) سبعين ألف مرةٍ لروح المرحوم خواجه محمد صادق، وسبعين ألف مرةٍ لروح أخته المرحومة أم كلثوم، وليهدوا ثوابَ كلٍّ منهما لروحانيّة كلٍّ منهما، فإنَّ الدُّعاءَ مأمولٌ من الأحباب، والفاتحةُ مسؤولةٌ منهم. وكتبت أيضاً أنَّه قد ذكر في المكتوبات: أنَّ صاحبَ المنصب صاحبُ علمٍ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ قطبَ الأقطاب صاحبُ علمٍ، يعني: بمنصبه، وأقطاب البقعات كأجزائه ويده ورجله، يكون لبعضهم العلمُ بمداريته، ولبعضهم لا. وكتبتَ أيضاً أنَّ الفناءَ في الله والبقاءَ بالله لم يحصلا إلى الآن، ماذا نفعل؟

كنت أنت في الصحبة قليلاً، ولم تمكث مقدار ما نُطْلِعُك على حصول بعض أحوالك، وأنا الآن أشاهد من بلاد الهند فناءك وبقاءك، وأحسُّ هذين الكمالين المذكورين فيك، وأنت تنكر ذلك، وبيننا مسافةٌ بعيدةٌ، وما لم تتيسّر الملاقاةُ الصُّوريَّةُ؛ فالاطِّلاعُ على الأحوال المكنونة متعسِّرٌ، وما تكلّم به المشائخ في الفناء والبقاء كلُّه رمزٌ وإشارةٌ، فماذا يجد الإنسان من قِبَل نفسه؟ ولا يعطي الحقُّ سبحانه الكلَّ علماً وأحوالاً، بل يعطي الشَّخصَ علماً بأحواله، ويجعله مقتدىً به، ويربط الجمعَ به، فيبلِّغهم مرتبةَ الكمال والتَّكميل: (شعر)

لَـيْـسَ عَـلَـى اللهِ بِـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ أَنْ يَـجْـمَـعَ الْـعَـالَـمَ فِـي وَاحِـدِ

يا ليتني كنت أمسكت الشَّيخ حسناً أياماً أخر، وأطلعْتُه على بعض أحوالكم، ثم أرسلته إلى خدمتكم، ومجيئك مشكلٌ، فيا حبّذا لو جاء من أصحابك شخصٌ رشيدٌ قابلٌ فهيمٌ، وأقام هنا أياماً حتى نخبره بأخبار ضروريّةٍ، والمقصودُ هو حصولُ الأحوال، والاطلاعُ على الأحوال هو أمرٌ آخر، والباقي عند التلاقي إن شاء الله تعالى الباقي.

والسلامُ والنَّصيحةُ التي لا بدّ منها: هي أن تجتهد في الدرس من غير فتورٍ، وأن لا تسمَحَ نفسك بتركه، فإن أمكنك استغراق جميع أوقاتك بالدرس لا تهوسنَّ في الذِّكر والفكر، فإنَّ ساعات الليالي كافيةٌ للذكر، وليشتغل الشَّيخ حسن أيضاً بالدرس والتعلّم، ولا تتركنَّه معطَّلاً، وحيث كانت تلك الحدودُ قليلةَ النَّصيب من العلم؛ كان إحياءُ العلوم الشَّرعيّة فيها ضروريّاً، وماذا أبالغ أزيد من ذلك؟ ووصلت الأوراقُ المندرجُ فيها بيان أحوال الخواجه ويس، ونظرت في أكثر مواضعها، فوجدتها مبشّرات، فليكن راجياً من الحق سبحانه حتى تخرج من القوة إلى الفعل. والسلام.

المَكتُوبُ الخَامِسَ عَشَرَ

إلى ساداتِ بَلدةِ سَامَانَه، وقُضاتِها، ومَواليها، وسائِر أهاليها، في ذمِّ خَطيبٍ تَرَكَ ذكرَ الخلَفاءِ الرَّاشِدينَ في خُطبَة عيدِ الأضحَى، وتَقريعهِم على استِماعِها، وما يُناسِبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. الباعثُ على تصديع خدّام ذوي الاحترام السَّادات العظام والقضاة والأهالي والموالي الكرام في بلدة سامانه: هو أنّا سمعنا أنَّ خطيبَ ذلك المقام ترك ذكرَ الخلفاء الراشدين ﷺ في خطبة عيد الأضحى، ولم يذكرْ أساميهم المتبرّكة، وسمعنا أيضاً أنّه لَمّا تعرَّضَ له جماعةٌ من الحاضرين لم يعترفْ بسهوه، ولم يعتذر عن نسيانه وذنبه، بل قابلهم بالتمرُّد والعناد، وقال: إيش يلزم إن لم يذكر أسامي الخلفاء الراشدين؟ وسمعنا أيضاً أنَّ أكابر ذلك المقام وأهاليه تساهلوا في هذا الباب، ولم يقابلوا ذلك الخطيب عديم الإنصاف والآداب بالشدَّة والغلظة:

(ع) فَـآهـاً أَلْـفَ آهٍ دُونَ مَـرَّةِ

وذكرُ الخلفاء الراشدين وإن لم يكن من شرائط الخطبة، ولكنَّه من شعائر أهل السُّنّة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، لا يتركه عمداً وتمرُّداً إلا من قلبه مريضٌ، وباطنُه خبيثٌ، ولئن فرضنا أنَّه لم يترك بالتعصُّب والعناد؛ فماذا يقول في جواب وعيد «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١)؟ وكيف يتخلّص من مظانّ التهم وقد ورد: «**اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ**»(٢)؟ فإن كان متوقفاً في تقديم الشَّيخين وتفضيلهما؛ فهو رافضٌ لطريق أهل السنة والجماعة، وإن كان متردِّداً في محبة الختنين؛ فهو أيضاً خارجٌ من زمرة أهل الحق، ولا يبعد أن يأخذ ذلك الخطيب الذي لا حقيقةَ له المنسوب إلى كشمريّةَ هذا الخبثَ من مبتدعي كشمير، فينبغي تعليمُه وتفهيمُه أنَّ أفضليّةَ الشَّيخين ثابتةٌ بإجماع الصَّحابة والتابعين كما نقله جماعةٌ من أكابر أئمة الدين واحدٌ منهم الإمام الشافعي ﷺ، قال الشَّيخ الإمام أبو الحسن الأشعريُّ: إنَّ تفضيلَ أبي بكر ثم عمر على بقيَّة الأمة قطعيٌّ وقد تواتر عن عليّ ﷺ في خلافته وكرسيّ مملكته، وبيَّن الجمُّ الغفيرُ من شيعته أنَّ أبا بكر وعمر أفضلُ الأمّة، قال الذهبيُّ: ثم قال: رواه عن عليّ ﷺ نيّفٌ وثمانون نفساً، وعدَّ منهم جماعةً، ثم قال: فقبّح الله الرافضةَ ما أجهلهم، وروى البخاريُّ - الذي كتابُه أصحُّ الكتب بعد..................................

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر ﷺ، وصححه الحافظ العراقي. انظر: «المغني» بهامش الإحياء: (١/ ٢٦٩).

(٢) أخرج الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٧٧) عن عمر بن الخطاب أنه قال: (من أقام نفسه مقام التُّهمة؛ فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ). وكذا رواه الزبير بن بكار في «الموفقيات» (ص: ٣٢) عنه. وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» (ص: ٣٠٤- ٣٠٥) عن عمر أيضاً أنه قال: للناس ثمان عشرةَ كلمةً حكمٌ كلها، ومنها: ومن عرض نفسه للتهمة؛ فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ.

كتاب الله تعالى - عن علي ﵁ أنه قال: خيرُ الناس بعد النبيّ عليه الصلاة والسلام أبو بكر، ثم عمر، ثم رجلٌ آخر، فقال ابنه محمد ابن الحنفية: ثم أنت؟ فقال: إنّما أنا رجلٌ من المسلمين(١)، وأمثال ذلك عنه وعن غيره من أكابر الصحابة والتابعين كثيرةٌ شهيرةٌ لا ينكرها إلا جاهلٌ أو معاندٌ. وينبغي أن يقول لذلك المنخلع عن لباس الإنصاف: إنَّا مأمورون بمحبة جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وممنوعون عن بغضهم وإيذائهم، وحضرات الختنين من أكابر الصحابة ومن أقاربه عليه الصلاة والسلام، فيكونان أحقَّ بالمحبَّة والمودَّة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَّآ اَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبٰىؕ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ فَيُوشِكُ أَنْ يُؤْخَذَ». ومثلُ هذا الزهر الكريه الرائحة لم يعلم تفتُّقُه في بلاد الهند من ابتداء الإسلام إلى هذا الوقت، ويكاد يُتَّهمُ جميعُ أهل البلد من هذه المعاملة، بل يكاد يرتفع الاعتماد من جميع بلاد الهند، وسلطانُ الوقت نصره الله على جميع أعداء الإسلام من أهل السنَّة وحنفيُّ المذهب، وابتداعُ مثل هذا الأمر في زمانه نهايةُ الجراءة، بل هو منازعته في الحقيقة، وخروجٌ من طاعة أولي الأمر، والعجبُ من سكوت المخاديم العظام الكائنين في ذلك المقام في هذه الواقعة، ومساهلتُهم مع صدور جميع المذكورات، قال الله تبارك وتعالى في ذم أهل الكتاب: ﴿لَوْلَا يَنْهٰىهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْاَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْاِثْمَ وَاَكْلِهِمُ السُّحْتَؕ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُؕ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]، واختيارُ التغافل في مثل هذه الواقعة موجبٌ لجسارة المبتدعين، وتوهينٌ للدين. ومن مثل هذه المساهلات تدعو الجماعة المهدويّة ملأَ أهل الحقّ هناك إلى باطلهم، ويختطفون أمثال الذئاب واحداً واثنين في مدَّةٍ قليلةٍ من أيدي الثعالب، وماذا أكتب أزيدَ من ذلك؟ وحيث كان استماعُ هذا الخبر الموحش باعثًا على الاضطراب، ومحرِّكًا لعرقي الفاروقيّ؛ صرتُ مضطرّاً إلى الإقدام على تحرير كلماتٍ، والمرجوُّ مسامحتُكم وعذرُكم. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليماتُ والتحياتُ والبركاتُ.

المكتوب السادس عشر

إلى الشَّيخِ بَديعِ الدِّين السَّهَارَنْ پورِيِّ في جَوابِ استِفساراتِه، وفي بيانِ عَجائِب أحوالِ البَرزَخ الصَّغيرِ وغَرائِبها، وفَضيلَة المَوتِ بالطَّاعونِ.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلٰمٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ اصْطَفٰىؕ﴾ [النمل: ٥٩]. قد وصلت الصَّحيفةُ الشَّريفةُ، وقد اندرج فيها أنَّه قد ظهرتْ في هذه الحدود حوادثُ قويَّةٌ: الأولى: الطَّاعون، والثّانيةُ: القحطُ، أعاذنا الله سبحانه وإياكم عن البليات، وحرَّرت أيضًا أنَّه مع وجود هذه الفتن يصرف الليلُ والنهارُ في العبادة والمراقبة، والباطنُ معمورٌ، لله سبحانه الحمدُ والمنّةُ على ذلك.

وجوابُ الأسئلة المندرجة فيها: يقرأ في السُّنَن في أكثر الأوقات: ﴿قُلْ يٰۤاَيُّهَا الْكٰفِرُوْنَۙ﴾ [الكافرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] والمعوذتان، والكفنُ المسنونُ للرجال ثلاثةُ أثوابٍ، والعمامةُ زائدةٌ، فنقتصر على المسنون، ولا نكتب الجوابَ نامه لاحتمال التلوُّث بالقاذورات، ولم يثبت بسندٍ صحيحٍ، وعملُ علماء ما وراء النهر على ذلك، فإن جُعِلَ القميصُ المتبركُ بدل قميص الكفن جاز، وأكفانُ الشُّهداء هي أثوابهم، ووصّى الصديقُ الأكبرُ ﵁ بتكفينه في ثوبه حيث قال: كفنوني في ثوبيّ هذين(٢)، ولما كان البرزخُ..

(١) أخرجه ابن بشران في «أماليه» (ص: ٢٨٣- ٢٨٤)، وزاد فيه: (أنا رجل من المسلمين لي حسناتٌ وسيئاتٌ، يفعلُ اللهُ فيها ما يشاء).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في «الطبقات»: (٣/٢٠٥). وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٠) بلفظ: (انظروا ثوبَي هذين، فاغسلوهما، ثم كفنوني

الصغيرُ من مواطن الدنيا من وجهٍ؛ جاز أن يكون فيه مجال للترقِّي. وأحوالُ هذا الموطن فيها تفاوتٌ فاحشٌ بالنظر إلى أشخاصٍ متفاوتةٍ، ولعلك سمعت أنَّ الأنبياء يُصلُّون في القبور، ولما مرَّ نبينا عليه الصلاة والسلام بقبر موسى عليه السلام ليلة المعراج رآه يصلي في قبره[1]، ولما رَقِيَ إلى السماء في تلك اللحظة وجد الكليمَ هناك[2]، وفي معاملة هذا الموطن عجائبُ وغرائبُ، وحيث أنّنا نكثر النظرَ في هذه الأيّام إلى ذلك الموطن من أجل المرحوم ولدي الأعظم تظهر فيه أسرارٌ غريبةٌ، بحيث إن ذكرتُ نبذةً منها تكون باعثةً على الفتن. وسقفُ الجنة وإن كان عرشاً مجيداً، ولكنَّ القبرَ أيضاً روضةٌ من رياض الجنة، وإن كان العقلُ القاصرُ عاجزاً عن تصويره، والناظرُ إلى تلك الأعجوبات هو عينٌ أخرى. ومجرَّدُ الإيمان وإن كان منجياً بعد اللتيا والتي، ولكن رفعَ الكلمة الطيِّبة مربوطٌ بالعمل الصالح. والفرارُ من الموت كبيرةٌ كالفرار يوم الزحف، ومن ثبت في أرض الوباء صبراً ومات؛ فهو من الشهداء، ومأمونٌ من فتنة القبر، والذي صبر ولم يمت؛ فهو من الغزاة: (شعر)

فَإِنْ قَالَ لِي: مُتْ مُتُّ سَمْعاً وَطَاعَةً ... وَقُلْتُ لِدَاعِي الْمَوْتِ: أَهْلاً وَمَرْحَبَا

وقد أعجزني البلغمُ والسعالُ منذ أيام، وبلغ ضعفُ البدن نهايته، فاقتصرنا على الأجوبة بالضَّرورة. والسلام.

المكتوب السابع عشر

إلى الميرزا حُسامِ الدِّينِ أحمَدَ في بَيانِ أنَّ مُصيباتِ هذا العالَمِ وإن كانَت في الظَّاهِرِ جِراحاتٌ، ولكنَّها مَراهِمُ في الحَقيقَة، وباعِثةٌ لتَرَقِّياتٍ كثيرةٍ، وفي فَضيلَةِ مَوتِ الطَّاعونِ، وما يُناسِبُ ذلك.

وبعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات. ليعلم أنَّ الصَّحيفةَ الشَّريفةَ المرسلةَ مع الشَّيخ مصطفى في باب التعزية والمصيبات قد تشرَّفتُ بملاحظة مضمونها، إنا لله وإنا إليه راجعون، وهذه المصيباتُ جراحاتٌ في الظَّاهر، ولكنَّها مراهمُ في الحقيقة، وموجبةٌ للترقِّيات والثمرات، والنتائجُ المرتبة عليها بعناية الله تعالى عشرُ عشيرِ تلك الثمرات المتوقعة المأمولة بعناية الله تعالى في الآخرة، فوجودُ الأولاد عينُ الرَّحمة، حيث إنَّ في حياتهم منافعَ وفوائدَ، وفي مماتهم أيضاً ترتُّب الثمرات والنتائج، ذكر الإمام الأجلّ محيي السُّنَّة في «حلية الأبرار»: أنَّه وقع الطَّاعونُ في زمن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه ثلاثة أيام، ومات في ذلك الطَّاعون ثلاثة وثمانون ابناً لأنس رضي الله عنه خادم نبينا عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، وقد دعا له النبيُّ ﷺ بالبركة[3]، ومات أربعون ابناً لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فإذا عومل بأصحاب خير الأنام عليه وعلى آله الصلاة والسلام هذه المعاملةُ، فأيُّ حسابٍ لأمثالنا العاصين؟ وقد ورد في الخبر: أنَّ الطاعونَ كان عذاباً للأمم السَّابقة، وهو شهادةٌ لهذه الأمة[4]، والحقُّ أنَّ الذين يموتون في هذا الوباء يذهبون حاضرين متوجّهين على وجهٍ يقضى منه العجبُ، حتى يتمنَّى الإنسانُ اللحاقَ في هذه الأيّام بهؤلاء الجماعة أرباب البلاء، ونقلَ الحمول من الدُّنيا إلى الآخرة، وهذا البلاءُ في هذه الأمة غضبٌ في الظَّاهر رحمةٌ في الباطن، وقال الشَّيخ طاهر: رأيت شخصاً في لاهور في أيام الطاعون يقول: من لم يمت في هذه الأيّام فهو متحسِّرٌ. نعم، إذا أجيل النَّظَرُ في أحوال هؤلاء الماضين تشاهَدُ أحوالٌ غريبةٌ، ومعاملاتٌ عجيبةٌ، لا يمتاز بهذه الخصائص غيرُ الشهداء في سبيل الله، يعني: لا ينالها غيرهم. أيُّها ....

فيهما). وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح كما في «الدراية» (١/ ٢٣١) برقم: (٦١٧٨) بنحوه.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد رآه في السماء السادسة. قال البيهقي: الأنبياءُ صلوات الله عليهم أحياءٌ عند ربهم كالشهداء، فلا ينكر حلولُهم في أوقاتٍ بمواضع مختلفاتٍ. انظر: «دلائل النبوة»: (٣/ ٣٨٨).

(٣) أخرج البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٦٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له فيه».

(٤) أخرج البخاري (٣٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرني أنَّه عذابٌ يبعثه الله على من يشاء، وأنَّ الله جعله رحمةً للمؤمنين، ليس من أحدٍ يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنَّه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجرِ شهيدٍ.

المخدومُ، إنَّ مفارقة ولدي الأعزّ قدس سره من أعظم المصائب، لا يعلم كون شخصٍ مصاباً بمثل هذه المصيبة، وأما الصبرُ والشكرُ اللذان رزقهما الله سبحانه لهذا الضَّعيف في هذه المصيبة؛ فمن أجلِّ إحسانه، وأعظم إنعامه سبحانه وتعالى، وأسأل الله سبحانه أن يؤخِّرَ جزاءَ هذه المصيبة إلى الآخرة، وأن يكون معدّاً لها، وأن لا يظهر شيءٌ منه في الدنيا، وإن كنت أعلم أنَّ هذه المسألةَ من ضيق الصدر، وإلا؛ فهو تعالى واسع الرَّحمة، ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، المسؤولُ من الإخوان الإمدادُ والإعانةُ، ودعاءُ سلامة الخاتمة، والعفوُ عن الزلات اللازمة للبشرية، والتجاوز عن التقصيرات الناشئة من البشرية، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا... وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى.

المكتوب الثامن عشر

إلى الشَّيخ جَمالِ الدِّين النَّاگُورِيِّ في بيانِ نَصيبِ عُلَماءِ الظَّاهِرِ، ونَصيبِ العلَماءِ الرَّاسِخينَ، ونصيبِ الصُّوفيَّة، وجَوابِ التِماسِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» كافٍ في مدحة العلماء، وعلمُ الوراثة هو علمُ الشَّريعة، فإنَّه هو الذي بقي من الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، ولعلم الشَّريعة صورةٌ وحقيقةٌ، وصورتُه هي نصيبُ علماء الظَّاهر شكر الله تعالى سعيهم، وهي التي تتعلّقُ بمحكمات الكتاب والسنَّة، وحقيقتُه هي نصيبُ العلماء الراسخين رضي الله تعالى عنهم، وهي التي تتعلّقُ بمتشابهات الكتاب والسنَّة، والمحكماتُ وإن كُنَّ أمّ الكتاب، ولكنَّ ثمراتِه ونتائجَه المتشابهاتُ التي هنَّ مقاصد الكتاب، وليست الأمهاتُ سوى أن تكن وسائل لحصول النتائج، فكان لبُّ الكتاب المتشابهاتِ، والمحكماتُ قشرَ ذلك اللبّ، والمتشابهاتُ هي التي تبيِّنُ الأصلَ بالرمز والإشارة، وتكشف عن وجه حقيقة تلك المعاملة، والعلماء الراسخون جمعوا بين القشر واللبّ، وحازوا مجموعَ صورة الشَّريعة وحقيقتها، والكبراءُ تصوَّروا الشَّريعة كشخصٍ يكون قشرُه ولبُّه من صورة الشَّريعة وحقيقتها، ووجدوا علمَ أحكام الشَّرائع صورةَ الشَّريعة، وعلمَ الحقائق والأسرار حقيقةَ الشَّريعة، وصارت طائفةٌ مفتونةً بصورة الشَّريعة، وأنكروا حقيقتها، ولم يعرفوا لأنفسهم شيخاً ومقتدىً به غير «الهداية» والپزدويّ، وطائفةٌ أخرى وإن حصلت لهم علاقةٌ بتلك الحقيقة، ولكنَّهم لَمّا لم يعرفوها حقيقةَ الشَّريعة، بل زعموا الشَّريعةَ مقصورةً على الصُّورة، وظنُّوها قشراً فقط، وتصوروا اللبّ وراءها؛ فلا جرم لم يُدْرِكُوا حقيقةَ تلك الحقيقة، ولم ينالوا نصيباً من المتشابهات، والعلماءُ الراسخون هم الوارثون في الحقيقة، جعلنا الله سبحانه وإياكم من محبيهم ومقتفي آثارهم.

ثم إنَّ أخي الشَّيخ ميان نور محمد أظهر من جانبكم بأنَّكم قلتم: إنَّ لنا إجازاتٍ من مشائخ السَّلاسل الأخر، ونريد من جانب النقشبنديَّة أيضاً إجازةً. أيُّها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ المشيخةَ والمريديّةَ في الطَّريقة النقشبنديَّة العليّة بتعليم الطَّريقة وتعلمها، لا بالكلاء والشجرة كما هو متعارفٌ في سلاسل أخر، وطريقُ هؤلاء الأكابر صحبةٌ، وتربيتهم انعكاسيّةٌ، فلا جرم اندرجت في بدايتهم نهايةُ الآخرين، وصار طريقهم أقربَ الطُّرُق، ونظرُهم شفاءَ الأمراض القلبيَّة، وتوجّهُهم دافعَ العلل المعنويَّة: (شعر) مَا أَحْسَنَ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ سِيرَتَهُمْ يَمْشُونَ بِالرَّكْبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ

والمرجوُّ مسامحتكم: (ع) وَالْعُذْرُ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَقْبُولُ

والسلام.

المكتوب التاسع عشر

إلى المِير مُحبِّ اللهِ في التَّحريضِ على اتِّباعِ السُّنَّة السَّنيَّة، والتَّحذيرِ من ارتِكابِ البِدعَة الغَيرِ المَرضيَّة، وما يُناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليعلم أخي الأعزّ السيد محب الله أنّ أحوالَ فقراء هذه الحدود وأوضاعهم مستوجبةٌ للحمد، والمسؤولُ من الله سبحانه سلامتكم وثباتُكم واستقامتُكم، ولم يطّلع في هذه المدّة على أحوال فقراء تلك الحدود، فإنَّ بُعْدَ المسافة من الموانع، النصيحةُ هي الدينُ ومتابعةُ سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وإتيانُ السنة السَنيّة، والاجتنابُ عن البدعة الغير المرضيَّة، وإن كانت البدعةُ تُرَى مثل فلق الصبح، لكنَّها لا نورَ لها في الحقيقة ولا ضياءَ، ولا للعليل منها شفاءٌ، ولا للداء منها دواءٌ، كيف والبدعةُ إما رافعةٌ للسنة، أو ساكتةٌ عنها، والساكتةُ لا بدَّ وأن تكون زائدةً على السنة، فتكون ناسخةً لها في الحقيقة أيضاً؛ لأنَّ الزيادةَ على النص نسخٌ له؟ فالبدعةُ كيف كانت تكون رافعةً للسنة نقيضةً لها؟ فلا خيرَ فيها ولا حسنَ، فيا ليت شعري من أين حكموا بحسن البدعة المحدثة في الدين الكامل والإسلام المرضي بعد إتمام النعمة، أو لم يعلموا أنَّ الإحداثَ بعد الإكمال والإتمام وحصول الرضاء بمعزلٍ عن الحسن، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ولو علموا أنَّ الحكمَ بحسن المحدث في الدين الكامل مستلزم لعدم كماله ومنبئٌ عن عدم تمام النعمة؛ لَمَا اجترؤوا عليه، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المكتوب العشرون

إلى مولانا محمَّدٍ طاهرٍ البدَخْشيِّ في فَضائلِ الصَّلاةِ، والتَّحريضِ على تَعديلِ الأركانِ، وتَكميلِ الشَّرائِط والآدابِ كما يَنبَغي، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ من نواحي جونپور، وحيث كان متضمناً لخبر الضعف صار باعثاً على الاضطراب والتشويش، فنحن الآن مترصدون لخبر الصحة، فأرسلوه مع الواردين، واكتبوا كيفيات الأحوال.

أيُّها المحبُّ، إنَّ هذه الدارَ لَمّا كانت دارَ العمل، ودارُ الجزاء هي دارُ الآخرة؛ ينبغي السعيُ في إتيان الأعمال الصالحة، وأفضلُ الأعمال وأحسنُ العبادات هي إقامةُ الصَّلاة التي هي عمادُ الدين ومعراجُ المؤمنين، فينبغي رعايةُ جانب الاهتمام التامّ في أدائها، والاحتياطُ فيها، حتى يؤدّي كلّ واحدٍ من أركانها وشرائطها وسننها وآدابها كما ينبغي ويليق، وينبغي المبالغةُ مكرّرةً في رعاية الطمأنينة، وتعديل الأركان، والمحافظة عليها محافظةً كاملةً، فإنَّ أكثرَ الناس قد أضاعوا الصلاةَ بتضييع الطمأنينة وتعديل الأركان، وورد في حق هؤلاء الجماعة وعيدٌ كثيرٌ، وتهديدٌ شديدٌ، فإذا صحَّت الصَّلاةُ وكملتْ؛ فقد تيسّر رجاءٌ عظيمٌ لأجل النجاة؛ لأنَّ الدينَ كان قائماً حينئذٍ، وبلغ معراج العروج على التَّمام: (شعر)

وَعَلَيْكُمْ بِالسُّكْرِ يَا أَهْلَ صَفْرَا ءَ عَلَى رَغْمِ ذَوِي السَّوْدَاءِ

والسلامُ عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات العلى.

المكتوب الحادي والعشرون

إلى الشَّيخِ محمَّدٍ صِدِّيقِ الملَقَّب بالهِدايَة في بيانِ أنَّ المُرادَ بالقَلبِ الوَاقعِ في الحَديثِ القُدسيِّ: «لا يَسعُني أرضِي.. إلخ»: هو المُضغَة، لا الحَقيقَة الجامِعَة التي أخبَر بَعض

المشائخ عن وُسعَتِها، وما يَتعلَّق بذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد كتبت بأنَّك ذكرتَ في مكتوباتك ورسائلك بأنَّ الظهورَ القلبيَّ لمعةٌ من الظُّهور العرشيّ، والفضلَ الكليَّ إنّما هو للظُّهور العرشيّ، وقد ورد في الحديث القدسيّ: «**لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»، ويلزم من هذا الحديث أن يكون الظهورُ القلبيُّ أتمَّ، وأن يكون الفضلُ له.

أيُّها المحبُّ، إنَّ حلَّ هذا السُّؤال مبنيٌّ على مقدَّمةٍ. اعلم أنَّ أربابَ الولاية يقولون: قلباً، ويريدون به: الحقيقةَ الجامعةَ الإنسانيَّةَ التي هي من عالم الأمر، والقلبُ في لسان النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحيَّةُ عبارةٌ عن المضغة التي صلاحُ البدن مربوطٌ بصلاحها، وفسادُ البدن منوطٌ بفسادها، كما ورد في الحديث النبويّ عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات: «**إِنَّ فِي جَسَدِ ابْنِ آدَمَ لَمُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)]، ووسعةُ القلب لازمٌ لإطلاق الأوّل، ومن ههنا أخبر أبو يزيد والجنيد عن وسعة القلب، وظنُّوا العرشَ وما فيه محقَّراً في جنب عظمة القلب، وضيقُ القلب لازم إطلاق الثّاني، وضيقُ القلب في هذا المقام على نهج لا مجالَ فيه للجزء الذي لا يتجزَّأ الذي هو أحقرُ الأشياء وأصغرها، وإذا نُسِبَ ضيقُ القلب في بعض الأوقات إلى الجزء الذي لا يتجزَّأ، وقيس عليه؛ يظهر ذلك الجزءُ المحقَّرُ في النَّظَر مثلَ طبقات السّموات والأرض، وهذه المعاملةُ وراءَ طور نظر العقل، فلا تكن من الممترين.

هذا، فإذا علمت هذه المقدَّمةَ؛ فاعلم أنَّ الظّهورَ الذي هو مربوطٌ بالحقيقة الجامعة لا شكَّ أنَّه لمعةٌ بالنِّسبة إلى الظُّهور العرشيّ التامّ، والفضلُ الكليُّ في هذا المقام للعرش، وما قال الشَّيخُ أبو يزيد والشَّيخ جنيدٌ من أنَّ القلبَ أوسعُ من الكلّ، وتخيَّلا العرشَ وما فيه شيئاً محقَّراً في جنبه؛ فهو من قبيل اشتباه الشيء بأنموذج الشيء، حيث إنَّهما لَمّا رأيا أنموذجات العرش وما فيه محقَّراً في جنب جامعيَّة القلب؛ حكموا على حقائق العرش وما فيه. وقد كتب هذا الفقيرُ منشأَ هذا الاشتباه في كتبه ورسائله مكرَّراً، وما ورد في الحديث القدسيّ موافقٌ للسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمرادُ به: هو المضغةُ، ولا شكَّ أنَّ الظُّهورَ الأتمَّ هو هنا، ومرآتيةُ أحديّة الذات المجرَّدة مسلَّمةٌ له، والعرشُ وإن كان له من الظُّهور التامّ الذي هو ظهورُ الأصل نصيبٌ وافرٌ، ولكن في ذلك الموطن امتزاجُ الصِّفات، وحيث كانت الصِّفاتُ ظلالَ حضرة الذّات في الحقيقة لا يكون ذلك الظهورُ خالياً عن شائبة الظليّة، ومن ههنا للعرش توقعاتٌ من الظهور الإنسانيّ الذي يتعلّق بالأصل الصِّرْف، ومركزُ هذه المعاملة هو الإنسانُ.

فإن قيل: المفهومُ من الحديث وسعةُ القلب، وأنت تقول: إنَّه ضيِّقٌ جداً.

أجيب: إنَّ كونه ضيِّقاً إنّما هو باعتبار عدم اتِّساعه لِمَا سوى الحق سبحانه، ووسعته باعتبار ظهور أنوار القدم فيه، فلا منافاةَ، وهذا الفقيرُ عبَّر عن ذلك القلب في بعض رسائله بهذه العبارة: الضيِّق الأوسع، البسيط الأبسط، والأقل الأكثر.

فإن قيل: إنَّ المستحقّ للفضيلة: هو الحقيقةُ الجامعةُ؛ لكونها من عالم الأمر، والمضغةُ من عالم الخلق، ومركَّبٌ من العناصر، فمن أين نال هذه الفضيلةَ؟

أجيب: إنَّ لعالم الخلق مزيَّةً على عالم الأمر يَقْصُرُ عن إدراكها أفهامُ العوامّ، بل لا يدركها أكثرُ الخواصّ، وهذا الفقيرُ قد أوضح هذا المعنى في المكتوب الذي حرَّر لولدي الأعظم المرحوم في بيان...........................

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

الطَّريق، فإن بقي تردُّدٌ؛ فليطلب التشفِّي من هناك.

واستمع الآن بيان حقيقة هذه المضغة، واعلم أنَّها للعوامّ مضغةٌ حاصلةٌ من تركُّب العناصر الأربعة، وللخواصّ - بل لأخصّ الخواصّ - مضغةٌ مصوَّرةٌ من تركُّب الأجزاء العشرة بعد السُّلوك والجذبة، وبعد التَّصفية والتَّزكية، وبعد تمكين القلب واطمئنان النَّفس، بل بمحض فضل الحقّ سبحانه وكرمه جلّ سلطانه أربعةُ أجزاء من العناصر، وواحدٌ من النَّفس المطمئنَّة، وخمسةُ أجزاء من عالم الأمر، ومع وجود التضادّ والتباين بين تلك الأجزاء؛ زالت صورةُ التضادّ والتباين من بينها بقدرةِ واجب الوجود تعالى وتقدس، واجتمعتْ، وحصلتْ من اجتماعها هيئةٌ وحدانيّةٌ أعجوبة، والجزءُ الأعظمُ في هذه المعاملة هو العنصرُ الترابيُّ، وهذه الهيئةُ الوحدانيَّةُ أيضـًا تشابهت الجزء الأرضيّ، واستقرَّت في التراب: (شعر)

وَكُنْ أَرْضـًا فَيَنْبُتُ فِيكَ وَرْدٌ فَإِنَّ الْوَرْدَ مَنْبَتُهُ التُّرَابُ

أيُها الأخُ، إنَّ يد أرباب الولاية لا تصلُ إلى هذه العلوم والمعارف، فإنَّها مقتبسةٌ من مشكاة أنوار النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحيةُ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، والقلبُ الذي سأل الخليل على نبينا وعليه الصّلاة والسلام اطمئنانَه هو هذه المضغةُ، فإن حقيقتَهُ الجامعةَ كانت متمكِّنةً، ونفسَه مطمئنةً، إنَّ التَّمكينَ والاطمئنانَ يحصلان في مرتبة الولاية التي هي مدرجةُ النبوَّة على أربابها الصلاة والسلام والتحية، والمناسبُ لشأن النبوَّة هو تقلُّبُ المضغة واضطرابها، لا تقلُّب الحقيقة الجامعة، فإنَّه نصيبُ العوامّ، والمرادُ بثبات القلب الذي طَلَبَه خاتمُ الرسالة عليه الصلاة والسلام حيث قال: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ**»[1] هو ثباتُ هذه المضغة، ويجوز أن يراد بالقلب الوارد في بعض الأحاديث في باب تقلُّب القلب معنىً شاملٌ للحقيقة الجامعة والمضغة نظراً إلى أحوال الأمة.

فإن قيل: إنَّ هذه المضغةَ إذا تشرَّفتْ بشرف «**يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»، واستحقَّتْ مرآتيةَ حضرة الذات تعالت وتقدست، كيف يُتصوَّرُ فيها التقلُّبُ والاضطرابُ؟ ولإيش تحتاجُ إلى الاطمئنان؟

أجيب: إنَّ الظُّهورَ كلَّما كان أتمَّ، وتخلَّصَ عن شائبة الشُّؤون والصِّفات؛ يكون الجهلُ والحيرةُ أكثَرَ، وعدمُ الإدراك والوجدان أزيدَ وأوفرَ، ومع وجود هذا الظُّهور ومع هذه الوسعة كثيراً ما يطلب الدليلُ على وجود الصانع من كمال الجهل والحيرة، بحيث لا يحصل اليقينُ بوجود الصانع بدون الاستدلال والتَّقليد كالعوامّ، فيكون التقلُّبُ والاضطرابُ مناسباً لحالها، وطلبُ الاطمئنان ضرورياً في شأنها، وهذا الفقيرُ قد كتب في بعض رسائله: إنَّ العارفَ صاحبَ اليقين يحتاج إلى الاستدلال بعد الرجوع، وقد علم في هذا المقام أنَّه يحتاج إلى الدَّليل في عين الحصول والوصول، وهذا المقامُ موافقٌ لحال كمالات مرتبة النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، وذلك المقامُ مناسبٌ لحال الولاية، فإذا وقع لصاحب هذا القلب رجوعٌ إلى العالم للدعوة؛ يكون قلقُ قلبه واضطرابه وتقلُّبه وتلوُّنُه أزيد وأكثَرَ، فإذا كان في عين الوصول محتاجاً إلى الدليل بواسطة الجهل والحيرة؛ يكون في زمان الفرقة محتاجـًا إلى الاستدلال بالأولى ليحصِّلَ بواسطة الاستدلال اطمئنانـًا في الجملة. أو نقول: إنَّه لما..

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديث أنس ﷺ.
وأخرجه الترمذي أيضـًا (٣٥٢٢) وحسنه من حديث أم سلمة ﷺ، وأخرجه أيضـًا (٣٥٨٧) من حديث شهاب الجرمي ﷺ.

اختفتْ عنه الدَّولةُ أياماً، واتَّسم بسِمَة فرقتها؛ حُقَّ له أن يكون قلقاً ومضطرباً دائماً، وأن يكون مغموماً ومحزوناً على الدَّوام، كان رسول الله ﷺ متواصلَ الحزن دائمَ الفكر(١). ولنبيِّنْ بعض الوجوه الفارقة بين هذين الإطلاقين، ينبغي استماعه بسمع العقل.

اعلم أنَّ الحقيقةَ الجامعةَ التي هي من عالم الأمر يتيسّرُ لها بعد التَّزكية والتَّصفية تمكينٌ تامٌّ بوصف الدوام، بخلاف المضغة، فإنَّ اطمئنأنها مربوطٌ بإدراك الحواسّ، وما لم تدرك الشيءَ بالحواسّ لا تخرج من القلق، ولذا قال الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتٰى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والفارقُ الثّاني: هو أنَّ الحقيقةَ الجامعةَ تتأثَّرُ بالذِّكْر، وإذا بلغ الذكرُ كماله تتَّحدُ بالذكر، وتتجوهر به. قال صاحبُ العوارف قدس سره لهذا المقام: المقصدَ الأسنى، وعبَّر عنه بذكر الذات تعالت، بخلاف المضغة، فإنَّه لا سبيل إليها للذِّكْر، فأين التأثُّرُ؟ وأين التجوهرُ بعدُ؟ بل فيها ظهورُ المذكور بالأصالة لا بالظليَّة، ونهايةُ عروج الذكر إلى دهليز المذكور. والفرقُ الثّالثُ: أنَّ الحقيقةَ الجامعةَ إذا بلغت نهايةَ النهاية، ونالت من الولاية الخاصّة نصيباً وافراً؛ فإن حصلت حينئذٍ مرآتيّةٌ للمطلوب؛ يكون الظّاهرُ فيها ظلَّ المطلوب لا عينَه كالمرآة الظّاهرة، فإنَّ الظّاهرَ فيها شبحُ الشَّخص لا عينُه، بخلاف المضغة، فإنَّ الظّاهرَ فيها عينُ المطلوب لا ظلُّه على خلاف المرآة الظّاهرة، ولهذا قال: «**يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»، وهذه المعاملةُ وراء طَوْر نظر الفكر، وإيَّاك وتخيُّلَ الحلول والتمكُّن هنا، فإنَّه كفرٌ وزندقةٌ، وإن لم يصدّق عقل المعاش بأنَّ عينَ شيء يظهرُ في شيءٍ، ولا يكون له فيه حلولٌ ولا تمكُّنٌ، وهذا من قصور العقل وقياس الغائب على الشاهد، فلا تكن من القاصرين. والفرقُ الرّابعُ: أنَّ الحقيقةَ الجامعةَ من عالم الأمر والمضغة من عالم الخلق، بل كل من عالم الخلق والأمر جزئيها، الخلقُ جزؤها الأعظمُ، والأمرُ جزؤها الأصغرُ، ومن اجتماع هذين الجزأين حصلت لها هيئةٌ وحدانيةٍ، وصارت أعجوبةَ الدَّهْر، وهذه الأعجوبةُ وإن كانت مغايرةً لعالم الخلق والأمر، وليس لها تناسبٌ وتشابه بواحد منهما بواسطة الهيئة التركيبيَّة، ولكنَّها معدودةٌ من عالم الخلق؛ لأنَّ الجزءَ الأرضيَّ هو العمدةُ في هذه المعاملة، وتواضعُ التراب باعثٌ على رفعته. والفرقُ الخامسُ: أنَّ وسعةَ الحقيقة الجامعة باعتبار ظهور صور الأشياء فيها، ووسعةَ المضغة التي تنكشف بعد تضيُّقها باعتبار سعتها للمطلوب الذي هو غيرُ محدودٍ وغيرُ متناهٍ، وذلك التَّضيُّقُ دهليزُ تضيُّقها، حيث إنَّه مانعٌ لدخول ما سوى المطلوب، حتى لا يترك الذكرُ أن يدخل في سرادقات المذكور، ولا يبقى شائبةُ الظليَّة أن تحوم حول ذلك الحريم المقدس، وأيضاً إنَّ وسعةَ الأولى لَمّا كانت فيها شائبةُ الكيف لا تليق أن تكون مرآةً للاكيفيّ، وحيث كان للثّانية نصيبٌ من اللاكيفي لا تسعُ الكيفيّ، والعجبُ أنَّه يطرأ على هذا القلب بعد الرجوع للدَّعوة ظلمةٌ وغبنٌ، ومن هنا قال سيدُ البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي**»(٢)، وإلى متى أبيِّنُ الفرق؟ ما للتراب ورب الأرباب.

أيُّها الأخُ، إياك وتخيُّلَ هذه المضغة قطعةَ لحمٍ لا يُعْبَأُ بها، فإنَّها جوهرةٌ نفسيةٌ مخزونةٌ فيها خزائنُ عالم الخلق وأسراره، ومدفونةٌ فيها دفائنُ عالم الأمر وخفاياه، مع زيادة معاملةٍ خاصَّةٍ منوطةٍ بهيئتها الوحدانيَّة، جعلت أجزاؤها العشرة أوّلاً بالتَّصفية والتَّزكية والجذبة والسُّلوك والفناء والبقاء مزكاةً ومطهرةً، وحُرِّرت عن دنس..........................

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢١٥) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

التعلّقات بالسِّوى، مثلاً: تخلَّص القلبُ من التقلُّب، وبلغ مرتبةَ التمكين، وخرجت النَّفسُ من أن تكون أمَّارةً إلى فضاء الاطمئنان، وامتنع الجزءُ الناريُّ من البغي والعناد والطغيان، وارتفع العنصرُ الترابيُّ من الضَّعة وخسَّة الفطرة. وعلى هذا القياس تخلص كلّ جزءٍ من أجزائها من صفة الإفراط والتَّفريط، وحصل له وصفُ الاعتدال والتوسُّط، وبعد ذلك كلّه ركبت تلك الأجزاءُ بماء محضِ الفضل والكرم، وجعلت شخصاً معيناً، وسمي ذلك الشَّخصُ إنساناً كاملاً، وعُبِّر عن قلب ذلك الشَّخص الذي هو خلاصةُ مركز وجوده بالمضغة. هذا هو حقيقةُ المضغة ظهرتْ في كسوة القيل والقال على مقياس العبارة، والأمر إلى الله سبحانه.

فإن قال ناقصٌ: إنَّ كلَّ إنسانٍ مركَّبٌ من هذه الأجزاء العشرة، وإنَّ له هيئةً وحدانيةً من تركُّب تلك الأجزاء.

نقول: نعم، إنَّه مركَّبٌ من تلك الأجزاء، ولكنَّ تلك الأجزاءَ لم تكن مزكاةً ومطهرةً، ولم تتخلَّصْ عن دنس تعلّقات السِّوى بالجذبة والسلوك، بخلاف أجزاء الإنسان الكامل، فإنَّها صارت طاهرةً ونظيفةً بالفناء والبقاء كما مرّ، وحيث كانت تلك الأجزاءُ متباينةً ومتمايزةً في كلّ إنسانٍ، ولكلِّ جزءٍ منها أجزاءٌ متمايزةٌ، وأحوالٌ متغايرةٌ؛ لا يكون له نصيبٌ من الهيئة الوحدانية بالضَّرورة، فإن كانت له هيئةٌ؛ فهي اعتباريَّةٌ لا حقيقيَّةٌ، بخلاف أجزاء الإنسان الكامل، فإنَّها صارت ممتزجةً ومختلطةً بعدما خرجت من وصف التَّمايز والتباين، وتقرَّرت على حكمٍ واحدٍ بعدما زالت عنها الأحكامُ المتمايزةُ، والأحوالُ المتغايرةُ، فتكون الهيئةُ الوحدانيَّةُ فيه حقيقةً بالضَّرورة لا اعتباريَّة، كمعجونٍ يجعل من الأدوية المختلفة، فإنَّه بعد سحق أجزائه، وخلط بعضه ببعضٍ تثبت له هيئةٌ وحدانيَّةٌ، وتزول عنه الأحكامُ المتباينةُ، ويعرض له حكمٌ واحدٌ. فافهم والله سبحانه أعلم.

أيُّها الأخُ، إنَّ كلَّ هذه الكمالات التي أُثبتتْ للمضغة إنّما هي في مقام قاب قوسين، وقد يُتوهَّمُ هنا في الظَّاهر وصفٌ من المظهر، وإن كان الظَّاهرُ هنا هو الأصل، لا الظلّ الذي هو الصورةُ، ولكنَّ الشَّخصَ الظَّاهرَ في المرآة ليس بطاهرٍ ومبرَّأٍ عن وصف المرآة، فيثبت القوسان، ووراء هذا المقام مقامُ ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، وهو الذي لم يأخذ فيه الظَّاهرُ وصفاً من المظهر، ولا يتخيَّلُ هناك أمرٌ زائدٌ، فيكون القوسان فيه مفقودين، ولا يتصوَّرُ فيه غير وصفٍ واحدٍ، فإنَّه المناسبُ لمقام ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، معاملةُ هذا المقام مغايرةٌ لمعاملة مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. ينبغي تقليبُ تمام الأوراق[1] حتى يحمل الحمول من ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ إلى ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾.
كلامُنا إشاراتٌ ورموزٌ، وبشاراتٌ وكنوزٌ، والله الملهم. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وصحبه وسلم وبارك.

المكتوب الثاني والعشرون

إلى مولانا محمَّدٍ صادقِ الكَشْمِيريِّ في بيانِ تَشرُّفِ بَلدةِ سَرهَنْدَ ببَركةِ حَضرةِ الشَّيخِ سلَّمَه الله، وفَضيلتِها على أكثرِ البِلادِ، ومُشاهَدةِ نورٍ لم يَتطرَّق إليه غُبارٌ منَ الصِّفةِ في أرضٍ هو ساكِن فيها، وكَونِ ذلك الأرضِ مَدفَناً للمَخدومِ الأعظَمِ المَرحومِ الخـواجه محمَّد صادقٍ قدِّس سرُّه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ بلدة سرهند كأنَّها أرضٌ أَحْيَيْتَها بعناية الله سبحانه، وألطاف حبيبه الأكرم صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وكأنَّ البئرَ العميقةَ المظلمةَ مُلئتْ، وجعلت صفةً عاليةً لي، وصارت مرتفعةً من أكثر البلاد والبقاع، وأُودعَ في تلك الأرض نورٌ مقتبسٌ من نورٍ لا وصفيٍّ ولا كيفيٍّ، كنورٍ ساطعٍ لامعٍ من أرض حرم الله المقدسة، وقد ظهر ذلك النورُ لهذا ....

(١) يعني: أوراق عالم الإمكان الذي هو أحد القوسين، فلا يبقى بعده إلا قوسُ الوجوب، وهو مقام ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾. من المعرِّب.

الدرويش قبل ارتحال ولدي الأعظم المرحوم بأشهرٍ، وبدا بزاوية أرضٍ فيها مسكنُ الفقير، وكان نوراً ساطعاً لم يتطرَّقْ إليه غبارٌ من الصفة والشأن، وكان مبرَّأً ومنزهاً عن الكيفيات، وكان متمناي أن تكون تلك البقعةُ مدفناً لي، وأن يكون ذلك النورُ لامعاً على رأس قبري، وأظهرتُ هذا المعنى لولدي الأعظم الذي كان صاحب سرّي، وأطلعتُه على ذلك النور والتمنّي، فسبقني (١) ولدي المرحوم إلى هذه الدَّولة اتفاقاً، وصار مستغرقاً في بحر النور وراء حجاب التراب: (شعر)

هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

ومن شرافة هذه البلدة المعظمة: دُفن فيها مثلُ ولدي الأعظم الذي هو من أكابر أولياء الله تعالى واستراح، ثم ظهر بعد مدَّةٍ أنَّ ذلك النورَ المودعَ فيها لمعةٌ من أنوار قلب هذا الفقير أودع فيها مقتبساً من هنا، كسراج يشتعل من مشعلةٍ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

المكتوب الثالث والعشرون

إلى المَخدومِ زَادَه الخـواجه محمَّد عبدِ الله سلَّمه الله تعالى وأبقاهُ، وأوصَلَه إلى غـايَة ما يتَمنَّاه، في بيانِ أنَّ عُمدَةَ الأمرِ هيَ اتِّباعُ السُّنَّة السَّنيَّة، والاجتِنابُ عنِ البِدعَة الغَيرِ المَرضيَّة، وبيانِ أنَّ مزيَّة الطَّريقَة النَّقشـبَنديَّة العَليَّـة على سَلاسِلَ أُخرَى إنَّما هيَ بسَبَبِ اتِّباعِ صـاحبِ الشَّـريعَة عليه وعلى آله الصَّلاة والتَّحيَّة، والـعَمَلِ بالـعزيمَة، وفي مدحِ هذه الـطَّريقَة العَـليَّة، وما يُناسبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ النَّصيحةَ التي أنصح بها ولدي الأعزَّ سلَّمه الله سبحانه، وصانه عما لا يليق بجنابه، وسائرَ أحبابه: اتِّباعُ السُّنَّة السَنيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والاجتنابُ عن البدعة الغير المرضيَّة، وحيث طرأت الغربةُ على الإسلام في هذه الأوان، وصار المسلمون غرباء، وكذلك تزيد غربتُهم مع مرور الزمان، إلى أن لا يبقى على وجه الأرض من يقول: الله، وتقوم السَّاعةُ على شرار الناس؛ فالسعيدُ: من يحيي سنةً من السُّنن المتروكة، ويميت بدعةً من البدع المستعملة، وهذا زمانٌ قد مضى من بعثة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام ألف سنةٍ، وظهرت من علامات القيامة وأشراط الساعة أماراتٌ، واستترت السنَّةُ بواسطة بُعْد عهد النبوَّة، وجلّت البدعةُ بعلَّة فشوّ الكذب، واحتيج إلى بازٍ ينصر السنَّةَ، ويهزم البدعةَ، ترويجُ البدعة موجبٌ لتخريب الدين، وتعظيمُ المبتدع باعثٌ على هدم الإسلام، ولعلك سمعت: «**مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ؛ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ**»، فينبغي التوجّهُ بجميع الهمَّة وتمام النّهمة لترويج سنَّةٍ من السنن، ورفع بدعةٍ من البدع، وإقامةُ مراسم الإسلام في جميع الأوقات - خصوصاً في هذه الأوان التي فيها ضعف الإسلام - منوطةٌ بترويج السنة، وتخريب البدعة، وكأنَّ السَّابقين رأوا الحسنَ في البدعة، حيث استحسنوا بعضَ أفرادها، ولكنَّ الفقيرَ لا يوافقهم في هذه المسألة، ولا أرى في فردٍ واحدٍ من أفراد البدعة حسناً، ولا أحسُّ فيها شيئاً غيرَ الظُّلمة والكدورة، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وأجدُ السَّلامةَ في هذه الغربة، وضعف الإسلام ....

(١) فيه إشارة إلى أنَّه سيلحقه بعده، ويحصل متمناه، وصار كذلك، فإنَّه دفن فيه، وكذلك أولاده وأحفاده الأمجاد. من المعرب.

منوطة بإتيان السنَّة، والهلاك مربوطاً بتحصيل البدعة، أيَةَ بدعةٍ كانت، وأرى البدعةَ كمِعْوَلٍ يُهَدُّ به مباني الإسلام، وأجد السنَّةَ مثل كوكبٍ مشرقٍ يهتدى به في دَيْجور الضَّلالة، وفَّق الحقُّ سبحانه علماءَ الوقت لعدم التفوُّه بحسن بدعةٍ أصلاً، ولعدم الإفتاء بإتيانها، وإن كانت تلك البدعةُ جلية في نظرهم مثلَ فلق الصبح، فإن لتسويلات الشيطان سلطاناً عظيماً فيما وراء السنة، وحيث كان للإسلام قوَّةٌ في الأزمنة الماضية تحمَّلَ ظلماتِ البدع بالضَّرورة، ولعلَّ بعض تلك الظُّلمات خيِّل نورانيّاً في تشعشع نور الإسلام، وصار ذلك التخيُّلُ باعثاً على الحكم بحسنه، وإن لم يكن له في الحقيقة نورانيَّةٌ وحسنٌ أصلاً، بخلاف هذا الوقت، فإنَّه وقتُ ضعف الإسلام لا يتصوَّرُ فيه تحمُّل ظلمات البدع، ولا ينبغي هنا تمشيةُ فتوى المتقدمين والمتأخرين، فإنَّ لكلِّ وقتٍ أحكاماً على حدةٍ، ويظهر العالمُ في النَّظر في هذا الوقت من كثرة ظهور البدعة مثلَ بحر الظُّلمة، ويُحَسّ نورُ السُّنَّة من غربتها وندرتها مثل المشاعل في ذلك البحر، وعملُ البدعة يزيد تلك الظلمةَ، ويقلِّلُ نورَ السنَّة، وعملُ السنة يكون باعثاً على تقليل تلك الظُّلمة، وتكثير ذلك النور، فمن شاء فليكثر ظلمةَ البدعة، ومن شاء فليكثرْ نور السنة، ومن شاء فليكثر حزبَ الشيطان، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ومن شاء فليكثر حزب الله، ألا إن حزب الله هم الغالبون. ولو أنصف صوفيَّةُ الوقت، ولاحظوا ضعفَ الإسلام، وفشوَّ الكذب؛ لزمهم أن لا يقلِّدوا شيوخهم فيما وراء السنة، وأن لا يجعلوا الأمورَ المخترعةَ بعذر عمل شيوخهم بها ديدنَهم، فإنَّ اتِّباعَ السنَّة منجٍّ ألبتَّةَ، ومثمرٌ للخيرات والبركات، وفي تقليد غير السنة خطرٌ في خطرٍ، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

جزى الله سبحانه عنا أشياخنا خير الجزاء، حيث لم يدلُّوا أمثالنا العاجزين على إتيان الأمور المبتدعة، ولم يُلْقُونا في ظلماتٍ مهلكةٍ بتقليدهم، ولم يهدونا إلى ما دون متابعة السنة، وغير اتِّباع صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية، وسوى العمل بالعزيمة، فلا جرم كانت دعائمُ طريقتهم محكمةَ الأساس، وإيوانُ وصولهم مرتفعَ البناء، ومشرقَ النبراس، وهم الذين جعلوا الرَّقصَ والسَّماعَ تحت أرجلهم، وشقُّوا الوجدَ والتواجدَ نصفين بمسبّحتهم، ومكشوفُ الآخرين ومشهودُهم داخلٌ عند هؤلاء الأكابر في السوى والأغيار، ومعلومهم ومتخيَّلُهم قابلٌ ومستحقٌّ للنفي لا للإشهار، ومعاملةُ هؤلاء الأكابر فيما وراء المشاهدة والإدراك، وفيما وراء المعلومات والمتخيلات، وفيما وراء التجلِّيات والظهورات، وفيما وراء المكاشفات والمعاينات، اهتمامُ الآخرين في الإثبات، وهم هؤلاء الأكابر في نفي السِّوَى، والآخرون يكررون كلمةَ النفي والإثبات لتوسيع دائرة الإثبات، ولينكشف لهم العالمُ الذي هو ظاهرٌ بعنوان الغيريَّة بعنوان الحقية والعينيَّة، فيرون الكلَّ، ويجدونه حقّاً تعالى وتقدّس، بخلاف هؤلاء الكبراء فإنَّ مقصودهم من تكرار الكلمة الطيِّبة (لا إله إلا الله) هو اتِّساعُ دائرة النفي ليكون جميعُ المكشوفات والمشهودات والمعلومات داخلةً تحت كلمة (لا)، وفي جانب الإثبات لا يكون شيءٌ منظوراً وملحوظاً، فإن ظهر فرضاً أمرٌ في جانب الإثبات ينبغي إرجاعُه إلى النفي، ولا يكون في جانب الإثبات نصيبٌ أصلاً غيرَ التكلّم بكلمة المستثنى، فيكون ذكرُ النفي والإثبات في طرق الآخرين مناسباً لحال المبتدئين، وذكرُ الله الذي هو كلمة الإثبات المحض يكون مناسباً بعد ذلك ليحصل بتكرار كلمة الإثبات استقرارٌ واستمرارٌ للمثبت المكشوف، بخلاف طريق هؤلاء الأكابر، فإنَّه على عكس ذلك؛ لأنَّ فيه إثباتاً أوَّلاً، ونفيَ ذلك..................

الإثبات ثانياً، فيكون ذكرُ اسم الله في هذا الطَّريق مناسباً في الابتداء، ثم يستعمل بعده النفيُ والإثباتُ.

فإن قال ناقصٌ: على هذا التَّقدير لا يكون لأكابر هذا الطَّريق نصيبٌ من مقام الإثبات، ولا يكون بضاعتهم غيرَ النَّفي.

أجيب: إنَّ إثباتَ الآخرين حاصلٌ في أوائل حال هؤلاء الأكابر، ولكنَّهم من عُلُوّ الهمة لا يلتفتون إليه، بل يرونه متسحقّاً للنفي، فينفونه، ويعتقدون المطلوبَ المثبتَ وراءه، فإثباتُ الآخرين ميسَّرٌ لهم، ونفيُ ذلك الإثبات الذي هو مناسبٌ لمقام الكبرياء أيضاً حاصلٌ لهم، لا سبيل لكلِّ ناقصٍ إلى أشغالهم وأحوالهم، ولا شعورَ لكلِّ مهووس بحقيقة معاملتهم وأفعالهم، وجميعُ ما ذكر هو نبذةٌ من عدم حصول هؤلاء الأكابر الذي هو عينُ الحصول في ذلك الموطن، فإنَّ بينَ حصول أكابر الأكابر للحق الخواص بالعوام، واختار المنتهون تعلُّم ألف بأمثل المبتدئين الأصاغر: (شعر)

خَـلِـيـلَـيَّ مَـا هَـذَا بِـهَـزْلٍ وَإِنَّـمَـا ... حَـدِيـثٌ عَجِيـبٌ مِنْ بَـدِيعِ الْغَرَائِـبِ

ومراقبةُ الذات التي اختارها الآخرون ساقطةٌ عندهم عن حيّز الاعتبار، وداخلةٌ فيما لا حاصلَ فيه، وليست المراقبةُ هناك لغير ظلٍّ من الظلال، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فإن ذاته تعالى وتقدس - بل أسماؤه وصفاته سبحانه - خارجةٌ عن حيطة فكرنا ومراقبتنا، لا نصيبَ من هذا المقام غيرُ الجهل والحيرة، وليس المرادُ بهذا الجهل والحيرة: ما يعرفه الناس جهلاً وحيرةً، فإنَّهما مذمومان، بل جهلُ هذا الموطن وحيرتُه عينُ المعرفة والاطمئنان، وليس المرادُ بهذه المعرفة والاطمئنان ما يدخل في حَيْطَة فهم الإنسان، فإنَّه من مقولة الكيف لا نصيبَ له من اللاكيفيّ، وكلُّ شيءٍ نُثْبِتُه في ذلك الموطن يكون لا كيفيّاً، سواء عبَّرنا عنه بالجهل أو بالمعرفة، من لم يَذُقْه لم يَدْر. وأيضاً إنَّ توجّهَ هؤلاء الكبراء إلى الأحديَّة تعالت وتقدست لا يريدون من الاسم والصِّفة غيرَ الذات تعالت وتقدست، ولا يَنْزِلون من الذات إلى الصِّفات كغيرهم، ولا يقعون من الذِّروة إلى الحضيض، والعجبُ أنَّ جمعاً من هذه الطَّائفة اختاروا ذكرَ اسم الله، ثم لم يكتفوا به، بل تنزَّلوا إلى الصِّفات، وصاروا يلاحظون السَّميعَ والبصيرَ والعليمَ، ثم يذهبون من العليم والبصير والسميع إلى اسم الله على سبيل العروج، لِمَ لا يكتفون باسم الله وحده؟ ويجعلون قبلةَ التوجّه غير أحدية الذات تعالت وتقدست، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] نصٌّ قاطعٌ في هذا المدّعى، و﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] مؤيّدٌ لهذا المعنى.

وبالجملة إنَّ نظرَ هِمَم أكابر هذه الطَّريقة عالٍ جداً، لا نسبةَ لكلّ زرّاقٍ ورقاصٍ إليهم، ولهذا صارت نهايةُ الآخرين مندرجةً في بدايتهم، ونال مبتدؤوا طريقتهم حكم منتهي طرقٍ أخر، وتقرَّرَ سفرُهم في الوطن من ابتداء الأمر، وحصلت لهم الخلوةُ في الجلوة، وكان دوامُ الحضور نقدَ وقتهم، ورأسَ بضاعتهم، وهم الذين صارت تربيةُ الطالبين مربوطةً بصحبتهم العليّة، وكان تكميلُ الناقصين منوطاً بتوجّهاتهم الشَّريفة، نظرُهم شفاءُ الأمراض القلبيَّة، والتفاتُهم دافعٌ للعلل المعنوية، ويعمل توجّههم الواحد عملَ مائةٍ من الأربعين، والتفاتهم الواحد يساوي رياضة السنين: (شعر)

مَـا أَحْسَـنَ النَّقْشَـبَنْدِيِّينَ سِـيرَتَهُمْ ... يَمْشُـونَ بِـالرَّكْـبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ

أيها السعيدُ، لا يتوهّم أحدٌ من هذا البيان أنَّ هذه الأوصافَ والشمائلَ حاصلةٌ لجميع........

أساتذة الطَّريقة النقشبنديَّة العليّة وتلامذتهم، كلا، بل هذه الشَّمائلُ مخصوصةٌ بأكابر أكابر هذه الطَّريقة العليّة الذين بلغوا الأمر إلى نهاية النهاية، والمبتدؤون الراشدون الذين صحَّحوا نسبةَ الإرادة والانتساب إلى هؤلاء الأكابر، وراعوا آدابهم؛ فاندراجُ النهاية في البداية ثابتٌ في حقّهم، وأما المبتدئُ الذي وصل إلى شيخٍ ناقصٍ من هذا الطَّريق؛ فاندراجُ النهاية غيرُ متصوَّرٍ في حقّه، فإنَّ شيخَه لم يصل بعدُ إلى النهاية، فكيف تتصور النهايةُ في حق المتبدئ؟

(ع) وَكُـلُّ إِنَـاءٍ بِـالَّـذِي فِـيـهِ يَـنْـضَـحُ

أيها الطالبُ لطريق النجاة، إنَّ طريقَ هؤلاء الأكابر طريقُ الأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وهذا الاندراجُ - أعني: اندراجَ النهاية في البداية - أثرُ ذلك الاندراج الذي كان يتيسّرُ لهم في صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّه كان يتيسّرُ لهم في صحبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما لا يحصل لغيرهم في الانتهاء إلا قليل، وهذه الفيوضاتُ والبركاتُ هو عينُ تلك الفيوض والبركات التي ظهرت في القرن الأوّل، وإن كان الآخرُ بعيداً من الأوّل في الظَّاهر بالنِّسبة إلى الوسط، ولكنَّ الأمرَ بالعكس في الحقيقة، فإنَّ الآخر أقربُ إليه من الوسط، ومنصبغٌ بصبغه، يصدِّقه المتوسطون أو لا، بل لا يعلم إدراكُ أكثر المتأخرين حقيقةَ هذه المعاملة. والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات العلى.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

إلى الحاجِّ محمَّدٍ الفَرْكَتِيِّ في جَوابِ كِتابِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد صار ورودُ المكتوب الشَّريف المرسل من كمال الإخلاص والمودَّة موجباً لفرحٍ كثيرٍ، وتجعلك نسبةُ الرَّابطة مع صاحب الرابطة دائماً، وتكون واسطةً للفيوضات الانعكاسيَّة، ينبغي أداءُ شكر هذه النِّعمة العظمى كما ينبغي، والبسطُ والقبضُ كلاهما جناحا الطَّيران في هذا الطَّريق، لا ينبغي الحزنُ للقبض، والفرحُ للبسط. ولقد تمنَّيتَ حصولَ مشاهدة الجمال اللايزاليّ في جميع الذَّرات، أيُّها المحبُّ، ما للعبد وللتمنّي، فإنَّ متمناه لا بد وأن يكون قاصراً على مقدار فهمه، ومشاهدةُ الجمال اللايزاليّ في مرآة الذرات من قصور النَّظر، فإن الذَّرات من أين لها مجالٌ أن تكون مرايا ذلك الجمال؟ وما يشاهَدُ في مرايا الذرات إنّما هو ظلٌّ من ظلال ذلك الجمال التي لا نهايةَ لها، ينبغي أن يطلبَه تعالى وراءَ الوراء، وأن يلتمسه سبحانه في خارج دائرة الآفاق والأنفس، والنِّسبةُ التي هي فيك الآن فوق ما تتمنَّاه، وإياك والميلَ إلى الأسفل تقليداً للناس، واحذر من تمنّي النُّزول من الأَوْج إلى الحضيض، فإنَّ معاملةَ الأكابر عاليةٌ، «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْهِمَمِ**»، المسؤولُ من الله سبحانه جمعيتكم الصوريَّةُ والمعنويَّةُ. والسلام.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

إلى الخـواجه شَرفِ الدِّينِ حُسينٍ في بيانِ أنَّ كلَّ عَملٍ يَصدُر على وفقِ الشَّريعَة الغرَّاء؛ فهو داخِلٌ في الذِّكرِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد وصلت الصحيفةُ الشريفةُ التي أرسلها ولدي الأعزُّ صحبة مولانا عبد الرشيد ومولانا جان محمد، ووصل مبلغُ النذر أيضاً جزاكم الله سبحانه خيراً، قد أورث سماعُ خبر صحتكم فرحاً وافراً.

أيُّها الولدُ، إنَّ الفرصة غنيمةٌ، والصحَّةَ والفراغَ مغتنمان، فينبغي صرفُ الأوقات إلى الذكر الإلهيّ جلّ شأنه على الدَّوام، وكلُّ عملٍ...

يصدر على وفق الشَّريعة الغراء؛ فهو داخلٌ في الذكر، وإن كان بيعـاً وشراءً، فينبغي مراعاةُ الأحكام الشَّرعيّة في جميع الحركات والسكنات؛ لتصير كلها ذكراً، فإنَّ الذكرَ عبارةٌ عن طرد الغفلة، ومتى حصلت مراعاةُ الأوامر والنواهي في جميع الأفعال؛ فقد تيسّرت النجاةُ من أسر الغفلة عن الآمر بالأوامر، والناهي عن المناهي، وحصل دوامُ ذكره تعالى، وهذا الذي ذكرناه من دوام الذكر وراء ياد داشت خواجكان قدس الله أسرارهم، فإنَّه مقصورٌ على الباطن، وهذا متمشٍّ في الظَّاهر أيضـاً، وإن كان مُتعَسِّراً، وفَّقنا الله سبحانه وإياكم بمتابعة صاحب الشَّريعة، عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالعِشْرُون

إلى مَعدِنِ العِرْفانِ المِيرزا حُسامِ الدِّينِ أحمَدَ في جَوابِ كِتابِه الذي تَفوحُ عنه رائِحَة العصَبيَّة، وبيانِ أنَّ تَلقينَ الذِّكرِ مثل تَعليمِ ألِف بَاء للصِّبيانِ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. **وبعدُ**: فقد تشرفتُ بمطالعة الصحيفة المكرّمة المرسلة صحبةَ قاصد كشمير، وحيث كانت متضمنةً بخبر خيريّة حضرات تلك الحدود أورثت فرحـاً وافراً، جزاكم الله سبحانه خيراً، وقد اندرج فيها أنَّ المخدوم زاده الأعظم والخواجه جمال الدين حسين لا يقدران على الوصول هناك بواسطة الاستحياء من تلقين الشَّيخ ميان إلهداد. أيُّها المخدومُ، لا يزال يفوحُ من مثل هذا الكلام رائحةُ العصبيَّة، ويفهم من هذا الوضع والطرح المباينةُ والمخالفةُ، إنا لله وإنا إليه راجعون، وكان ينبغي للمخدوم زاده الأعظم أن يستحيي من مخالفة وصية والده الماجد، والحياء من التوجّه والإفادة الواقعان في حضوره بأمره إليهما، وكان ينبغي للشيخ إلهداد مع وجود دعوى الانقياد للشيخ أن لا يجترئ على هذا الأمر، وأن يلاحظ الوصيةَ وسبقةَ الإفادة، والذي كتبتموه لا بدَّ وأن يكون حقّـاً وصوابـاً، ولكنَّ المكتوبَ الذي أرسله المخدوم زاده الأعظم مع أخيه الأعزّ كان متضمِّنـاً لكمال التَّواضع، ومشتملاً على فرط الطَّلب والشَّوْق، والعباراتُ التي اختارها في ذلك المكتوب لا يُتصوَّرُ إيرادها بدون جنون الطلب، ولعلّه تطرق إليه انحرافٌ بعد إرساله المكتوب، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. ولكن الفقيرَ يعلم أنَّ وصيته لا تكون بلا حكمةٍ، وأرجو أن يكون لها عاقبةٌ محمودةٌ، ولكني أتأسَّفُ على ضياع مثل ذلك الطلب الذي فهمت نبذةً منه من مكتوبه، ويقعد ضدّه في محله، وهذا المعنى ثقيلٌ على الأحباب الناصحين جداً بحيث يتم عليهم المأتم بذلك.

أيُّها المكرّمُ، إن تَمَّ الأمرُ بمجرد التلقين؛ فمباركٌ، وعند الفقير تلقينُ الذكر كتعليم ألف با للصبيان، فإن كان مجرّدُ ذلك التعليم محصلاً لملكة المولوية؛ فأيُّ مضايقةٍ فيه؟ والمتوقَّعُ من كرم التفاتكم هو أن تتركوا كفةَ العصبية، وأن تجعلوا محبتكم ومودتكم لجميع الإخوان على السوية، وماذا أبالغ أزيد من ذلك؟ والسلام.

المَكتُوبُ السَّابِعُ وَالعِشْرُون

إلى مولانا محمَّدٍ طاهرِ البدَخْشيِّ في جَوابِ تَشكيكاتِ الشَّيخِ عبد العَزيزِ الجُونْپُورِيِّ في المَكتوبِ الأوَّل.

المرسل إليه بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ المكتوبَ الذي أرسلتموه بعد مدَّةٍ مديدةٍ أوجب الفرحَ بوصوله، جعلكم الله سبحانه مُحَلّىً ومزيناً بجمعيَّة الظَّاهر والباطن على الدوام، والفقيرُ قد كتبت إليكم في هذه المدة ثلاثةَ مكاتيب، ووصل منها إليكم مكتوبٌ..

واحدٌ، وبُعْدُ المسافة عذرٌ مانعٌ، ووصل أيضاً مع مكتوبكم المكتوبُ الذي كتبه الشَّيخ عبد العزيز، واتضح ما اندرج فيه، ومما اندرج فيه: أنَّه لو كانت حقائقُ الممكنات التي هي صور علمية العدمات التي هي أضداد الصِّفات يلزم حصولُ تلك العدمات في الذات تعالت وتقدست، وهو سبحانه منزَّهٌ عن ذلك، وهذه شبهةٌ عجيبةٌ، ألم يعلم أنَّ الحقَّ سبحانه يعلم الأشياء الشريفة والكثيفة، وليس لشيء منها حصول في حضرة الذات تعالت، ولا اتِّصافَ للذات بشيء منها؟ فمن أين جاء الحصولُ في هذه الصورة؟ ومنه أنَّ حقائقَ الممكنات ينبغي أن تكون وجوديّةً وثبوتيةً لا عدميّةً، فإنَّ الحقائقَ عبارةٌ عن أرواح الممكنات ونفوسها. نعم، إنَّ لها وجوداً وثبوتاً علميين، وهذا هو القدرُ اللازمُ في الحقائق، وكان ينبغي له أن يعترض بهذا الاعتراض أوَّلاً على الشَّيخ محيي الدين ابن العربي؛ لأنَّه قال: الأعيانُ ما شمَّت رائحةَ الوجود، والعجبُ أنَّه جعل الحقائقَ هنا عبارةً عن أرواح الممكنات ونفوسها، وترك[1] الأعيانَ الثابتةَ ومعلومات الله تعالى. ومنه أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء عليهم الرضوان وسائر أفراد الإنسان من الممكنات، فلو كانت حقائقُ هؤلاء عدماتٍ؛ يكون الشَّرَفُ مسلوباً عن هؤلاء الزمرة العليّة، والكمالُ فيهم معدوماً، كيف يكون مسلوباً ومعدوماً، فإنَّ الحقَّ سبحانه جعل تلك العدمات بحكمته البالغة وقدرته الكاملة وبحسن تربيته مرايا عكوس أسمائه وصفاته، وشرّف بشرف النبوَّة والولاية، وجعل محلّىً بحلية ظلال كمالاته، وصيّر معززاً ومكرّماً، كما أنَّه سبحانه خلق الإنسان من ماء مهين، وبلّغه الدَّرجات العلى؟ والعجب أنَّهم يلاحظون شرفَ الإنسان وكرامته، ويضيعون تنزيهَ الواجب وتقديسه تعالى وتقدس، ويقولون: الكلُّ هو، ويزعمون الأشياءَ الخسيسةَ الرذيلةَ عينَ الحق تعالى وتقدس، ولا يتحاشون عن أمثال تلك المقولة، ولا يجوِّزون للإنسان حقائق عدميّةً، ويتحاشون عنه، أعطاهم الله سبحانه الإنصافَ. ومنه أنَّه لا يمكن رفعُ الكلام المجمع عليه بالمبتدع، نحن نرى الكلامَ المبتدعَ القولِ بأنَّ الكلّ هو، لا القولَ بأنَّ الكلّ منه، فإنَّه مما أجمع عليه العلماءُ، وإنَّما تتوجّه الملامةُ والشناعةُ إلى صاحب «الفصوص» إلى هذا الزمان بواسطة قوله: الكلُّ هو، وحاصلُ معارف الفقير التي كتبتها: الكلُّ منه، وهو مقبولٌ شرعاً وعقلاً، وكيف إذا كان مؤيَّداً بالكشف والإلهام؟

ثم كتب الشَّيخُ بعد ذكر الاعتراضات تنزلاً إلى مقام الشفقة: أنَّه لو أريد بحقائق الممكنات الأرواحُ الإنسانيةُ؛ فموافقٌ للجمهور، ولم أدر أيَّ صنفٍ أراد من الجمهور؟ فإنَّه لم يسمع إلى الآن أنَّ أحداً قال بأن حقائق الممكنات هي الأرواحُ الإنسانيّةُ، والعجبُ من الشَّيخ كلَّ العجب حيث تخيَّل أنَّ كلَّ أحدٍ يقول ما يقول بالقياس والتخمين، وينسجه بالتفكُّر والتخيُّل. كلا، إنَّ المعارفَ التي تملى وتُكْتَبُ بلا كشفٍ وإلهامٍ، أو تُحَرَّرُ وتقرَّرُ بدون شهودٍ ومشاهدةٍ، فهي بهتانٌ وافتراءٌ، خصوصاً إذا كانت مخالفةً لما ذهب إليه القومُ، ولم أدر ماذا اعتقد الشَّيخُ المشارُ إليه؟ ومن أي قبيلٍ فهم هذه المعارف؟ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. والسلام.

المكتوب الثامن والعشرون

إلى مولانا محمَّد صادقِ الكَشْمِيرِيِّ في جوابِ استِفساراتِه.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ المكتوبَ الشَّريفَ قد وصل، وحيث كان ....

(١) يعني: أنَّه ادَّعى أوَّلاً أنَّ الحقائقَ عبارةٌ عن الصور العلمية التي هي الأعيانُ الثابتةُ، فتركه هنا، وادَّعى أنَّه عبارةٌ عن الأرواح. من المعرب.

متضمناً لأحوال شريفةٍ مقبولةٍ صار موجباً للفرح، وكتبتَ فيه أنَّ المعاملةَ في الدِّراية بلغت مبلغاً لا أقدر حملَ الصِّفات على الذات تعالت وتقدست إلا بالتكلّف، وأرى أنَّ الحقّ سبحانه وراء الكلّ، ينبغي السعيُ إلى أن لا يبقى هذا الحملُ بالتكلّف أيضاً، وينجر الأمرُ إلى الحيرة الصرفة. وسألت أنَّه نقل في «الرشحات» عن بابا آبريز أنّه قال: لَمّا عجن الحقُّ سبحانه طينةَ آدم في الأزل صببتُ الماء في ذلك الطين، فما يكون تأويلُ هذا الكلام؟

اعلم أنَّ الملائكةَ الكرامَ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام كان لهم دخلٌ في خدمة طينة آدم عليه السلام، كذلك يجوز أن يكون للروح المذكور دخلٌ في تلك الخدمة، وأن يفوَّضَ إليه خدمةُ صبّ الماء، وأن يكون مطّلعاً من عالم الغيب على هذا المعنى بعد نشأته العنصريّة، بل بعد كماله، ويجوز أن يعطي الحقُّ سبحانه للأرواح المجردة قدرةً تصدر بها أفعالُ الأجسام، ومن هذا القبيل ما أخبر بعضُ الكبراء عن أفعاله الشاقة الصادرة عنه قبل وجوده العنصريّ بقرونٍ متطاولةٍ، وكان صدور تلك الأفعال عن أرواحهم المجردة، وحصل لهم الاطلاعُ على هذا المعنى بعد وجوده العنصريّ، وأوقع صدورُ هذه الأفعال جماعةً في توهُّم التناسخ، معاذ الله من توهم تعلّق تلك الأرواح بأبدانٍ أخرى، والروحُ المجردةُ هي التي تفعل أفعالَ البدن بإقدار الله جل سلطانه، وتوقّع أرباب الزيغ في الضلالة، ومجالُ الكلام في هذا المقام كثيرٌ، وقد فاضت تحقيقاتٌ عجيبةٌ، فإن وفقنا نثبتها في محلٍّ إن شاء الله تعالى، والآن لم يساعد الوقت. وسألت أيضاً أنَّه قد ذكر في «الرشحات»: أنَّ الخواجه علاء الدين العطار قدس سره لما تأذّى خاطره من مولانا نظام الدين الخاموش قدس سره أراد أن يسلب عنه نسبته، فالتجأ مولانا في ذلك الوقت إلى روحانية النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فوصل الخطابُ منه ﷺ إلى حضرة الخواجه: إنَّ نظام الدين منا، ليس لأحدٍ مجالُ التصرُّف فيه، وذكر في محلٍّ آخرَ من هذا الكتاب: أنَّ الخواجه أحرار قدس سره سلب نسبةَ مولانا حين صيرورته شيخاً كبيراً، فقال مولانا: إنَّ الخواجه وجدنا شيخاً، فأخذ كلَّما كنت نِلْتُه وجمعتُه، وصيَّرني مفلساً في آخر الأمر، كيف يتصرَّفُ الخواجه أحرار قدس سره فيمن قال رسول الله ﷺ في حقّه: إنَّه منا ليس لأحدٍ مجالُ التصرف فيه؟

اعلم أنَّ حضرة شيخنا قدس سره كان لا يستحسن هذا النقلَ، وكان يتوقَّفُ في تصديق سلب نسبة مولانا، وكان يقول: إنَّ هذا النَّقلَ لم يثبتْ من مولانا عبد الرحمن الجامي وغيره من مريدي مولانا سعد الدين الكاشغريّ الذي هو مريدُ مولانا نظام الدين، ولم ينقل عن أحدٍ منهم بالردّ والقبول، وهم جماعةٌ كثيرونٌ، فمن أين سمعه مولانا فخر الدين علي وكتبه؟ فإن كان هذا الخبرُ صادقاً؛ لنُقِل بالتواتر لتوفُّر الدواعي على نقله، وحيث لم ينقل بالتواتر، وتقرَّر على خبر الواحد؛ عُلِمَ أنَّ في صدقه تردُّداً، وبعضُ النقول التي ينقلها صاحب «الرشحات» غير هذا أيضاً بعيدٌ عن الصدق، ولأهل هذه السِّلسلة العليّة ترددات في صدق تلك النُّقول، وهو سبحانه أعلم.

وأيضاً كان حضرةُ شيخنا قدس سره يقول: إنَّ التفليسَ يدلُّ على[1] سلب الإيمان، أعاذنا الله سبحانه منه، وتجويزُ هذا المعنى مشكلٌ جداً، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

إلى مَعدِنِ الفَضيلَة الشَّيخ عبدِ الحقِّ الدِّهْلَوِيِّ في بيانٍ أنَّ أفضَل الأمتِعَة في هذه النَّشأةِ: الحُزنُ والغمُّ، وأهنَى نِعمِ هذه المائِدَة: المُصيبَةُ والألَمُ.

(١) قلتُ المرادُ بالتفليس: هو سلبُ نسبة الطريقة، بل التصرُّفاتُ التي كانت له أوّلاً، لا سلبُ الإيمان، والمريدُ إنَّما يذكر مناقب شيخه، فلا يلزم من عدم ذكرهم كذبُه ولا غيرُه من المحذورات. والله سبحانه أعلم. من المعرب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها المخدومُ المكرّم، إنَّ الآلامَ والمصائبَ وإن كانت ثقيلةً حيث إنَّها تحملُ الأذى، ولكن فيها رجاء الكرامات، وأفضلُ أمتعة هذه النشأة الحزنُ والغمُّ، وأهنى نعيم هذه المائدة المصيبةُ والألم، قد جعل هذا السُّكَّرُ في غلاف رقيق من دواء مرّ، وفتح طريقُ الابتلاء بهذه الحيلة نظرَ السعداء إلى حلاوة ذلك السُّكر، وصاروا يبلعون ذلك المر مثل السُّكر، ووجدوا المرارةَ حلواً، على عكس الصفراويّ، حيث لا يجده حلواً، فإنَّ أفعال المحبوب كلَّها حلوةٌ، وإنَّما يجدها مراً من كان عليلاً بعلة التعلّق بالسوى، وأهلُ السعادة يجدون في إيلام المحبوب من الحلاوة واللذة ما لا يُتصوَّرُ وجدان مثله في الإنعام، فإنه وإن كان كلاهما من المحبوب، ولكن لا مدخل في الإيلام لنفس المحب، وفي الإنعام قيامٌ بمراد النَّفس:

(ع) هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، ووجودكم الشَّريف وقت غربة الإسلام مغتنمٌ لأهل الإسلام، سلمكم الله سبحانه وأبقاكم. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّلاثُونَ

إلى الخـواجه محمَّدٍ أشرَفَ والحاجِّ محمَّدٍ الفَرْكَتِيِّ في جوابِ سُؤالَيهما: أحَدُهما: عن دَوامِ نِسبَةِ الرَّابطَة، والآخَر: عنِ الفُتورِ في المَشغُوليَّة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصحيفةُ التي أرسلها الأخُ الأعزُّ الأشرفُ، واتضحت الكيفياتُ المندرج فيها بيانها، كتب الخواجه محمد أشرف عن دوام نسبة الرابطة بأنَّها قد استولت على حدٍّ أراها في الصلاة مسجودةً لي، فإن نَفَيْتُها فرضاً لا تنتفي أصلاً. أيُّها المحبُّ، إنَّ هذه الدَّولةَ هي متمنى الطلاب، ولا يعطاها إلا واحدٌ من ألوفٍ، وصاحبُ هذه المعاملة مستعدٌّ تامُّ المناسبة، يحتمل أن يجذب جميع الكمالات بقليلٍ من صحبة المقتدى به، وكيف تنفى الرابطة، فإنَّها مسجودٌ إليها، لا مسجود لها؟ ولِمَ لا تنفى المحارب والمساجد؟ وظهورُ مثل هذه الدَّولة إنّما يتيسّرُ للسعداء حتى يعلم صاحبُ الرابطة واسطته في جميع الأحوال، وليكون متوجّهاً إليه في جميع الأوقات، لا لجماعةٍ حرموا الدَّولةَ، وزعموا أنفسهم مستغنين، ويحرفون قبلةَ توجّههم عن شيخهم، ويضيّعون معاملتهم. وكتبتَ أيضاً خبرَ فوت والدة الأولاد، فقلنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقرأنا الفاتحة، وفهم أثر الإجابة في أثناء القراءة. وذكر مولانا الحاج محمد أنه قد طرأ الفتورُ في المشغولية منذ شهرين، ولم يبقَ شيءٌ من الذوق والحلاوة اللذين كانا من قبلُ.

أيُّها المحبُّ، لا غمَّ إذا لم يطرأ الفتور على شيئين: أحدهما: متابعةُ صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية، الثّاني: الإخلاصُ والمحبّةُ لشيخه، فلو طرأ ألوفٌ من الظلمة مع وجود هذين الأمرين لا يضرُّ، ولا يخافُ عليه من الضياع، ولو ظهر النُّقصان - عياذاً بالله سبحانه - في واحدٍ من هذين الأمرين؛ فخسرانٌ في خسرانٍ وإن كان في حضورٍ وجمعيَّةٍ، فإنَّه استدراجٌ، وله سوءُ العاقبة، ينبغي أن يطلب من الحقّ سبحانه بالتضرّع والابتهال الثبات على هذين الأمرين، وأن يسأله سبحانه الاستقامةَ عليهما، فإنَّهما ملاكُ الأمر، ومدارُ النجاة. والسلام عليكم وعلى سائر الإخوان خصوصاً على المحبّ القديم مولانا عبد الغفور السمرقنديّ.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالثَّلاثُونَ

إلى الخـواجه شَرفِ الدِّين حسينٍ في الوَعظِ والنَّصيحَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها الولدُ الأعزُّ، إنَّ الفرصةَ مغتنمةٌ، فينبغي أن لا يصرف

تمام العمر في أمورٍ لا طائل فيها، بل ينبغي أن يصرف تمامه في مراضي الحق جلّ وعلا، ينبغي أن يؤدّى الصلوات الخمس بالجمعيَّة والجماعة مع تعديل الأركان، وينبغي أن لا تترك صلاة التهجد، وأن لا تضيِّعَ الاستغفارَ في الأسحار مجاناً، وأن لا يغترّ بمنام الأرنب، وأن لا ينخدع بالحظوظ العاجلة، وأن يجعل تذكُّرَ الموت وأهوال الآخرة نصبَ العين. وبالجملة ينبغي أن يكون معرضاً عن الدُّنيا، ومقبلاً على الآخرة، وأن يشتغلَ بالدُّنيا بقدر الضَّرورة، وأن يعمِّرَ سائر الأوقات بالاشتغال بأمور الآخرة، وحاصلُ الكلام: هو أنَّه ينبغي أن يتخلَّص القلب عن رِقِّيَّة الأغيار والسوى، وأن يكون الظَّاهر مزيناً ومحلّىً بالأحكام الشَّرعيَّة:

(ع) هَـذَا هُـوَ الْأَمْـرُ وَالْبَـاقِـي خَـيَـالَاتُ

وبقية الأحوال بالخير، والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

إلى المِيرزا قِلِيجِ الله في جَوابِ عَريضَتِه التي كَتَبَها في الشِّكايَة من عَدمِ جَمعيَّة الباطِن، وما يُناسِبُ ذلك.

بعد الحمد لله والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ الصَّحيفةَ الشَّريفةَ المكتوبةَ في باب التعزية قد وصلت، إنا لله وإنا إليه راجعون، نحن رضينا بقضاء الله تعالى بتوفيقه سبحانه، وينبغي لكم أيضاً أن تكونوا راضين به، وأن تكونوا معاونين وممدِّين بالدعاء والفاتحة، وصار خبرُ خلاصكم باعثاً على المسرَّة والفرح، وسكن به أحدُ الألمين، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك، وكتبت شكايةً عن فقدان جمعيَّة الباطن. نعم، إنَّ لتشتُّت الظَّاهر تأثيراً عظيماً في تصرف الباطن، فإذا وجدت الكدورةُ في الباطن ينبغي تداركُها بالتوبة والاستغفار، وإذا ظهرت صورةٌ هائلةٌ ينبغي دفعُها بكلمة التمجيد (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، وتكرارُ المعوذتين مغتنمٌ في ذلك الوقت. وبقيَّةُ الأحوال مستوجبة للحمد، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ دائماً وعلى كل حالٍ، وأعوذ بالله سبحانه من حال أهل النار، وفي الفقير أثرُ الضعف، ولهذا صرفت النظرَ عن تحرير تفصيل الأحوال، رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى مولانا محمَّدٍ صَالحِ الكُولَابِيِّ في بيانِ أنَّ المَحبوبَ مَحبوبٌ في نظرِ المُحبِّ على كلِّ حالٍ، سَواءٌ صدر عنه الإنعامُ أو الإيلامُ، بلِ الإيلامُ عندَ الأقلِّين موجبٌ لازدِيادِ المَحبَّة أكثَر من إنعامِه، وبيانِ مزيَّة الحَمدِ على الشُّكر، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. **وبعدُ**: فليعلم الأخُ الأعزُّ مولانا محمد صالح أنَّ المحبوبَ محبوبٌ في نظر المحبِّ، بل في نفس الأمر في جميع الوقت، وفي جميع الحال، سواءٌ آلم أو أنعمَ، فهو محبوبٌ على كلا الحالين، وعند أكثر الناس الذين تشرَّفوا بدولة المحبَّة: إنَّ ازديادَ محبَّة المحبوب في وقت الإنعام أكثرُ منه في وقت إيلامه، أو هو مساوٍ في الوقتين، وعند الأقلّ عكس هذه المعاملة، يعني: إيلامُه موجبٌ لازدياد المحبة أكثرَ من إنعامه، ومقدّمةُ هذه الدَّولة العظمى حسنُ ظنٍّ بالمحبوب، حتى إنَّ المحبوبَ لو أمرَّ السكينَ على حلقوم المحبّ، ومزَّقَ كلَّ عضوٍ منه، وفرَّقه من الآخر؛ لعلم المحبُّ ذلك عينَ صلاحه، ويتصوره عينَ فلاحه، فإذا ارتفعت كراهةُ فعل المحبوب عن نظر المحبّ بحصول هذا الظنّ الحسن؛ تشرَّفَ بدولة المحبة الذاتيّة التي هي معراةٌ عن جميع النسب والاعتبارات، ومخصوصةٌ بحبيب رب العالمين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، ووجد الالتذاذَ والفرحَ في الإيلام أكثرَ منهما في الإنعام، وأظنُّ ....

أنَّ هذا المقامَ فوق مقام الرضاء، فإنَّ في الرضاء دفعَ كراهة ألم فعل المحبوب، وهنا الالتذاذُ بذلك الفعل، فإنَّ الجفاءَ كلَّما كان من جانب المحبوب أجلَّ وأكثرَ؛ يكون الفرحُ والسرورُ من جانب المحبّ أزيدَ وأوفرَ، شتَّان ما بينهما، وحيث كان المحبوبُ محبوباً في نظر المحبّ، بل في نفس الأمر في جميع الأوقات وجميع الأحوال؛ لا جرم يكون المحبوبُ في جميع الأوقات وجميع الأحوال - بل في الواقع ونفس الأمر - محموداً وممدوحاً أيضاً، ويكون المحبُّ في وقت إيلامه وإنعامه مادحاً له، ومثنياً عليه، فحينئذٍ يصدقُ لهذا المحبِّ الصادق أن يقال: صادقاً ومصدوقاً، والحمد لله رب العالمين على كل حالٍ، ويصير هذا المحبُّ من الحامدين له سبحانه في السراء والضراء حقيقةً، ويشبه أن تكون مزيَّةُ الحمد على الشكر من جهة أنَّ في الشُّكر ملاحظةَ إنعام المنعم، فيكون راجعاً إلى الصفة، بل إلى الفعل، والملحوظُ في الحمد حسنُ المحمود وجمالُه، سواءٌ كان ذاتياً أو وصفياً أو فعلياً، وسواءٌ كان إنعاماً أو إيلاماً، فإنَّ إيلامه سبحانه حَسَنٌ كإنعامه تعالى، فيكون الحمدُ أبلغَ في الثناء وأجمع لمراتب الحسن والجمال، وأبقى في حالتي السراء والضراء، بخلاف الشكر، فإنَّه مع قصوره سريعُ الزوال على شرف الهلاك، بزوال الإنعام وهلاك الإحسان.

فإن قيل: أنت كتبت في بعض مكتوباتك: أنَّ مقامَ الرضاء فوق مقام المحبَّة ومقام الحبّ، وهنا تكتب أن مقام هذه المحبَّة فوق مقام الرضاء، فكيف التوفيقُ بين هذين الكلامين؟

أجيب: أنَّ هذا المقامَ - أعني: مقام المحبة المذكورة هنا - وراءَ ذلك المقام - أعني: مقام المحبة والحبّ - هناك، فإنَّ ذلك المقامَ مشتملٌ على النسب والاعتبارات إجمالاً وتفصيلاً، فإنَّه وإن قالوا لتلك المحبة: ذاتيّةً، وتصوروا ذلك الحبّ حباً ذاتياً، ولكنَّه ليس فيه قطع النَّظر عن الشؤون والاعتبارات، بخلاف هذا المقام، فإنَّه معرىً عن النسب والإضافات كما مرّ، وما اندرج في بعض المكتوبات من أنَّه لا مجال للقدم فوق مقام الرضاء إلا لخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام كأنَّه عبارةٌ عن هذا المقام، فإنَّه مخصوصٌ بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والله أعلم بحقائق الأمور كلها.

ينبغي أن يعلم أنَّ كراهةَ الظَّاهر ليست بمنافيةٍ لرضا الباطن، ومرارةَ الصورة ليست بمنافيةٍ لحلاوة الحقيقة، فإنَّ ظاهرَ العارف الكامل وصورتَه متروكان على ما هما عليه من الصِّفات البشرية ليكونا قباباً لكمالاته، وليحصل له الابتلاءُ والامتحانُ، وليكون المحقُّ ممزوجاً بالمبطل، وينبغي أن يتصوَّرَ نسبةُ ظاهر العارف الكامل وصورتُه إلى باطنه وحقيقته كنسبة ثوبٍ إلى شخصٍ لابسٍ لذلك الثوب، ومعلومٌ أنَّه ما مقدارُ الثوب وقَدْرُه بالنِّسبة إلى الشَّخص، وكذلك قدرُ صورة العارف بالنَّظَر إلى حقيقته، وربَّما يظنُّ مكفوفوا البصر مطموسو البصيرة صورةَ العارف مثلَ الجبل، ويتخيَّلونها مثلَ صُوَرهم التي لا حقائقَ لها، فلا جرم يكونون في مقام الإنكار، ويكتسبون الحرمانَ. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى.

المكتوب الرابع والثلاثون

إلى نور محمَّدٍ التِّـنـاريِّ في جوابِ عَريضَته التي كَتَبها لبَيانِ تَوارُد الأحوَالِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وبعدُ: فقد وصل المكتوبُ الشَّريفُ، واتَّضحَ ما حُرِّرَ فيه من توارد الأحوال. اعلم أنَّ الحقَّ سبحانه كما أنَّه ليس داخلَ العالم؛ كذلك ليس خارجَ العالم،..

وكما أنَّه ليس بمنفصلٍ عن العالم ليس بمتَّصلٍ بالعالم، وهو سبحانه موجودٌ، ولكنَّ جميعَ تلك الصِّفات - أعني: الدخولَ والخروجَ، والاتِّصالَ والانفصالَ - مسلوبةٌ عنه سبحانه، ينبغي أن يطلبه تعالى خالياً عن هذه الصِّفات الأربعة، وأن يجده سبحانه في خارج هذه الصِّفات، فإن امتزج لونٌ من هذه الصِّفات؛ فليس الحاصلُ حينئذٍ غيرَ التعلّق بالظلال والمثال، بل ينبغي أن يطلبه تعالى بصفةٍ لا كيفيّةٍ ولا مثليةٍ منزهةٍ عن غبار الظليَّة، وأن يحصِّل اتِّصالاً لا كيفيّاً بتلك المرتبة، وهذه الدَّولةُ نتيجةُ الصُّحبة، لا تحصل بالتكلّم والكتابة، ولئن كتبت؛ فمَنْ يفهمها؟ ومن يُدْرِكُها؟ فينبغي المداومةُ على المشغولية بالشوق والذَّوق، وكتابة كيفيات الأحوال إلى حين الملاقاة. والسلام.

المكتوب الخامس والثلاثون

إلى شَيخ زَادَه الخواجه محمَّد عبدِ الله سلَّمَه اللهُ تعالى في جَوابِ استِفساراتِه عنِ التَّوحيد وعَينِ اليَقينِ، وما يناسِبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي إلى جناب مخدوم زاده أنَّ الصحيفةَ الشريفةَ قد وصلت، وحصل الفرحُ الوافرُ بمطالعتها، واندرج فيها بيانُ شمول نسبة الحضور واستيلائها، فحسنٌ ومباركٌ، وهذه الدَّولةُ التي تيسّرت لكم في مدّةِ ثلاثةِ أشهرٍ إن تيسّر هي في سلاسل أخرى في مدة عشر سنين؛ ليَعُدُّونها نعمةً عظيمةً، ويتصورونها أمراً عظيماً، ينبغي أداءُ شكر هذه النِّعمة كما ينبغي، وحيث إنِّي أعرف أنَّ فطرتكم عاليةٌ ومبرَّأةٌ عن حصول شائبة العُجْب بتحسين مثل هذه الأحوال؛ أظهرنا هذه النِّعمةَ، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] نصٌّ قاطعٌ.

وكتبتم أنَّ مقدِّمة التَّوحيد - يعني: الوجوديّ - أخذتْ في الظهور، فيبارك لكم هذه الدَّولةُ أيضاً، ينبغي قبولُ هذا الوارد بالأدب، ولكن ينبغي رعايةُ الآداب الشَّرعيّة في غلبة هذا الحال حقَّ رعايتها، وأداءُ حقوق العبدية حقَّ أدائها، وأن يعلم بأنَّ هذه الشَّعبذة - على تقدير صحَّتها وصدقها - ناشئةٌ بواسطة استيلاء محبة المحبوب، حيث إنَّ المحبَّ إذا أبصر شيئاً وأدركه لا يبصر ولا يدركُ غيرَ محبوبه، وإذا حصلت له لذَّةٌ وذوقٌ من أحدٍ؛ ينسبها إلى محبوبه، وفي هذه الصُّورة مشهودُ المحب هو الكثرةُ، لكن بعنوان الوحدة، فلا يتحقّقُ الفناءُ في هذا الموطن، فإنَّ في الفناء دفعَ شهود الكثرة بالكليَّة بواسطة استيلاء شهود الواحد، وإنَّما قيل لذلك أيضاً: فناء بالنِّسبة إلى عدم شهود كثرة الممكنات، وحقيقةُ الفناء إنّما تتحقّقُ إذا اختفت كثرةُ الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات بتمامها أيضاً عن النَّظَر، ولم يكن شيءٌ غيرَ أحدية الذات المجردة تعالت ملحوظاً ومنظوراً أصلاً، وحقيقةُ تمامية السَّير إلى الله تُجتلَى في هذا المقام، وفيه يتصوَّرُ التخلُّصُ عن التعلّق بالظلال بالكليَّة، وفي هذا الوقت تقع المعاملةُ في أصل الأصول، وتتحوَّلُ من الدالِّ إلى المدلول، ويحصل الترقِّي والعروج من العلم إلى العين، ومن المراسلة إلى المعانقة، ويتحقّقُ الوصلُ العريانُ، وكذا وكذا، ثم كذا وكذا، لا يمكن التكلّمُ والإنباءُ عن ذلك الموطن بغير الرمز والإشارة، وهو أيضاً مبهمٌ ومستورٌ.

وقد طلب مخدوم زاده منا بيانَ عين اليقين، وأراد حصوله في العلم، وهذا أمرٌ مشكلٌ، ماذا أصنع؟ وماذا أقول؟ وكيف أبيِّنُه وأكشف عنه وأفهّمه؟ فيرجى من كرم مخدوم زاده أن يعذرني، وأن يميل من طلب العلم إلى طلب الحال، والسؤالان الصادران عن المخدوم أنبأ كلٌّ منهما عن علوّ..............................

الفطرة: أحدهما عن بيان عين اليقين بطورٍ خاصٍّ كما مرّ، وثانيهما عن بيان تأويل المتشابهات القرآنية التي علمُها نصيب العلماء الراسخين، وجوابُ السؤال الثّاني أدقُّ من جواب السؤال الأوّل، وأخفى منه، وأليقُ بالاستتار، ومنافٍ للظهور والإظهار، وعلمُ تأويل المتشابهات كنايةٌ عن المعاملة التي هي مخصوصةٌ بالرسل عليهم الصلوات والتسليمات، ويمنح أقلَّ قليلٍ من الأمم نبذاً يسيراً من هذا العلم بالتبعية والوراثة، ولا يُرفعُ البُرْقعُ عن جمالها لهم في هذه النَّشأة، ولكنَّ المرجوَّ أن يشرَّف بهذه الدَّولة في النشأة الآخرة جمٌّ غفيرٌ من الأمم أيضاً بطريق التبعية، والقدرُ الممكنُ كتابته أنَّه يصحُّ أن يشرَّف البعض الآخر وراء ذلك الأقلّ بهذه الدَّولة في هذه النشأة أيضاً، ولكن لا يعطى له العلمُ بحقيقة المعاملة، ولا ينكشف له التَّأويلُ. وبالجملة يجوز أن يحصل تأويلُ المتشابهات لذلك البعض، ولكنَّه لا يدري ما حاصله، فإنَّ المتشابهاتِ كنايةٌ عن المعاملات، ويصحُّ أن تكون المعاملةُ حاصلةً، ولا يحصل العلمُ بتلك المعاملة، وشاهدتُ هذا المعنى في فردٍ من المنتسبين إليّ، وماذا يحصل للآخرين؟ وسؤالُكم أَوْقَعُ في الرجاء من هذه المعاملة، ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]. والسلام.

المكتوب السادس والثلاثون

إلى الخواجه محمَّدٍ التَّقيِّ في بيانِ بَحثِ الإمامَةِ، وحَقيقَة مذهَبِ أهلِ السُّنَّة والجَماعَة ومُخالِفيهِم، وأنَّ أهلَ السُّنَّة مُتوسِّطونَ بينَ الإفرَاطِ والتَّفريطِ اللَّذينِ اختارَهُما الرَّوافِض والخَوارجُ، ومَدحِ أهلِ بيتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وما يُناسبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ محبَّةَ الفقراء، والارتباطَ بهم، والألفةَ معهم، والرغبةَ في استماع كلمات هذه الطَّائفة العليّة، والميلَ إلى أوضاع هذه الطبقة السَنِيّة وأطوارهم من أجلِّ نعم الله جلّ سلطانه وأعظم عناياته تعالى، قال المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، فمحبُّهم معهم، وفي حرم حريم القرب طُفَيْلِيُّهم.

أيها الموفَّقُ، إنَّ ولدي الخواجه شرف الدين حسين قد أخبر أن هذه الأوصافَ الحميدةَ مجتمعةٌ فيه مع وجود تعلّقاتٍ شتّى، وهذه المعاني المستحسنةُ المقبولةُ ملتئمةٌ فيه مع وجود إشغالاتٍ لا طائل فيها، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك، فإنَّ صلاحكم موجبٌ لصلاح جمٍّ غفيرٍ، وفلاحَكم مستلزمٌ لفلاح جمعٍ كثيرٍ، وأظهر المشارُ إليه بأنَّه محبٌّ لكلامك، وراغبٌ في استماع علومك، فإن كتبتَ إلى جنابه كلماتٍ؛ لكان أفضلَ وأحسنَ، فأردت أن أكتب كلماتٍ إجابةً للملتمس، وحيث كان في هذه الأيّام ذكرُ بحث الإمامة أكثرَ، وكلّ شخصٍ ينسج الكلام في هذا الباب بالظنّ والتخمين؛ أردت أن أكتب في هذا المبحث سطوراً بالضَّرورة، وأن أبيِّنَ حقيقةَ مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب المخالفين.

أيُّها الطالبُ للنجاة، إنَّ من علامات أهل السنة والجماعة: تفضيل الشَّيخين، ومحبَّة الختنين، واجتماعُ تفضيل الشَّيخين مع محبَّة الختنين من خصائص أهل السُّنَّة والجماعة، وتفضيلُ الشَّيخين ثابتٌ بإجماع الصحابة والتابعين كما نقله أكابرُ الأئمة، أحدهمُ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله، وقال الشَّيخ أبو الحسن الأشعريُّ: تفضيلُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الأمة قطعيٌّ، وقد ثبت عن عليّ كرم الله وجهه بالتواتر في زمن خلافته وكرسيّ مملكته، وبين الجمّ الغفير من شيعته أنَّ أبا بكر وعمر أفضلُ هذه الأمة كما ذكره..

الذهبيُّ، وروى عنه الإمامُ البخاريُّ أنَّه قال: أفضلُ الناس بعد الرسول ﷺ أبو بكر ثم عمر، ثم رجلٌ آخرُ، فقال ابنه محمد ابن الحنفيّة: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين. وبالجملة إنَّ تفضيلَ الشَّيخين قد بلغ من كثرة الرُّواة الثِّقات حدَّ الضَّرورة والتواتر، فإنكارُه إما من الجهل، وإما من التَّعصُّب، ولَمّا لم يجد عبدُ الرزاق الذي هو من أكابر الشِّيعة مجالاً للإنكار، قال بتفضيل الشَّيخين من غير اختيارٍ، وقال: حيث فضل عليٌّ الشَّيخين على نفسه؛ أفضِّلُهما أنا أيضاً عليه لتفضيله، ولولا أنَّه فضَّلهما على نفسه لَمَا فضلتهما عليه، وبالٌ عليّ أن أدَّعي محبَّةَ عليٍّ، ثم أخالفه. ولَمّا كثر في زمان خلافة الختنين ظهورُ الفتن والاختلال في أمور الناس، وحصلت من هذه الجهة كدورةٌ غيرُ محصورةٍ في قلوب الناس، واستولت العداوةُ والبغضاءُ فيما بين المسلمين؛ عدت محبَّةُ الختنين أيضاً بالضَّرورة من جملة شرائط كون شخصٍ من أهل السنة والجماعة؛ لئلا يسيء الجاهلُ الظنَّ من هذه الحيثيَّة بأصحاب خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولئلا يضمرَ البغضَ والعداوةَ لنواب رسول الله وقائمي مقامه عليه وعليهم الصلاة والسلام، فكانت محبّةُ عليّ كرم الله وجهه شرطاً للتسنُّن، ومن ليست فيه هذه المحبّةُ؛ صار خارجاً عن أهل السنة، ويسمّى: خارجيّاً، والذي اختار طرفَ الإفراط في محبة عليٍّ، ووقع منه الزيادةُ على القدر اللائق، وأظهر الغلوَّ في تلك المحبة، وأطال اللِّسانَ بسبِّ أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام، وترك طريقَ الصحابة والتابعين والسلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين ورفضه سمي: رافضيّاً، فأهلُ السُّنَّة متوسِّطون بين الإفراط في محبَّة عليّ كرم الله وجهه وبين التَّفريط فيها اللذين اختارهما الروافضُ والخوارجُ، ولا شكَّ أنَّ الحقَّ في الوسط، والإفراطُ والتفريطُ كلاهما مذمومان كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن عليّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فِيكَ مَثَلٌ مِنْ عِيسَى، عَادَاهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحَبَّهُ النَّصَارى حَتَّى أَنْزَلُوهُ مَنْزِلَةً لَيْسَ هُوَ فِيهَا**»(١)، يعني: قالوا: إنَّه ابن الله، فقال عليٌّ: هلك فيّ اثنان: المفرطُ في محبتي حتى يُثْبِتُ لي ما ليس فيَّ، والثّاني من يعاديني ويفتري علي بالعداوة، فشبَّه حالَ الخوارج بحال اليهود، وحالَ الروافض بحال النصارى، وكلاهما وقعا من الحقّ الوسط في الطرفين، وما أجهل من لا يعدّ أهلَ السنة والجماعة من محبي عليّ، ويزعم محبَّتَه مختصَّةً بالرَّفَضَة، وليست محبَّةُ عليّ من الرفض، وإنَّما الرَّفضُ: التبري من الخلفاء الثلاثة، والتبري من الأصحاب الكرام مذمومٌ، وصاحبه عليه ملومٌ، قال الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه:(شعر)

لَوْ كَانَ رِفْضـاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْـهَدِ الثَّـقَلَانِ أَنّي رَافِضِ

يعني: أنَّ حبَّ آل محمد ليس برفضٍ كما يزعمونه، فإن قالوا لهذا الحبّ: رفضاً؛ فليس برفضٍ مذمومٍ، فإنَّ ذمَّ الرفض إنّما جاء من جهة التبري عن الآخرين ورفضهم، لا من جهة محبَّتهم، يعني: آل محمد، فيكون محبُّوا أهل بيت رسول الله عليه وعليهم الصلوات والتسليمات من أهل السنة والجماعة، وهم شيعةُ أهل البيت في الحقيقة، والشيعةُ الذين يدَّعون محبَّةَ أهل البيت، ويعدُّون أنفسهم من شيعتهم، فإن لم يقتصروا محبَّتهم على أهل البيت، ولم يتبرَّوا من الآخرين، وعظَّموا جميع أصحاب النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام ووقَّروهم حقَّ تعظيمهم وتوقيرهم، وحملوا مشاجراتهم على محامل حسنةٍ؛ فهم داخلون في أهل السنة والجماعة، وخارجون عن الخوارج والروافض،..........

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «زوائد المسند» (١٣٧٦)، والبزار في «مسنده» (٧٥٨).

فإنَّ عدمَ محبَّة أهل البيت خروجٌ، والتبري عن الأصحاب رفضٌ، ومحبَّةُ أهل البيت مع تعظيم جميع الأصحاب وتوقيرهم تسنُّنٌ. وبالجملة إنَّ مبنى التسنُّن على حبّ مصاحبيه عليه وعليهم الصلاة والسلام، والعاقلُ المنصفُ لا يختار بغضَ الأصحاب الكرام على حبِّهم أصلاً، بل يحبُّ جميعهم بحبِّ النبي عليه وعليهم الصلوات والتحيات، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**».

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: كيف يظنُّ عدمَ محبَّة أهل البيت في حقِّ أهل السنة والجماعة، والحالُ أنَّ محبَّتهم عندهم جزءُ الإيمان، وسلامةَ الخاتمة مربوطةٌ عندهم برسوخ تلك المحبة؟ وكان والدُ هذا الفقير الماجد يرغِّبُ في أكثر الأوقات في محبة أهل البيت، وكان عالماً بالعلم الظَّاهري والباطنيّ، وكان يقول: إنَّ لمحبَّتهم مدخلاً عظيماً في سلامة الخاتمة، ينبغي أن يراعيها كمالَ رعايتها، وكان هذا الفقيرُ حاضراً في مرض موته، ولَمَّا انتهت معاملتُه إلى آخرها وبقي الشعورُ بهذا العالم قليلاً؛ ذكَّرْتُه بكلامه في ذلك الوقت، واستفسرته عن تلك المحبَّة، فقال في تلك الحالة: إنِّي غريقٌ في محبة أهل البيت، فأؤدِّي شكرَ الحقّ عزّ وجل في ذلك الوقت، ومحبَّةُ أهل البيت رأسُ مال أهل السنة، والمخالفون غافلون عن هذا المعنى، وجاهلون بمحبتهم المتوسِّطة، اختاروا لأنفسهم جانب الإفراط، وظنوا وراءَ الإفراط تفريطاً، وحكموا بالخروج، وزعموه مذهبَ الخوارج، ولم يعلموا أنَّ بين الإفراط والتَّفريط حدّاً وسطاً هو مركزُ الحقّ وموطنُ الصدق الذي صار نصيباً لأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم. والعجبُ أنَّ أهلَ السنَّة هم الذين قتلوا الخوارجَ، واستأصلوا أعداءَ أهل البيت، ولم يكن من الرفضة في ذلك الوقت اسمٌ ولا رسمٌ، فإن كان كان له حكمُ العدم، وكأنَّهم تصوَّروا محبي أهل البيت - بزعمهم الفاسد - رفضةً، وتخيَّلوا أهلَ السنة بتلك العلاقة روافضَ، يا لها من معاملةٍ عجيبةٍ، حيث يعدُّون أهل السُّنَّة أحياناً من الخوارج لعدم إفراط المحبَّة، ويزعمونهم أحياناً روافض لِمَا يحسُّون فيهم من نفس المحبَّة، ولهذا تراهم يزعمون - من جهالتهم - الأولياءَ العظامَ من أهل السنة الذين يذكرون محبَّة أهل البيت ويظهرون حبّ آل محمد ﷺ روافض، ويظنُّون كثيراً من كبار علماء أهل السنة الذين يمنعون من إفراط تلك المحبَّة ويحرِّضون على تعظيم الخلفاء الثلاثة وتوقيرهم خوارجَ، فآه ألف آهٍ من جراءتهم الغير المناسبة، أعاذنا الله سبحانه من إفراط تلك المحبَّة وتفريطها، ومن إفراط المحبَّة اشترطوا في تحقّق محبَّة عليٍّ التبرِّي من الخلفاء الثلاثة وغيرهم، ينبغي الإنصافُ، ما معنى المحبَّة التي يُشترَطُ في حصولها التبري من نواب النبي ﷺ وقائمي مقامه، وسبِّ أصحاب خير البشر، وطعنهم رضوان الله عليهم أجمعين؟ وذنبُ أهل السنة إنّما هو ضمّهم إلى محبة أهل البيت توقيرَ جميع أصحابه ﷺ وتعظيمهم، وجمعهم إياهما معاً، بحيث لا يذكرون أحداً منهم بسوءٍ مع وجود المنازعات والمخالفات فيما بينهم، وينزهونهم عن الأهواء النَّفسانيَّة والتعصبات البشريَّة من جهة تعظيم صحبة النبيّ، وتكريم مصاحبيه عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك يقولون للمحقّ محقاً، وللمبطل مبطلاً، ولكن مع تنزيه بطلانه من الهوى والهوس، وإحالته على الرأي والاجتهاد، وإنَّما يرضى الروافضُ عن أهل السنة والجماعة إذا هم تبرّوا عن سائر الأصحاب..........

الكرام مثلهم، وأساؤوا ظنَّهم بهؤلاء الأكابر، كما أنَّ رضاءَ الخوارج عنهم مربوطٌ بعداوة أهل البيت، ومنوطٌ ببغض آل محمد عليه وعليهم الصلوات والبركات، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ عند أكابر أهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم في وقت منازعة بعضهم بعضاً ثلاث فرقٍ: فرقةٌ عرفوا حقيَّة جانب عليٍّ بالدليل والاجتهاد، وجماعةٌ أخرى وجدوا أيضاً بالدليل والاجتهاد حقيَّةَ جانب آخر، وطائفةٌ ثالثةٌ كانوا متوقفين لم يرجحوا جانباً واحداً بالدَّليل، فلزمت الطَّائفةُ الأولى نصرةَ جانب عليّ بمقتضى اجتهادهم، ولزمت الطَّائفةُ الثّانيةُ نصرة جانب مخالفيه على مؤدَّى اجتهادهم، ولزم الطَّائفةُ الثّالثةُ التوقُّفَ، وكان ترجيح إحداهما على الأخرى خطأً في حقِّهم، فعمل كلُّ فرقةٍ من هذه الفرق الثلاث بمقتضى اجتهادهم، وأدّوا ما هو الواجبُ واللازمُ على ذمتهم، فكيف يكون للملامة مجالٌ فيهم؟ وكيف يكون الطعنُ مناسباً لهم؟ وقال الإمامُ الشافعيُّ - ونقل عن عمر بن عبد العزيز أيضاً ﷺ -: تلك دماءٌ طهَّر الله عنها أيدينا، فلنطهر عنها ألسنتنا. ويفهم من هذه العبارة: أنَّه لا ينبغي تحريكُ الشفتين أيضاً بحقيَّة إحداهما وتخطئة الأخرى، وأن لا يذكر كلُّهم بغير الخير، وكذلك ورد في الحديث النبويّ، حيث قال النبي ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»، يعني: إذا ذكر أصحابي ومنازعاتهم؛ فامتنعوا عن ذلك، ولا تختاروا أحدهم على الآخر، ولكنَّ جمهورَ أهل السنة ذاهبون لِمَا ظهر لهم بدليلٍ إلى أنَّ الحقَّ في جانب عليٍّ كرم الله وجهه، ومخالفوه سالكون طريق الخطأ، ولكن لَمّا كان هذا الخطأُ خطأً اجتهاديّاً بَعُدَ عن الملامة والطعن، وتنزَّه عن التَّحقير، وتبرأَ من التَّشنيع، ونقل عن عليّ ﷺ أنَّه قال: إخواننا بغوا علينا، لا هم كفارٌ ولا فساقٌ، فإنَّ لهم تأويلاً يمنع عنهم الكفرَ والفسقَ، فأهلُ السُّنَّة والرافضة كلاهما يخطِّئون محاربي عليّ، وكلاهما يقولون بحقيَّة جانبه، ولكن لا يجوِّزُ أهل السنة الزيادةَ على إطلاق لفظ الخطأ النَّاشئ عن التَّأويل في حق محاربيه، ويحفظون اللسان من طعنهم وتشنيعهم، ويراعون حقَّ صحبة خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام، قال رسول الله ﷺ: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي»، وكرَّر لفظَ الجلالة للتأكيد، وقال أيضاً: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»، وورد أحاديثُ أخرى كثيرةٌ في باب تعظيم الأصحاب وتوقيرهم أجمعين، فينبغي إعزازهم وتكريمهم جميعاً، وحملُ زلّاتهم على محامل حسنةٍ، وهذا هو مذهبُ أهل السنة في هذه المسألة، والروافض يغالون في هذا الباب حتى يكفرون محاربي عليّ، ويلوثون ألسنتهم بأنواع الطعن وأقسام الشَّتْم، فإن كان المقصودُ ظهورَ حقيّة جانب عليٍّ، وإظهارَ خطأ محاربيه؛ فما اختاره أهلُ السنة كافٍ فيه، وعلى حدّ الاعتدال، والطّعن في أكابر الدين بعيدٌ عن الديانة والتديُّن كما اختاره الرافضةُ، وزعموا شتمَ أصحاب رسول الله ﷺ دينهم وإيمانهم، ما أقبحه من دينٍ، حيث إنَّ جزءه الأعظمَ سبُّ نوّاب النبي، وشتمُ خلفائه عليه وعليهم الصلاة والسلام، واختار كلُّ واحدةٍ من طوائف المبتدعة بدعةً، وامتاز بها عن أهل السنة والجماعة، ولكنَّ فرقةَ الخوارج والروافض من بين جميع هؤلاء الطوائف بعيدةٌ عن الحق والصواب جداً، فإذا كان سبُّ..

أكابر الدين ولعنُهم جزءاً أعظم من إيمانهم، كيف يكون لهم نصيبٌ من الحقّ؟ وافترقت الروافضُ على اثنتي عشرة فرقةً، كلُّهم يكفِّرون أصحاب النبي ﷺ، ويعتقدون سبَّ الخلفاء الراشدين عبادةً، وهذه الجماعةُ يتحاشون عن إطلاق لفظ الرفض على أنفسهم، ويزعمون الروافضَ غيرهم لِمَا ورد في الأحاديث وعيدٌ شديدٌ في حقّ الرفضة، فيا ليتهم اجتنبوا عن معنى الرفضة أيضـًا، ولم يتبرؤوا عن أصحاب النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام. وهنودُ بلاد الهند - يعني: مجوسهم - أيضـًا يقولون لأنفسهم هنوداً، ويتحاشون عن الكفر، ولا يعتقدون أنفسهم كفاراً، ويزعمون أنَّ الكفارَ هم سكَّانُ دار الحرب، وغلطوا في هذا الفهم، بل كلا الصنفين كفارٌ، ومتحقّقون بحقيقة الكفر، وكأنَّهم زعموا أنَّ أهلَ بيت النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام مثلهم، وتخيَّلوهم أيضـًا أعداءَ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهذه الطَّائفةُ يظنُّون أكابرَ أهل البيت - بحكم التُّقاة التي يزعمونها - منافقين ومخادعين، ويزعمون أنَّ عليّـًا كرم الله وجهه صَحِبَ الخلفاء الراشدين ثلاثين سنةً بحكم التُّقاة صحبةَ نفاقٍ، وعظَّمهم ووقَّرهم من غير حقٍّ واستحقاقٍ، ما أحسن هذه المعاملة وما أجملها، فإن كانت محبَّةُ أهل بيت رسول الله بواسطة محبَّة رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ ينبغي أن يكونوا أيضـًا أعداءً لأعداء رسول الله ﷺ، وأن يسبُّوهم ويلعنوهم أكثرَ من سبِّ أعداء أهل البيت ولَعْنِهم، ولم يُسمعْ من أحدٍ من هذه الطَّائفة أنَّه سبَّ أبا جهل ولعنه مع أنَّه أشدُّ أعداء رسول الله ﷺ، وآذاه ﷺ بأنواع الأذيَّة والجفاء، ولم يحرِّكْ أحدٌ منهم لسانه بذكر مساويه، وأبو بكر الصديق الذي هو أحبُّ الرجال إلى رسول الله ﷺ[1] يزعمونه - بزعمهم الفاسد - عدوّاً لأهل البيت، ويطيلون ألسنتهم بسبِّه وطعنه، وينسبون إليه أموراً غير مناسبةٍ به، فأيُّ تديُّن هذا؟ وأيُّ ديانةٍ؟ لا قدر الله سبحانه كونَ أبي بكر وعمر وسائر الصحابة الكرام أعداءَ أهل بيت رسول الله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومبغضين ومعادين لآل محمد ﷺ، وليت هؤلاء العارين عن لباس الإنصاف يسبُّون أعداءَ أهل البيت من غير تعيين أسامي أكابر الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن غير إظهار سوء ظنٍّ بأكابر الدين، فترتفع حينئذٍ مخالفَتُهم في هذا الباب لأهل السُّنَّة، فإنَّ أهلَ السنة أيضـًا يعادون أعداء أهل البيت، ويقولون بطعنهم وتشنيعهم، ومن حُسْن أهل السنة: أنَّهم لا يقولون لشخصٍ معيَّنٍ مبتلى متلبِّسٍ بأنواع الكفر: جهنميّـًا، ولا يجوِّزون إطلاق اللعن عليه؛ لاحتمال إسلامه وتوبته في آخر أمره، وإنَّما يجوِّزون إطلاقَ اللعن على الكافرين مطلقـًا دون تعيين شخصٍ منهم، ما لم يعلم سوءُ خاتمته بدليلٍ قطعيٍّ، والرَّوافضُ يلعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بلا تحاشٍ، ويسبُّون أكابرَ الصَّحابة ويطعنون فيهم من غير اكتراثٍ، هداهم الله إلى سواء الصِّراط.

وفي هذا المبحث اختلافٌ عظيمٌ بين أهل السنة وبين مخالفيهم في مقامين:

المقام الأوّلُ: هو أنَّ أهل السنَّة قائلون بحقية خلافة الخلفاء الأربع، ويقولون لكلِّ واحدٍ من هؤلاء الأربع: خليفةٌ حقـًا؛ لأنَّه قد ورد في الحديث الصحيح بطريق الإخبار عن المغيبات: «**الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً**»[2]، وهذه المدَّةُ تمَّت بخلافة عليٍّ، فبمقتضى هذا الحديث يكون كلٌّ من الأربعة خليفةً، ويكون ترتيبُ الخلافة على الحقّ، والمخالفون ينكرون حقيَّةَ خلافةَ الخلفاء الثلاثة،...

---

(١) أخرج البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنَّه سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال، فقال: «أبوها».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٩٩) من حديث سفينة رضي الله عنه بلفظ: «خلافة النبوة ـ وفي رواية: الخلافة في أمتي ـ ثلاثون سنة».

وينسبون خلافتهم إلى التَّعصُّب والتغلُّب، ولا يعتقدون أحداً غير عليٍّ إماماً على الحقّ، ويحملون البيعةَ الواقعةَ من عليٍّ للخلفاء الثَّلاثة على التُّقاة، ويظنون الصحبةَ الواقعةَ فيما بين الأصحاب الكرام صحبةَ نفاقٍ، ويتصوَّرون المداراةَ الكائنةَ فيهم مخادعةً، فإنَّ موافقي عليٍّ قد صحبوا - في زعم هؤلاء الفرقة - مع مخالفيه بحكم التُّقاة صحبةَ نفاقٍ، وأظهروا بلسانهم خلافَ ما في قلوبهم، ومخالفوا عليّ لَمّا كانوا في زعم هؤلاء الطَّائفة أعداءَه وأعداءَ موافقيه وأحبابه؛ كانوا أحباباً لهم على سبيل النِّفاق، وأظهروا المعاداةَ في صورة الموالاة، فيكون جميعُ أصحاب رسول الله ﷺ - على زعمهم الفاسد - منافقين ومخادعين، ومظهرين بظواهرهم خلافَ ما في بواطنهم، فيكون شرارُ هذه الأمة عند هؤلاء الفرقة هم الأصحابُ الكرامُ، ويكون شرُّ الصحبات وأخبثُها صحبةَ خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، حيث نشأت منها أمثالُ هذه الأخلاق الذَّميمة، ويكون شرُّ القرون قرنَ الأصحاب؛ لكونه مملوءاً من النِّفاق والعداوة والبغضاء والحقد، وقد قال الله في كلامه المجيد في حقهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٩]، أعاذنا الله سبحانه من اعتقاداتهم السُّوء، فإذا جعلوا سابقي هذه الأمة متَّصفين بهذه الأخلاق الذَّميمة؛ فكيف توجد الخيريَّةُ في اللاحقين؟ وكأنَّ هذه الطَّائفةَ لم يروا الآياتِ القرآنيَّةَ والأحاديثَ النبويَّةَ الواردةَ في فضل صحبة خير البشر عليه الصلاة والسلام، وفضيلة أصحابه الكرام، وخِيَرَةِ هذه الأمَّة، أو رأوها ولكنَّهم لم يؤمنوا بها ولم يصدِّقوها، وإنَّما وصل القرآنُ والأحاديثُ إلينا بتبليغ الأصحاب الكرام، فإذا كان الأصحابُ مطعوناً فيهم؛ يكون الدينُ الواصلُ إلينا بواسطتهم ومن طرقهم أيضاً مطعوناً فيه بالضَّرورة، نعوذ بالله من ذلك. ولعلَّ مقصودَ هذه الطَّائفة إبطالُ الدين، وإنكارُ شريعته عليه الصلاة والسلام، ففي ظاهر الصُّورة يظهرون محبَّةَ أهل بيت رسول الله، وفي الحقيقة يُبْطِلُون شريعته ﷺ، وليتهم يتركون عليّاً وموافقيه مسلَّماً فيهم، ولم يجعلوهم متَّسمين بسمة التُّقاة التي هي من سِمَة أهل المكر والنِّفاق، وأيُّ خيرٍ يكون في جماعة من موافقي عليّ أو مخالفيه حيث صحب بعضهم بعضاً ثلاثين سنة بالنفاق، وعاشروا بالمكر والخداع؟ وكيف يستحقّون الاعتمادَ عليهم؟

وهؤلاء يطعنون في أبي هريرة رضي الله عنه، ولا يعلمون أنَّ في طعنه طعناً في نصف الأحكام الشَّرعيّة، وذلك أنَّ العلماء المحققين قالوا: ورد في الأحكام ثلاثةُ آلافِ حديثٍ، يعني: ثبت ثلاثةُ آلاف حكمٍ من الأحكام الشَّرعيّة بالسنَّة، وثبت ألف وخمسمائةٍ منها برواية أبي هريرة، فيكون الطَّعنُ فيه طعناً في نصف الأحكام الشَّرعيّة، وقال الإمام البخاريُّ: إنَّ رواةَ أبي هريرة أزيد من ثمانمائة من الأصحاب الكرام والتابعين العظام، واحدٌ منهم ابن عباس رضي الله عنهما، وروى عنه ابن عمر أيضاً، وكذلك جابرُ بن عبد الله، وأنسُ بن مالك من رواته. والحديثُ الذي ينقلون عن علي كرم الله وجهه في الطعن في أبي هريرة رضي الله عنه؛ فهو حديثٌ مفترىً كما حقَّقه العلماءُ، وحديثُ دعائه ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه بالفهم معروفٌ بين العلماء، قال أبو هريرة رضي الله عنه: حضرتُ مجلساً لرسول الله ﷺ، فقال: **«مَنْ يَبْسُطْ مِنْكُمْ رِدَاءَهُ حَتَّى أُفِيضَ فِيهِ مَقَالَتِي، فَيَضُمَّهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ لَا يَنْسَاهُ»**، فبسطت بردةً كانت عليَّ، فأفاض رسول الله ﷺ مقالته، فضممتها إلى صدري، فما نسيتُ بعد ذلك شيئاً[1]، فاعتقاد شخصٍ عظيمٍ من أكابر الدين عدواً لعليّ بمجرد الزَّعم،..

(١) أخرج البخاري (٢٠٤٧) عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنه لن يبسط أحدٌ ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول»، قال: فبسطت نمرةً عليَّ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلى صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيءٍ، وفي رواية (٢٣٥٠): (ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا).

وتجويزُ السبّ والطعن واللعن في حقه بعيدٌ عن الإنصاف، وهذه كلُّها من آفات إفراط المحبَّة، حتى كادوا يخرجون رؤوسهم من ربقة الإيمان، فلئن جُوِّزت التقاةُ فرضاً في حقّ علي كرم الله وجهه؛ فماذا يقولون في أقواله التي نقلت عنه بالتواتر في أفضليّة الشَّيخين؟ وكذلك في كلماته القدسيَّة التي صدرت عنه في عين خلافته وكرسيّ مملكته في حقية خلافة الخلفاء الثلاثة، فإنَّ التقاةَ إنّما تكون بسَتْر حقيَّة خلافته، وعدم إظهار بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة، وأما إظهارُ حقيَّة خلافة الخلفاء الثَّلاثة، وبيانُ أفضليّة الشَّيخين؛ فأمرٌ على حدةٍ وراء تلك التقاة، لا محملَ له غيرَ الصدق والصواب، ولا يُتصوَّرُ رَفْعُها بالتقاة. وأيضاً قد وردت الأحاديثُ الصحيحةُ في فضائل الخلفاء الثلاثة وغيرهم، وبلغت حدَّ الشُّهرة، بل حدَّ التواتر في المعنى، وبُشِّرَتْ جماعةٌ منهم بالجنة، فماذا يقولون في هذه الأحاديث؟ فإنَّ التقاةَ لا تجوز في حق النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّ التبليغَ لازمٌ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأيضاً قد نزلت في هذا الباب آياتٌ قرآنيةٌ، ولا يتصورُ فيها التقاةُ، رزقهم الله سبحانه الإنصاف. ومعلومٌ عند أرباب العقول أنَّ التقاةَ من صفات الجبان، فنِسْبَتُها إلى أسد الله غيرُ مناسبةٍ، وإن جُوِّزَتْ التقاةُ بحكم البشرية ساعةً أو ساعتين ويوماً أو يومين؛ فله مساغٌ ومجالٌ، وأما إثباتها لأسد الله مدة ثلاثين سنةً، والقولُ بإصراره على التقاة في تلك المدَّة؛ فمستكرهٌ جداً، وقد قال العلماءُ: الإصرارُ على الصغيرة كبيرةٌ، فما يكون حكمُ الإصرار على صفةٍ من صفات أرباب الشقاق والنفاق؟ يا ليتهم يفهمون قباحةَ هذا الأمر، وهم إنّما هربوا من تقديم الشَّيخين لكونه مستلزماً لإهانة عليّ وتنقيصه، يعني: في زعمهم الفاسد، واختاروا إثباتَ التقاة له، ولم يفهموا شناعةَ هذه الصفة، فلو فهموا شناعتها؛ لَمَا جوَّزوها له أصلاً، ولا اختاروا أهونَ الأمرين، بل أقول: لا إهانةَ لعليٍّ في تقديم الشَّيخين، فإن حقيَّةَ خلافته باقيةٌ على حالها، ودرجةَ ولايته ورتبةَ هدايته ومنزلةَ إرشاده أيضاً باقيةٌ على ما هي عليها، وفي إثبات التقاة يلزم التنقيصُ والتوهينُ؛ لكونها من خصائص أرباب النفاق، ولوازم أصحاب المكر والخداع.

والمقام الثّاني: هو أنَّ أهلَ السنة والجماعة شكر الله سعيهم يحملون مشاجرات أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ومنازعاتهم على محامل حسنةٍ، ويعتقدونها بعيدةً عن الهوى والتعصُّب، فإنَّ نفوسَهم صارت مزكَّاةً في صحبة خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام، وساحةَ صدورهم طاهرةً نظيفةً من العداوة والغلّ والحقد.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّه لَمّا كان لكلِّ واحدٍ منهم رأياً واجتهاداً، وكان العملُ لكلِّ مجتهدٍ على وفق اجتهاده واجباً؛ لزمت المشاجرةُ والمخالفةُ في بعض الأمور بسبب مخالفة الآراء بالضَّرورة، وكان اتِّباعُ كلٍّ منهم رأي نفسه صواباً، فكانت مخالفتهم مثل موافقتهم لأجل الحقّ، لا للهوى والهوس واتباع النَّفس الأمَّارة، والروافضُ يكفِّرون مخالفي عليّ ومحاربيه، ويجوِّزون في حقِّهم أنواعَ الطَّعن والتَّشنيع، فإذا صدرت مخالفةُ الأصحاب الكرام للنبي ﷺ في بعض الأمور الاجتهاديَّة، وحكمهم بخلاف حكمه عليه الصلاة والسلام، ولم تكن مخالفتُهم هذه مذمومةً، ولم يكونوا ملومين عليها، ولم يجئ منعُهم عنها مع وجود نزول الوحي في ذلك الوقت؛ فكيف تكون مخالفتهم لعليٍّ في الأمور الاجتهادية كفراً؟ ولِمَ يكون المخالفون مطعوناً فيهم وملومين؟ كيف، فإنَّ المخالفين جمٌّ غفيرٌ من أهل الإسلام، ومن أجلَّة الأصحاب الكرام، وبعضٌ منهم مبشَّرٌ..

بالجنَّة، وليس تكفيرُهم وتشنيعُهم أمراً يسيراً، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، فإنَّهم كادوا يكونون هم الذين بلغوا قريباً من نصف الدين والشَّريعة، فإذا كانوا مطعوناً فيهم؛ يزول الاعتمادُ عن شطر الدين، كيف يكون هؤلاء الأكابر مطعوناً فيهم، فإنَّه لم يردَّ أحدٌ روايةَ أحدٍ منهم أصلاً لا علي ولا غيره؟ وأيضاً إنَّ «صحيحَ البخاري» أصحُّ الكتب بعد كتاب الله تعالى، ويعترف به الشِّيعةُ أيضاً، وسمع هذا الفقيرُ أحمد التبتيَّ الذي كان من أكابر الشّيعة يقول: إنَّ كتابَ البخاريّ أصحُّ الكتب بعد كتاب الله، وفيه رواياتٌ من موافقي عليّ، وروايات من مخالفيه، ولم يجعل الرُّجحانَ وعدمه مبنيّاً على الموافقة والمخالفة، فكما أنَّه يروي عن عليّ؛ يروي عن معاوية، فلو كان في معاوية وفي روايته شائبةُ الطعن لَمَا أدرج روايته في كتابه أصلاً، وكذلك لم يفرِّقْ بهذا الوجه في رواية الحديث أحدٌ من نُقَّاد الأحاديث من السَّلف، ولم يجعل مخالفة علي منشأً للطعن.

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يلزم أن يكون عليٌّ ﵁ محقّاً في جميع الأمور الخلافيَّة، ولا يقطعُ به، وأن يكون مخالفوه على الخطأ، وإن كان الحقُّ في أمر المحاربة في جانبه، فإنَّ علماءَ الصدر الأوّل من التابعين والأئمة المجتهدين اختاروا مذهبَ غيره في كثير من الأحكام الخلافيَّة، ولم يحكموا بمذهبه، فإن كان الحقُّ متعيّناً في جانبه؛ لَمَا كانوا يحكمون بخلافه، وكان القاضي شريحٌ من التابعين وصاحبَ اجتهادٍ، ولم يحكمْ بمذهب عليٍّ، ولم يقبلْ شهادةَ ابنه الحسن عليهما الرضوان له بواسطة نسبة البنوَّة، وعَمِلَ المجتهدون بقول شريحٍ، وأخذوا به، ولم يُجَوِّزوا شهادةَ الابن للأب، واختيارُ الأقوال التي تخالف رأي عليٍّ كرم الله وجهه كثيرٌ في مسائل أخرى أيضاً، لا يخفى على المتتبِّع المنصف، وتفصيلُه يستدعي تطويلاً، فلا يكون في مخالفة عليّ كرم الله وجهه مجالٌ للاعتراض، ولا يكون مخالفوه مطعوناً فيهم وملومين.

وكانت عائشةُ الصديقةُ رضي الله تعالى عنها حبيبةَ حبيب رب العالمين، ومقبولَتَه ومنظورة إليه ﷺ إلى شفير اللَّحد، وكان ﷺ مقيماً في حجرتها في مرض موته، وقبض روحُه الشريفة في حجرها وبين سَحْرها ونَحْرها، ودفن في حجرتها المطهَّرة، ومع ذلك الشرف كلِّه كانت ﵂ عالمةً ومجتهدةً، وأحال النبيُّ ﷺ بيانَ شطر الدين عليها، ورجع الأصحابُ الكرامُ في مشكلات الأحكام إليها، ووجدوا حلَّ المغلقات منها، فالطعنُ في مثل هذه الصديقة المجتهدة بواسطة مخالفة عليّ، ونسبةُ الأشياء الغير اللائقة إليها غيرُ مناسبةٍ جداً، وبعيدةٌ عن الإيمان بالنبي ﷺ، فإن كان عليٌّ كرم الله وجهه خَتَنَه وابنَ عمّه؛ فالصِّدِّيقةُ زوجتُه المطهرةُ، وحبيبتُه المقبولةُ عليه وعلى جميع أهل بيته الصلاة والسلام. وكان دأبُ الفقير قبل هذا بسنين إذا طُبِخَ طعامٌ كنت أجعل حصَّةً منه مخصوصةً بروحانيات أهل العباء: نبيِّنا ﷺ وعليّ وفاطمة والإمامين - يعني: السبطين - رضوان الله عليهم أجمعين، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فسلَّمت عليه، وهو ﷺ لا يكون متوجّهاً إلى الفقير، بل يتوجّه إلى جانبٍ آخر، وقال في تلك الأثناء للفقير: أنا آكلُ الطعام في بيت عائشة، فكلُّ من يرسل الطعامَ إليّ؛ فليرسله إلى بيت عائشة، فتيقَّنَ الفقيرُ في ذلك الوقت أنَّ سببَ عدم توجّهه الشَّريف هو عدمُ تشريك الفقير الصديقةَ في الطعام، فبعد ذلك كنت أجعل الصديقةَ - بل سائرَ الأزواج المطهرات اللاتي ....

كلُّهن من أهل البيت - شركاءَ في الطعام، وكنت أتوسَّلُ بجميع أهل البيت، فالجفاءُ والإيذاءُ اللذان يصيبان النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام من جهة الصديقة أزيدُ من الجفاء والإيذاء اللذين يصيبانه ﷺ من جهة عليٍّ، وهذا المعنى غيرُ مخفيٍّ على العقلاء أصحاب الإنصاف. نعم، إنَّ هذا على تقدير كون محبَّة عليّ وتعظيمه بواسطة محبَّة الرسول وتعظيمه عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وبواسطة قرابته ﷺ، وأما من اختار محبَّةَ عليّ استقلالاً، ولم يجعل لحبّ النبي فيها مدخلاً؛ فهو خارجٌ عن المبحث، وغيرُ قابلٍ للمخاطبة، غرضُهُ إبطالُ الدين، وهدمُ الشَّريعة، يريد أن يتَّخذ سبيلاً بدون توسُّط النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ويرغبُ عن محمد في عليٍّ، وهو محضُ الكفر، وعينُ الزندقة، وعليٌّ كرم الله وجهه بريءٌ، منه ومتأذٍّ من صنيعه، فإنَّ حبَّ أصحابه وأختانه ﷺ بواسطة حبه عليه الصلاة والسلام، وتعظيمهم وتكريمهم بواسطة تعظيمه وتكريمه ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ**»، وكذلك من كان مبغضـًا إياهم؛ فإنَّما يكون ذلك ببغضه ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»، يعني: أنَّ المحبةَ التي تتعلّق بأصحابي عين المحبة التي تتعلّق بي، وكذلك بغضُهم هو عينُ البغض الذي يتعلّق بي.

وطلحةُ وزبيرٌ ﵄ من كبار الأصحاب، ومن العشرة المبشرة بالجنة، فالطعنُ فيهما وتشنيعهما غيرُ مناسب، ولعنُهما وطردُهما عائدان إلى اللاعن والطارد، وهما اللذان جعلهما الفاروقُ من الستَّة التي ترك الخلافةَ شورى بينهم لَمّا لم يجد دليلاً واضحـًا لترجيح بعضهم على بعضٍ، فتركا نصيبَ الخلافة عن أنفسهما باختيارهما، وقال كلٌّ منهما: تركتُ حظِّي، وطلحةُ هو الذي قَتَلَ أباه بواسطة صدور سوءِ أدبٍ عنه في حقِّه ﷺ، وجاءه برأسه، وورد ثناؤه على فعله هذا في القرآن المجيد، والزبيرُ هو الذي أخبر المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام بكون قاتله في جهنَّم، حيث قال ﷺ: «**قَاتِلُ الزُّبَيْرِ فِي جَهَنَّمَ**»[(١)]، ولعنُ الزبير ليس بأدونَ من قتله، فلاعنُه وقاتلُه متساويان.

فالحذرَ ثم الحذرَ من الطَّعن في أكابر الدين، وذمّ كبراء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الإسلام، ونصرة سيد الأنام، وأنفقوا أموالهم لتأييد الدين بالليل والنهار، وفي السر والجهار، وتركوا لحبّ الرسول عشائرهم وقبائلهم وأولادهم وأزواجهم وأوطانهم ومساكنهم وعيونهم وزروعهم وأشجارهم وأنهارهم، وآثروا نفسَ الرسول ﷺ على أنفسهم، واختاروا محبَّته على محبَّتهم ومحبَّة أموالهم وذرياتهم، وهم الذين نالوا شرفَ الصُّحبة، وفازوا في صحبته ببركات النبوَّة، وشاهدوا الوحيَ - يعني: نزولَه -، وتشرَّفوا بحضور المَلَك، ورأوا الخوارق والمعجزات حتى صار غيبُهم شهادةً، وعلمُهم عينـًا، وأُعْطوا من اليقين ما لا يعطى أحدٌ من بعدهم، حتى لا يبلغ إنفاقُ غيرهم مثل أُحُدٍ ذهبـًا إنفاقَهم مُدَّ شعيرٍ ولا نصيفَه، وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن المجيد، ورضي عنهم وهم رضوا عنه، ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [محمد: ٢٦]، سمى الله الغائظَ بهم كفاراً، فليحذر عن غيظهم كما يحذر عن الكفر، والله الموفق.

والجماعةُ الذين...

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٨١) من قول عليٍّ ﵁ بلفظ: (بشر قاتل ابن صفية بالنار، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن لكلِّ نبيٍّ حواريـًا، وحواريَّ الزبيرُ).

صحَّحوا مثلَ هذه النِّسبة برسول الله ﷺ، وصاروا مقبولين لديه، ومنظورين إليه ﷺ إذا خالَفَ بعضُهم بعضاً في بعض الأمور، وتشاجروا، وعملوا بما أدَّى إليه رأيُهم واجتهادُهم لا يكون مجالٌ للطعن فيهم، ولا للاعتراض على صنيعهم، بل الحقُّ والصوابُ في ذلك الموطن هو عينُ الاختلاف، وعدمُ تقليد رأي غيره، ألا ترى أنَّ تقليدَ الإمام أبي يوسف أبا حنيفة رضي الله عنه بعد وصوله إلى درجة الاجتهاد خطأٌ، والصوابُ إنّما هو تقليدُ رأي نفسه، حتى إنَّ الإمامَ الشافعيَّ رحمه الله لا يقدِّمَ قولَ صحابيٍّ - أيَّ صحابيٍّ كان، سواءٌ كان صديقاً أو عليّاً - على رأيه، بل يرى الصَّوابَ في العمل برأيه وإن كان مخالفاً لقول صحابيٍّ، فإذا كان لمجتهدٍ من الأمة غيرِ صحابيٍّ مجالٌ في مخالفة آراء الأصحاب، كيف يكون الأصحابُ مطعوناً فيهم إذا خالف بعضهم بعضا؟ مع أنَّا نقول: إنَّ الأصحابَ الكرامَ قد خالفوا في الأمور الاجتهاديَّة رأيَ رسول الله ﷺ، ولم يَرِد الذمُّ على خلافهم ذلك مع وجود نزول الوحي، ولم يرد المنعُ عن اختلافهم ذلك كما مرَّ، فإن كان اختلافُهم ذلك غيرَ مرضيٍّ وغيرَ مقبولٍ عند الحقّ جل شأنه؛ لكان يرد المنعُ عنه، وينزل الوعيدُ على المخالفين، ألا ترى كيف جاء المنعُ من رفع الصوت حين رفع جماعةٌ أصواتهم فوق صوت النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وترتَّبَ عليه الوعيدُ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية؟

ووقع في أسارى بدر اختلافٌ عظيمٌ، حيث حكم عمرُ الفاروق وسعدُ بن معاذ بقتل الأسارى، وحكم الآخرون بالتخليص والفدية، وكان الرأيُ المقبولُ عنده ﷺ الحكمَ بالتَّخليص والفدية، وسائرُ مواضع الاختلافات كثيرةٌ، ومن هذا القبيل اختلافهم في إتيان القرطاس حين طلب النبيُّ في مرض موته قرطاساً ليكتب لهم شيئاً، فأراد جمعٌ إتيان القرطاس، ومنعه الآخرون، وكان الفاروقُ من الذين لم يرضوا بإتيان القرطاس، وقال: حسبُنا كتابُ الله، فأكبَّ الطَّاعنون من هذه الجهة على الفاروق، وأطالوا لسانَ الطعن والتَّشنيع عليه، وليس هذا في الحقيقة محلّاً للطَّعن، فإنَّ الفاروقَ قد علم أنَّ زمانَ الوحي صار منقطعاً، والأحكامَ السماويَّةَ قد تمَّتْ، ولم يبقَ مجالٌ لإثبات الأحكام غير الرأي والاجتهاد، وكلُّما يكتب النبي ﷺ يكون من الأمور الاجتهادية التي فيها شركةٌ للآخرين بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، فرأى الصَّوابَ في أن لا يصدع النبيّ ﷺ عند غلبة وجعه، وأن يكتفى برأي غيره واجتهاده، حسبنا كتاب الله، يعني: القرآنُ المجيدُ مأخذُ القياس والاجتهاد، وكافٍ للمستنبطين، فيُستنبطُ منه الأحكامُ، وتخصيصُ الكتاب بالذِّكر يمكن أن يكون أنَّه عَلِمَ بالقرائن أنَّ تلك الأحكامَ التي هو ﷺ في صدد كتابتها مأخذُها الكتابُ لا السنَّةُ حتى يذكر السنَّةَ، فكان منعُ الفاروق من جهة الشَّفقة والمرحمة؛ لئلا يصدع النبي ﷺ بشيءٍ في شدَّة الوجع، وكان أمره ﷺ بإتيان القرطاس للاستحسان لا للوجوب ليكون غيره مستريحين من مشقة استنباطه، فلو كان أمر (ائتوني)[1] للوجوب؛ لبالَغَ النبي ﷺ فيه، ولَمَا كان يعرض عنه لمجرد الاختلاف.

فإن قيل: قد قال الفاروق في ذلك الوقت: أَهَجَرَ استفهموه، فما يكون المرادُ منه؟

أجيب: ....

(١) أخرج القصة البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه مرفوعاً: «ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي».

لعلَّ الفاروق فَهِمَ فِي ذلك الوقت أنَّ هذا الكلامَ إنّما صدر عنه ﷺ بواسطة الوجع من غير قصدٍ واختيارٍ كما يتوهَّمُ من لفظ (أكتب)، فإنَّه ﷺ كان أُمِّيًا لم يكتب شيئاً أصلاً. وأيضاً إنَّه قال: (لن تضلوا بعدي)، فإذا كان الدينُ كاملاً، وصارت النعمةُ تماماً، وحصل رضا المولى به؛ كيف تتصوَّرُ الضلالةُ بعد ذلك؟ وماذا يقدر يكتب في ساعةٍ واحدةٍ حتى تندفع به الضلالةُ؟ ألم يكف الذي كتب في مدة ثلاث وعشرين سنةً، ولم تندفع به الضلالةُ، ويكتب في ساعة واحدةٍ شيء مع وجود شدة المرض تندفع به الضلالةُ؟ فعلم الفاروقُ من هنا أنَّ هذا الكلام جرى على لسانه الشَّريف من غير قصدٍ منه بناء على البشريَّة، فقال: حقِّقوا هذا المعنى بالاستفسار منه ثانياً، فارتفع الكلمات في أثناء الاختلاف، فقال النبي ﷺ: «**قُومُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا**»، فإنَّه لا يستحسن النزاعُ عند نبيٍّ، ولم يقل ثانياً من هذه المقولة شيئاً، ولم يذكر دواتاً ولا قرطاساً.

ينبغي أن يعلم أنَّ الاختلافَ الواقعَ من الأصحاب الكرام في بعض الأمور الاجتهاديَّة بالنِّسبة إلى النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام لو كان - عياذاً بالله سبحانه - فيه شائبةُ الهوى والتعصُّب؛ لانجرَّ ذلك إلى اللحوق بزمرة أهل الارتداد، وإخراج الرأس من ربقة الإسلام، فإنَّ سوءَ الأدب وسوءَ المعاشرة معه ﷺ كفرٌ، أعاذنا الله سبحانه منه، بل كان هذا الاختلافُ بناءً على أمر ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر: ٢]، فإن من كان فيه رتبةُ الاجتهاد؛ فتقليدُه اجتهادَ غيره ورأيه في الأمور الاجتهادية خطأٌ ومنهيٌّ عنه. نعم، لا مجال في الأحكام المنزلة التي لا مدخلَ فيها للرأي والاجتهاد لغير التقليد والإيمان، والانقيادُ واجبٌ فيها.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ أصحاب القرن الأوّل كانوا برآء من التكلّفات، ومستغنين عن تحسين العبارات، وإنَّما كان اهتمامُهم في إصلاح الباطن، وكان ظاهرُهم مطروحاً عن نظرهم، وغيرَ ملحوظٍ أصلاً، وكانت مراعاةُ الآداب في ذلك القرن باعتبار الحقيقة والمعنى، لا باعتبار الظَّاهر والصورة فقط، وكان حالُهم امتثالَ أمر الرسول ﷺ، ومعاملتهم الاجتنابَ عما ليس بمرضيٍّ عنده ﷺ، جعلوا آباءهم وأمهاتهم وأولادهم وأزواجهم فداءً له عليه الصلاة والسلام، ومن كمال اعتقادهم وإخلاصهم لم يتركوا بزاقَ النبي ﷺ ليقع في الأرض، بل كانوا يأخذونه ويمسحونه أبدانهم ووجوههم مثل ماء الحياة[1]، وقصدهم شربَ دمه ﷺ بعد الفصد من كمال الإخلاص مشهورٌ ومعروفٌ، فإن صدرت عن هؤلاء الأكابر عبارةٌ موهمةٌ لسوء الأدب بالنِّسبة إليه ﷺ عند أهل هذه القرون التي هي ملآنةٌ من الكذب والخداع؛ ينبغي أن يحملها على محملٍ حسنٍ، وأن يذهب إلى حاصل العبارة، وأن لا يلاحظ الألفاظ من أيِّ قسمٍ كانت، وهذا هو طريقُ السلامة. والله سبحانه الموفق.

فإن قيل: إذا كان في الأمور الاجتهاديّة مجالُ الخطأ، كيف يكون الوثوقُ بجميع الأحكام الشَّرعيّة المنقولة عنه عليه الصلاة والسلام؟

أجيب: إنَّ الأحكامَ الاجتهاديَّةَ صارت في المآل وثاني الحال أحكاماً منزلةً سماويةً، فإنَّ تقريرَ الأنبياء على الخطأ غيرُ جائزٍ، فينزل في الأحكام الاجتهاديَّة بعد ثبوت اجتهاد المستنبطين واختلاف آرائهم حكمٌ من عند الحقّ جلّ وعلا يفرِّقُ الصوابَ من الخطأ، ويميِّز المحقَّ من المبطل، فكانت الأحكامُ الاجتهاديَّةُ في زمانه ﷺ بعد نزول الوحي وتميُّز الصواب من الخطأ أيضاً قطعيّ الثبوت، لم يبقَ فيها احتمالُ الخطأ، فجميعُ الأحكام التي ثبتتْ..................

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبية، وفيه: والله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده.

في زمنه ﷺ قطعيٌ محفوظٌ عن احتمال الخطأ؛ لأنَّها ثبتتْ بوحيٍ قطعيٍّ ابتداءً وانتهاءً، وكان المقصودُ من الاجتهاد في استنباط هذه الأحكام هو أن يحصل للمجتهدين والمستنبطين أنواعُ العناية، وارتفاعُ درجات الكرامة، وينال المصيبُ والمخطئُ ثوابًا على تفاوت الدَّرجات، ففي الأحكام الاجتهادية ارتفاعُ درجات المجتهدين، وقطعيَّةُ تلك الأحكام. نعم، إنَّ الأحكامَ الاجتهاديَّةَ بعد انقراض زمان النبوَّة ظنياتٌ مفيدةٌ للعمل، لا مثبتةٌ للاعتقاد، حتى يكون منكرُها كافرًا، إلا أن ينعقدَ إجماعُ المجتهدين على حكمٍ، فيكون حينئذٍ مثبتًا للاعتقاد أيضًا. ولنختم المكتوبَ بالخاتمة الحسنة في فضائل أهل بيت الرسول عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام.

روى ابنُ عبد البر أنه قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا؛ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا؛ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ آذَى عَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي؛ فَقَدْ آذَى اللهَ**»(١)، وأخرج الترمذيّ والحاكمُ وصححه عن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ**»، قيل: يا رسول الله، سمّهم لنا، قال: «**عَلِيٌّ مِنْهُمْ**»، يقول ذلك ثلاثًا، «**وَأَبُو ذَرٍّ وَالْمِقْدَادُ وَسَلْمَانُ**»(٢)، أخرج الطبرانيُّ والحاكمُ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «**النَّظَرُ إِلَى عَلِيٍّ عِبَادَةٌ**»(٣)، إسناده حسنٌ، وأخرج الشَّيخان عن البراء: رأيت رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه وهو عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ**»(٤)، وأخرج البخاريُّ عن أبي بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرةً وإليه مرةً، ويقول: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا لَسَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(٥)، أخرج الترمذي عن أسامة بن زيد قال: رأيت النبي ﷺ وحسن وحسين على وركه، فقال: «**هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا بِنْتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا، وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا**»(٦)، أخرج الترمذيُّ عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ أهل بيتك أحب إليك؟ قال: «**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ**»(٧)، وروى المسورُ بن مخرمة: أن رسول الله ﷺ قال: «**فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أَبْغَضَهَا أَبْغَضَنِي**»(٨)، وفي رواية: «**يَرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**»(٩)، وأخرج الحاكمُ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لعليّ: «**فَاطِمَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْهَا**»(١٠)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ(١١)، وقالت: إنَّ نساء رسول الله ﷺ كن حزبين، فحزبٌ فيه عائشةُ وحفصةُ وصفيةُ وسودةُ، والحزبُ الآخرُ أمّ سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ، فكلّم حزبُ أمّ سلمة، فقلن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ؛ فليُهْدِ إليه حيث كان، فكلمته، فقال لها: «**لَا تُؤْذِينِي، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ**»، فقالت: أتوب إلى الله سبحانه من أذاك يا رسول الله، ثم إنهنَّ دعون فاطمة، فأرسلن إلى رسول الله ﷺ، فكلَّمته، فقال: «**يَا بُنَيَّ، أَلَا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟**» قالت: بلى، قال فأحبّي هذه(١٢)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على أحدٍ من نساء رسول الله ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن يكثر ذكرها، وربما ذبح شاةً، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلتُ له: كأنَّه لم يكن في الدنيا امرأةٌ إلا خديجة، فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا**............

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٣٨٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٣٢): إسناده حسن. وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٤٨) وصححه من حديث سلمان رضي الله عنه مختصراً. وانظر: «الاستيعاب»: (ص: ١١٠١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧١٨) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٤٩) وصححه.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٠٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٦٩)، وقال: حديث حسن غريب.

(٧) أخرجه الترمذي (٣٧٧٢)، وقال: حديث غريب.

(٨) كذا ورد في بعض نسخ «مصابيح السنة» كما في «كشف المناهج» (٥/ ٣٠٣)، وأخرجه البخاري (٣٧١٤) بلفظ: «فمن أغضبها أغضبني».

(٩) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(١٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٤٧٨).

(١١) أخرجه البخاري (٢٥٧٤)، ومسلم (٢٤٤١).

(١٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢).

وَلَدٌ»[١]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَبَّاسُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»[٢]، أخرج الديلميُّ عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى مَنْ آذَانِي فِي عِتْرَتِي»[٣]، وأخرج الحاكمُ عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مِنْ بَعْدِي»[٤]، أخرج ابن عساكر عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَنَعَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِي يَداً أُكَافِئْهُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٥]، أخرج ابنُ عديّ والديلميُّ عن علي ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «أَثْبَتُكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ أَشَدُّكُمْ حُبّاً لِأَهْلِ بَيْتِي وَلِأَصْحَابِي»[٦]: (شعر)

الـهـى بـه حـقِّ بـنـى فـاطـمـه ‍ ‍ ‍ ‍ كـه بـر قـول ايمان كنى خـاتـمـه

اگـر دعـوتـم رد كـنـى ور قـبـول ‍ ‍ ‍ ‍ من و دسـت و دامـانِ آلِ رسـول

ﷺ وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والملائكة الكرام المقربين، وعلى سائر عباد الله الصالحين أجمعين.

المكتوب السابع والثلاثون

إلى الفَقير الحَقيرِ عَبدِ الحيِّ الذي هو جامِعُ هذه المَكتوباتِ الشَّريفةِ في بيانِ فضائِل الكَلمَة الطَّيِّبة (لا إله إلَّا الله)، وما يُناسبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا إله إلا الله) لا شيءَ أنفعُ من هذه الكلمة الطيِّبة في تسكين غضب الربّ جلّ سلطانُه، وعلا برهانُه، فإذا كانت هذه الكلمةُ سبباً لتسكين غضب دخول النَّار؛ تكون سبباً لتسكين غضباتٍ أُخَر بالطَّريق الأولى، فإنَّها دون ذلك كيف لا تكون سبباً للتَّسكين، فإنَّ العبدَ قد أعرض عن السِّوَى نافياً له بتكرار هذه الكلمة الطيِّبة، وجعل قبلةَ توجّهه المعبود على الحقّ؟ وكان منشأُ الغضب: هو التوجّهات الشَّتَّى التي كان العبدُ مبتلىً بها، وليس فليس، وشاهدُ هذا المعنى في عالم المجاز هو أنَّ شخصاً إذا تأذَّى من مملوكه وغضب عليه؛ فحينئذٍ لو أعرض المملوكُ بحسن التَّدبير الذي فيه عما سوى مالكه، وتوجّه إلى مالكه بكليته؛ تظهر الشَّفقةُ والمرحمةُ في المالك في حقّ المملوك بالضَّرورة، ويرتفع عنه الغضبُ والأذى، وأجدُ هذه الكلمةَ الطيِّبةَ مفتاحَ خزينةِ تسع وتسعين رحمة، أعني: ما جعلت ذخيرةً لأجل الآخرة.

واعلم أنَّه لا شيءَ أشفعَ من هذه الكلمة الطيِّبة في دفع ظلمات الكفر وكدورات الشِّرك، ومن صدَّق بمضمون هذه الكلمة، وحصَّل ذرَّةً من الإيمان، ومع ذلك كان مبتلىً برسوم الكفر ورذائل الشِّرْك؛ نرجو أن يخرج من العذاب بشفاعةِ هذه الكلمة الطيِّبة، وأن ينجو من الخلود في النَّار، كما أنَّ شفاعةَ محمدٍ رسول الله ﷺ أنفعُ في دفع عقوبات سائر كبائر هذه الأمة، وأدخلُ فيه. وإنَّما قلت: كبائر هذه الأمة، فإنَّ ارتكابَ الكبائر في سائر الأمم السابقة أقلُّ منه في هذه الأمة، بل امتزاجُ رسوم الكفر ورذائل الشِّرْك أيضاً أقلُّ فيهم، والأحوجُ إلى الشَّفاعة هو هذه الأمَّة، وفي الأمم السَّابقة كان جمعٌ مصرّاً على الكفر، وكان جمعٌ آخر مؤمناً خالصاً ممتثلاً للأوامر، قد هلكت هذه الأمةُ الكثيرةُ الذُّنوب لو لا أن يكون شفيعُهم مثلَ الكلمة الطيِّبة، وشافعُهم مثلَ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والتحيات، أمةٌ مذنبةٌ وربٌّ غفورٌ. والذي تناله هذه الأمَّةُ من عفوه وغفرانه سبحانه لا يعلم نَيْلَ جميع الأمم الماضية هذا القدر، وكأنَّ التِّسعة والتِّسعين من الرَّحمة ادُّخرتْ لهذه الأمة المستغرقة في الذُّنوب: (ع) أَحَقُّ النَّاسِ بِالْكَرَمِ الْعُصَاةُ

ولما..

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥٩)، والنسائي (٤٧٧٥)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) انظر: «الفتح الكبير»: (١/ ١٧٥).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٥٩) وصححه، وأبو يعلى (٥٩٢٤)، قال الهيثمي (٩/ ١٧٤): رجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: (٤٥/ ٣٠٣).

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل»: (٧/ ٥٦٦).

كان الحقُّ سبحانه وتعالى يحبُّ العفوَ والمغفرةَ، ولا شيءَ من المادَّة لأجل العفو والمغفرة مساوياً لهذه الأمة؛ لا جرم صارت هذه الأمّةُ خيرَ الأمم، والكلمةُ الطيِّبةُ التي هي شفيعتهم أفضلَ الذكر، ونال نبيُّهم الذي هو شفيعهم سيِّدَ الأنبياء، خطاب ﴿أُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. نعم، هكذا يكون أرحم الراحمين، وهكذا يفعلُ أكرم الأكرمين:

(ع) لَا عُسْـــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

واسمع أيضاً من فضائل هذه الكلمة الطيِّبة، قال رسول الله ﷺ وبارك وكرم: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، ويتعجَّبُ القاصرون كيف يتيسّرُ دخولُ الجنة بأن يقول: (لا إله إلا الله) مرةً واحدةً؟ وهذا لكونهم غيرَ واقفين على بركات هذه الكلمة الطيِّبة، وقد صار مكشوفاً للفقير أنَّه لو غفر ذنوبُ جميع العالم بتكلّم هذه الكلمة الطيِّبة مرةً واحدةً، وأدخلوا الجنَّةَ؛ لساغ، وكان مشهوداً أيضاً أنَّه لو قُسمتْ بركاتُ هذه الكلمة المقدسة بين تمام العالم لكفت الجميعَ إلى أبد الآباد، ولأَرْوَت الكلَّ، فكيف إذا اجتمعت بهذه الكلمة الطيِّبة المقدسة (محمد رسول الله)، وانتظم التَّبليغُ بالتَّوحيد، واقترنت الرسالةُ بالولاية؟ ومجموعةُ هاتين الكلمتين جامعةٌ لجميع كمالات الولاية والنبوَّة، وهادي سبيل كِلَا هاتين السَّعادتين من طهر الولاية من ظلمات الظِّلال، وأوصل النبوَّة إلى الدَّرجة العليا. اللهم لا تحرمنا من بركات هذه الكلمة العليّة، وثبِّتنا عليها، وأَمِتْنا على تصديقها، واحشرنا مع المصدقين لها، وأدخلنا الجنَّةَ بحرمتها وحرمة مبلغيها عليهم الصلاة والتحيات والتسليمات والبركات.

وأيضاً إذا عجز النَّظرُ والقدمُ، وانخفض جناحُ الهمَّة وترخّى، ووقعت المعاملةُ على الغيب الصِّرْف؛ لا يمكن السَّيرُ في ذلك الموطن بغير قدم (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ولا يمكن قطعُ تلك المسافة إلا في كَنَف تلك الكلمة المقدسة، وكلَّما قال السَّائرُ في ذلك الموطن هذه الكلمة الطيِّبة مرةً واحدةً يقطع بها وبإمداد حقيقة هذه الكلمة المقدسة وإعانتها خطوةً واحدةً من تلك المسافة، ويقع بعيداً عن نفسه، وقريباً من الحق سبحانه، وكلُّ جزءٍ من تلك المسافة أزيدُ من تمام دائرة عالم الإمكان بزيادة مضاعفةٍ، فينبغي أن يُعلمَ فضيلةُ هذا الذِّكر من ههنا، حيث لا مقدارَ لتمام الدُّنيا في جنبه ولا إحساسَ، ليت لها حكمُ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط. وعظمةُ هذه الكلمة الطيِّبة باعتبار درجات قائلها، كلَّما كانت درجةُ القائل أزيدَ وأعلى؛ تكون تلك العظمةُ أكثرَ وأَوْلى: (شعر)

يَـزِيـدُكَ وَجْـهُـهُ حُسْـنـاً إِذَا مَـا زِدْتَـهُ نَـظَـرَا

ولا يعلم في الدُّنيا تمنٍّ يساوي لتمنِّي أن يقعد الإنسانُ في زاوية ملتذاً ومحتظّاً بتكرار هذه الكلمة الطيِّبة، ولكن ما نفعلُ لا يتيسّر جميع التمنيات؟ ولا بد من الغفلة والاختلاط بالخلق، ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

المكتوب الثامن والثلاثون

إلى الحاجّ يوسُفَ الكَشْميريِّ في بيانِ أنَّه لا تعلُّق لباطنِ أهلِ الله بالدُّنيا مِقدارَ خَردَلةٍ، وإنْ تَشبَّثُوا في الظَّاهرِ بالدُّنيا وأسبَابِها، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. تكون معرفةُ الله جل سلطانه حراماً على شخصٍ يكون

في باطنه مقدارُ خردلةٍ من محبّة الدُّنيا، أو من التعلّق بالدُّنيا، أو خَطَرَ في باطنه هذا المقدار من خواطر الدُّنيا، بقي ظاهرُه الذي وقع بعيداً من باطنه بمراحل، وجاء من الآخرة إلى الدُّنيا، واختلط بالنَّاس لحصول المناسبة المشروطة في الإفادة والاستفادة، فإن تكلَّمَ من الدُّنيا، وتشبَّث بالأسباب الدنيويَّة؛ جاز له ذلك وساغَ، ولا يكون مذموماً أصلاً، بل يكون محموداً؛ لئلا تتعطَّل حقوق العباد، وكيلا ينسدَّ طريقُ الإفادة والاستفادة، فباطنُ هذا الشَّخص أفضلُ من ظاهره، وحكمُه حكمُ بائع حنطةٍ تشبه الشَّعيرَ، والذين نظرُهم مقصورٌ على رؤية الظَّاهر يحسبونه كأنفسهم مثل بايعي شعير يشبه الحنطةَ، ويعتقدون ظاهره أفضل من باطنه، ويتخيَّلون أنَّه يرى نفسه في الظَّاهر عديم التعلّق، وأنَّه متعلّقٌ في الباطن، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ

إلى السَّيِّد عبدِ الباقي السَّارَنْگ پُورِيِّ في بيانِ أصحابِ اليمينِ وأصحابِ الشِّمالِ والسَّابِقينَ، وما يُناسبُ ذلك.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم - أرشدك الله تعالى - أنَّ أصحابَ الشِّمال هم أصحابُ الحجب الظُّلمانيّة، وأصحابُ اليمين أربابُ الحجب النورانيَّة، والسَّابقون هم الذين تخلَّصوا من هذه الحجب وتلك الحجب، وحازوا قصبَ السَّبق على أقرانهم، ووصلوا إلى ميدان الأصل واضعين إحدى قدميهم على الشمال، والأخرى على اليمين، وترقَّوا من الظلال الإمكانيّ والظلال الوجوبيّ، ولم يروا من الاسم والصفة والشَّأن والاعتبار غيرَ الذات تعالت وتقدست. أصحابُ الشمال أربابُ الكفر والشقاوة، وأصحابُ اليمين أهلُ الإسلام وأربابُ الولاية، والسَّابقون بالأصالة هم الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، وبالتبعيّة كلُّ من يشرَّفُ بهذه الدَّولة، وهذه الدَّولة بالتبعية أكثرُ في أكابر أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي غير الأصحاب أيضاً متحقّقةٌ على سبيل القلَّة والنُّدرة، وهذا الشَّخصُ أيضاً من زمرة[1] الأصحاب في الحقيقة، وملحقٌ بكمالات الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات، وكان النبيُّ ﷺ قال في حقه حيث قال: «**لَا يُدْرَى أَوَّلُهُمْ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُمْ**»، وإن قال ﷺ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي**» قال: هذا باعتبار القرون، وذاك باعتبار الأشخاص، والله سبحانه أعلم.

ولكن إجماعَ أهل السنة على أفضليّة الشَّيخين، ولا أحد يسبق أبا بكر بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو أسبقُ سابقي هذه الأمة، وأقدمُ قدماء أرباب هذه الملَّة، وتشرَّفَ الفاروقُ بتوسله بدولة الأفضليّة، وترقّى بتوسُّطه فوق الآخرين، ومن ههنا قالوا للفاروق خليفةَ الصديق، وقرؤوا في الخطبة: خليفة خليفة رسول الله ﷺ، وفارسُ ميدان هذه المعاملة هو الصديقُ، والفاروقُ رديفُه، وحبذا الرديفُ حيث رافق الفارسَ وشارَكَه في أخصّ أوصافه.

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: إنَّ السَّابقين خارجون من أحكام اليمين والشمال، ومتفوِّقون من معاملات الظلمانيّة والنورانية، كتابُهم وراء كتاب اليمين والشِّمال، ومحاسبتُهم وراء وراء محاسبة أصحاب اليمين والشمال، أشغالُهم وأحوالُهم على حدةٍ، وغُنْجُهم ودلالهم ممتازٌ، ماذا يدرك أصحابُ اليمين مثلَ أصحاب الشمال من كمالاتهم؟ وماذا ينال أربابُ الولاية كعامّة المؤمنين..

(١) أي: في نيله تلك الفضيلة فقط، لا في جميع الفضيلة. فتبصر. من المعرب.

من أسرارهم؟ حروفُ المقطعات القرآنية رموزُ أسرارهم، والمتشابهاتُ الفرقانيةُ كنوزُ مدارج وصولهم، وجعلهم الوصولُ إلى الأصل فارغين من الظلّ، وأبعد أربابَ الظلال عن حريمهم الخاصّ بهم، وهم المقربون، والروحُ والريحانُ نصيبهم، وهم الذين لا يحزنهم الفزعُ الأكبرُ، ولا يتحركون من محلِّهم من أهوال يوم القيامة في المحشر كغيرهم، اللهم اجعلنا من محبيهم، فإنَّ المرءَ مع من أحبَّ، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات والتحيات والبركات.

المَكتُوبُ الأربَعُونَ

إلى مولانا بَدرِ الدِّينِ في بيانِ أنَّ خَرقَ الحُجبِ باعتِبارِ الشُّهودِ لا باعتِبارِ الوُجودِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

إنَّ خرقَ حجب الأسماء والصِّفات والشُّؤون والاعتبارات من حضرة الذات تعالت وتقدست على قسمين: خرقٌ باعتبار الشُّهود، وخرقٌ باعتبار الوجود، فالخرقُ الوجوديُّ ممتنعٌ، والخرقُ الشُّهوديُّ ممكنٌ، بل واقعٌ، وإن كان نصيبَ أقلِّ قليل، وأخصّ خواصّ، وما ورد في الخبر من قوله عليه السلام: «**إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ، لَوْ كُشِفَتْ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»، فالمرادُ من هذا الكشف والخرق: الوجوديُّ الممتنعُ، وما كتب هذا الفقيرُ في بعض رسائله من خَرْق جميع الحجب من حضرة الذات تعالت وتقدَّست؛ فالمرادُ منه: الخرقُ الشُّهوديُّ، كما أنَّ الحقَّ سبحانه يكرم شخصاً ببصارةٍ يرى بها الأشياءَ من وراء الحجب والأستار، وخرقُ الحجب والأستار هنا باعتبار الشُّهود، فكذا هذا، فعلم أنَّ ما كتبه الفقير من جواز خرق الحجب ليس بمنافٍ لخبر عدم جواز خرق الحجب، فإنَّ ذلك الخرقَ غيرُ هذا الخرق، فلا تكن من الممترين. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالأربَعُونَ

إلى الشَّيخِ فريدِ التَّهَانِيسَرِيِّ في بيانِ أنَّ في مَراتبِ نِهايةِ النِّهايةِ تَظهرُ مَرتبةُ كلِّ ذرَّةٍ من ذلك المَوطنِ أزيَد من تَمامِ دائِرةِ الإمكانِ بأضعافٍ مُضاعَفةٍ، وما يُناسبُ ذلك.

قد يظهرُ وقتَ العروج إلى مراتب نهاية النِّهاية بعناية الله سبحانه وحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام مرتبةُ كلِّ ذرَّةٍ من ذلك الموطن أزيدَ من تمام دائرة الإمكان بأضعافٍ مضاعفةٍ، فإذا قطع مسافةَ مقدارِ ذرَّةٍ من ذلك الموطن بالسُّلوك كأنَّه تيسّر قطعُ زيادة أضعاف دائرة الإمكان، فكيف إذا طوى شخصٌ مسافةً طويلةً من تلك المرتبة؟ فعلم أنَّه لا مقدارَ لدائرة الإمكان بالنِّسبة إلى مرتبة الوجوب فما فوقها، يا ليت لها حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، فبالضَّرورة لا يمكن وصولُ أحدٍ إلى منزل الحبيب بقوَّة قدمه، ولا يقدرُ رؤيته ببصر نفسه، (**لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه**).

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالأربَعُونَ

إلى الخواجه جَمالِ الدِّينِ الحُسَينِ وَلَدِ المِيرزا حُسامِ الدِّينِ أحمَدَ في بَيانِ حَصرِ الصُّوفيَّة السَّيرَ في الآفاقِ والأنفُسِ، وإثباتِهمُ التَّخليةَ والتَّحليةَ في ذلك السَّيرِ، ومَنعِه هو قدَّس سرُّه هذا المَعنَى، وإثباتِه نِهايةَ النِّهايَةِ فيما وَراءَ الأنفُسِ والآفاقِ بعِنايَةِ الله سُبحانَه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام إلى يوم القيامة.

أيُّها الولدُ العزيزُ، أسعدك الله تعالى، اسمع بسمع العقل: إنَّ السَّالكَ إذا اشتغل بالذِّكْر الإلهي جلّ سلطانه بعد تصحيح النيَّة وتخليصها، وقدَّم الرياضات الشَّاقَّةَ، والمجاهدات الشديدةَ، وحصَّل التَّزكيةَ، وبدَّل الأوصافَ الرذيلةَ بالأوصاف الحسنة، وتيسّرت له التوبةُ والإنابةُ، وزال حبُّ الدُّنيا عن قلبه، وحصل له الصَّبرُ والتوكُّلُ والرضا، وشاهَدَ هذه المعاني الحاصلةَ له في عالم المثال بالتَّدريج والتَّرتيب، ورأى نفسه طاهراً ومصفّي عن الكدورات البشريَّة والصِّفات الرذيلة؛ لكان قد أتمَّ السَّيرَ الآفاقيَّ ألبتَّة، واختار طائفةٌ في هذا المقام الاحتياطَ، وقرَّروا الأمرَ على تمثُّل كلِّ لطيفةٍ من اللَّطائف السَّبعة الإنسانيَّة في عالم المثال بصورة نورٍ من الأنوار المناسبة لها، وجعلوا علامةَ صفاءِ كلِّ لطيفةٍ ظهورَ نورٍ من تلك الأنوار المثالية، وابتدؤوا هذا السَّيرَ من لطيفة القلب، وأوصلوه بالتَّدريج والتَّرتيب إلى اللَّطيفة الأخفى التي هي منتهى اللطائف، وجعلوا علامةَ صفاء قلب السَّالك مثلاً ظهورَ ذلك القلب في عالم المثال بصورة النُّور الأحمر، وجعلوا علامةَ صفاء الرُّوح ظهورَه بصورة النُّور الأصفر، وعلى هذا القياسُ، فكان حاصلُ السَّير الآفاقيّ أن يشاهدَ السَّالكُ تبدُّلَ أوصافه وتغيُّرَ أخلاقه في مرايا عالم المثال، وأن يحسَّ زوالَ ظلماته وكدوراته في ذلك العالم، حتى يحصل له اليقينُ بصفائه، ويثبت العلمُ بتزكيته، ولَمّا كان السَّالكُ في هذا السَّير يشاهِدُ أحوالَه وأطوارَه ساعةً فساعةً في عالم المثال الذي هو من جملة الآفاق، ورأى فيه انتقالَه من هيئةٍ إلى هيئةٍ، كأنَّ سيرَه كان في الآفاق، وإن كان هذا السَّيرُ في الحقيقة سيراً في نفس السَّالك، وكانت الحركةُ حركةً كيفيّةً في أخلاقه وأوصافه، ولكن لَمّا كان سطحُ نظره بعيداً في رؤيته؛ كان ذلك آفاقاً لا أنفساً، وصار السَّيرُ أيضاً منتسباً إلى الآفاق، وقالوا بتمام السَّير إلى الله عند تمام هذا السَّير المنسوب إلى الآفاق، وجلعوا الفناءَ مربوطاً بهذا السَّير، وعبَّروا عن هذا السَّير بالسُّلوك، فإذا وقع السَّيرُ بعد ذلك يسمونه: سيراً أنفسيّاً، ويقال له أيضاً: السَّيرَ في الله، ويثبتون البقاءَ بالله في هذا الموطن، ويرون في هذا المقام حصولَ الجذبة بعد السلوك، ولَمّا حصلت التزكيةُ للطائف السَّالك في السَّير الأوَّل، وتخلَّصت عن الكدورات البشريَّة؛ حصلت لها قابليَّةُ ظهور ظلال الاسم الجامع الذي هو ربّ السَّالك، وعكوسُ ذلك الاسم في مرايا تلك اللَّطائف، وتكون تلك اللَّطائفُ مواردَ تجلّيات جزئيات ذلك الاسم الجامع وظهوراتها، وإنَّما يسمُّون هذا السَّير بالسير الأنفسيّ؛ لأنَّ الأنفسَ صارت مرايا ظلال الأسماء وعكوسها، لا أنَّ سيرَ السَّالك في الأنفس كما مر في السَّير الآفاقي من أنَّه قيل: سيراً آفاقياً باعتبار المرآتية، لا لكون السَّير في الآفاق، وهذا السَّيرُ في الحقيقة سيرٌ في ظلال الأسماء في مرايا الأنفس، ولهذا قيل لهذا السَّير: سيرُ المعشوق في العاشق: (شعر)

مَا صُــورَةُ الْمِرْآةِ مِنْ حَرَكَاتِهَا   لَكِنَّهَا انْطَبَعَتْ بِهَا لِصَـفَـائِهَا

يمكن أن يقال لهذا السَّير: السَّير في الله باعتبار أنَّهم قالوا: إنَّ السَّالكَ يتخلَّقُ في هذا السَّير بأخلاق الله، وينتقل من خُلُقٍ إلى خلقٍ، فإنَّ للمظهر نصيباً من بعض أوصاف الظَّاهر ولو في الجملة، فكأنَّه تحقَّقَ السَّيرُ في أسماء الله تعالى. هذا نهايةُ تحقيق هذا المقام، وتصحيحُ هذا الكلام.

ولا يدرى ماذا كان حالُ صاحب المقام؟ وأيّ شيءٍ كان مراد المتكلّم من الكلام؟ كلُّ شخصٍ يقول شيئاً على مقدار فهمه ووجدانه، يريد المتكلّم من كلامه معنىً، ويفهم السامعُ من ذلك الكلام معنىً آخر، وهم يقولون للسير الأنفسيّ: سيراً في الله من غير تكلّفٍ، ويسمُّونه بقاء بالله بلا تحاشٍ، ويزعمونه مقامَ الوصال والاتّصال، وهذه الإطلاقاتُ تثقل على الفقير جداً، فلا جرم يرتكبُ في توجيهها وتصحيحها التمحُلَ والتكلّفَ، بعضُ ذلك التمحُل مأخوذٌ من كلامهم، وبعضُه واردٌ من طريق الإفاضة والإلهام، وفي السَّير الآفاقيّ كأنَّه حصلت التَّخليةُ من الرَّذائل، وفي السَّير الأنفسيّ التحلّي بالأخلاق الحميدة، فإنَّ التَّخليةَ مناسبةٌ لمقام الفناء، والتَّحليةَ مناسبةٌ لمقام البقاء، ولم يثبتوا لهذا السَّير الأنفسيّ نهايةً، وحكموا بعدم انقطاعه، وإن تيسّرَ العمرُ الأبديُّ، وقالوا: لا نهاية لشمائل المحبوب وأوصافه، فلا يزال تتجلّى صفةٌ من صفاته في مرآة السَّالك المتخلِّق، ويظهر كمالٌ من كمالاته، فأين يكون الانقطاعُ؟ وكيف تجوز النهايةُ، قالوا: (شعر)

وَلَوْ سَـعَـتْ ذَرَّةٌ فِي عُمْرِهَـا طَلَبـاً   خَيْراً وَشَـرّاً تَجِدْ فِي نَفْسِـهَـا اكْتَمَنَا

وبهذا الفناء والبقاء الذين حصلا بالسير الآفاقيّ والأنفسيّ يطلقون اسم الولاية، ويرون نهايةَ الكمال إلى هنا، فإن وقع السَّيرُ بعد ذلك؛ فهو سيرٌ رجوعيٌّ عندهم الذي هو معبَّرٌ بالسَّير عن الله بالله، وكذلك السَّيرُ الرّابعُ الذي قالوه سيراً في الأشياء بالله يتعلّقُ بالنُّزول أيضـاً، وقرّروا هذين السَّيرين لأجل التَّكميل والإرشاد، كما أنَّ ذينك السَّيرين لحصول نفس الولاية والكمال والاسترشاد، وقال جمعٌ: إنَّ سبعينَ ألف حجاب الذي ورد في الخبر: «**إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ**» يخرق في السَّير الآفاقيّ، فإنَّه يخرق في كلِّ لطيفةٍ من اللطائف السبع عشرة آلاف حجاب، فإذا بلغ ذلك السَّيرُ تمامه ارتفعت الحجبُ بتمامها، وتحقّق السَّالكُ بالسير في الله، وبلغ مقامَ الوصل. هذا حاصلُ سير أرباب الولاية وسلوكهم، ونسخة كمالهم وتكميلهم الجامعة.

وما ظهر لهذا الفقير بمحض فضل الحق سبحانه وكرمه في هذا الباب وما سلك هو فيه يحرِّرُه إظهاراً للنعمة وشكراً على العطيَّة، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢].

اعلم – أرشدك الله، وهداك سواء الصراط – أنَّ الحقَّ سبحانه الذي هو منزَّهٌ عن الكيف والمثال والشبه، وما يقع في الخيال كما أنَّه وراء الآفاق؛ كذلك هو سبحانه وراء الأنفس أيضـاً، فلا يكون لتسمية السَّير الآفاقيّ بالسير بالله والسير الأنفسيّ بالسير في الله معنىً، بل كلا السَّيرين الآفاقيّ والأنفسيّ داخلان في السَّير إلى الله، والسيرُ في الله هو سيرٌ بعيدٌ عن الآفاق والأنفس بمراحل، ووراء ورائهما، والعجبُ أنَّهم قرّروا السَّيرَ في الله في السَّير الأنفسيّ، وقالوا بعدم نهاية ذلك السَّير، ولم يجوِّزوا انقطاعه في العمر الأبديّ كما مرَّ، وحيث كانت الأنفسُ كالآفاق من جملة دائرة الإمكان؛ فعلى هذا التَّقدير لا يمكن قطعُ دائرة الإمكان، فلا جرم يكون الحرمانُ دائمـاً، والخسرانُ سرمداً، ولا يتحقّق الفناءُ أبداً، ولا يتصوَّرُ البقاءُ حينئذٍ، فكيف الوصلُ والاتِّصالُ؟ وكيف القربُ والكمالُ؟ سبحان الله، إذا اكتفى الكبراءُ من الشراب بالسَّراب، وزعموا إلى الله في الله، وتصوَّروا الإمكان وجوبـاً، وعبَّروا عن المثليّ والكيفيّ باللامثليّ واللاكيفيّ، كيف نشتكي من الصغار ووضيعي الفطرة؟ أيُّ بلاءٍ وقع؟ بأيّ اعتبارٍ قالوا للأنفس حقّـاً جل وعلا، وظنُّوا سيرها غيرَ متناهٍ مع وجود حدِّها ونهايتها؟ وظهورُ أسماء الواجب جلّ سلطانه وصفاته في مرآة السَّالك الذي قرّروه في هذا السَّير الأنفسيّ هو ظهورُ ظلٍّ من ظلال الأسماء والصِّفات، لا ظهورُ عين الأسماء والصِّفات كما يحرَّرُ..

تحقيق هذا المعنى في آخر هذا المكتوب إن شاء الله تعالى.

ماذا أفعل؟ وكيف أجوِّزُ سوءَ الأدب هذا مع جناب قدسه تعالى مع وجود العلم والتميز؟ وكيف أُشرِكُ غيره في ملكه سبحانه وتعالى؟ وإن اعتقدت أنَّ حقوقَ هؤلاء الأكابر قدس الله أسرارهم ثابتةٌ في ذمّتي، فإنّي مربىً بأنواع تربيتهم، ولكنَّ حقوقَ واجب الوجود جلَّ سلطانه فوق جميع حقوقهم، وتربيتَه سبحانه فوق تربية الآخرين، ولقد نجوتُ بحسن تربيته تعالى من هذه الورطة، ولم أشركْ في ملكه تعالى غيره سبحانه، ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذٖى هَدٰينَا لِهٰذَاۗ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَٓا اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُۚ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وهو تعالى منزَّهٌ عن الكيف والشّبه والمثال، وكلُّما هو متَّسمٌ بسمة الكيف والكمّ؛ فهو مسلوبٌ عن جنابه تعالى، فلا يكون له سبحانه مجالٌ في مرايا الآفاق ومجالي الأنفس، وكلُّما يظهر في هؤلاء يكون كالمظاهر كيفيّاً وكمياً، فينبغي أن يتجاوز الآفاقَ والأنفسَ، وأن يطلبه سبحانه في ما ورائهما، وكذلك دائرةُ الإمكان - آفاقيّاً كانت أو أنفسيّاً - كما أنَّه لا مجالَ لذاته سبحانه فيها؛ لا مجال أيضاً لأسمائه وصفاته سبحانه فيها، بل كلُّما هو ظاهرٌ فيها؛ فهو ظلالُ الأسماء والصِّفات تعالت وتقدست وشبحُها ومثالُها، بل ظليَّةُ الأسماء والصِّفات ومثاليتها أيضاً في خارج الآفاق والأنفس ليس هنا غيرَ التبعيّة وانتقاش القدرة، لمن الظهورُ؟ وأين التجلّي؟ فإنَّ أسمائه وصفاته سبحانه كذاته تعالى منزَّهةٌ عن الكيف والشبه والمثال، فما لم تخرج إلى ما وراء الآفاق والأنفس لا تعلم معنى ظليَّة أسمائه وصفاته تعالى، فكيف الوصولُ إلى الأسماء والصِّفات تعالت وتقدست؟ وأعجبُ من هذه المعاملة، فإنّي إن تكلّمتُ من مكشوفاتي ومعلوماتي اليقينيَّة لا تكون موافقةً لمذاق المشائخ، ومطابقةً لمكشوفاتهم، فمن يصدِّقها منّي؟ ومن يقبلُ؟ وإن لم أتكلّم، بل أسكت، أكُنْ مجوِّزاً لالتباس الحقّ بالباطل، ولإطلاق ما لا يجوز إطلاقُه على الحق تعالى وتقدس، فأظهرُ بالضَّرورة ما هو الحقُّ واللائقُ بجناب قدسه تعالى، وأسلب ما ليس بمناسبٍ لجناب قدسه تعالى، ولا أبالي من خلاف الآخرين، ولا أغتمُّ به، وإنَّما يتحقّقُ الخوف من مخالفة الآخرين إذا كان في معاملتي تذبذبٌ، وفي مكشوفي اشتباهٌ، فإذا انكشفت حقيقةُ الأمر مثلَ فلق الصبح، واتَّضحت معاملةُ الأصل كالقمر ليلة البدر، وتجاوزتُ مراتبَ الظِّلال بالتمام، وارتقيتُ من الشّبه والمثال، أين يكون الاشتباهُ؟ ولمن يعرض التذبذبُ؟ قال حضرةُ شيخنا قدس سره: علامةُ صحة الأحوال حصولُ اليقين على الكمال، وأيضاً كيف يُتصوَّرُ الاشتباهُ والتذبذبُ، فإنَّه قد تيسَّرَ الاطلاعُ - بعنايته تعالى التي لا غايةَ لها - على تفصيل أحوال هؤلاء الأكابر المقرَّرة، وانكشفت معارفُ التَّوحيد والاتِّحاد، وأسرارُ الإحاطة والسَّريان، وحصلت حقيقةُ مكشوفهم ومشهودهم، واتَّضحت دقائقُ علومهم ومعارفهم، واخترت الإقامةَ مدَّةً مديدةً في هذا المقام، وأدركتُ قليلهم وكثيرهم إلا ما شاء الله تعالى، فظهر آخر الأمر بفضل الله جل سلطانه أنَّ هذه كلَّها شعبذاتُ الظلال، وشغفٌ بالشبه والمثال، والمطلوبُ فيما وراء وراء ذلك، والمقصودُ ما سوى هذه، فلا جرم صِرْتُ متوجّهاً إلى جناب قدس اللامثليّ، معرضاً عن الكلّ، وتبرَّأتُ عن كلِّما هو متَّسمٌ بسمة الكمّ والكيف، ﴿اِنّٖى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذٖى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ حَنٖيفًا وَمَٓا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكٖينَۚ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فلو لم تكن المعاملةُ هكذا؛ لَمَا حرَّكتُ شفتيّ على خلاف المشائخ، ولَمَا أظهرتُ مخالفتهم بالظنّ والتخمين.

وأيضاً إنَّ هذا الخلافَ..

لو لم يتعلّق بذات الواجب وصفاته جلّ سلطانه، ولم يكن الكلامُ من تقديسه وتنزيهه تعالى؛ لما وقع إظهارُ خلاف مكشوف هؤلاء الأكابر ألبتَّة، ولم يحصل الكلامُ من مخالفة علومهم، فإني أقلُّ مقتطفي عناقيد رياض دولهم، وأرذل ملتقطي كسرات خِوَان نعمهم، وأظهر مكرّراً أنّهم هم الذين ربوني بأنواع التربية، ونفعوني بأضعاف الكرم والإحسان والترقّي، ولكن ماذا نفعلُ، فإنَّ حقوقَ الحقّ سبحانه فوق حقوقهم؟ فإذا وقع البحثُ في ذاته وصفاته تعالى، وعلم أنَّ إطلاقَ بعض الأمور على جناب قدسه ليس بلائقٍ؛ فالسُّكوتُ في هذا الموطن خوفاً من خلاف الآخرين بعيدٌ عن الدِّين والدِّيانة، لا يطيقه مقامُ العبودية والإطاعة، خلافُ العلماء مع المشائخ رحمهم الله تعالى في الأمور الخلافيَّة كمسألة التَّوحيد وغيرها من طريق النَّظَر والاستدلال، وخلافُ هذا الفقير معهم في هذه الأمور من طريق الكشف والشُّهود، والعلماءُ قائلون بقبح هذه الأمور، وهذا الفقيرُ قائلٌ بحسن هذه الأمور بشرط العبور، وخلافُ الشَّيخ علاء الدَّولة في مسألة وحدة الوجود يُفْهَمُ على طَوْر العلماء، وينظر إلى قبحها، وإن دخل فيها بطريق الكشف، فإنَّ صاحبَ الكشف لا يقول بقبحها، فإنَّ هذه المسألةَ متضمِّنةٌ لأحوال غريبةٍ، ومشتملةٌ على معارف عجيبةٍ.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ دوامَ الإقامة في هذا الموطن غيرُ مستحسنٍ، والاكتفاءَ بهذه الأحوال ليس بحسنٍ.

فإن قيل: فعلى هذا التَّقدير يكون المشائخ على الباطل، ويكون الحقُّ ما وراء مكشوفهم ومشهودهم.

أجيب: إنَّ الباطلَ هو الذي لا يكون له محملٌ من الصدق، وفيما نحن فيه منشأُ هذه الأحوال والمعارف غلبةُ محبّة الحقّ سبحانه، واستيلاءُ حبّه تعالى على نهجٍ لا يترك في نظر بصيرتهم اسماً ولا رسماً مما سواه تعالى، ويجعل اسمَ الغير والغيريَّة ورسمَها ممحوّاً ومتلاشياً، ففي هذا الوقت يعلمون الأغيار والسِّوَى بواسطة السكر وغلبة الحال معدومةً بالضَّرورة، ولا يرون موجوداً غيرَ الحقّ تعالى، فما الباطلُ هنا؟ وأين البطلانُ؟ بل في هذا الموطن استيلاءُ الحقّ، وبطلانُ الباطل، وهؤلاء الأكابر باعوا أنفسهم وغيرهم في محبَّة الحقّ جلّ وعلا، ولم يتركوا من أنفسهم وغيرهم اسماً ولا رسماً، يكاد الباطلُ يفرُّ من ظلهم، وهنا كلُّه حقٌّ، ولأجل الحقّ، ماذا ينال العلماء الذين نظرهم مقصورٌ على الظَّاهر من حقيقتهم؟ وماذا يفهمون غير المخالفة الصورية؟ وماذا يأخذون من كمالاتهم؟ والكلامُ في أنَّ فيما وراء هذه الأحوال والمعارف كمالات أخر، حكمُ هذه الأحوال والمعارف بالنِّسبة إلى تلك الكمالات كحكم القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط: (شعر)

مَتَى قِسْنَا السَّمَا بِالْعَرْشِ يَنْحَطُّ ... وَمَا أَعْلَاهُ إِنْ قِسْنَا بِأَرْضِ

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: وما قالوا في خرق الحجب من أنّه ترتفع في السَّير الآفاقيّ الحجبُ الظلمانيّةُ والنورانيّةُ بتمامها كما مرّ؛ فهذا الكلامُ عند هذا الفقير محل خدشةٍ، بل ثبت خلافه، وشوهد أنَّ خرقَ الحجب الظلمانيّة منوطٌ بطيِّ جميع مراتب الإمكان، وهو إنّما يتيسّرُ بالسير الآفاقيّ والسير الأنفسيّ، وخرقُ الحجب النورانيَّة مربوطٌ بسير الأسماء والصِّفات الواجبيَّة تعالت وتقدست، حتى لا يبقى في نظره اسمٌ ولا صفةٌ ولا شأنٌ ولا اعتبارٌ، فحينئذٍ يتيسّرُ له خرقُ الحجب النورانيَّة بتمامها، ويتشرَّفُ بالوصل العريان، وإن كان هذا الوصلُ أقلَّ حصولاً، وهذا الوصلُ أعزَّ وجوداً، ففي السَّير الآفاقيّ لا يعلم أنّه انخرقَ نصف الحجب الظلمانيّة أم لا، ....

فكيف يتصوَّرُ هناك خرقُ الحجب النورانيّة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ المراتبَ في الحجب الظلمانيّة متفاوتةٌ، فيكون ذلك التفاوتُ سبباً للاشتباه، فإنَّ الحجبَ النَّفسانيَّةَ فوق الحجب القلبيَّة في الظلمة مثلاً، وإن ظهر قليلُ الظلمة نفسه بعنوان النورانيَّة النسبيَّة، وخُيِّل الظلمانيُّ نورانيّاً، ولكنَّ الظلمانِيَّ ظلمانِيٌّ في الحقيقة، والنورانِيَّ نورانِيٌّ، لا يخلط حديدُ البصر أحدهما بالآخر، ولا يحكم على الظُّلمة بالنُّور لوجدانه منشأ الاشتباه، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. والطَّريقُ الذي شُرِّفَ هذا الفقير بتسليكه جامعٌ للجذبة والسلوك، وكلُّ واحدٍ من التَّخلية والتَّحلية مجتمعٌ مع الآخر، وكلُّ واحدٍ من التَّصفية والتَّزكية مقترنٌ في ذلك الموطن بالآخر، والسيرُ الأنفسيُّ متضمِّنٌ في ذلك المقام للسير الآفاقيّ، ففي عين التَّصفية تزكيةٌ، وفي عين التَّخلية تحليةٌ، ونفسُ الجذبة محصِّلةٌ للسلوك، والأنفسُ شاملةٌ للآفاق، ولكنَّ التقدُّمَ الذاتِيَّ للتَّخلية والجذبة، وللتَّصفية سبقةٌ ذاتيّةٌ على التَّزكية، وملحوظُ النظر الأنفسُ لا الآفاقُ، فلا جرم كان هذا الطَّريقُ أقربَ في الوصول، بل أقول: إنَّ هذا الطَّريقَ موصلٌ ألبتّة، واحتمالُ عدم الوصول مفقودٌ فيه، ينبغي أن يسأل الحقّ سبحانه الاستقامة، وأن يطلب منه تعالى الفرصةَ.

وإنَّما قلت: إنَّ هذا الطَّريقَ موصلٌ ألبتة، فإنَّ أوَّلَ قدم هذا الطَّريق الجذبةُ التي هي دهليزُ الوصول، ومواقعُ التوقفات أما منازلُ السلوك أو مواطنُ الجذبات التي لا تكون متضمنةً للسلوك، وكلا المانعين مرتفعان في هذا الطَّريق، فإنَّ السلوكَ طفيليٌّ يحصل في ضمن الجذبة، فههنا ليس سلوكٌ خالص، ولا جذبة أبتر حتى يكون الطَّريق مسدوداً، وهذا الطَّريقُ طريقُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء الأكابرُ وصلوا إلى منازل الوصول على تفاوت درجاتهم من هذا الطَّريق، وقطعوا الآفاقَ والأنفسَ بخطوةٍ واحدةٍ، ووضعوا أقدامهم الآخر فيما وراء الآفاق والأنفس، ورقُّوا المعاملة فوق السُّلوك والجذبة، فإنَّ نهايةَ السُّلوك إلى نهاية السَّير الآفاقيّ، ونهايةَ الجذبة إلى نهاية السَّير الأنفسيّ، فإذا بلغ السَّيرُ الآفاقيُّ والأنفسيُّ نهايتَهُ؛ فقد تمَّت معاملةُ السُّلوك والجذبة، وبعد ذلك لا سلوكَ ولا جذبةَ، وهذا المعنى ليس مما يجيء في حوصلة كلِّ مجذوبٍ سالكٍ وسالكٍ مجذوبٍ، فإنَّ عندهم لا مجال للقَدَم فيما وراء الآفاق والأنفس، فلو نالوا عمراً أبديّاً بالفرض والتَّقدير؛ لصرفوه في السَّير الأنفسيّ، ثم لا يظنونه تماماً، قال واحدٌ من العظماء: (شعر)

وَلَوْ سَـعَـتْ ذَرَّةٌ فِي عُمْرِهَـا طَلَبَـاً ... خَيْراً وَشَـرّاً تَنَـلْ فِي نَفْسِـهَـا اكْتَمَنَا

كما مرّ، وقال الآخر: والتجلّي من الذَّات لا يكون إلا بصورة المتجلَّى له، فالمتجلَّى له ما رأى غيرَ صورته في مرآة الحقّ، ولا يمكن أن يراه.

ينبغي أن يعلم أنَّ شيوخي وهداتي وأدلَّائي إلى الله تعالى الذين فتحت عيني في هذا الطَّريق بتوسُّلهم، وحرَّكتُ شفتي بمثل هذه المقالة بتوسُّطهم، وأخذتُ درس ألف باء في الطَّريقة منهم، وحصَّلت ملكةَ المولوية من توجّهاتهم الشَّريفة، فإن كان لي علمٌ؛ فهو بتطفُّلهم، وإن كانت معرفةٌ؛ فهي أيضاً أثرُ التفاتهم، وتعلمت طريقَ اندراج النهاية في البداية من هؤلاء الأكابر، وأخذتُ نسبة الانجذاب إلى جهة القيوميَّة أيضاً منهم، ورأيت بنظرهم الواحد ما لا يراه النَّاسُ في الأربعين، ووجدت بكلامهم الواحد ما لا يجده الآخرون في السنين: (شعر)

مَنْ نَالَ نَظْرَةَ شَمْسِ تَبْرِيزَ لِيَهْـ   زَأْ بِاخْتِلَاءِ الْأَرْبَعِينَ وَعَشَرَةِ

ولقد أجادَ من قال: (شعر)

اِعْجَبْ مِنَ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ إِنَّهُمُ   يَمْشُونَ بِالرَّكْبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ

ومن علوّ الفطرة وسموّ الهمة قرّروا ابتداء الطَّريقة من السَّير الأنفسيّ، وقطعوا السَّير الآفاقيّ في ضمنه، والسَّفرُ في الوطن في عباراتهم كنايةٌ عن هذا السَّير، والمسافةُ في طريق هؤلاء الأكابر قريبةٌ، وأقربُ إلى الوصول، نهايةُ سير الآخرين بدايةُ سيرهم، ولهذا قالوا: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية. وبالجملة: إنَّ طريقَ هؤلاء الأكابر فيما بين سائر طرق المشائخ قدس الله أسرار جميعهم عالٍ جداً، وحضورَهم وشعورَهم يمكن أن يقال: إنَّهما فوقَ شعور أكثرهم، ومن هنا قالوا: إنَّ نسبَتَنا فوق جميع النِّسَب، وأرادوا بالنِّسبة: الحضورَ والشُّعورَ، ولكن لَمّا لم يكن فيما وراء الآفاق والأنفس ووراء السلوك والجذبة مجالٌ لقدم ولاية الأولياء وممرٌّ؛ لم يخبرْ هؤلاء الأكابرُ أيضـًا بالضَّرورة عن خارج الآفاق والأنفس، ولم يتكلّموا فيما وراء السُّلوك والجذبة، ويقولون بمقياس كمالات الولاية: إنَّ أهلَ الله كلَّما يرونه بعد الفناء والبقاء يرونه في أنفسهم، وكلُّما يعرفون يعرفونه في أنفسهم، والحيرةُ فيهم في وجود أنفسهم، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، لله سبحانه الحمد والمنة إنَّ هؤلاء الأكابر وإن لم يخبروا عن خارج الأنفس، ولكنَّهم ليسوا بمبتلين ومفتونين بالأنفس أيضـًا، بل يريدون أن يجعلوا الأنفسَ تحت كلمة (لا) كالآفاق، وأن ينفوها بعلة الغيريَّة، قال الخواجه الأعظم قدس سره: كلُّما يرى ويُسمعُ ويعلمُ؛ فهو غيره تعالى، ينبغي نفيُه بحقيقة كلمة (لا): (شعر)

مَا غَرَّهُمْ نَقْشُ ذَا مِنْ نَقْشِ ذَا بَلْ أَتَوْا   فِي كُلِّ آنٍ بِنَقْشٍ عَزَّ عَنْ شَبَهِ

ينبغي أن يعلم أنَّ نفي الغيريَّة غيرُ انتفاء الغيرية، شتان ما بينهما. وإنَّما قلت: إن ليس للولاية مجالُ القدم في خارج الجذبة والسلوك والآفاق والأنفس، فإنَّ ما وراء هذه الأركان الأربعة للولاية مبادئُ كمالات النبوَّة ومقدّماتها، ويدُ الولاية قاصرةٌ عن تلك الشَّجرة العالية الرفيعة، وقد اهتدى إلى هذه الدَّولة الأكثرون من أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأقلون من سائر الأمم بتبعية الأنبياء ووراثتهم عليهم الصلوات والتحياتُ، وقطعوا بهذا الطَّريق الجامع للجذبة والسُّلوك منازلَ البعد، ووضعوا أقدامهم فيما وراء السُّلوك والجذبة، وخرجوا من دائرة الظِّلال بالتمام، وخلَّفوا الأنفس كالآفاق وراءهم، وفي هذا المقام التجلِّي الذاتِيُّ البرقيُّ الذي هو كالبرق الخاطف لغيرهم دائميٌّ لهم، بل معاملةُ هؤلاء الأكابر فوق التجلِّي برقيّـًا أو غيره، فإنَّ التجلِّي يستدعي نحواً من الظليَّة، والنُّقطةُ من الظليَّة جبلٌ عظيمٌ لهؤلاء الكبراء، وبدايةُ أمر هؤلاء العظماء الجذبُ والمحبةُ الإلهيّةُ جلّ سلطانه، فإذا زادت تلك المحبّةُ بعناية الله جلّ سلطانه وعَظُمَ شأنه التي لا غايةَ لها، واستولتْ ساعةً فساعةً، وقويتْ، وغلبتْ؛ تشرعُ محبّةُ ما سواه تعالى بالضَّرورة درجةً فدرجةً في الزَّوال، ويرتفع التعلّقُ بالأغيار بالتدريج، فإذا زالت محبَّةُ ما سواه تعالى عن صاحب دولةٍ باستيلاء محبته جلّ سلطانه بالكلية، وصار محلُّها التعلّق والمحبة بجناب قدسه تعالى؛ ارتفعت عنه أوصافُه الرذيلةُ وأخلاقُه الرَّديئةُ بالتَّمام، وصار محلّىً بالأخلاق الحميدة، وتحقّق بالمقامات العشرة، وما..

كان له تعلّقٌ بالسير الآفاقيّ تيسّر بلا مؤنة السلوك التّفصيليّ، وبلا رياضات شاقةٍ ومجاهداتٍ شديدةٍ، فإنَّ المحبَّةَ تقتضي إطاعةَ المحبوب، فإذا بلغت المحبةُ كمالها؛ حصلت الإطاعةُ بتمامها، وحيث حصلت الإطاعةُ على الوجه الأتمّ بمقياس القوة البشريَّة تيسّرت المقاماتُ العشرةُ، وبهذا السَّير المحبوبيّ كما حصل السَّير الآفاقيّ تمَّ به السَّيرُ الأنفسيُّ أيضـًا، فإنَّه قال المخبر الصادق عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، وحيث كان المحبوبُ وراء الآفاق والأنفس ينبغي للمحبّ أيضـًا أن يتجاوز الآفاقَ والأنفسَ بحكم المعيَّة، فيخلِّفُ السَّير الأنفسيّ أيضـًا وراءه بالضَّرورة، ويحصل دولة المعية، فهؤلاء الأكابرُ لا شغلَ لهم بالآفاق ولا بالأنفس ببركة دولة المحبَّة، بل الآفاقُ والأنفسُ تابعةٌ لأمرهم، والسلوكُ والجذبةُ متطفِّلان بمعاملاتهم، ورأسُ بضاعة هؤلاء الأكابر المحبَّةُ التي إطاعةُ المحبوب لازمةٌ لها، وإطاعةُ المحبوب مربوطةٌ بإتيان الشَّريعة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية التي هي الدينُ المرضيُّ لله تعالى، فعلامةُ كمال المحبة كمالُ إتيان الشَّريعة، وإتيانُ الشَّريعة بكمالها منوطٌ بالعلم والعمل والإخلاص، والإخلاصُ الذي يتصوَّرُ في جميع الأقوال والأعمال وجميع الحركات والسكنات هو نصيبُ المخلَصين بفتح اللام، والمخلصين المكسوري اللام ماذا يدركون من هذا المعمّى؟ لعلك سمعتَ: والمخلصون على خطر عظيم.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّ المقصودَ من السلوك والجذبة والتصفية: تطهيرُ النَّفس من الأخلاق الرديَّة والأوصاف الرذيلة، ورأسُ جميع تلك الذَّمائم التعلّقُ بالنَّفس، وتحصيلُ مراداتها وهواها، فحينئذٍ لا يكون بُدٌّ من السَّير الأنفسيّ، ولا مندوحةَ من الانتقال من الصِّفات الذميمة إلى الأخلاق الحميدة، والسيرُ الآفاقيُّ خارجٌ عن المقصود، ولا تعلّقَ به لغرضٍ معتدٍّ به، فإنَّ العلائقَ الآفاقيَّةَ بواسطة العلائق الأنفسيّة، فإنَّ كلَّما يحبه الإنسانُ إنّما يحبُّه لحبّ نفسه، فإذا أحبَّ الأولاد والأموالَ إنّما يحب لأجل استمتاعه وانتفاعه، فإذا زالت في السَّير الأنفسيّ محبَّتُه لنفسه بواسطة استيلاء محبة الحقّ جل وعلا زالت في ضمنه محبَّتُه لأولاده وأمواله أيضـًا، فكان السَّيرُ الأنفسيُّ ضروريـًا، ويتيسّر السَّيرُ الآفاقيُّ بالتطفُّل في ضمنه، ولهذا كان سيرُ الأنبياء عليهم الصلوات والتحيات مقصوراً على السَّير الأنفسيّ، وقطعُ السَّير الآفاقيّ في ضمنه طفيليّـًا. نعم، السَّيرُ الآفاقيُّ أيضـًا حَسَنٌ لو وجدت الفرصةُ لقطعه، وتيسّر إتمامه من غير تخلُّلِ التوقفات، فلو لم توجد الفرصةُ لقطعه، ووقع الابتلاءُ بالتوقفات؛ يكاد يعدُّ السَّيرُ الآفاقيُّ داخلاً فيما لا يعني، ويحسب من موانع حصول المطلوب، والسيرُ الأنفسيُّ كلَّما يقطع؛ فهو مغتنمٌ، فإنَّه انتقالٌ من السيئة إلى الحسنة، يا لها من نعمةٍ عظيمةٍ لو أتمَّ السَّالكُ بهذا السَّير، وتبختر في خارج دائرة الأنفس، ولأيِّ شيءٍ يلزم أن يشاهد شخصٌ تلوينات الأنفس في مرآة الآفاق، وأن يعاين تغيراته فيها؟ كما يعلم صفاءَ قلبه مثلاً في مرآة المثال، ويرى ذلك الصَّفاء بصورة النور الأحمر، فلم لا يستعملُ وجدانَه؟ ولم لا يحيلُ صفاءه على فراسته؟ ما حاجةُ من بلغ اثنتي عشرة سنة إلى الطبيب مثلٌ مشهورٌ؟ فإنَّه يمكن أن يدرك تلوينات أحواله بوجدانه الصَّحيح، وأن يعلم بتفرُّسه الصريح صحته وسقمه. نعم، إنَّ السَّيرَ الآفاقيَّ فيه علومٌ ومعارف، وتجلّياتٌ وظهوراتٌ كثيرةٌ، ولكن كلُّها راجعةٌ إلى الظِّلال، ....

وتسلَّ بالشّبه والمثال، فإذا كان السَّيرُ الأنفسيُّ متعلّقـاً بالظِّلال - كما حقّقْتُه في رسائلي ومكاتيبي - يلزم أن يكون السَّيرُ الآفاقيُّ متعلّقـاً بظلّ الظلّ، فإنَّ الآفاقَ كالظلّ للأنفس، ومرآةٌ لظهورها، ينبغي أن يعلم أنَّ مَثَلَ من يشاهدُ أحوال الأنفس في مرآة الآفاق ويعلم الصفاءَ والتخليةَ منها كمَثَل من يرى نفسه في المنام أو في الواقعة في عالم المثال سلطانـاً، أو يشاهد فيه نفسَه قطبَ الوقت، فهو في الحقيقة ليس بسلطانٍ ولا قطب الوقت، فإنَّ السُّلطانَ والقطبَ من يكون مشرَّفـاً في الخارج بمنصب السَّلطنة أو القطبيَّة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنّه يعلم من هذا المنام أو الواقعة استعدادَ السَّلطنة وقابليَّة القطبيَّة، ينبغي بذلُ الروح حتى تخرج المعاملةُ من القوَّة إلى الفعل، وتنتقل من المراسلة إلى المعانقة، وفيما نحن فيه أيضـاً التَّزكيةُ والتحليةُ منوطةٌ بالسير الأنفسيّ، وما رآه في السَّير الآفاقيّ؛ فهو استعدادُ التزكية، وقابليَّةُ التحلية، فما لم ير نفسَه مزكّىً ومطهَّراً في الخارج بالسير الأنفسيّ، ولم يدرك نفسه مصفّىً بوجدانه؛ فليس له نصيبٌ من الفناء في الحقيقة، ولا حَظَّ له من التحقّق بالمقامات، ولم يحصل من الأطوار السَّبعة غير القشر، فكان السَّيرُ الأنفسيُّ داخلاً في السَّير إلى الله بالضَّرورة، وكانت تماميَّةُ السَّير إلى الله التي هي مقامُ الفناء مربوطةً بالسَّير الأنفسيّ، والسيرُ في الله يُتصوَّرُ بعد السَّير الأنفسيّ بمراحل: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَـادَ وَدُونَهَـا ... قُـلَـلُ الْـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ خُـيُـوفُ

أيها السعيدُ، إنَّ التعلّقَ العلميَّ والحبيَّ الذي كان منسوبـاً إلى ذات السَّالك إذا زال في السَّير الأنفسيّ؛ يرتفع التعلّقُ الذي كان بنفسه، ويزول تعلّقُه بالأغيار أيضـاً في ضمن زوال تعلّقه بنفسه، فإنَّ علائقَه بالأغيار إنّما هي بواسطة علاقته بنفسه كما تقدَّم تحقيقُه، فصحَّ أنَّ السَّيرَ الآفاقيَّ يقطع في ضمن السَّير الأنفسيّ، ونجا السَّالكُ بهذا السَّير الواحد من علائق الأغيار، ومن علائق نفسه أيضـاً، فبمقياس ذلك التَّحقيق صحَّ معنى السَّير الأنفسيّ والسير الآفاقيّ من غير تكلّفٍ، فإنَّ السَّيرَ في الحقيقة في الأنفس وفي الآفاق أيضـاً، فإنَّ قطعَ تعلّقات الأنفس بالتَّدريج سيرٌ في الأنفس، وقطع التعلّقات الآفاقيّة الذي هو يحصل في ضمن السَّير الأنفسيّ سيرٌ في الآفاق، بخلاف السَّير الآفاقي والسير الأنفسيّ بطور الآخرين، فإنَّه يحتاج فيهما إلى التكلّف كما مر. نعم، إنَّ كلَّ محلٍّ فيه حقيقةٌ؛ فهو محرَّرٌ عن التكلّف. والله سبحانه الموفق.

اسمع اسمع، إنَّ ظهورَ أسماء الواجب وصفاته جل سلطانه في مرآة السَّالك الذي أثبتوه في السَّير الأنفسيّ، وظنوه تحليةً بعد تخلية؛ ليس ذلك الظهورُ في الحقيقة ظهورَ الأسماء والصِّفات، ولا هو تحليةٌ بعد تخليةٍ، بل هو ظهورُ ظلٍّ من ظلال الأسماء والصِّفات، ومحصِّلٌ للتحلية، ومسهِّلٌ للتَّزكية والتَّصفية. بيانُه: أنَّ السّبقة من ذلك الطرف؛ لأنَّها مناسبةٌ للمبدئية، فيحصل أوَّلاً ظهورُ ظلٍّ من ظلال المطلوب في مرآة الطالب، حتى يزيل ظلماته وكدوراته، وتحصل له التزكيةُ والتصفيةُ، وبعد زوال الظلمات وحصول التَّزكية والتَّصفية الذي هو مربوطٌ بتمامية السَّير الأنفسيّ؛ تتصوَّرُ التخليةُ، ويحصل الاستعدادُ للتحلية، ويصير حقيقـاً ومستحقـاً لظهور أسماء الواجب وصفاته جلّ سلطانه، ففي السَّير الأنفسيّ تحصل التَّخليةُ الذي هو منوطٌ بالتزكية، والتصفيةُ والتخليةُ التي كانت متوهمةً في السَّير الآفاقيّ؛ فهي صورةُ التخلية لا حقيقتها، حتى يتصور في السَّير الأنفسيّ حصولُ التحلية، وظهورُ الأسماء والصِّفات الواجبية كما قالوا، فلزم من هذا ....

البيان أنَّ الاتِّصالَ بالظلّ مقدَّمٌ على الانقطاع والانفصال، فإنَّه ما لم ينعكس ظلٌّ من ظلال المطلوب في مرآة السَّالك لا يتصوَّرُ الانقطاعُ عن غير المطلوب، وأما الاتِّصالُ بالأصل؛ فهو بعد حصول الانقطاع والانفصال، فمن قدَّم من المشائخ الاتِّصالَ ينبغي أن يراد به: الاتِّصالُ بالظل، ومن قدّم الانفصالَ على الاتِّصال ينبغي أن يراد به: الاتِّصالُ بالأصل، حتى يكون نزاعُ الفريقين راجعـًا إلى اللفظ، والشَّيخ أبو سعيد الخراز قدس سره متوقِّفٌ في هذا المقام، يقول: ما لم تتخلَّصْ لم تَنَلْ، وما لم تنل لم تتخلَّص، ولا أدري أيُّهما أقدمُ وأسبقُ؟ وقد علم أنَّ نيلَ الظل مقدَّمٌ على التخلُّص، ونيلُ الأصل بعد التخلص، فلا اشتباهَ، كما أنَّ وقتَ الصبح قبل طلوع الشمس ظهورُ ظلال أشعة الشمس حتى يخلى العالمُ عن الظلمات، ويورثه الصفاءَ، وبعد زوال الظلمات وحصول الصفاء طلوعُ نفس الشمس، فظهورُ ظل الشمس من زوال الظلمات السابقة، وطلوعُ نفس الشمس من زوال الظلمات اللاحقة، والمناسبُ لطلوع السلاطين أن يكون بعد التخلية والتصفية، وإن لم تتصور التخليةُ والتصفيةُ بدون مقدّمة طلوعهم، فظهر الحقُّ، وارتفع النزاعُ، وزال الاشتباهُ. والله سبحانه الملهم للصواب.

المكتوب الثالث والأربعون

إلى مولانا محمَّدٍ أفضل في بيانِ معنَى قَولِهم: إنَّ ما هو المُيسَّر للسَّالِك في حقِّ حَضرَة الحقِّ سُبحانَه إنَّما هو ذَوقُ الوجدانِ، لا الوجدانُ، وتَحقيقِ مَعنَى اندراجِ النِّهايَةِ في البِدايَةِ الذي هو من خاصَّة هذه الطَّريقَة العَليَّة، وبيانِ أفضَليَّة هذه الطَّريقَة على سائِر الطُّرق، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد وقع في عبارات مشائخ هذه الطَّريقة العليّة قدس الله أسرارهم السَنِيّة: أنَّ الميسَّر للسالك في حقّ حضرة الحق جلّ سلطانه ذوقُ الوجدان لا الوجدانُ، وهذا الكلامُ مناسبٌ لمقام اندراج النِّهاية في البداية الذي هو موطنُ الجذبة الخاصة بهؤلاء الأكابر، وليس في هذا المقام حقيقةُ الوجدان، فإنَّها مخصوصةٌ بالانتهاء، ولكن حيث مزجوا ودرجوا ذوقـًا وطعمـًا من النهاية في البداية؛ فذوقُ الوجدان ميسَّرٌ فيه، فإذا ترقَّتِ المعاملةُ من الجذبة، وبلغت من الابتداء إلى الانتهاء؛ يشرع ذوقُ الوجدان أيضـًا كالوجدان في الانعدام، فلا يكون فيه وجدانٌ ولا ذوقُ الوجدان، فإذا بلغ الأمرُ نهايتَه يتيسّرُ الوجدانُ، ويفقد ذوقُ الوجدان، وحيث كان ذوقُ الوجدان مفقوداً في المنتهي يكون الالتذاذُ والحلاوةُ أقلّ في حقِّه، فإنَّ المنتهي قد ترك الذوقَ والحلاوةَ في القدم الأوّل، وصار آخراً مخمول زاوية عدم الحلاوة والذوق، كان رسول الله ﷺ متواصل الحزن دائم الفكر.

فإن قيل: إذا تيسّر وجدانُ المطلوب للمنتهي، فلم لا يتيسّرُ ذوقُ الوجدان فيه؟ وحيث لا نصيبَ لمبتدئٍ من الوجدان من أين وجد ذوق الوجدان؟

أجيب: إنَّ دولةَ الوجدان نصيبُ باطن المنتهي، فإنَّه تشرَّف بهذه الدَّولة بعد انقطاع تعلّقه الذي كان منه بظاهره، وحيث بقي تعلّقُ باطنه بظاهره قليلاً لا تسري نسبةُ باطنه في ظاهره بالضَّرورة، ولا يأخذ الظَّاهر ذوقـًا من وجدان الباطن، ولا يكون ملتذّاً به، فيكون وجدانُ المطلوب حاصلاً في باطن المنتهي، ولا يكون في ظاهره ذوقُ ذلك الوجدان، بقي ذوقُ الباطن الذي الوجدان نصيبُه، وحيث إنَّ الباطنَ نال نصيبـًا من اللامثليّ يكون ذوقُ ذلك........................

الوجدان أيضـًا من عالم اللامثليّ، لا يحصل في دَرْك الظّاهر الذي هو مثليٌّ من القدم إلى الرأس، فكثيراً ما ينفي الظّاهرُ الذّوقَ من الباطن، ويزعم الباطنَ أيضـًا مثلَ نفسه فاقدَ الحلاوة، فإنَّ ذوقَ المثليّ غيرُ ذوق اللامثليّ لا مناسبةَ بينهما، فإذا لم يكن لظاهر المنتهي خبرٌ عن ذوق باطنه؛ كيف يكون للعوامّ الذين نظرهم مقصورٌ على الظّاهر خبرٌ عن باطن المنتهي؟ وماذا يكون نصيبُهم غيرَ الإنكار؟ والذّوقُ الذي يجيء في فهمهم هو ذوقُ الظّاهر الذي هو من عالم المثل، ومن ههنا كان السّماعُ والرقصُ والصّيحةُ والاضطرابُ وأمثالها مما هو من أحوال الظّاهر، وأذواقُ الصورة عزيزةُ الوجود وعظيمةُ القدر عندهم، بل ربّما يعتقدون انحصارَ الأذواق والمواجيد في هذه الأمور، ولا يظنون كمالات الولاية في غيرها، هداهم الله سبحانه سواء الصراط. وحكمُ أحوال الظّاهر بالنِّسبة إلى أحوال الباطن كحكم المثليّ بالنِّسبة إلى اللامثليّ، فثبت أنَّ لباطن المنتهي وجدانٌ وذوقُ الوجدان.

غَايَةُ مَا فِي البَابِ: أنَّ ذلك الذّوقَ لَمّا كان له نصيبٌ من عالم اللامثليّ، ولا يجيء في درك ظاهره، بل الظّاهرُ حاكمٌ بنفيه، وإن كان الظّاهرُ مطّلعـًا على وجدان الباطن، ولكنّه لا يمكن أن يدرك ذوقُ ذلك الوجدان:؛ أمكن أن يقال بالنّظر إلى الظّاهر: إنَّ الوجدانَ موجودٌ في المنتهي، وذوقَ الوجدان مفقودٌ فيه، وإنَّما يثبتون ذوقَ الوجدان في المبتدئ الرشيد من هذا الطَّريق العالي مع فقدان الوجدان، وذلك لأنَّ هؤلاء الأكابر يُدْرِجون في الابتداء طعمـًا وذوقـًا من الانتهاء، ويُلْقُون ظلّاً من النّهاية في باطن المبتدئ الرَّشيد بطريق الانعكاس، وحيث كان ظاهرُ المبتدئ مرتبطـًا بباطنه، وقوّةُ التعلّق بين الظّاهر والباطن ثابتة؛ فلا جرم يسري ظلُّ تلك النِّهاية وذوقُ الولاية من باطن المبتدئ إلى ظاهره، ويجعل ظاهرُه منصبغـًا بلون باطنه، ويظهر ذوقُ الوجدان في ظاهره من غير اختيارٍ، فصحَّ أنَّ حقيقةَ الوجدان مفقودةٌ في المبتدئ، وذوقَ الوجدان حاصلٌ فيه. ومن هذا البيان يعلم علوُّ طريق أكابر النقشبنديَّة قدس الله تعالى أسرارهم، ورفعةُ نسبتهم العليّة، ويفهم منه حسنُ تربية هؤلاء الأكابر، وكمالُ اهتمامهم في حق المريدين والطالبين، وأنَّهم يعطون للمريد الرَّشيد والطَّالب الصَّادق على مقدار حوصلته في أوّل القدم ما هو فيهم، ويرمونه بعلاقة حبيَّةٍ وارتباطٍ معنويٍّ بطريق الالتفات والانعكاس، وبعضُ مشائخ السَّلاسل الأخر قدس الله أسرارهم في اشتباهٍ من كلمة (اندراج النهاية في البداية) التي صدرت عن هؤلاء الأكابر، وله تردُّدٌ في حقية هذا الكلام، ولا يجوز أن يكون مبتدئُ هذا الطَّريق مساويـًا لمنتهي طريق آخر، والعجبُ أنَّه من أين فهم مساواةُ مبتدئ هذا الطَّريق لمنتهي طرقٍ أخرى؟ ولم يصدر عن هؤلاء الأكابر غير اندراج النهاية في البداية، وليست في هذه العبارة دلالةٌ على المساواة، ومقصودهم منها: أنَّ الشَّيخَ المنتهي في هذا الطَّريق يعطي بالتوجّه والتصرُّف ذوقـًا من دولة نهايته لمبتدٍ رشيدٍ بطريق الانعكاس، ويمزج في بدايته ملحَ نهايته، فأين المساواةُ؟ وما محلُّ الاشتباه؟ وأين المجالُ للتردُّد في حقيَّته؟ وهذا الاندراجُ دولةٌ عظيمةٌ جداً، ومبتدئُ هذا الطَّريق وإن لم يكن له حكمُ المنتهي، ولكنَّه ليس محرومـًا عن دولة النهاية، ولو فرضنا أنَّ هذا المتبدئ لا يعطى فرصةَ قطع طريق الوصول وطيّ منازله، ولكنّه لا يذهب محرومـًا عن دولة النهاية، وتجعل تلك الذرَّةُ من ملح النهاية كليّتَه مليحةً ومملوحةً، بخلاف مبتدئِ طرقٍ أخر، فإنَّهم بعيدون عن معاملة النهاية، وعاجزون..........................

عن قطع المنازل وطيّ المسافات، فيا ويلهم ألف ويلٍ لو لم يقطعوا فرصةَ قطع المنازل وطيّ المسافات.

فإذا اتَّضح الفرقُ بين مبتدئي هذا الطَّريق ومبتدئي طرق أخرَ، ولاحت مزيّةُ ذلك المبتدئ على سائر أرباب البداية، ينبغي أن يعلم أنَّ هذا الفرقَ ثابتٌ بين منتهي هذا الطَّريق ومنتهي طرق أخرَ، وهذه المزيّةُ متحقّقةٌ بينهما، بل نهايةُ هذه الطَّريقة العليّة وراء نهايات سائر طرق المشائخ، يصدِّقون هذا الكلام مني أم لا، فإن سلكوا طريق الأنصاف لعلهم يصدقون، فإنَّ النِّهاية التي بدايتها ممتزجةٌ بالنهاية يكون لها امتيازٌ عن نهايات الآخرين ألبتّة، وتكون نهايةُ تلك النهايات ألبتة:

وَعَـامُ الرُّخْـصِ يُـعْـلَـمُ مِـنْ رَبِـيـعِـهِ

وجماعة من متعصبي سلاسل أخرى يقولون لنا: إنَّ نهايتنا وصولٌ إلى الحقّ سبحانه، وأنتم تقولون: إنّها بدايتكم، فإلى أين تذهبون من الحقّ؟ وما يكون نهايتكم وراء الحق؟

قلنا: نذهب من الحقّ إلى الحقّ جلّ سلطانه، ونهرب من شائبة الظليَّة، ونقصد أصلَ الأصل، ونُعْرِضُ عن التجلّيات، ونطلب المتجلّي، ونخلّفُ الظهورات خلف ظهورنا، ونلتمسُ الظَّاهر في أبطن البطون، وحيث كانت مراتبُ الأبطنيَّة متفاوتةً نذهب من أبطنيّة إلى أبطنيّةٍ أخرى، ونضع القدمَ من أبطنية أخرى إلى أبطنية ثالثةٍ، ومنها إلى ما شاء الله تعالى، وحضرةُ الحق سبحانه وإن كان بسيطاً حقيقياً، ولكنّه تعالى واسعٌ أيضاً لا بالوسعة التي لها طولٌ وعرضٌ، فإنّها من أمارات الإمكان وعلامات الحدوث، بل وسعته تعالى كذاته سبحانه منزَّهةٌ عن الكيف والشبه والمثال، والسيرُ الواقعُ في تلك الوسعة أيضاً لا مثليٌّ ولا كيفيٌّ، وصاحبُ السَّير مع وجود كونه كميّاً وكيفيّاً يقطع تلك المنازلَ اللامثليَّة بقوَّةٍ لا كيفيّةٍ ولا مثليّةٍ، ويرغب عن المثليّ في اللامثليّ، ماذا يدرك العاجزون المفلسون عن حقيقة المعاملة؟ وأيُّ خبر يعرف المتعلّقون بعالم المثلي عن عالم اللامثليّ؟ يزعمون قصورهم اعتراضاً، ويتباهون بجهالاتهم:

كَـمْ مِـنْ بَـلِـيـدٍ غَـفُـولٍ عَـنْ مَـعَـايِـبِـهِ　　　اسْـتَـحْـسَـنَ الْعَيْبَ زَعْماً أَنَّهُ حَسَـنُ

ألم يفهموا أنَّ نهايةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - بل نهايةَ خاتم الرسل ﷺ أيضاً - وصولٌ إلى الحق سبحانه؟ ونهايةُ هذه الطَّائفة ليست متَّحدةً بنهاية هؤلاء الأكابر، بل لا مناسبةَ بينهما أصلاً، فيمكن أن تتيسّرَ لجماعةٍ نهايةٌ تكون وراء نهاية هذه الطَّائفة، ودون نهاية هؤلاء الكبراء عليهم الصلوات والتحيات، فصحَّ أنَّ نهايةَ الكلّ هو الوصولُ إلى الحقّ سبحانه، والتفاوتُ فيما بين الطَّوائف ثابتٌ على تفاوت درجاتهم. أو نقول: إنَّ الكلَّ يزعم أنَّ نهايتَه الوصولُ إلى الحق سبحانه، لكن كثيرٌ من الناس يظنُّ الظِّلالَ وظهورات الحقّ الحقَّ تعالى وتقدس مع وجود تفاوت درجات تلك الظِّلال والظُّهورات، فلم تكن نهاياتُ جميع أرباب النهايات في نفس الأمر الوصولَ إلى الحقّ تعالى وتقدس، بل منتهى كلٍّ واحدٍ الحقُّ سبحانه بحسب زعمه، فحينئذٍ إذا كان ابتداءُ شخصٍ ظلالَ الحقّ وظهوراته سبحانه التي هي نهايةُ الآخر بزعم الحقانية؛ تكون نهايةُ ذلك الشَّخص الوصولَ إلى الحقّ تعالى الذي هو سبحانه وراء تلك الظلال والظهورات، فلم يكون مستبعداً؟ وكيف يكون محلّ اشتباهٍ؟

لَوْ عَـابَـهُـمْ قَـاصِـرٌ طَعْنـاً بِهِمْ سَـفَـهـاً　　　نُزِّهَـتْ سَـاحَـتُهُمْ عَنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ الْمُحْتَالُ سِلْسِلَةً ... قُيِّدَتْ بِهَا أُسْدُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهِمِ

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

المكتوب الرابع والأربعون

إلى محمَّدٍ صادقٍ ولدِ الحاجِّ محمَّدٍ مُؤمنٍ في جوابِ استفسارِه عن وَحْدةِ الوُجودِ، وتَطبيقِها على العُلومِ الشَّرعيَّة، وعن سُؤالِه عن حَديثِ: «إذَا أَحَبَّ اللهُ عَبداً... إلخ»، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سألتَ أنَّ الصوفيَّةَ قائلون بوحدة الوجود، ويعتقد العلماءُ هذا القولَ كفراً وزندقةً، وكلتا الطَّائفتين من الفرقة النَّاجية، فما حقيقةُ هذه المعاملة عندك؟

أيُّها المحبُّ، إنَّ هذا الفقيرَ قد كتب تحقيقَ هذا المبحث في مكتوباته ورسائله بالتَّفصيل، وجعل نزاعَ الفريقين راجعاً إلى اللَّفظ، ومع ذلك لَمّا سألتَ لا بُدَّ للسُّؤال من الجواب، فلنكتب كلماتٍ بالضَّرورة.

اعلم أنَّ كلَّ من يقول من الصوفيَّة العليّة بوحدة الوجود، ويرى الأشياءَ عينَ الحقّ سبحانه، ويحكم بأنَّ الكلَّ هو ليس مراده: أنَّ الأشياءَ متَّحدةٌ بالحقّ جلّ وعلا، وأنَّ التَّنزيهَ صار تشبيهاً متنزّلاً، وكان الواجبُ ممكناً، وانقلب اللامثليُّ مثليّاً، فإنَّ هذه كلَّها كفرٌ وإلحادٌ وضلالةٌ وزندقةٌ، ليس هناك اتّحادٌ، ولا عينيَّةٌ، ولا تنزُّلٌ، ولا تشبُّهٌ، فهو سبحانه الآن كما كان، فسبحان من لا يتغيَّرُ بذاته ولا بصفاته ولا بأسمائه بحدوث الأكوان، وهو سبحانه على صرافة إطلاقه، ما مال من أَوْج الوجوب إلى حضيض الإمكان، بل معنى الكلّ: هو أنَّ الأشياءَ معدومةٌ، والموجودَ هو تعالى وتقدس، وليس مرادُ الحسين بن منصور الحَلّاج من قوله: أنا الحقُّ بأنّي حقٌّ ومتَّحدٌ بالحقِّ، فإنَّه كفرٌ وموجبٌ لقتله، بل معنى قوله بأنّي معدومٌ، والموجودُ هو الحقُّ سبحانه.

غَايةُ ما في البابِ: أنَّ الصوفيَّةَ يرون الأشياءَ مرايا ظهورات الحقّ تعالى وتقدس، ويظنونها مجالي أسمائه وصفاته سبحانه من غير شائبة التنزُّل، وبلا مظنَّة التغيُّر والتبدُّل، كما إذا امتدَّ ظلُّ شخصٍ لا يمكن أن يقال: إنَّ ذلك الظِّلَّ متَّحدٌ بذلك الشَّخص، وله نسبةُ العينيَّة معه، أو إنَّ ذلك الشَّخصَ تنزَّلَ، فظهر في صورة الظلّ، بل ذلك الشَّخصُ على صرافةِ أصالته، ووجد الظلُّ منه من غير شائبة التنزُّل والتغيُّر، وإن اختفى وجودُ الظلّ في بعض الأوقات عن نظر جماعةٍ بواسطة كمال محبَّتهم بوجود الشَّخص، بحيث لا يكون مشهودُهم شيئاً غيرَ الشَّخص أصلاً، فحينئذٍ لعلهم يقولون: إنَّ الظلَّ عينُ الشَّخص، يعني: الظلُّ معدومٌ، والموجودُ هو ذلك الشَّخصُ فقط، فلزم من هذا التَّحقيق: أنَّ الأشياءَ عند الصوفيَّة مرايا ظهورات الحقّ، لا عينُه تعالى وتقدس، فتكون الأشياءُ من الحقّ، لا الحقَّ جل شأنه، فيكون معنى كلامهم الكلُّ: هو الكلُّ منه، وهو مختارُ العلماء الكرام، فلا يكون النِّزاعُ بين العلماء الكرام والصوفيَّة العظام كثَّرهم الله سبحانه إلى يوم القيام ثابتاً في الحقيقة، ويكون مآلُ القولين واحداً، وإنَّما الفرقُ: أنَّ الصوفيَّةَ يقولون: إنَّ الأشياءَ مرايا ظهورات الحقّ تعالى، والعلماء يتحاشون من هذا اللفظ أيضاً من جهة التحرُّز من توهُّم الحلول والاتحاد.

فإن قيل: إنَّ الصوفيَّةَ مع وجود قولهم بظهورات الأشياء؛ يرونها معدومةً خارجيّةً، ولا يقولون بموجودٍ في الخارج غير الحق سبحانه، والعلماء يقولون بوجود الأشياء في الخارج، فثبت نزاعُ الفريقين في المعنى.

أجيب: إنَّ الصوفيَّةَ وإن كانوا يرون العالمَ معدوماً خارجيّاً، لكنَّهم يُثْبِتُون له وجوداً وهميّاً في الخارج، ويقولون بإراءةٍ خارجيَّةٍ، ....

ولا ينكرون الكثرةَ الوهميّةَ الخارجيّةَ، ومع ذلك يقولون: إنَّ هذا الوجودَ الوهميَّ الذي حصل إراءةٌ في الخارج ليس من الموجودات الوهميَّة التي ترتفع بارتفاع الوهم، وليس له قرارٌ وثباتٌ، بل لَمّا كان هذا الوجودُ الوهميُّ وتلك الإراءةُ الخياليّةُ بصنع الحقّ سبحانه، وانتقاش قدرته الكاملة؛ كان محفوظاً من الزَّوال، ومصوناً من الخلل، ومعاملةُ هذه النَّشأة وتلك النَّشأة مربوطةٌ به، والسوفسطائيَّة الذين يظنُّون العالم أوهاماً وخيالاتٍ، ويزعمون ارتفاعَه بارتفاع الوهم والخيال يقولون: إنَّ وجودَ الأشياء تابعٌ لاعتقادنا، ليس له تحقّقٌ في نفس الأمر، فإن اعتقدنا السَّماءَ أرضاً؛ فأرضٌ، والأرضُ باعتقادنا سماءٌ، وإذا تخيَّلنا الحلوَ مرّاً؛ فمرٌّ، والمرُّ باعتقادنا حلوٌ. وبالجملة إنَّ هؤلاء المجانين ينكرون إيجادَ الصَّانع المختار جلّ سلطانه، ولا يُسْنِدون الأشياءَ إليه تعالى، ضلُّوا فأضلُّوا، فالصوفيَّةُ يثبتون للأشياء في الخارج وجوداً وهميّاً له ثباتٌ واستقرارٌ لا يرتفع بارتفاع الوهم، ويجعلون معاملةَ هذه النَّشأة وتلك النَّشأة التي هي مخلّدةٌ ومؤبّدةٌ مربوطةً بذلك الوجود، والعلماءُ يعتقدون الأشياءَ موجودةً في الخارج، ويعتقدون ترتُّبَ الأحكام الخارجيَّة الأبديّة على الأشياء، ومع ذلك يتصورون وجودَ الأشياء في جنب وجود الحق جلّ وعلا ضعيفاً ونحيفاً، ويعتقدون وجودَ الممكن بالنِّسبة إلى وجود الواجب تعالى وتقدس هالكاً، فثبت للأشياء وجودٌ في الخارج عند الفريقين، وكانت أحكامُ هذه النَّشأة وتلك النَّشأة مربوطةً به، وإنَّه غيرُ مرتفعٍ بارتفاع الوهم والخيال، فارتفع النِّزاعُ، وزال الخلافُ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ الصوفيَّةَ يقولون لذلك الوجود: وهميّاً بواسطة أنَّ وجودَ الأشياء يصير مختفياً عن نظرهم وقت العروج، ولا يبقى في نظرهم غيرُ وجود الحق جلّ شأنه، والعلماءُ يتحاشون عن إطلاق لفظ الوهم على ذلك الوجود، ولا يقولون وجوداً وهميّاً؛ لئلا يحكم قاصرُ النَّظر بارتفاعه، فينكر الثَّواب والعذاب الأبديّين.

فإن قيل: إنَّ مقصودَ الصوفيَّة من إثبات الوجود الوهميّ للأشياء: هو أنَّ هذا الوجودَ مع وجود الثَّبات والاستقرار ليس هو في نفس الأمر وفي غير الوهم، ولا نصيبَ له عن الإراءة، والعلماءُ يقولون بوجود الأشياء في الخارج ونفس الأمر، فالنزاعُ باقٍ.

أجيب: إنَّ الوجودَ الوهميَّ والإراءةَ الخياليّةَ لَمّا لم يرتفعْ بارتفاع الوهم والخيال؛ كان في نفس الأمر، فإنَّا لو فرضنا زوالَ وهم جميع الواهمين؛ يكون هذا الوجودُ ثابتاً لا يزول بزوال الأوهام، ولا معنى للواقع ونفس الأمر إلا هذا، ولكن فرقٌ بين نفس الأمر الذي يثبت في وجود الممكن وبين نفس الأمر الذي هو ثابتٌ في وجود الواجب تعالى، فإنَّ الأوّلَ له حكمُ اللاشيء في جنب الثّاني، حتى يكاد يعدُّ من الموهومات والمتخيلات، مثل أجزاء الكلي المشكّك، حيث إنَّ بينها تفاوتاً فاحشاً، كما أنَّ وجودَ الممكن له حكمُ اللاشيء بالنِّسبة إلى وجود الواجب بحيث يكاد يعدُّ من العدمات، فلا نزاعَ في الحقيقة.

فإن قيل: إذا كان وجودُ جميع الأشياء في نفس الأمر؛ لزم أن تكون الموجوداتُ متعدِّدةً في نفس الأمر، لا موجوداً واحداً، وهذا منافٍ لوحدة الوجود التي هي مقرَّرةٌ ومسلَّمةٌ عند الصوفيَّة.

أجيب: كلاهما مطابقان لنفس الأمر تعدّد الموجودات ووحدة الوجود في نفس الأمر، ولكن لَمّا كان الجهةُ والاعتبارُ مختلفان؛ ارتفع توهُّمُ اجتماع النَّقيضين، وليتَّضحْ هذا المبحثُ بمثالٍ، وهو ....

أنَّ صورةَ زيد مثلاً مرئيةٌ في المرآة، ولا صورةَ في المرآة في نفس الأمر أصلاً، فإنَّ تلك الصُّورةَ المرئيَّةَ ليست تحت المرآة، ولا في وجهها، بل وجودُ تلك الصورة في المرآة باعتبار التوهُّم ليس لها حصولٌ في المرآة غير الإراءة الخياليّة، وهذا الوجودُ الوهميُّ والإراءةُ الخياليَّةُ اللذان عَرَضَا للصُّورة في المرآة أيضـًا كائنان في نفس الأمر، ولهذا لو قال شخصٌ: رأيتُ صورةَ زيدٍ في المرآة؛ يصدق في كلامه هذا عقلاً وعرفـًا، ويعدُّ محقـًا، وحيث كان مبنى الأيْمَان على العرف، لو حلف شخصٌ بأن يقول: والله رأيت صورةَ زيدٍ في المرآة ينبغي أن لا يحنث به، ففي هذه الصُّورة عدمُ حصول صورة زيدٍ في المرآة وحصولُها فيها باعتبار التوهُّم والتخيُّل، كلاهما في نفس الأمر والواقع، ولكنَّ الأوّل بحسب نفس الأمر مطلقـًا، والثّاني بتوسط الوهم والتخيُّل، والعجبُ أنَّ اعتبار التوهُّم والتخيُّل الذي هو منافٍ لنفس الأمر صار هنا محلاًّ لنفس الأمر؛ إذ لولاه لما حصل ثمّةَ نفسُ الأمر.

والمثالُ الثّاني: النُّقطةُ الجوالةُ التي تعرض لها صورةُ الدَّائرة في الخارج بحسب التوهُّم والتخيُّل، فههنا عدمُ حصول الدَّائرة في الخارج وحصولُها أيضـًا فيه باعتبار التوهُّم والتخيُّل، كلاهما في نفس الأمر، ولكن عدمُ حصول الدَّائرة في نفس الأمر مطلقـًا، وحصولُها فيه بحسب التوهُّم والتخيُّل، فالأوّلُ مطلقٌ، والثّاني مقيّدٌ، ففيما نحن فيه تكون وحدةُ الوجود بحسب نفس الأمر مطلقـًا، وتعدُّدُ الوجود في نفس الأمر باعتبار التوهُّم والتخيُّل، فبملاحظة الإطلاق والتَّقييد لا يكون بين كون المتناقضين بحسب نفس الأمر تناقضٌ، ولا يثبت اجتماعُ النقيضين.

فإن قيل: إذا فرض زوالُ وهم جميع الواهمين؛ كيف يكون الوجودُ الوهميُّ والإراءةُ الخياليّة ثابتـًا؟

أجيب: إنَّ هذا الوجودَ الوهميَّ لم يحصل بمجرد اختراع الوهم حتى يزول بزوال الوهم، بل هو حاصلٌ بصنع الحقّ جل وعلا في مرتبة الوهم، وحصل له الإتقانُ، فلا يتطرقُ عليه الخللُ بزوال الوهم بالضَّرورة، وإنما يقال له وجوداً وهميـًا باعتبار أنَّ الحقّ سبحانه خلقه في مرتبة الحسّ والوهم، وحيث كان خلقَه تعالى؛ فهو محفوظٌ عن الزَّوال والخلل في أيِّ مرتبةٍ كان، وحيث إنَّ الحقَّ سبحانه خلقه كان في نفس الأمر بالضَّرورة في أيِّ مرتبةِ خلقه، وإن لم تكن تلك المرتبةُ نفسَ الأمر، بل مجرّد اعتبارٍ، ولكن المخلوقَ في تلك المرتبة منسوبٌ إلى نفس الأمر.

وما قلت: إنَّ الحقَّ سبحانه خلقه في مرتبة الحسّ والوهم، يعني: أنّه تعالى خلق الأشياءَ في مرتبةٍ ليس لها في تلك المرتبة حصولٌ ولا ثبوتٌ إلا في الحس والوهم كما يرى أهل الشعبذة أشياء غيرَ واقعيّةٍ، ويرون شيئـًا واحداً عشرةَ أشياء، وليس لهذه الأشياء العشرة حصولٌ إلا في الحسّ والوهم، وليس الموجودُ في نفس الأمر غيرَ ذلك الشيء الواحد، فإذا عرض لهذه الأشياء العشرة بقدرة الحقّ جل سلطانه ثباتٌ واستقرارٌ، وصارت محفوظةً عن الخلل وسرعة الزوال؛ تصيرُ في نفس الأمر، فهذه الأشياءُ العشرةُ موجودةٌ في نفس الأمر، ومعدومةٌ فيه أيضـًا، لكن باعتبارين، فإنَّه إذا قُطِعَ النَّظرُ عن مرتبة الحسّ والوهم فمعدومةٌ، وبلا ملاحظة الحسّ والوهم موجودةٌ. ومن القصص المشهورة: أنَّ أربابَ الشَّعبذة في بلدٍ من بلاد الهند أسَّسوا بنيان الشعبذة عند واحدٍ من السلاطين، ففي ذلك الأثناء أظهروا في نظر الناس بالطّلسم والشّعبذة بستان أشجار أنبة، وأروا في ذلك المجلس أنَّ تلك الأشجار كبرتْ وأثمرتْ، وأكل أهلُ المجلس من ثمارها، فأمر السلطانُ في ذلك ....

الوقت بقتل أرباب الشَّعبذة؛ لأنَّه كان قد سمع أنَّه إذا قتل صاحبُ الشَّعبذة بعد ظهور الشعبذة؛ تبقى تلك الشَّعبذةُ على حالها بقدرة الحقّ جل سلطانه، فلما قتلوهم بقيتْ تلك الأشجارُ بقدرة الله جل سلطانه، وسمعتُ أنَّها باقيةٌ إلى الآن، والناس يأكلون من ثمارها، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

ففي الصُّورة المتنازع فيها أظهر الحقُّ سبحانه الذي لا موجود غيرُه في الخارج ونفس الأمر كمالات أسمائه وصفاته بقدرته الكاملة في حجب صور الممكنات في مرتبة الحسّ والوهم، وأجلى تلك الكمالات في مجالي الأشياء بوجودٍ وهميٍّ وثبوتٍ خياليٍّ، يعني: أوجد الأشياءَ على طبق تلك الكمالات في مرتبة الحسّ والوهم؛ فوجودُ الأشياء باعتبار الإراءة الخياليَّة، ولكن لَمّا منح الحقُّ سبحانه وتعالى تلك الإراءةَ الاستقرارَ والثباتَ، وراعى الإتقانَ في صنع الأشياء، وجعل المعاملةَ الأبديّةَ مربوطةً بها؛ صار وجودُها الوهميُّ وثبوتُها الخياليُّ أيضـًا في نفس الأمر، وكانت محفوظةً عن الخلل، فيمكن أن يقال: إنَّ الأشياءَ لها في الخارج ونفس الأمر وجودٌ وليس لها وجودٌ كما مرَّ مكرراً. قال حضرةُ والد هذا الفقير قدس سره - وكان من العلماء المحققين -: سألني القاضي جلال الدين الأكري الذي كان من العلماء المتبحرين: هل الواقعُ الوحدةُ أو الكثرةُ؟ فإن كان وحدةً تصير الشَّريعةُ التي مبناها على الأحكام المتباينة والمتمايزة باطلةً، وإن كان كثرةً يبطل قولُ الصوفيَّة الذين يقولون بوحدة الوجود. قال حضرةُ شيخنا في جوابه: كلتاهما مطابقتان لنفس الأمر وواقعتان فيه، وبيَّن ذلك، ولم يَبْقَ في خاطر الفقير ما قال في بيانه، وما أُفيض على خاطر الفقير في هذا الوقت أورده في قيد الكتابة، والأمرُ إلى الله سبحانه، فالصوفيَّةُ الذين يقولون بوحدة الوجود محقُّون، والعلماء الذين يحكمون بالكثرة أيضـًا محقُّون، والمناسبُ لأحوال الصوفيَّة الوحدةُ، والمناسبُ لأحوال العلماء الكثرةُ، فإنَّ مبنى الشَّرائع على الكثرة، وتغاير الأحكام مربوطٌ بالكثرة، ودعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتَّنعيمَ والتعذيبَ الأخرويَّيْن كلّه متعلّقٌ بالكثرة، وحيث إنَّ الحقَّ سبحانه يريد الكثرةَ ويحبُّ الظهورَ كما قال تعالى: «**فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ**»؛ فبقاءُ هذه المرتبة أيضـًا ضروريٌّ، فإنَّ ترتيبَ هذه المرتبة مرضيُّ رب العالمين ومحبوبُه تعالى، فإنَّه لا بدَّ لسلطانٍ ذي شأنٍ من الخدم والحشم، والذُّل والافتقارُ والانكسارُ لازمٌ لعظمته وكبريائه، ومعاملةُ وحدة الوجود وإن كانت كالحقيقة، ومعاملةُ الكثرة بالنِّسبة إليه كالمجاز، ولهذا يقال لذلك العالم: عالم الحقيقة، ولهذا العالم عالم المجاز، ولكن لَمّا كانت الظهوراتُ محبوب ربِّ العالمين، وأعطى الأشياءَ البقاءَ الأبديَّ، وأورد القدرةَ في لباس الحكمة، وجعل الأسبابَ نقاب أفعاله؛ كانت تلك الحقيقةُ كالمهجورة، وصار هذا المجازُ متعارفـًا، والنُّقطةُ الجوالةُ وإن كانت كالحقيقة، والدّائرةُ الناشئةُ من تلك النقطة كالمجاز، ولكن الحقيقةَ مهجورةٌ هناك، وما هو المتعارف مجازٌ.

وسألت عن معنى هذا القول: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ**»(١).

اعلم أنَّه إذا أحبَّ الله عبداً لا يصدر عنه ذنبٌ، فإنَّ أولياءَ الحق جلّ وعلا محفوظون عن ارتكاب الذنب، وإن جاز صدورُ الذَّنب عنهم، بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات، فإنَّهم معصومون عن الذنوب، وجوازُ صدور الذنب عنهم أيضـًا مسلوبٌ، فإذا لم يصدر الذنبُ عن الأولياء لا يكون فيهم ضررُ الذنب، ففي صورة عدم.........................

(١) أخرجه القشيري في «الرسالة» (١/ ٢٠٧)، والديلمي في «الفردوس»: (٢٤٣٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

صدور الذَّنب يصدقُ (لا يضره ذنبٌ) كما لا يخفى على أرباب العلم. ويمكن أن يكون المرادُ من الذنب: الذنبَ السَّابقَ الذي صدر عنه قبل الوصول إلى درجة الولاية، فإنَّ الإسلامَ يجبّ ما كان قبله[1] وحقيقةُ الأمر عند الله سبحانه. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ اِنْ نَسِينَآ اَوْ اَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والسلامُ عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحيات العلى.

المكتوبُ الخامسُ والأربعون

إلى مَنبع الحَقائقِ ومَعدِنِ المَعارِفِ الخواجه حُسَام الدِّينِ أحمَدَ في بيانِ أنَّ العَالَمَ بتَمامِه مَجالي الأسماءِ والصِّفاتِ الواجِبيَّة، بخِلافِ الذَّاتِ، فإنَّه لا نَصيبَ للمُمكِنِ منها، ولَيسَ له قيامٌ بنَفسِه، بل هو عَرَضٌ كلُّه لم يَشمَّ رائحةً منَ الجَوهريَّة، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰىۜ﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها المخدومُ المكرّمُ: (شعر)

وَأَحْسَـنُ مَـا يُمْلَـى حَـدِيـثُ الْأَحِبَّـةِ

يحرَّرُ من المعارف الغريبة ينبغي استماعها، ويبيّن طريق مراقبة أخصّ الخواص، فليتوجّه إليه بتوجّهٍ بليغ. ينبغي أن يعلم أنَّ العالمَ بتمامه مجالي الأسماء، ومظاهر الصِّفات الواجبية تعالت وتقدست، فإن كان في الممكن حياةٌ؛ فهي مرآةٌ لحياة الواجب تعالى وتقدس، وإن كان فيه علمٌ؛ فمرآةُ علمه تعالى، وإن كان قدرةٌ؛ فمرآةُ قدرته تعالى، وعلى هذا القياس، وليس لذاته تعالى مظهرٌ في العالم ولا مرآةٌ، بل لا مناسبةَ لذاته تعالى بالعالم أصلاً، ولا اشتراكَ لها به في شيءٍ قطعاً، وإن كانت تلك المناسبةُ في الاسم، وتلك المشاركةُ في الصُّورة، ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، بخلاف الأسماء والصِّفات، فإنَّ لها مع العالم مناسبةً اسميّةً ومشاركةً صوريّةً، كما أنَّ في الواجب تعالى علماً في الممكن أيضاً صورةُ ذلك العلم، وكما أنَّ هناك قدرةً هنا أيضاً صورةُ تلك القدرة، بخلاف الذَّات، فإنَّ الممكنَ لا نصيبَ له من تلك الدَّولة، ولم يمنح القيامَ بنفسه، بل الممكنُ حيث كان مخلوق على صور أسمائه وصفاته تعالى؛ فهو عرضٌ بتمامه لم يشمّ رائحةً من الجوهرية، وقيامُه بذات الواجب تعالى وتقدس، وتقسيمُ أرباب المعقول العالمَ إلى الجوهر والعرض؛ فهو من كون نظرهم مقصوراً على الظَّاهر، وما ثبت من قيام بعض الممكن ببعضٍ آخر؛ فهو من قبيل قيام العرض بالعرض، لا من قبيل قيام العرض بالجوهر، بل قيامُ ذينك العرضين في الحقيقة بذات الواجب تعالى وتقدس، لم يثبت بينهما جوهريةٌ، وقيومُ جميع الممكنات هو تعالى وتقدس، فليس للممكن في الحقيقة ذاتٌ تكون صفاتُه قائمةً بتلك الذات، بل الذاتُ للواجب تعالى وتقدس بها قامتْ صفاتُه تعالى وكذلك جميع الممكنات، والإشارةُ الواقعةُ من كلّ أحدٍ إلى ذاته بلفظ (أنا)؛ فتلك الإشارةُ راجعةٌ في الحقيقة إلى تلك الذات الأحد التي قيامُ الكلّ بها، يعرفه المشيرُ أو لا، وإن لم تكن ذاتُه تعالى مشاراً إليها بإشارةٍ ومتَّحدةً بشيء أصلاً، ولا يخلط القاصرون هذه المعارف الغامضةَ بمعارف التَّوحيد الوجوديّ، لا يظنون اليدَ والجيبَ متَّحداً بعضه ببعضٍ، فإنَّ أربابَ التَّوحيد الوجوديّ لا يقولون بموجودٍ غير الذات الأحد تعالت وتقدست، ويزعمون أسماءَه وصفاتِه تعالى أيضاً اعتباراتٍ علميّةً، ويقولون في حقائق الممكنات: ما وصلت إليها رائحةٌ من الوجود، والأعيان ما شمّت رائحة الوجود من كلامهم. وهذا الفقيرُ يعتقد أنَّ صفاته تعالى أيضاً موجودةٌ بوجودٍ زائدٍ على الذَّات كما قال علماءُ أهل الحقّ، ويُثْبِتُ للممكنات التي هي مجالي الأسماء والصِّفات أيضاً........................

(١) والأقرب: أنَّ معنى: «لا يضره ذنب»: أنَّه كلَّما صدر عنه ذنبٌ؛ يوفَّق للتوبة حالاً قبل كتابة كاتب الشمال، فلا يضره ذنبٌ أصلاً. من المعرب.

وجوداً. غَايةُ ما فِي البابِ: أنّه لا يعلم الممكناتِ غيرَ الأعراض التي لا قيامَ لها بنفسها، ولا يُثبِتُ الجوهريّةَ التي لها قيامٌ بذاته في الممكنات، بل يتيقّنُ قيامَ الكلّ بذاته تعالى.

فإن قيل: يعلم من هذا التَّحقيق: أنَّ ذاتَ الممكن عينُ ذات الواجب تعالى، وأنَّ الممكنَ متَّحدٌ بالواجب جلّ شأنه، وهذا محالٌ لاستلزامه قلبَ الحقائق.

أجيب: إنَّ ذاتَ الممكن - يعني: ماهيته وحقيقتَه - هي عينُ تلك الأعراض المتعددة المخصوصة التي هي مجالي أسماء الواجب وصفاته تعالى، ولا عينيَّةَ لتلك الأعراض مع ذات الواجب تعالى وتقدس أصلاً، ولا اتِّحاد بينهما بوجهٍ ما قطعاً حتى يلزم قلبُ الحقائق، وليس هناك غيرُ قيام تلك الأعراض بالذات تعالت وتقدست، وقيوميَّته تعالى بجميع الأشياء.

فإن قيل: لَمّا رجعت إشارةُ كلِّ أحدٍ إلى ذاته بلفظ (أنا) إلى ذات الواجب تعالى؛ لزم أن تكون ذاتُ الممكن - يعني: ماهيته وحقيقته - عينَ ذات الواجب تعالى، فإنَّ إشارةَ كلِّ أحدٍ بلفظ (أنا) إلى ماهيته وحقيقته، وهذا مستلزمٌ لقلب الحقيقة، وعينُ كلام أرباب التَّوحيد الوجوديّ.

أجيب: نعم، وإن كان إشارةُ كلِّ أحدٍ بلفظ (أنا) إلى حقيقته، ولكن لَمّا كانت حقيقتُه أعراضاً مجتمعةً ليست فيها قابليَّةُ هذه الإشارة؛ فإنَّ الأعراضَ ليست بقابليةٍ للإشارة الحسيَّة بالاستقلال وبالأصالة، ولَمّا لم تقبلْ حقيقتُه هذه الإشارةَ؛ صارت الإشارةُ راجعةً إلى مقوّم تلك الحقيقة، فماهيةُ الممكن هي عينُ تلك الأعراض المجتمعة، وإن كانت الإشارةُ بواسطة عدم قابليَّة حقيقته راجعةً إلى مقومها الذي هو ذات الواجب تعالى وتقدس، فلم يكن قلبَ الحقيقة، وما صار الممكنُ واجباً تعالى وتقدس، وكان الكلامُ مغايراً لكلام أرباب التَّوحيد الوجوديّ، والعجبُ أنَّ (أنا) الصَّادر من الممكن يرجع إلى الواجب، ويبقى الممكنُ ممكناً على حاله، ولا يتكلّم بقول: سبحاني وأنا الحقّ، بل لا يقدر أن يقول لكونه صاحبَ تميزٍ.

فإن قيل: إنَّ قيامَ الممكن بذات الواجب تعالى مستلزمٌ لقيام الحوادث بذاته تعالى، وهو ممتنعٌ.

أجيب: إنَّ امتناعَ قيام الحوادث بمعنى: حلول الحوادث في ذاته تعالى، وهو محالٌ، ولكنَّ القيامَ ليس هنا بمعنى الحلول، بل بمعنى الثُّبوت والتقرُّر، يعني: أنَّ ثبوتَ الممكن وتقرُّرَه بذات الواجب تعالى.

فإن قيل: إذا كان ثبوتُ الممكن بذات الواجب، وقد تقرَّر أنَّه عرضٌ بتمامه؛ فلا بدَّ له من محلٍّ يقوم به، وما ذاك المحلُّ ليس هو ذاتَ الواجب تعالى، وكذلك لا يكون الممتنعُ محلاًّ له.

أجيب: إنَّ العرضَ: ما لا يكون له قيامٌ بذاته، بل يقوم بغيره، ولَمّا لم يفهم أربابُ المعقول في قيام العرض غيرَ الحلول أثبتوا للعرض محلاً بالضَّرورة، واستحالوا ثبوتَه من غير محلٍّ، فإذا ظهر للقيام معنىً آخر كما مرّ لا يلزم المحلُّ أصلاً، ومحسوسُنا ومشاهدتُنا أنَّ قيامَ جميع الأشياء بذات الواجب تعالى من غير أن يكون في البين حلولٌ ومحلٌّ أصلاً، يصدِّقه أربابُ المعقول أو لا، وتشكيكهم لا يكون مصادماً لبداهتنا، ولا يزول يقيننا بشكهم، ولنوضِّحْ هذا المبحث بمثالٍ: إنَّ أربابَ الطّلسم وأصحاب السّيمياء يرون ويظهرون الأشياءَ من جنس الأجسام الغريبة والأعراض العجيبة، وفي هذه الصُّورة يعرف كلُّ شخصٍ أنَّ هذه الأجسامَ ليس لها قيام بنفسها كالأعراض، بل قيامُ كليهما بذات صاحب الطّلسم، ولا محلَّ لهما أصلاً، ويعرفون أيضاً أن ليس في هذا القيام شائبةُ الحالية والمحلّيَّة، بل ثبوتُ تلك الأجسام والأعراض بذات صاحب الطلسم من غير توهُّم حلولٍ، وفيما نحن فيه أيضاً عينُ هذا التَّصوير، فإنَّ الحقَّ سبحانه خلق الأشياءَ في مرتبة الحسّ.....

والوهم، وراعى الإتقان والإحكامَ في صنعها، وجعل المعاملةَ الأبديّةَ والتنعيمَ والتعذيبَ السرمديين مربوطةً بها، فلا قيامَ لهذه الأشياء بذاتها، بل هي قائمةٌ بذاته تعالى من غير شائبة الحلول، وبلا مظنَّة الحال والمحلّ.

والتمثيلُ الآخرُ: صورةُ جبلٍ أو صورة سماءٍ تظهر في المرآة، أيُّ أبلهٍ تزعم تلك الصورَ أجساماً وجواهر، وتظن أنّها قائمة بنفسها، فإن زعم فرضاً شخصٌ تلك الصورَ أعراضاً وقائمةً بالغير، وطلب لها محالاً بعلة العرضية، ويعدّ ثبوتها من غير محالٍ محالاً؛ فهذا الشّخصُ أيضاً سفيهٌ، فإنَّه ينكرُ بداهةَ نفسه بتقليد الناس؛ لأنَّ كلَّ من عنده تمييز يعرف بالبداهة أن ليس لتلك الصور محالٌ أصلاً، بل لا احتياج لها إلى المحالّ، وهكذا جميعُ الممكنات عند أرباب الكشف والشُّهود، وليست غير التَّماثيل مثل هذه الصور.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى أتقن تلك الصُّورَ والتماثيلَ بقدرته الكاملة، وأحكم على نهجٍ صارت مصونةً عن الخلل، ومحفوظةً من الزَّوال، والمعاملةُ الأخرويَّةُ الأبديّةُ مربوطةٌ بها كما مرّ غيرَ مرّةٍ. وقال النَّظَّامُ من المتكلّمين ومن علماء المعتزلة بحكم (رمية من غير رامٍ): العالمُ أعراضٌ مجتمعةٌ، وظنَّه خالياً من الجواهر. نعم، إنَّ الكذوبَ قد يصدق، ولَمّا لم يقل بقيام هذه الأعراض بذات واجب الوجود جلّ سلطانه من قصور نظره؛ صار مورداً لطعن العقلاء وتشنيعهم، فإنَّ العرضَ لا بُدَّ له من قيامٍ بالغير، ولا هو قائلٌ بوجود الجوهر حتى يجعل قيامَه مستنداً إليه. ومن الصوفيَّة اعتقد صاحبُ «الفتوحات المكية» العالَمَ أعراضاً مجتمعةً في عينٍ واحدٍ، وجعل العينَ الواحدَ عبارةً عن ذات أحديةٍ جلّ سلطانه، ولكنَّه حكم بعدم بقاء هذه الأعراض في زمانين، وقال: إنَّ العالمَ ينعدم في كلِّ آنٍ، ويتجدَّدُ مثلُه، وعند الفقير هذه المعاملة شهوديّةٌ لا وجوديّةٌ كما حقَّق هذا المبحثَ في حواشي «شرح الرباعيات» أنَّه قد يرى للسّالك في توسُّط الأحوال قبل أن ترتفع الأغيارُ عن نظره مطلقاً في آن أنَّ العالمَ صار معدوماً، وفي آنٍ ثانٍ يرى أنَّ العالمَ موجودٌ، وفي آنٍ ثالثٍ يجده أيضاً معدوماً، وفي آنٍ رابعٍ موجوداً، إلى أن يشرف بالفناء المطلق، ويجد العالمَ معدوماً دائماً، ففي هذا الوقت العالمُ مستمرُّ العدم في شهوده، وهكذا حين توسُّط حصول البقاء والرجوع إلى العالم يظهر العالمُ في النظر تارةً ويختفي أخرى، ومن هناك أيضاً يتوهَّم حالةُ تجدُّد الأمثال، فإذا تمَّت لهذا العارف معاملةُ البقاء والرجوع إلى العالم، واستند في مقام التكميل والإرشاد؛ يظهر العالمُ في نظره أيضاً، ويجد العالم مستمرَّ الوجود، فصارت هذه المعاملةُ راجعةً إلى شهود السَّالك لا إلى وجود العالم، فإنَّ وجوده ما زال على وتيرةٍ واحدةٍ، فإن كان تذبذبٌ؛ فهو في الشُّهود. والله سبحانه الملهم للصواب.

والحكمُ بعدم بقاء الأعراض في زمانين كما قال بعضُ المتكلّمين مدخولٌ فيه، لم يبلغْ مرتبةَ الثُّبوت، والأدلَّةُ التي أوردوها في عدم بقاء الأعراض غير تامّةٍ، وهذه المعارفُ الغامضةُ كأنَّها درسٌ لأكثر الأصحاب هناك ينبغي إعطاءُ نقلها لكلِّ من له شوقٌ إليها. ولما كان في الفقير نوعُ مرضٍ لم يكتب لكلِّ واحدٍ من الأصحاب على حدةٍ، واكتفى بهذه المعارف فقط. والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالأَربَعُون

إلى الشَّيخِ حَميدٍ البَنْگاليِّ في فضائِلِ الكَلمَةِ الطَّيِّبَة التي هيَ متضمِّنةٌ للطَّريقَة والحَقيقَة والشَّريعَة، وبَيان أن لا مقدارَ لكَمالاتِ الولايَة في جنبِ كَمالاتِ النُّبوَّة أصلاً، وبَيانِ أنَّ الولايَةَ لا بدَّ لها منَ الشَّريعَة، وما يُناسبُ ذلك.

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذه الكلمةُ الطيِّبةُ متضمنةٌ للطَّريقة والحقيقة والشَّريعة، وما دام السَّالكُ في مقام النَّفي؛ فهو في مقام الطَّريقة، فإذا فرغ من النَّفي بالتَّمام، وانتفى جميعُ الأغيار عن نظره، وأتمَّ الطَّريقةَ، ووصل إلى مقام الفناء، وجاء إلى مقام الإثبات بعد النفي، ومال من السُّلوك إلى الجذبة؛ فقد تحقّقَ بمرتبة الحقيقة، واتَّصف بالبقاء، وبهذا النَّفي والإثبات وبهذه الطَّريقة والحقيقة وبهذا الفناء والبقاء وبهذا السُّلوك والجذبة يصدقُ اسمُ الولاية، وتميلُ النَّفسُ من أن تكون أمَّارةً إلى الاطمئنان، وتصير مزكاةً ومطهرةً، فكمالاتُ الولاية صارت مربوطةً بالجزء الأوّل من هذه الكلمة الطيِّبة الذي هو النفيُ والإثباتُ، وبقي الجزءُ الثّاني من هذه الكلمة المقدسة الذي هو مثبتٌ رسالةَ خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والتسليمات، وهذا الجزءُ الأخيرُ محصِّلٌ للشَّريعة ومكمِّلٌ لها، وما كان حاصلاً في الابتداء والوسط من الشَّريعة؛ فهو صورةُ الشَّريعة واسمُها ورسمُها، وحصولُ حقيقة الشَّرعيّة إنّما هو في هذا الموطن الذي يحصل بعد حصول مرتبة الولاية وكمالات النبوَّة التي تحصل لكُمَّل تابعي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتبعيتهم ووراثتهم، فهي أيضـاً في هذا الموطن، والطَّريقةُ والحقيقةُ اللتان هما محصلتان للولاية كأنَّهما من الشَّرائط لتحصيل حقيقة الشَّريعة وتحصيل كمالات النبوَّة، ينبغي أن يعتقد الولايةَ مثل الطَّهارة، والشَّريعةَ كالصلاة، وكأنَّ في الطَّريقة إزالةَ النجاسات الحقيقية، وفي الحقيقة إزالةَ النجاسات الحكمية، وبعد الطَّهارة الكاملة يستحقُّ إتيانُ الأحكام الشَّرعيّة، ويحصل قابليَّةُ أداء الصلاة التي هي نهايةُ مراتب القرب، وعمادُ الدين، ومعراجُ المؤمن. ولقد وجدت الجزءَ الأخيرَ من هذه الكلمة المقدسة بحراً لا نهاية له، وشوهد الجزءُ الأوّلُ في جنبه كالقطرة.

نعم، لا مقدار لكمالات الولاية في جنب كمالات النبوَّة أصلاً، وما يكون مقدارُ ذرَّةٍ في جنب الشمس، سبحان الله، زعم جماعةٌ – من اعوجاج النظر – أنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة، وظنوا الشَّريعةَ التي هي لبُّ اللباب قشراً، وماذا يفعلون، فإنَّ نظرهم مقصورٌ على صورة الشَّريعة، ولم يحصلوا من اللب شيئـاً غير القشر، وظنوا النبوَّةَ بعلة التوجّه إلى الخلق قاصرةً، وزعموا هذا التوجّهَ مثل توجّه العوام ناقصـاً، ورجَّحوا توجّهَ الولاية الذي هو إلى الحقّ على ذلك التوجّه، وقالوا: إنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة، ولم يدروا أنَّ التوجّهَ في كمالات النبوَّة أيضـاً إلى الحقّ في وقت العروج كما في مرتبة الولاية، بل في مرتبة الولاية صورةُ تلك الكمالات العروجية التي حصلت في مقام النبوَّة كما ستذكر منه نبذةً، والتوجّهُ في وقت نزول النبوَّة إلى الخلق كالولاية، وإنَّما الفرقُ: أنَّ الظَّاهرَ في الولاية متوجّهٌ إلى الخلق، والباطنَ إلى الحقّ سبحانه، وفي نزول النبوَّة الظَّاهرُ والباطنُ كلاهما متوجّهان إلى الخلق، وصاحبُه يدعو الخلق إلى الحقّ بكليته، وهذا النزولُ أتمُّ وأكملُ من نزول الولاية كما حقَّقْتُه في كتبي ورسائلي، وتوجّهُه هذا إلى الخلق ليس كتوجّه العوام كما زعموا، فإنَّ توجّهَ العوام إلى الخلق من جهة تعلّقهم بالأغيار، وتوجّه أخصّ الخواص إلى الخلق ليس هو بواسطة تعلّقهم بالأغيار، فإنَّ هؤلاء الأكابر ودَّعوا التعلّقَ بالأغيار في أول القدم، وحصلوا التعلّقَ بخالق الخلق جلّ سلطانه مكانَه، بل توجّهُ هؤلاء الأكابر إلى الخلق لهدايتهم وإرشادهم ليدلُّوهم على خالق الخلق جلّ وعلا، وليرشدوهم إلى مراضي مولاهم تعالى وتقدس، ولا شكَّ أنَّ مثلَ هذا التوجّه إلى الخلق ....

الذي مقصودهم منه تخليصُهم عن رقِّيَّة ما سواه تعالى أفضلُ من ذلك التوجّه إلى الحق سبحانه لأجل نفسه. مثلاً: إذا كان شخصٌ مشغولاً بذكر الله تعالى، فظهر في ذلك الأثناء ضريرٌ، وفي طريقه بئرٌ بحيث لو رفع قدمه لوقع فيها، ففي هذه الصورة هل الأفضلُ لهذا الشَّخص الذكرُ أو تخليصُ الضرير من البئر؟ ولا شكَّ أنَّ تخليصَ الضَّرير أفضلُ من الذكر، فإنَّ الله تعالى غنيٌّ عنه وعن ذكره، والضريرَ عبدٌ محتاجٌ، ودفعُ الضرر عنه ضروريٌّ، خصوصاً إذا كان مأموراً بهذا التَّخليص، ففي هذا الوقت تخليصُه عينُ الذكر؛ لكونه امتثالَ أمره في الذكر أداء حقّ واحدٍ، وهو حقّ المولى جل شأنه، وفي تخليص المأمور به أداءُ حقين: حقّ العبد وحقّ المولى تعالى، بل يكاد يدخل الذكرُ في ذلك الوقت في المعصية، فإنَّ الذكرَ ليس بمستحسن في جميع الأوقات، بل في بعض الأوقات يستحسن عدمُ الذكر، كما أنَّ الإفطارَ في الأيّام المنهية وتركَ الصلاة في الأوقات المكروهة أفضلُ من الصوم والصلاة.

ينبغي أن يعلم أنَّ الذكرَ عبارةٌ عن طرد الغفلة بأي وجهٍ يتيسّرُ، لا أنَّ الذكرَ مقصورٌ على تكرار كلمة النفي والإثبات، أو على تكرار اسم الذات كما زعم، فكلُّما هو من امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي كلُّه داخلٌ في الذكر، والبيعُ والشراءُ مع مراعاة الشروط ذكرٌ، وكذلك النكاحُ والطلاقُ مع مراعاة شروطهما ذكرٌ، فإنَّ الآمرَ والناهي جلّ سلطانه حين مباشرة هذه الأمور مع مراعاة شروطها نصب عين مباشرها، فلا يكون فيها مجالٌ للغفلة، ولكن الذكرَ الواقعَ باسم المذكور وصفته سريعُ التأثير، ومورثٌ لمحبة المذكور، وقريبُ الإيصال إليه، بخلاف الذكر الواقع من طريق امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي، فإنَّه قليلُ النَّصيب من هذه الصِّفات، وإن وجدت هذه الصِّفاتُ في بعض الأفراد الذين ذكرهم بامتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي الشَّرعيّة على سبيل الندرة، قال حضرة الخواجه النقشبند قدس سره: إنَّ حضرةَ مولانا زين الدين التايباديّ قدس سره وصل إلى الحقّ سبحانه من طريق العلم. وأيضاً إنَّ الذكرَ الذي يقع باسم المذكور وصفته وسيلةٌ للذكر الذي يحصل بمراعاة الحدود الشَّرعيّة، فإنَّ مراعاة الأحكام الشَّرعيّة في جميع الأمور غيرُ ميسَّرةٍ بدون محبَّةٍ تامةٍ لناصب الشرع، وهذه المحبَّةُ التامَّةُ مربوطةٌ بذكر اسمه وصفته تعالى، فلا بُدَّ أوّلاً من ذلك الذِّكْر حتى يحصل بسببه هذا الذكر، ومعاملةُ العناية أمرٌ آخر ليس هناك شرطٌ ولا وسيلةٌ، ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٣].

ولنرجع إلى أصل الكلام، فنقول: إنَّ وراء هذه المعاملات الثلاث الطَّريقة والحقيقة والشَّريعة معاملةً أخرى مختصّة بالآخرين يمكن أن يقال: أنْ لا اعتدادَ بتلك المعاملات في جنب هذه المعاملة ولا اعتبارَ، وما حصل في مرتبة الحقيقة مما له تعلّقٌ بالإثبات؛ فهو صورةُ هذه المعاملة، وهذه المعاملةُ حقيقةُ تلك الصُّورة، مثل صورةِ شريعةٍ حاصلةٍ في الابتداء لمرتبة العوامّ، وبعد حصول الطَّريقة والحقيقة تتيسّرُ حقيقةُ تلك الصُّورة، ينبغي التخيُّلُ والتأمُّلُ إذا كانت معاملةٌ صورتُها حقيقةُ معاملةٍ، ومقدّمتُها ولايةٌ، كيف يسعها القيلُ والقالُ؟ وكيف يفي بها البيانُ؟ ولو بيّنت فرضاً من يدركها؟ وماذا يدرك؟ وهذه المعاملةُ وراثةُ الأنبياء أولي العزم عليهم الصلوات والتسليمات والتحيات والبركات التي هي نصيبُ أقلّ قليلٍ، فإنَّه إذا كان أصولُ هذه المعاملة...

قليلةً تكون فروعُها أقلّ بالضّرورة.

فإن قيل: لزم من هذه المعارف أنّ العارفَ يضع قدمه في بعض المراتب خارج الشّريعة، ويعرج إلى ما وراء الشّريعة.

أجيب: إنّ الشّريعةَ أعمالُ الظّاهر، وهذه المعاملةُ متعلّقةٌ في هذه النّشأة بالباطن، والظّاهرُ مكلّفٌ بالشّريعة دائماً، والباطنُ مشغوفٌ بتلك المعاملة، وحيث إنّ هذه النشأة دارُ عملٍ؛ فللباطن من أعمال الظّاهر مددٌ عظيمٌ، وترقّياتُ الباطن مربوطةٌ بإتيان أحكام الشّريعة التي متعلّقةٌ بالظّاهر، فلا بُدَّ للظّاهر والباطن في هذه النّشأة من الشّريعة في جميع الأوقات، فشغلُ الظّاهر العملُ بموجب الشّريعة، ونصيبُ الباطن نتائجُ ذلك العمل وثمراتُه، فالشّريعةُ أمُّ كلِّ الكمالات، وأصلُ جميع المقامات، ونتائجُ الشّريعة وثمراتُها ليست مقصورةً على النّشأة الدنيويّة، فإنّ الكمالات الأخرويّة والتنعمات السرمديّةَ أيضاً من ثمرات الشّريعة ونتائجها، فكانت الشّريعةُ شجرةً طيبةً ينتفع العالمُ من ثمراتها وفواكهها في هذه النشأة وفي تلك النشأة، ومنها تؤخذ فوائدُ الدّارين.

فإن قيل: يلزم من هذا البيان كونُ الباطن متوجّهاً إلى الحقّ سبحانه، والظّاهرِ إلى الخلق في كمالات النبوّة أيضاً، وقد كتبتَ في مكتوباتك ورسائلك - ومرَّ في هذا المكتوب أيضاً - أنَّ التوجّهَ في مقام النبوّة الذي هو محلُّ الدّعوة إلى الخلق بالتّمام، فما وجهُ التّوفيق؟

أجيب: إنَّ تلك المعاملةَ المذكورةَ تتعلّقُ بالعروج، ومقامَ الدعوة مربوطٌ بالهبوط، ففي وقت العروج يكون الباطنُ مع الحقّ سبحانه، والظّاهرُ مع الخلق، حتى تتأتّى تأديةُ حقوقهم على وفق الشّريعة الغراء، وفي وقت الهبوط يكون متوجّهاً إلى الخلق بالتمام، ويدلُّهم على الحقّ سبحانه بكليته، فلا منافاةَ. وتحقيقُ هذا المقام: هو أنَّ التوجّهَ إلى الخلق عينُ التوجّه إلى الحقّ سبحانه، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، لا بمعنى: أنَّ الممكنَ عينُ الواجب أو مرآةُ الواجب سبحانه وتعالى، وما مقدارُ الممكن الحقير حتى يكون عينَ الواجب تعالى أو يكون قابلاً لمرآتيته سبحانه، بل يمكن أن يقال: إنَّ الواجبَ تعالى مرآةُ الممكن، ويتوهّم الأشياء في مرآة الواجب تعالى، كصور الأشياء في مرآة الصورة، فكما أنَّه ليس لتك الصور حلولٌ وسريانٌ في مرآة الصورة؛ كذلك لا حلولَ ولا سريانَ للأشياء في مرآة الواجب تعالى، وكيف يتصورُ الحلولُ، فإنَّه لا وجودَ للصور في مرتبة المرآة، ووجود الصور إنّما هو في مرتبة التوهُّم والتخيل فقط؟ فالمحلُّ الذي فيه المرآةُ ليس فيه الصورُ، والمحلُّ الذي فيه الصُّور على المرآة منه ألف عارٍ، فإنَّه لا ثبوتَ للصور غير الإراءة الخيالية، ولا وجودَ لها غير التحقّق الوهميّ، فإن كان لها محلٌّ؛ فهو في مرتبة التوهُّم، وإن كان لها زمانٌ؛ فهو في مرتبة التخيُّل، ولكن حيث كانت تلك الإراءةُ الخياليّةُ للأشياء بصنع الحقّ جل سلطانه؛ فهي مصونةٌ من الخلل، ومحفوظةٌ من سرعة الزوال، والمعاملةُ الأبديّةُ مربوطةٌ بها، والعذابُ والمثوباتُ السرمديّةُ منوطةٌ بها. واعلم أنَّ الملحوظَ أوّلاً في مرآة الصورة هو الصورُ، والالتفاتُ الثّاني إنّما هو لشهود المرآة، والملحوظَ أولاً في مرآة الواجب هو المرآةُ نفسها، والالتفاتُ الثّاني إنّما هو لشهود الأشياء، وأيضاً في مرآة الصورة الصورُ أيضاً مرايا أحكام المرآة وآثارُها، فإن كانت المرآةُ طولانيّةً؛ تظهر الصورُ أيضاً طولانيّةً، فتصير الأشياءُ مرايا لطول المرآة، وكذلك إذا كانت المرآةُ صغيرةً يظهر صغرُها في مرايا الصور، بخلاف مرآةِ ذات الواجب تعالى، فإنَّ الأشياءَ لا تكون مرايا لأحكامها وآثارها، فإنَّه لا حكمَ على تلك المرتبة العليا ولا أثرَ، بل جميعُ النِّسب مسلوبٌ عنها فيها، فإن كانت الأشياء مرايا ماذا يظهر فيها؟ نعم، يجوز أن يكون.........................

الأشياءُ مرايا لصور أحكام الواجب في مراتب التنزُّل الذي موطنُ الأسماء والصِّفات، فإنَّ السَّمعَ والبصرَ والعلمَ والقدرة مثلاً التي هي ظاهرةٌ في مرايا الأشياء صورُ السمع والبصر والعلم والقدرة الثابتة في مرتبة الوجوب التي هي مرآة تلك الأشياء الظَّاهرة. وما قلتُ: إنَّ الملحوظَ أوّلاً في مرآة الواجب تعالى هو نفسُ المرآة، والالتفاتُ الثّاني إنّما هو لشهود الأشياء التي هي كالصُّور في تلك المرآة؛ فهو حالَ ابتداء الرُّجوع الذي تظهر الصور فيه للنظر بعد أن كانت مرتفعةً ومختفيةً عن النظر بالتمام، فإذا انتهت معاملةُ الرجوع إلى آخرها، ووقع السَّيرُ في الأشياء طولها وعرضها، وتيسّر الاستقرارُ في مركز دائرة الإمكان؛ يتبدَّلُ الشُّهودُ حينئذٍ بالغيب بالضَّرورة، ويصير الإيمانُ الشُّهوديُّ إيماناً غيبيّاً، وإذا تمّت معاملةُ الدعوة، وقرعت مقرعةُ الرحيل؛ ففي ذلك الوقت لا يبقى الغيبُ، ولا يكون فيه غير الشُّهود، ولكن هذا الشُّهودَ يكون أتمَّ وأكملَ من ذاك الشُّهود الذي كان حاصلاً قبيل الرجوع، فإنَّ الشُّهودَ الذي يتعلّقُ بالآخرة أكملُ من الشُّهود الذي يتعلّق بالدنيا: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

ينبغي أن يعلم أنَّه قد لاح من التَّحقيق السَّابق: أنَّ صورةَ الشيء التي تظهر في المرآة لا ثبوتَ لها في غير التخيُّل، والمرآةُ على صرافةِ تجرُّدها من حصول تلك الصورة فيها، ويمكن أن يقال لتلك الصُّورة: إنَّ المرآةَ قريبةٌ منها، وأيضاً يمكن أن يقال: إنَّ المرآةَ محيطةٌ بها، وإنَّها معها، وهذا القربُ والإحاطةُ والمعيةُ ليست من قبيل قرب الجسم والجوهر وإحاطتهما بالعرض، بل هناك قربٌ وإحاطة العقل عاجزٌ عن تصورهما، وقاصرٌ عن إدراك كيفيتهما، ففي هذه الصورة ثبتت الإحاطةُ والقربُ والمعيةُ، ولم تعلم كيفيتها أصلاً، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. وهكذا القربُ الذي للحقّ مع العالم، وكذلك إحاطتُه ومعيّتُه تعالى معلومةُ الآنيّة، مجهولةُ الكيفية، نؤمن أنَّه تعالى قريبٌ من العالم ومحيطٌ به ومعه، ولكن لا نعلم كيفيّةَ قربه وإحاطته ومعيّته تعالى أنَّها ما هي، فإنَّ هذه الصِّفات مغايرةٌ لصفات الأشياء، ومبرَّأة عن سيما الإمكان والحدوث، وإن أورد تنظيرُها وتشبيهُها في عالم المجاز الذي هو قنطرةُ الحقيقة، وأُومِئَ إليها بالمرآة والصورة ليجتهدَ حديدوا البصر في الخروج من المجاز إلى الحقيقة، وليميلوا من الصورة إلى المعنى. والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى الخواجه محمَّدٍ قاسمٍ البدَخْشيِّ في النَّصيحَة والتَّنبيهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بعد الحمد والصلاة، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّه يفهم من كلمة ذاك الأخ وكلامه حرارةُ الطلب، وتفوح رائحةُ الجمعيَّة، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على ذلك، ويشبه أن تكون هذه الدَّولةُ أثرَ قرب الصُّحبة، ولم تترككم التعلّقاتُ التي لا طائل فيها أن تكونوا في الصُّحبة جمعةً واحدةً، ولا أدري أنَّه هل بلغ مجموعُ أيام صحبتكم عشرة أو لا؟ ينبغي أن يستحيى من الله تعالى حيث لا ينتخب له تعالى يوماً واحداً من ألف أيام، ولا يجمع نفسه من تعلّقات شتىً، وقد تمّت عليكم الحجةُ، ووجدتَ بوجدانك أنَّ ساعةً واحدةً من هذه الصُّحبة أفضلُ من أربعينات المجاهدة، ومع ذلك تفرُّون من هذه الصُّحبة، وترمون أنفسكم بعيداً عنها بالحِيَل، جوهرُ استعدادكم نفيسٌ، ولكن ما الفائدةُ؛ لأنَّه لم يخرج من القوة إلى الفعل؟ استعدادُكم عالٍ، ولكن همّتكم وضيعةٌ، حيث قنعت عن الجوهر النفيس بقطعات خزفٍ خسيسٍ مثل الأطفال: (شعر)

وَحِينَ الصُّبْحِ يُعْلَمُ كَالنَّهَارِ حَقِيقَةُ مَنْ هَوِيتُهُ فِي الظَّلَامِ

وما فاتت الفرصةُ الآن، ينبغي الفكرُ في الأصل. وعمدةُ هذا الأمر صحبةُ أرباب الجمعيَّة، فإن لم تتيسّر هذه الدَّولةُ ينبغي صرفُ الأوقات في الاشتغال بالذكر الإلهي جلّ شأنه المأخوذ من صاحب دولة، والاجتناب من كلّ شيءٍ ينافي الذِّكْرَ، وينبغي حسنُ الاحتياط في الحلّ والحرمة الشرعيين من غير مساهلةٍ، وعليكم بالتزام الجماعة في الصلوات الخمس، ورعاية السعي البليغ في تعديل الأركان، والمحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها المستحبة، ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى الخواجه محمَّدٍ طَالبِ البدَخْشيِّ في التَّرغيبِ في مقامِ الرِّضا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. ليكن الخواجه محمد طالب دائماً طالب مطلوب. قد كتبتَ خبرَ فوت قرة العين محمد صديق، إنا لله وإنا إليه راجعون. أيُّها الأخُ الأعزُّ، إنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى أعزُّ عند المؤمنين من كلِّ شيءٍ وأحبُّ، سواءٌ كان أموالاً أو أنفساً، والإحياءُ والإماتةُ فعلُه تعالى لا مدخل فيهما لغيره، فيكون فعلُه تعالى أيضاً أحبَّ وأعزَّ بالضَّرورة، يحقُّ للمحبين أن يلتذوا من فعل المحبوب، وأن يفرحوا، وكيف أدلُّ على الصبر؟ فإنَّ فيه إيماءً إلى الكراهة، ومقامُ الرضاء وإن كان يخبر عن الرغبة والسرور، ولكن مرتبةَ الالتذاذ أمرٌ آخر، (أشعار):

مَا الْعِشْقُ إِلَّا شُعْلَةٌ قَدْ أَحْرَقَتْ كُلَّ الْوَرَى غير الْحَبِيبَ الْبَاقِي
قَدْ سَلَّ فِي قَتْلِ السِّوَى صَمْصَامَ (لَا) فَانْظُرْ إِلَى مَا بَعْدَ (لَا) مَا الْبَاقِي
بُشْرَاكَ يَا عِشْقُ قَدِ احْتَرَق الْوَرَى لَمْ يَبْقَ غَيْرُ إِلَهِنَا الْخَلَّاقِ

والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى الخواجه كَدَا في بَيانِ أنَّ نِسيانَ السِّوى قَدمٌ أوَّل في هذه الطَّريقَة، فيَنبَغي السَّعيُ حتَّى لا يَقعَ القُصورُ في ذلك.

نحمده، ونصلي على نبيه، ونسلم عليه وعلى آله الكرام. والنصيحةُ للأخ الخواجه محمد كدا بعد تصحيح العقائد الكلاميَّة وبعد إتيان الأحكام الفقهيَّة هي المداومةُ على الذكر الإلهي جل سلطانه على نهج حفظه، وينبغي أن يستولي الذكرُ على حدٍّ لا يترك في الباطن غيرَ المذكور، ويزيل التعلّقَ العلميَّ والحبيَّ بما سوى المذكور، فحينئذٍ يحصل للقلب نسيانُ السّوى، ويكون السَّالكُ فارغاً عن رؤية الغير وإدراكه، بحيث لو ذُكِّرَ بالأشياء بالتكلّف والتعمُّل لا يتذكَّر ولا يعرفُ، بل يكون مستهلكاً ومستغرقاً في المطلوب دائماً، فإذا انتهت المعاملةُ إلى هنا؛ يكون قد خطى خطوةً في هذا الطَّريق، ينبغي السَّعيُ في أن لا يقصِّرَ في الخطوة الواحدة، وأن لا يبقى في أسر رؤية الغير وعلمه: (شعر)

هَلُمُّوا أَيُّهَا الأَبْطَالُ نَحْوَ الـ ـسَّعَادَةِ إِذْ خَلَتْ عَنْ كُلِّ مَانِعِ

وتعلّقاتكم ترى في الظَّاهر قليلة، ولكنكم تجعلون أنفسكم من جملة أرباب التعلّق بشوق التعلّق، الراضي بالضرر لا يستحقّ النظرَ مسألةٌ مقررةٌ. والسلام.

المكتُوبُ الخمسُون

إلى المِيرزا شَمسِ الدِّينِ في بيانِ أنَّ للشَّريعَة صورةً وحَقيقةً، وأنَّه لا بدَّ منَ الشَّريعَة في الابتِداءِ والانتِهاءِ، وبَيانِ تَمكينِ القَلبِ، واطمِئنانِ النَّفسِ، واعتِدالِ القالَبِ التي في مَرتَبَة النُّبوَّة، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ للشَّريعة صورةً وحقيقةً، فصورةُ الشَّريعة عبارةٌ عن إتيان الأحكام الشَّريعة بعد الإيمان بالله وسوله، وبما جاء من عند الله سبحانه، والإيمانُ مع وجود منازعة النَّفس الأمَّارة وإبائها وطغيانها وإنكارها المودعة في جِبِلَّتها هو صورةُ الإيمان، وكذلك الصلاةُ والصومُ مع وجود صفاتها، هذه صورةُ الصلاة والصوم، وعلى هذا القياس سائرُ الأحكام الشَّرعيّة، فإنَّ النَّفس التي هي عمدةُ الإنسان وهي المشارُ إليها لكلّ فردٍ بقوله (أنا) على كفرها وإنكارها؛ فكيف يتصوَّرُ منها حقيقةُ الإيمان وحقيقةُ الأعمال الصالحة؟ ومن رحمته سبحانه وتعالى قبولُه جلّ شأنه مجرَّدَ الصورة، وبشارتَه بدخول الجنة التي هي محلُّ رضائه ورحمته، ومن إحسانه تعالى وتقدس اكتفاؤه في نفس الإيمان بتصديق القلب، ولم يكلِّف بإذعان النَّفس. نعم، للجنَّة أيضـًا صورةٌ وحقيقةٌ، يحتظُّ أصحابُ الصورة بصورة الجنَّة، وأربابُ الحقيقة بحقيقة الجنَّة، وكلٌّ من أصحاب الصُّورة وأرباب الحقيقة يتناول من فاكهةٍ واحدةٍ من فواكه الجنة، فيجد صاحبُ الصُّورة منها لذَّةً، وصاحبُ الحقيقة لذَّةً أخرى، وتكون الأزواجُ المطهراتُ أمهات المؤمنين مع النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام في جنةٍ واحدةٍ، ويأكلون معه من فاكهةٍ واحدةٍ، ولكنَّ التذاذَ كلٍّ واحدٍ وتنعُّمَه على حدةٍ، وإلا؛ يلزم فضلُ أمهات المؤمنين على جميع بني آدم بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، ويلزم أيضـًا أنَّ كلَّ من يكون أفضلَ من شخص تكون زوجتُه أيضـًا أفضل منه، فإنَّ الزوجةَ ممتزجةٌ ومختلطةٌ بالزوج. وصورةُ الشَّريعة بشرط الاستقامة موجبةٌ للفلاح، ومستلزمةٌ للنجاة الأخرويين، ومصحِّحةٌ لدخول الجنة كما مرّ، فإذا صحَّت صورةُ الشَّريعة؛ فقد حصلت الولايةُ العامةُ، والله ولي الذين آمنوا، وفي هذا الوقت صار السَّالكُ مستعدّاً لأن يضع قدمه في الطَّريقة، وأن يتخطَّى إلى الولاية الخاصة، وأن يجرَّ نفسه بالتَّدريج من وصف الأمَّارية إلى صفة الاطمئنان، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ منازلَ الوصول إلى تلك الولاية أيضـًا مربوطٌ بأعمال الشَّريعة، والذكر الإلهيّ جل شأنه الذي هو العمدةُ في هذا الطَّريق من المأمورات الشَّرعيّة والاجتناب عن المناهي الشَّرعيّة أيضـًا من ضروريات هذا الطَّريق، وأداءُ الفرائض من المقربات، وطلبُ شيخٍ عارفٍ بالطَّريق وهادٍ إليه الذي يستحقّ أن يكون وسيلةً أيضـًا من المأمورات الشَّرعيّة، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وبالجملة لا بد من الشَّريعة صورةً وحقيقةً، فإنَّ أمهات جميع كمالات الولاية والنبوَّة هي الأحكامُ الشَّرعيّةُ، كمالاتُ الولاية نتائجُ صورة الشَّريعة، وكمالاتُ النبوَّة ثمراتُ حقيقة الشَّريعة كما سيجيء إن شاء الله تعالى، ومقدّمةُ الولاية هي الطَّريقةُ التي نفي ما سواه تعالى مطلوبٌ فيها، ورفعُ الغير والغيرية مقصودٌ منها، فإذا صار ما سواه تعالى بفضله جل شأنه مرتفعـًا عن النَّظر بالكليَّة، ولم يبقَ اسمٌ ولا رسمٌ من رؤية الأغيار؛ فقد حصل الفناءُ، وبلغ مقامُ الطَّريقة نهايتَه، وتمَّ السَّيرُ إلى الله، والشروعُ بعد ذلك في مقام الإثبات المعبَّر عنه بالسير في الله، وهذا هو مقامُ البقاء الذي هو موطنُ الحقيقة التي هي ....

المقصدُ الأقصى من الولاية، وبتلك الطَّريقة والحقيقة اللتين هما الفناءُ والبقاءُ يصدق اسمُ الولاية، وتصير الأمَّارةُ مطمئنةً، وترجع عن كفرها وإنكارها، وتصير راضيةً عن مولاها، ويكون المولى جل سلطانه أيضـًا راضيـًا عنها، وتزول الكراهةُ التي كانت في جِبِلَّتِها، قالوا: إنَّ النَّفسَ وإن وصلت إلى مقام الاطمئنان لا ترجع عن بغيها وطغيانها: (شعر)

وَإِنِ انْتَهَتْ نَفْسٌ إِلَى اطْمِئْنَانِهَا لَكِنَّهَا لَا تَنْتَهِي عَنْ غَيِّهَا

وجعلوا المرادَ من الجهاد الأكبر الواقع في قوله عليه الصلاة والسلام: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»: الجهادَ مع النَّفس، وما ظهر في كشف الفقير ووجده بوجدانه خلافُ هذا الحكم المتعارف، فإنِّي لا أجد في النَّفس بعد حصول الاطمئنان عناداً وطغيانـاً أصلاً، بل أراها متمكِّنةً في مقام الانقياد، بل أجدها كالقلب المتمكن الذي نسي السِّوَى فارغةً عن رؤية الغير والغيرية وعلمهما، ومتخلِّصةً عن حب الجاه والرياسة واللذة والألم، فأين المخالفةُ؟ وبمن العنادُ؟ فإن أثبتوا لها قبل حصول الاطمئنان كلَّ شيءٍ من المعاندة والطغيان، وإن كان تفاوت أحوالها وتلونها مقدار شعرةٍ؛ فله المساغُ، وليس لنا فيه نزاعٌ، ولكن بعد حصول الاطمئنان لا مجال للمخالفة والطغيان، ولقد طالع الفقيرُ في هذا الباب بإمعان النظر، وتأمَّل في حلِّ هذا المعمّى لكونه مخالفـًا لِمَا تقرَّر عند القوم، وتعمَّق في الفكر، ولكن بعناية الله سبحانه لم يجد في النَّفس المطمئنة مقدارَ شعرةٍ من المخالفة والمعاندة، ولم ير فيها شيئـًا غير الاستهلاك والاضمحلال، فإذا جعلت النَّفسُ نفسها فداءً لمولاها كيف يكون فيها مجالُ المخالفة؟ وحيث كانت النَّفسُ راضيةً عن حضرة الحق تعالى، وكان الحقُّ تعالى راضيـًا عنها؛ كيف يتصوَّرُ عنها الطغيانُ الذي هو منافٍ للرضى؟ ومرضيُّ الحق جل سلطانه لا يصير غيرَ مرضيٍّ أصلاً. ويمكن أن يكون المرادُ من الجهاد الأكبر - والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال -: الجهادَ مع القالب الذي هو مركَّبٌ من الطبائع المختلفة التي كلُّ طبيعةٍ منها مقتضيةٌ لأمرٍ، ومتنفرةٌ عن أمرٍ، فإنَّ كلاً من القوة الشهوية والغضبية ناشئةٌ عن القالب، ألا ترى أنَّ سائر الحيوانات التي ليست لها النَّفسُ الناطقةُ هذه الصِّفات الرذيلة كائنة فيها، وكلّها متَّصفةٌ بالشهوة والغضب والشره والحرص، وهذا الجهادُ كائنٌ دائمـًا لا يسكِّنُه اطمئنانُ النَّفس، ولا يرفعُه تمكينُ القلب، وفي بقاء هذا الجهاد فوائدُ كثيرةٌ متضمنةٌ لتنقية القالب وتطهيره، حتى تكون كمالاتُ هذه النشأة ومعاملةُ الآخرة مربوطة به بالأصالة، فإنَّ في كمالات هذه النَّشأة القالبُ تابعٌ، والقلبُ متبوعٌ، وفي كمالات تلك النشأة الأمرُ بالعكس، القلبُ تابعٌ، والقالبُ متبوعٌ، فإذا وقع الخللُ في هذه النشأة، وظهرت مقدمةُ تلك النشأة؛ ينقضي هذا الجهادُ، ويرتفع هذا القتالُ، فإذا بلغت النَّفسُ بفضل الله سبحانه مقامَ الاطمئنان، وصارت منقادةً للحكم الإلهي جلّ شأنه؛ فقد تيسّر الإسلامُ الحقيقيُّ، وحصلت حقيقةُ الإيمان، وكلّما يعمل بعد ذلك يكون حقيقةً، فإذا أدِّيت الصلاة تكون حقيقةً، وإن كان صومـًا؛ فحقيقةُ الصوم، وإن حجـًّا؛ فحقيقةُ الحجّ، على هذا القياس إتيانُ سائر الأحكام الشَّرعيّة، فصار كلٌّ من الطَّريقة والحقيقة متوسِّطةً بين صورة الشَّريعة وحقيقتها، فمن لم يشرَّف بالولاية الخاصَّة لا يصلُ من الإسلام المجازيّ إلى الإسلام الحقيقيّ، فإذا كان بفضل الله سبحانه محلّىً بحقيقة الشَّريعة، وتيسّر......................

الإسلامُ الحقيقيُّ؛ صار مستعداً لأن ينال حظّاً وافراً ونصيباً تامّاً من كمالات النبوّة بتبعية الأنبياء ووراثتهم عليهم الصلاة والسلام، وكما أنَّ صورةَ الشَّريعة كشجرةٍ طيبةٍ لكمالات الولاية، وهي كثمراتها؛ كذلك حقيقةُ الشَّريعة أيضاً كشجرةٍ مباركةٍ لكمالات النبوَّة التي هي كثمراتها، وحيث كانت كمالاتُ الولاية ثمراتِ الصورة، وكمالاتُ النبوَّة ثمراتِ حقيقةِ تلك الصورة؛ تكون كمالاتُ الولاية بالضَّرورة صوراً لكمالات النبوَّة التي هي حقائقُ تلك الصور.

ينبغي أن يعلم أنَّ الفرقَ بين صورة الشَّريعة وحقيقتها كان ناشئاً من جهة النَّفس، حيث كان للنفس الأمَّارة طغيانٌ في الصورة، وكانت على إنكارها، وصارت مطمئنةً في الحقيقة ومسلّمةً، وكذلك الفرقُ بين كمالات الولاية التي هي كالصور وبين كمالات النبوَّة التي كالحقائق ناشٍ من جهة القالب، فإنَّ أجزاءَ القالب ما كانت منتهيّةً وراجعةً عن طغيانها وعنادها في مقام الولاية مثلاً لم يرجع جزؤه الناريُّ مع وجود اطمئنان النَّفس عن دعوى الخيرية وتكبرها، وكذلك لم يتندَّم جزؤه الأرضيُّ عن الخسَّة والدناءة، وعلى هذا القياس سائرُ الأجزاء، وفي مقام كمالات النبوَّة جاءت أجزاءُ القالب أيضاً إلى حدّ الاعتدال، وامتنعت عن الإفراط والتفريط، ويمكن أن يكون من ههنا قال النبيُّ ﷺ: «**أَسْلَمَ شَيْطَانِي**»، فكما أنَّ في الآفاق شيطاناً في الأنفس أيضاً شيطانٌ، وهو الجزءُ الناريُّ الذي هو مدَّعٍ لخيريته، ومقتضٍ لتكبره وترفعه، وكلُّ هذه أردأُ الصِّفات الرذيلة، وإسلامُه كنايةٌ عن زوال تلك الصِّفات التي هي أرذلُ الرذائل، ففي كمالات النبوَّة تمكينُ القلب، واطمئنانُ النَّفس، واعتدالُ أجزاء القالب، وفي الولاية تمكينُ القلب، وبعد اللتيا واللتي اطمئنانُ النَّفس، وإنَّما قلنا: بعد اللتيا واللتي، فإنَّ اطمئنان النَّفس على وجه الكمال من غير تكلّفٍ إنّما هو بعد اعتدال أجزاء القالب، ولهذا جوَّز أربابُ الولاية رجوعَ المطمئنة إلى صفات البشرية بواسطة عدم اعتدال أجزاء القالب كما مرّ في أول المبحث، والاطمئنانُ الذي يحصل للنفس بعد اعتدال أجزاء القالب؛ فهو مأمونٌ ومبرَّأٌ من الرُّجوع إلى صفات البشرية، فالاختلافُ في رجوع النَّفس إلى الرذائل وعدم رجوعها مبنيٌّ على اختلاف مقامات النَّفس والأنظار، كلُّ شخصٍ أخبر عن مقامه، وتكلّم عن وجدانه.

فإن قيل: إذا جاءت أجزاءُ القالب إلى حدّ الاعتدال، وامتنعت عن المعاندة والطغيان؛ كيف يتصوَّرُ الجهادُ معها؟ بل يرتفع الجهادُ عنها حينئذ.

أجيب: فرقٌ بين المطمئنة وبين هذه الأجزاء، فإنَّ المطمئنة صاحبةُ استهلاكٍ واضمحلالٍ، وملحقةٌ بعالم الأمر، ومتَّصفةٌ بكمال الاستهلاك والسُّكر، وهذه الأجزاءُ لا مناسبةَ لها بالسُّكر والاستهلاك بواسطة إتيان الأحكام الشَّرعيّة الذي مبناه على الصحو، ولا مجال في المستهلك للمخالفة، وما فيه صحوٌ، فإن صدرت عنه صورةُ المخالفة في بعض الأمور بواسطة بعض منافعه ومصالحه؛ فإنَّه يجوز، ولكنَّ المرجوَّ أن لا تكون تلك المخالفةُ بفضل الله جل سلطانه فوق ترك الاستحباب، وأنَّه لا تزيد على ارتكاب الكراهة التنزيهيَّة، فيكون الجهادُ في مرتبة القالب مع اعتدال أجزائه متصوَّراً، وفي المطمئنَّة لا يكون الجهادُ مجوَّزاً، وتحقيقُ هذا المبحث مندرجٌ في مكتوب من الجلد الأوّل المحرَّر في بيان الطَّريق المحرر باسم ولدي الأعظم المرحوم بالتَّفصيل، فإن بقي خفاءٌ فيه فليراجع هناك.

فإن انتهت كمالاتُ النبوَّة التي هي نتائجُ حقيقة الشَّريعة وثمراتها بفضل الله جلّ سلطانه إلى آخرها، يعني: حصلت بتمامها؛ ....

لا تكون الترقِّياتُ هناك منوطةً بالأعمال، بل المعاملةُ في ذلك الموطن مربوطةٌ بمحض فضل الله وإحسانه سبحانه، لا أثر للاعتقاد هناك، ولا حكمَ فيه للعلم والعمل، بل فيه فضلٌ في فضلٍ، وكرمٌ في كرمٍ، وهذا المقامُ بالنِّسبة إلى المقامات السَّابقة عالٍ جداً، وله وسعةٌ تامّةٌ ونورانيّةٌ لم يكن أثرٌ منها في المقامات السابقة، وهذا المقامُ مخصوصٌ بالأصالة بالأنبياء أولي العزم عليهم الصلاة والتسليمات، وبالتبعية والوراثة يشرَّفُ به ويمنح كلُّ من أدركته العنايةُ:

(ع) لَا عُسْـــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

ولا يغلطنّ هنا شخصٌ، فيقول: إنَّه قد حصل في هذا الموطن الاستغناءُ عن صورة الشَّريعة وحقيقتها، ولم يبق الاحتياجُ إلى إتيان الأحكام الشَّرعيّة؛ لأنا نقول: إنَّ الشَّريعةَ أصلُ هذا الأمر، وأساسُ هذه المعاملة، وكلَّما يتعالى الشجرُ أو يتطاول البنيانُ ويبنى فوقه القصورُ والإيوان لا يستغنيان عن الأصل والأساس، ولا يزول عنهما الاحتياجُ الذاتيُّ، فإنَّ البيتَ العلوَ مثلاً كلَّما كان أرفعَ وأعلى لا يكون له بدٌّ من البيت السفل، ولا يزول احتياجه عنه أصلاً، فإن طرأ الخللُ في السفل فرضاً يؤثِّرُ ذلك الخللُ في العلو أيضاً، ويستلزم زوالُ السفل زوالَ العلو، فالشَّريعةُ لازمةٌ في جميع الحال وجميع الوقت، وكلُّ شخصٍ محتاجٌ إلى إتيان أحكامها، فإذا ترقَّت المعاملةُ عن هذا الموطن أيضاً بفضل الله جل سلطانه، وتحوّل الأمرُ من التَّفضُّل إلى المحبة؛ يستقبل حينئذ مقامٌ عالٍ جداً مخصوصٌ بالأصالة بخاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والتسليمات، ويشرَّفُ به بالتَّبعية والوراثة كلُّ من أريد له ذلك، وذلك القصرُ الذي يظهر في النظر من غاية الرفعة ضيقاً أجد حضرةَ الصديق داخلاً فيه بطريق الوراثة إلى سُرَّته، وحضرةُ الفاروق أيضاً مهتدٍ إلى هذه الدَّولة، ومن أمهات المؤمنين أرى فيه معه عليه وعلى آله الصلاة والسلام بعلاقة الازدواج حضرة خديجة وحضرة الصديقة ﵄، والأمرُ إلى الله سبحانه.

ولَمّا كان الأخُ الأعزُّ ذو المعارف الشَّيخ عبد الحي الذي كان في الصحبة سنين متوجِّهاً إلى وطنه، وكان لذلك المقام تعلّقٌ به؛ كتبنا سطوراً بالضَّرورة، واطّلعنا على أحوال المشار إليه، ووجودُ أهل الله مغتنمٌ في أيّ مكانٍ كان، وبشارةٌ لسكان ذلك المكان، وفي عين ذلك المقام يقيم الأخُ الأعزُّ الشَّيخ نور محمد، ويصرف أوقاته بالفقر وفقدان المراد، ويغبط ذلك المقامُ، حيث اجتمع فيه اثنان من أهل الله أمثالهما، وتحقّق فيه قرانُ السَّعدين. والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي والخَمسُونَ

إلى الخواجه محمّدٍ صِدِّيقٍ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أيُّها الأخُ الصديقُ، أنَّ كلامَه سبحانه مع البشر قد يكون شفاهاً، وذلك لأفرادٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والتسليمات، وقد يكون لبعض الكُمَّل من متابعيهم بالتبعية والوراثة أيضاً، وإذا كثر هذا القسمُ من الكلام مع واحدٍ منهم سمّي: مُحَدَّثاً كما كان أميرُ المؤمنين عمر ﵁، وهذا غيرُ الإلهام، وغيرُ الإلقاء في الروع، وغيرُ الكلام الذي مع الملك، إنّما يخاطبُ بهذا الكلام الإنسانُ الكاملُ الجامعُ بين عالمي الأمر والخلق، والروح والنَّفس، والعقل والخيال، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. ولا يلزم من كون الكلام شفاهاً أن يكون المتكلّمُ مرئياً للسامع؛ لجواز أن يكون السامعُ ضعيفَ البصر لا يتحمل شعشعات أنواره، كما قال عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات في جواب سؤال الرؤية عنه: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟»(١)، ولأنَّ في الشِّفاه خرقَ الحجب الشُّهوديّة. فافهم، فإنَّ هذه معرفة قلَّما تكلّم بها أحدٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر ﵁.

والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الثاني والخمسون

إلى الخواجه محمَّدٍ مَهدِيٍّ عَليٍّ الكَشْمِيريّ في التّرغيبِ في طَريقةِ هذه الطّائفة العَليّة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

وصلت الصحيفةُ الشّريفةُ التي صدرت من كمال المحبَّة والإخلاص مع الهدايا، رزق الله سبحانه وتعالى الاستقامةَ على محبَّة هذه الطّائفة، وحشر معهم، و«هُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»، ولا يحرم أنيسُهم، ولا يخيب جليسُهم، وهم جلساءُ الله، وهم إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ، وهم من عرفهم وجد الله، نظرُهم دواءٌ، وكلامُهم شفاءٌ، وصحبتُهم ضياءٌ وبهاءٌ، من رأى ظاهرهم خاب وخسرَ، ومن رأى باطنهم نجا وأفلح، ونِعْمَ ما قيل: إلهي ما هذا الذي جعلت أولياءك بحيث من عرفهم وجدك، وما لم يجدك لم يعرفهم؟ يعني: أنَّ معرفتَهم ووجدانَك ليس أحدهما منفكّاً عن الآخر، والتقدمُ الذاتِيُّ باعتبارِ للمعرفة، وباعتبارِ للوجدان، ومختارُ القائل تقدّم ذلك الطّرف؛ لأنَّه المبدأُ، فمنه البدايةُ أَوْلى وأحرى. والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المكتوب الثالث والخمسون

إلى واحدٍ مِن مشائخ النَّواحِي في جَوابِ استِفسارِه بأنّي لو عبَدتُ الله يَحصُل للنَّفسِ الاستِغناءُ، وإن صَدرَت منّي زلَّةٌ وخِلافُ الشّرعِ تَظهَر النَّدامَة والانكِسارُ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سألتَ: إنَّه إذا جعلتُ نفسي في مقام الرّياضة – يعني: اشتغلتُ بها –؛ يظهر في النَّفس الاستغناءُ، وتزعم أن لا صالحَ مثلي، وإن صدر شيءٌ من خلاف الشّرع؛ تتخيَّلَ نفسها محتاجةً ومسكينةً، فما علاجُ ذلك؟

أيُّها الموفَّقُ، إنَّ الاحتياجَ والمسكنةَ الصّادر في الشّق الثّاني الذي يُنْبِئُ عن النّدم نعمةٌ عظيمةٌ، والعياذُ بالله سبحانه لو لم تظهر الندامةُ التي هي من شُعَب التوبة بعد ارتكاب المحظور الشرعيّ، وكانت النَّفسُ ملتذَّةً ومحظوظةً بإتيان الذنب، فإنَّ الالتذاذَ بالذنب إصرارٌ على الذنب، فإن كان الإصرارُ على السيئة الصغيرة؛ فهو يوصل إلى الكبيرة، والإصرار على الكبيرة دهليزُ الكفر، ينبغي أداءُ شكر هذه النعمة العظمى ليحصل ازديادُ الندم، فيمنع عن ارتكاب خلاف الشّريعة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وحاصلُ الشقّ الأوّل حصولُ العُجْب بعد إتيان الأعمال الصالحة، وهذا العجبُ سمٌّ قاتلٌ، ومرضٌ مهلكٌ، يُبْطِلُ الأعمالَ الصالحةَ كما يأكل النارُ الحطبَ، ومنشأُ العجب: هو أن يرى الأعمالَ الصالحةَ مزيَّنةً ومستحسنةً في نظر العامل، والمعالجةُ بالأضداد، فينبغي اتِّهامُ الحسنات، وأن يظهرَ قبائحها في النظر، وأن ينسب الإنسانُ نفسه وأعماله إلى القصور، بل يجد مستحقّاً للطّرد واللعن، قال عليه وعلى آله الصلاة والتسليمات: «**رُبَّ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ، وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الظَّمَأُ وَالْجُوعُ**»، ولا يتخيل أن لا قبحَ لحسنه، بل لو توجّهَ إليه قليلاً؛ لوجد بعناية الله سبحانه كلَّه قبيحاً، ولا يحسُّ رائحةً من الحُسْن، فأين العُجْب؟ ولمن الاستغناءُ؟ بل يكون من علَّة استيلاء رؤية القصور في الأعمال منفعلاً ومستحيًا من إتيان الأعمال الحسنة، لا معجباً ومستغنياً، فإذا حصل رؤيةُ القصور في الأعمال؛ تزيدُ قيمةُ الأعمال، وتكون حقيقةً بالقبول، وينبغي السَّعيُ حتى يحصل هذه الرَّؤيةُ، فيتخلّص من........

العُجْب، ودونه خَرْطُ القتاد إلا أن يشاء اللهُ. وطائفةٌ من الذين تيسّرت لهم رؤيةُ القصور في الأعمال على وجه الكمال يظنُّون أنَّ كاتبَ اليمين معطَّلٌ، وأنَّه لا حسنَ له يُكْتَبُ، وكاتبُ الشّمال في الشُّغل دائماً، وأنَّ فعله كلَّه قبيحٌ وسيئٌ، فإذا انتهت معاملةُ العارف إلى هذا الحدّ عومل معه ما عومل:

(ع) بَـلَـغَ الْـيَـرَاعُ إِلَـى هُـنَـا فَـتَـكَـسَّــرَا

والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الرَّابعُ والخَمسُونَ

إلى السَّيِّد شَاه محمَّدٍ في بيانِ أنَّ لمُتابَعةِ النَّبيِّ ﷺ مَراتبَ ودرَجاتٍ، وهيَ سبعُ درَجاتٍ، وبيانِ تَفصيلِ كلِّ درَجةٍ، وما يُناسِبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ لمتابعة النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام التي هي رأسُ كلّ سعادةٍ دينيّةٍ ودنيويةٍ درجاتٌ ومراتبُ:

الدَّرجةُ الأولى لعوامّ أهل الإسلام من إتيان الأحكام الشَّرعيّة، ومتابعة السنة السَنيّة، بعد تصديق القلب، وقبل اطمئنان النَّفس الذي هو مربوطٌ بدرجة الولاية، وعلماءُ الظّاهر والعُبّادُ والزُّهّادُ والذين لم تبلغ معاملتهم مرتبةَ اطمئنان النَّفس كلُّهم شركاءُ في هذه الدَّرجة من المتابعة، وكلُّهم متساويةُ الأقدام في صورة الاتباع، وحيث إنَّ النَّفسَ لم تتخلَّصْ في هذا المقام من كفره وإنكاره لا جرم تكون هذه الدَّرجةُ مخصوصةً بصورة المتابعة، وصورةُ المتابعة هذه كحقيقة المتابعة موجبةٌ للفلاح، ونجاةِ الآخرة، ومنجيةٌ من عذاب النار، ومبشِّرةٌ بدخول الجنة، ومن كمال كرمه سبحانه لم يعتبرْ إنكارَ النَّفس، بل اكتفى بتصديق القلب، وجعل النجاةَ مربوطةً بذلك التَّصديق: (شعر)

وَلَـعَـلَّ يَـقْـبَـلُ أَدْمُـعِـي مَـنْ كَـانَ يَـخْـ ـــلُـقُ لُـؤْلُـؤاً مِـنْ قَـطْـرَةِ الْأَمْـطَـارِ

والدَّرجةُ الثّانيةُ من المتابعة: اتِّباعُ أقواله وأعماله عليه الصلاة والسلام التي تتعلّقُ بالباطن من تهذيب الأخلاق، ورفع رذائل الصِّفات، وإزالة الأمراض الباطنيَّة، والعلل المعنويَّة مما يتعلّق بمقام الطَّريقة، وهذه الدَّرجةُ من الاتِّباع مخصوصةٌ بأرباب السُّلوك الذين يقطعون بوادي السَّير إلى الله ومفاوزه آخذين طريقة الصوفيَّة من شيخ مقتدىً.

والدَّرجةُ الثّالثةُ من المتابعة: اتِّباعُ أحواله وأذواقه ومواجيده عليه الصلاة والسلام التي تتعلّق بمقام الولاية الخاصَّة، وهذه الدَّرجةُ مخصوصةٌ بأرباب الولاية، سواءٌ كان مجذوباً سالكاً أو سالكاً مجذوباً، فإذا انتهت مرتبةُ الولاية إلى آخرها؛ فقد صارت النَّفسُ مطمئنَّةً، وامتنعت من المعاندة والطغيان، وانتقلت من الإنكار إلى الإقرار، ومن الكفر إلى الإسلام، فكلّما تجتهدُ بعد ذلك في المتابعة تكون حقيقةُ المتابعة، فإن أدّى الصلاةَ؛ فقد أدّى حقيقةَ المتابعة، يعني: في أداء الصلاة، وفي الصوم والزكاة أيضاً هذا الحكمُ، وعلى هذا القياسُ. حقيقةُ المتابعة كائنةٌ في إتيان جميع الأحكام الشَّرعيّة.

فإن قيل: ما معنى حقيقة الصلاة والصوم، والصلاةُ والصومُ كلٌّ منهما عبارةٌ عن أفعال مخصوصةٍ، فإن أدّيت تلك الأفعالُ على وجه أمرَ به؛ فقد أدّيت الحقيقةُ، فما تكون الصورةُ؟ وما تكون الحقيقةُ وراءها؟

أجيب: لَمّا كان للمبتدئ النَّفسُ الأمّارةُ التي هي منكرةٌ للأحكام السَّماوية بالذات؛ كان إتيانُ الأحكام الشَّرعيّة منه باعتبار الصُّورة، ولما صارت نفسُ المنتهي مطمئنَّةً، وقبِلَت الأحكامَ الشَّرعيّةَ بالرضا والرغبة؛ كان إتيانُ الأحكام منه باعتبار الحقيقة، مثلاً: المنافقُ والمسلمُ كلاهما يؤديان الصلاةَ، وحيث كان في المنافق إنكارُ الباطن لا يصدرُ........

عنه إلا أداء صورة الصلاة، والمسلمُ بواسطة انقياده الباطنيّ متحلّي بحقيقة الصلاة، فالصورةُ والحقيقةُ باعتبار إنكار الباطن وإقراره.

والدَّرجةُ الرّابعةُ: درجةٌ من المتابعة، وكانت في الدَّرجة الأولى صورةُ هذه المتابعة، وهنا حقيقةُ الاتباع، وهذه الدَّرجةُ الرّابعةُ من الاتّباع مخصوصةٌ بالعلماء الراسخين شكر الله تعالى سعيهم، فإنَّهم يتحقّقون بدولة المتابعة بعد اطمئنان النَّفس، وإن حصل نحوٌ من اطمئنان النَّفس للأولياء قدس الله تعالى أسرارهم بعد تمكين القلب، ولكنَّ كمالَ الاطمئنان يحصل للنَّفس في تحصيل كمالات النبوَّة التي للعلماء منها نصيبٌ بطريق الوراثة، فيكون العلماءُ الراسخون متحقّقين بحقيقة الشَّريعة التي هي حقيقةُ الاتّباع بواسطة كمال اطمئنان النَّفس، وحيث فُقِدَ هذا الكمالُ في غيرهم؛ يتلبسون أحياناً بصورة الشَّريعة، وآونةً يتحقّقون بحقيقة الشَّريعة، ولنبيّن علامةً للعلماء الرَّاسخين لئلا يدَّعي كلُّ عالمٍ بالظَّاهر دعوى الرُّسوخ، ولا يزعمَ أمَّارته مطمئنَّةً.

العالمُ الرَّاسخُ: هو شخصٌ له نصيبٌ من تأويل متشابهات الكتاب والسنَّة، وحظٌّ من أسرار مقطَّعات الحروف التي في أوائل السُّوَر القرآنية، وتأويلُ المتشابهات من جملة الأسرار الغامضة، ولا تتخيَّلْ أنَّه مثل تأويل اليد بالقدرة والوجه بالذات، فإنَّه ناشٍ من علم الظَّاهر، لا مساسَ له بالأسرار، وأصحابُ هذه الأسرار هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذه الرموزاتُ إشاراتٌ إلى معاملاتهم، ويشرَّفُ بهذه الدَّولة العظمى بتبعيَّة هؤلاء الأكابر ووراثتهم كلُّ من أريد له ذلك، وحصولُ هذه الدَّرجة من المتابعة التي هي منوطةٌ باطمئنان النَّفس ووصولٌ إلى حقيقة متابعة صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام يتيسّرُ أحياناً بدون توسُّط الفناء والبقاء، وبلا توسُّل السُّلوك والجذبة، ويمكن أن لا يكون في البين شيءٌ من الأحوال والمواجيد والتجلِّيات والظهورات، وتكون تلك الدَّولةُ نقدَ الوقت، ولكنِ الوصولُ إلى هذه الدَّولة من طريق الولاية أقربُ من الوصول إليها من طريقٍ آخر، وهذا الطَّريقُ الآخرُ بزعم الفقير هو التزامُ متابعة السنة السَنِيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والاجتنابُ عن اسم البدعة ورَسْمها، ومن لم يحترزْ عن البدعة الحسنة احترازَه عن البدعة السيِّئة لا تصلُ إلى مشامّ روحه رائحةٌ من هذه الدَّولة، وهذا المعنى متعسِّرٌ في هذا اليوم، فإنَّ العالَمَ مستغرقٌ اليوم في لُجَّة بحر البدعة، ومطمئنٌّ بظلماتها، لمن المجالُ في التكلّم في رفع البدعة وإحياء السنَّة؟ أكثرُ علماء هذا الوقت يروِّجون البدعةَ، ويمحون السُّنَّة، ويفتون بجواز بدعاتٍ واسعةٍ، بل باستحسانها بعلَّة تعامل الخلق، ويدلُّون الناس عليها، ليت شعري ماذا يقولون لو شاعت الضلالةُ، وصار الباطلُ متعارفاً تكون تعاملاً؟ أما يعلمون أنَّ كلَّ التعامل ليس هو دليلَ الاستحسان؟ والتعاملُ المعتبرُ إنّما هو ما جاء من الصدر الأوّل، وحصل بإجماع جميع الناس كما ذكر في «الفتاوى الغياثية»، قال شيخُ الإسلام الشَّهيدُ رحمه الله سبحانه: لا نأخذُ باستحسان مشائخ بَلْخٍ، وإنَّما نأخذُ بقول أصحابنا المتقدِّمين رحمهم الله سبحانه؛ لأنَّ التَّعاملَ في بلدةٍ لا يدل على الجواز، وإنَّما يدلُّ على الجواز ما يكون على الاستمرار من الصدر الأوّل ليكون دليلاً على تقرير النبيّ عليه الصلاة والسلام إياهم على ذلك، فيكون شرعاً له عليه الصلاة والسلام، وأما إذا لم يكن كذلك؛ لا يكون فعلُهم حجةً، إلا إذا كان ذلك من الناس كافَّة في البلدان كلِّها ليكون إجماعاً، والإجماعُ.......

حجَّةٌ، ألا ترى أنَّهم لو تعاملوا على بيع الخمر وعلى الربا لا يفتى بالحلّ؟ ولا شكَّ أنَّ العلمَ بتعامل كافة الأنام والوقوف على عمل جميع القرى والبلدان خارجٌ عن حيطة قوّة البشر، بقي تعامُلُ الصدر الأوّل الذي هو في الحقيقة تقريرُه ﷺ، وراجعٌ إلى سنته، فأين البدعةُ؟ وأين حسنُها؟ وكانت صحبةُ خير البشر عليه الصلاة والسلام كافيةً في حصول جميع الكمالات للأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وكلُّ من تشرَّفَ من علماء السَّلف بدولة الرسوخ بدون اختيار طريق الصوفيَّة، وبلا قطعِ مسافةٍ بالسلوك والجذبة؛ كان ذلك بواسطة التزام متابعة السنة السَّنِيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والاجتناب عن بدعةٍ غير مرضيَّةٍ، اللهم ثبِّتْنا على متابعة السنة، وجنبنا عن ارتكاب البدعة، بحرمة صاحب السنة، عليه وعلى آله الصلاة والسلامُ.

الدَّرجةُ الخامسةُ من المتابعة: اتِّباعُ كمالاته عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولا مدخلَ للعلم والعمل في حصول تلك الكمالات، بل حصولُها مربوطةٌ بمحض فضل الحق وإحسانه جلّ سلطانه، وهذه الدَّرجةُ عاليةٌ جدّاً، لا مساسَ للدَّرجات السَّابقة بها، وهذه الكمالاتُ مخصوصةٌ بالأنبياء أولي العزم بالأصالة، ويشرَّفُ بها بالتَّبعية والوراثة كلُّ من أريد له ذلك.

والدَّرجةُ السَّادسةُ من المتابعة: اتِّباعُه عليه الصلاة والسلام في كمالٍ مخصوصٍ بمقام محبوبيَّته عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وكما أنَّ إفاضةَ الكمالات في الدَّرجة الخامسة كانت بمجرَّد الفضل والإحسان؛ كذلك في الدَّرجة السادسة إفاضةُ كمالاتها بمجرد المحبَّة التي فوق التفضُّل والإحسان، ومن هذه الدَّرجة أيضاً نصيبٌ لأقلِّ قليلٍ.

وهذه الدَّرجاتُ الخمسُ من درجات المتابعة غير الدَّرجة الأولى، وكلُّها تتعلّقُ بمقامات العروج، وحصولُها مربوطٌ بالصعود.

والدَّرجةُ السابعةُ: متابعةٌ تتعلّقُ بالنزول والهبوط، وهذه الدَّرجةُ جامعةٌ لجميع الدَّرجات السابقة، فإنَّ في هذا الموطن - يعني: موطن النزول - تصديقَ القلب، وتمكينَه، واطمئنانَ النَّفس، واعتدالَ أجزاء القالب؛ لامتناعها وانتهائها عن الطغيان والعناد، وكأنَّ الدَّرجات السابقةَ كانت أجزاء هذه المتابعة، وهذه الدَّرجةُ كالكلِّ لتلك الأجزاء، ويحصل للتابع في هذا المقام شباهةٌ بالمتبوع على نهجٍ كأنَّه قد ارتفع اسمُ التبعية من البين، وزال امتيازُ التابع والمتبوع، ويتوهَّم أنَّ التَّابع كلَّما يأخذُ يأخذه من الأصل كالمتبوع، وكأنَّ كليهما يشربان من عينٍ واحدٍ، وكليهما في عناقٍ واحدٍ، ومخدةٍ واحدةٍ، وكأنَّهما لبنٌ وسكَّرٌ، أين التابعُ؟ ومن المتبوعُ؟ ولمن التبعيةُ؟ فإنَّه لا مجال للتَّغاير في اتحاد النِّسبة، والعجبُ أنَّه كلَّما يطالعُ في هذا المقام بإمعان النظر لا تكون نسبةُ التبعية ملحوظةً ومنظورةً أصلاً، ولا يكون امتيازُ التَّابعية والمتبوعية مشهوداً قطعاً، والذي يدركُ ويدري أنَّ التابعَ يعرف نفسه طفيليّاً ووارثَ نبيه عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وكان التابعُ غيرَ الطفيلي والوارث، وإن كان الكلُّ في سلك التبعية، والظَّاهرُ أنَّ حيلولةَ المتبوع لازمةٌ في التابع، وأما في الطفيليّ والوارث؛ فليس بلازمةٍ أصلاً، التابعُ آكلُ حصَّتَه، والطفيليُّ جليسٌ ضمنيٌّ. وبالجملة إنَّ كلَّ دولةٍ جاءت في عرصة الوجود؛ فإنَّما هي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن سعادة الأمم احتظاظُهم من تلك الدَّولة بتطفُّل الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات وتناولهم من حصَّتهم: (شعر)

عَلِمْتُ بِأَنِّي لَسْتُ أَلْحَقُ رَكْبَهُ ... فَيَكْفِي سَمَاعِي مِنْ وَرَاهُ نِدَاهُ

والتابعُ الكاملُ: من يكون متحلّي بهذه الدَّرجات السَّبع من المتابعة، والذي له متابعةٌ في البعض دون البعض؛ فهو تابعٌ في الجملة على تفاوت الدَّرجات، وعلماءُ الظَّاهر مسرورون بالدَّرجة الأولى، وليتهم يتمُّون تلك الدَّرجةَ أيضاً، وهم جعلوا المتابعةَ مقصورةً على صورة الشَّريعة، وظنُّوا ما وراءها أمراً آخرَ، وتصوروا طريقةَ الصوفيَّة التي هي وسيلةٌ لحصول درجات المتابعة شيئاً فرياً، ولم يعرف أكثرهم شيخاً ومقتدىً لنفسه غير «الهداية» والبِزدوي[1]:(شعر)

وَلَيْسَ لِشَيْءٍ كَامِنٍ جَوْفَ صَخْرَةٍ ... سِوَاهَا سَمَوَاتٌ لَدَيْهِ وَلَا أَرْضُ

حقَّقنا الله سبحانه وإياكم بحقيقة المتابعة المصطفويَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، وعلى جميع إخوانه من الأنبياء الكرام، والملائكة العظام، وعلى جميع أتباعهم إلى يوم القيام.

المكتوب الخامس والخمسون

إلى المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّدٍ سَعيدٍ والمَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّدٍ مَعصومٍ سلَّمهُما اللهُ تعالى، في بيانِ أنَّ القُرآنَ جامعٌ لجَميعِ الأحكامِ الشَّرعيَّة، وفي مَناقبِ الإمامِ الأعظَمِ أبي حَنيفةَ ﵁، وبيانِ أنَّ أصلَ هذا الأمرِ هو الشَّريعَة، ومَدحِ الصُّوفيَّة العَليَّة، وما يُناسبُ ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ القرآنَ المجيدَ جامعٌ لجميع الأحكام الشَّرعيّة، بل جامعٌ لجميع الشَّرائع المتقدمة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ بعضَ أحكام هذه الشَّريعة يفهم بعبارة النصّ وإشارة النصّ ودلالة النصّ واقتضاء النصّ، والعوامُّ والخواصُّ من أهل اللغة متساويةُ الأقدام في هذا الفهم، والقسمُ الآخرُ من الأحكام من قبيل ما يُفْهَمُ بتوسُّط الاجتهاد والاستنباط، وهذا الفهمُ مخصوصٌ بالأئمة المجتهدين، سواءٌ كان النبيَّ ﷺ على قول الجمهور أو أصحابَه الكرام عليهم الرضوان أو سائر مجتهدي أمته عليه الصلاة والسلام، ولكنَّ الأحكامَ الاجتهاديَّةَ في زمنه عليه الصلاة والسلام لم تكن متردِّدةً بين الخطأ والصواب لكونه أوانَ الوحي، بل كان يتميَّزُ صوابُ الحقّ من خطأ المخطئ بالوحي القطعيّ، ولم يبق الحقُّ ممتزجاً بالباطل، فإنَّ تقريرَ النبيّ وتثبيتَه على الباطل غير مجوَّزٍ، بخلاف الأحكام الحاصلة بطريق استنباط المجتهدين بعد انقراض زمان الوحي، فإنَّها متردِّدةٌ بين الخطأ والصواب، ولهذا كان الأحكامُ الاجتهاديّةُ التي صارت مقرَّرةً في زمن الوحي موجبةً لليقين المفيد للعمل والاعتقاد، وبعد زمان الوحي تكون موجبةً للظنِّ المفيد للعمل لا الاعتقاد. والقسمُ الثّالثُ: من أحكام القرآن مما يعجز عن فهمه الطاقةُ البشريةُ، وما لم يحصل الإعلامُ من جانب منزّل الأحكام جلّ سلطانه لا يتصوَّرُ فهمُ تلك الأحكام، وحصولُ ذلك الإعلام مخصوصٌ بالنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام لا يحصل لغيره، وهذه الأحكامُ وإن كانت مأخوذةً من الكتاب، ولكن لَمّا كان مظهرها نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام نسبتْ هذه الأحكامُ إلى السنَّة بالضَّرورة، كما نسبت الأحكامُ الاجتهاديَّةُ إلى القياس باعتبار أنَّ القياسَ مظهرُ تلك الأحكام، فيكون كلٌّ من السنَّة والقياس مظهراً للأحكام، وإن كان بين هذين المظهرين فرقاً كثيراً، حيث إنَّ أحدهما مستندٌ إلى الرأي الذي فيه مجالُ الخطأ، والثّاني مؤيَّدٌ بإعلام الحق جل وعلا الذي لا مجالَ فيه للخطأ، وفي القسم الأخير كمالُ..

---

(١) هذا في عصره، وإلا ففي زماننا هذا مقتدى أكثرهم الفقه الكيداني والحلبي أو الدعوى المجرد، فإنا لله وإنا إليه راجعون. من المعرب.

الشَّباهة بالأصل، وكأنَّه مُثْبتٌ للأحكام، وإن كان مثبت جميع الأحكام في الحقيقة هو الكتاب العزيز فحسب.

ينبغي أن يعلم أنَّ لغير النبي مجالَ الخلاف للنبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام في الأحكام الاجتهاديَّة إن بلغ هذا الغيرُ مرتبة الاجتهاد، والأحكامُ التي ثبتت بعبارة النصّ وإشارة النص ودلالة النصّ، وكذلك الأحكامُ التي مظهرها السنَّةُ؛ لا مجال لمخالفة أحدٍ فيها، بل اتِّباعُ تلك الأحكام لازمٌ لجميع الأمة، فمتابعةُ رأي النبي ﷺ في الأحكام الاجتهاديَّة ليست بلازمةٍ لمجتهدي الأمَّة، بل[1] الصَّوابُ في ذلك الموطن هو متابعةُ رأي نفسه.

وههنا دقيقةٌ: ينبغي أن يعلم أنَّ الأنبياءَ الذين يتَّبعون شرائع الأنبياء أولي العزم عليهم الصلاة والسلام الواجبُ عليهم هو اتِّباعُ الأحكام التي ثبتت بالعبارة والإشارة والدَّلالة من كتبهم وصحفهم، لا اتِّباعُ الأحكام التي ظهرت باجتهادهم وسننهم، فإنَّه إذا لم يلزم المتابعةُ على مجتهدي الأمّة في الأحكام الاجتهاديّة كما مرّ؛ كيف يلزم المتابعةُ على النبيّ المتابَع؟ والأحكامُ التي مظهرها سنَّةٌ كما أنَّها حاصلةٌ لأولي العزم بالإعلام؛ كذلك هي ثابتةٌ لنبيّ غير أولي العزم أيضاً بإعلامه تعالى، فما يكون المتابعةُ؟ بل لا مجالَ للمتابعة، فإنَّ على مقدار كلِّ وقتٍ ومناسبة كلِّ طائفةٍ أحكاماً على حدةٍ، تارةً يناسب الحلّ، وتارةً يناسب الحرمة، كان الإعلامُ لنبيٍّ من أولي العزم بِحِلِّيَّة أمرٍ، ولنبيٍّ آخر من غير أولي العزم بحرمته، وكلٌّ من هذا الحلّ والحرمة مأخوذٌ من صحفٍ منزلةٍ، كما أنَّ المجتهدين يأخذان من مأخذٍ واحدٍ حكمين مختلفين يفهم منه أحدهما الحلّ والآخر الحرمة.

فإن قيل: هذا الاختلاف له مجالٌ في الاجتهاد لكون مداره على الرأي الذي فيه احتمالُ الصواب والخطأ، ولكن لا مجالَ لهذا المعنى في إعلامه تعالى؛ لأنَّ كونه متردِّداً بين الخطأ والصواب غيرُ جائزٍ، بل الحكمُ عند الحقّ جل وعلا واحدٌ، فإن كان حلاً لا مجال للحرمة، وإن كان حرمةً لا مجال للحلّ.

أجيب: يجوز أن يكون بالنِّسبة إلى قومٍ حلاً، وبالنِّسبة إلى قوم آخر حرمةً، فيكون حكمُ الله تعالى متعدِّداً في واقعةٍ واحدةٍ بالنِّسبة إلى تعدُّد القوم، ولا محذورَ. نعم، هذا المعنى لا يصحُّ في أمّة خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّ كافَّةَ الأنام محكومٌ عليهم في هذه الشَّريعة بحكمٍ واحدٍ، ليس لله سبحانه فيها حكمان في واقعةٍ واحدةٍ.

فإن قيل: إذا حكم نبيٌّ من الأنبياء أولي العزم بحلِّ أمرٍ، وحكمَ نبيٌّ آخرُ متابع بالحرمة في ذلك الأمر؛ يلزم أن يكون الحكمُ الثّاني ناسخاً للحكم الأوّل، وهذا غيرُ جائزٍ، فإنَّ النسخَ مخصوصٌ بأولي العزم لا يكون غيره ناسخاً.

أجيب: إنَّ النسخَ إنّما يلزم إذا كان الحكمُ الثّاني عامّاً بالنِّسبة إلى كافة الأنام، فيرفع الحكمُ الأوّلُ الذي كان بالنِّسبة إلى قومٍ مخصوصٍ، والحكمُ الثّاني ليس بعامٍّ هنا، بل هو حكمٌ بالحرمة مثلاً بالنِّسبة إلى قومٍ مخصوصٍ، فلا منافاةَ بينه وبين الحكم الأوّل، ألا ترى أنَّ مجتهداً يحكم في واقعةٍ بالحليَّة، ويحكم مجتهدٌ آخر في عين تلك الواقعة بالحرمة، ولا نسخَ فيه أصلاً، وإن كان بين هذا وبين ذاك تفاوتاً فاحشاً، فإنَّ هنا رأيٌ، وهناك إعلامٌ، وفي الرأي مجالٌ لتعدُّد الحكم، وفي الإعلام لا مجالَ للتعدُّد، ولكن تعدُّدَ القوم يجيزُ ذلك كما مرّ، فأحكامُ الشَّرائع المتقدمة المفهومة من كتب الأنبياء أولي العزم وصحفهم بحسب اللغة........................

(١) يعني: في عصره ﷺ، وإلا فلا يجوز ذلك قطعاً لا نقلاً به يقيناً بإعلام الله تعالى كما مر آنفاً، فثبت. من المعرب.

لا مجالَ للمخالفة فيها أيضـًا للأنبياء المتابعين، بل وردت تلك الأحكامُ بالنِّسبة إلى كافة الأنام، فكلّ نبيٍّ متابعٍ إلى أيِّ قومٍ أرسلَ وأيِّ قومٍ يدعو لا يبلِّغُهم خلافَ تلك الأحكام، فإن حلاًّ؛ فللكلِّ، وإن حرمةً؛ فعلى الجميع، إلى أن يبعث نبيٌّ آخرُ من أولي العزم، فيرفع هذا الحكم، ففي هذا الوقت يتصوَّرُ النسخُ، فالنَّسخُ إنّما هو باعتبار الأحكام المأخوذة من الصُّحُف المنزلة بحسب اللُّغَة، والأحكامُ التي ثبتت بالاجتهاد والإعلام، ونُسِبَتْ إلى القياس والسنَّة؛ فالنَّسخُ غيرُ متصوَّر فيها، فإنَّ هذه الأحكامَ إنَّما هي بالنِّسبة إلى بعضٍ دون بعضٍ، فاجتهادُ نبيٍّ - وكذلك سنَّتُه - لا يكونان رافعين لاجتهاد نبيٍّ آخر وسنَّته، فإنَّ ذاك بالنِّسبة إلى قومٍ، وهذا بالنِّسبة إلى قومٍ آخرين، فإن كان اختلافُ الحكمين بالنِّسبة إلى كافَّة الأنام أو بالنِّسبة إلى قومٍ واحدٍ؛ فهو نسخٌ ألبتّة، كما أنَّ الحكمَ في شريعتنا بالنِّسبة إلى كافة الأنام، والحكمُ الثّاني ناسخٌ للحكم الأوّل، فسنَّةُ نبينا عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات اللاحقة تكون ناسخةً لسنَّته السابقة، ولا يجوز نسخُ هذه الشَّريعة بعد نزول عيسى على نبيِّنا وعليه الصَّلاةُ والسلامُ، ومتابعتُه لهذه الشَّريعة واتّباعه لسنَّة نبينا عليه الصلاة والسلام، يكاد ينكرُ علماء الظَّاهر لمجتهداته على نبينا وعليه الصلاة والسلام من كمال الدقَّة وغموض المأخذ، ويزعمونها مخالفةً للكتاب والسنَّة، ومثلُ روح الله مثلُ الإمام الأعظم الكوفي، فإنَّه - ببركة الورع والتقوى، وبدولة متابعة السنة - نال في الاجتهاد والاستنباط درجةً عليا، بحيث يعجز الآخرون عن فهمه، ويزعمون مجتهداته بواسطة دقَّة المعاني مخالفةً للكتاب والسنَّة، ويظنُّونه وأصحابَه أصحاب الرأي كلّ ذلك لعدم الوصول إلى حقيقة علمه ودرايته، وعدم الاطلاع على فهمه وفراسته، إلا أنَّ الإمامَ الشافعيَّ وجد نبذةً من دقَّة فقاهته عليهما الرضوان حيث قال: الناسُ كلُّهم عيالٌ في الفقه لأبي حنيفة، فويل لقاصري النَّظر على جراءتهم حيث ينسبون قصورهم إلى الغير: (شعر)

لَوْ عَابَهُمْ قَاصِـرٌ طَعْنـًا بِهِمْ سَـفَهـًا ... بَرِئَـتْ سَــاحَتُهُمْ عَنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ الْمُحْتَالُ سِـلْسِـلَةً ... قُيِّـدَتْ بِهَـا أُسْـدُ الـدُّنْيَـا بِـأَسْـرِهِمِ

ويمكن أن يكون ما قاله الخواجه محمد پارسا قدس سره في «الفصول الستَّة» من أنَّ عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام يعمل بعد النُّزول بمذهب الإمام أبي حنيفة بواسطة هذه المناسبة التي له ﷺ بحضرة روح الله عليه السلام، يعني: أنَّ اجتهادَ روح الله يكون موافقـًا لاجتهاد الإمام الأعظم، لا أنَّه يقلِّد مذهبَه، فإنَّ شأنَه عليه السلام أعلى وأجلُّ من أن يقلِّدَ علماءَ الأمة، ونقول من غير شائبة تكلّفٍ وتعصُّبٍ: إنَّ نورانيَّةَ المذهب الحنفيِّ تُرَى وتظهرُ في النَّظر الكشفيِّ كالبحر العظيم[1]، وسائرُ المذاهب تظهر مثل الحياض والجداول، وإذا لوحِظَ في الظَّاهر أيضـًا يوجدُ السَّوادُ الأعظمُ من أهل الإسلام متابعين لأبي حنيفة عليه الرَّحمةُ والرضوانُ، وهذا المذهبُ مع كثرة متابعيه ممتازٌ عن سائر المذاهب في الأصول والفروع، وله في الاستنباط طريقٌ على حدةٍ، وهذا المعنى منبئٌ عن الحقيقة، والعجبُ أنَّ الإمامَ أبا حنيفة أسبقُ قدمـًا من الكلّ في تقليد السنَّة، ويعتقدون الأحاديثَ المرسلةَ كالأحاديث المسندة مستحقّةً للمتابعة، ويقدِّمُها على رأيه، وكذلك يقدِّمُ قولَ الصحابة على رأيه بواسطة نيلهم شرف صحبة خير البشر عليه........................

(١) هذا قريبٌ مما ذكره الشعرانيُّ في أوائل «ميزانه». من المعرب.

وعليهم الصلوات والتسليماتُ، والآخرون ليسوا كذلك، ومع ذلك يزعمه المخالفون صاحبَ رأيٍ، وينسبون إليه ألفاظاً تنبئ عن سوء الأدب، مع أنَّ الكلَّ معترفون لكمال علمه، ووفور ورعه وتقواه، رزقهم الله سبحانه التوفيقَ لئلا يؤذوا رأسَ الدِّين، ورئيسَ أهل الإسلام والسَّوادِ الأعظمِ من المسلمين، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]، والذين يقولون لهؤلاء الأكابر أصحابَ الرَّأي، فإن اعتقدوا أنَّهم يحكمون برأيهم لا يتَّبعون الكتابَ والسنةَ؛ يكون السوادُ الأعظمُ من أهل الإسلام بزعمهم الفاسد ضالين مبتدعين، بل يكونون خارجين من زمرة أهل الإسلام، ولا يعتقدُ ذلك إلا جاهلٌ ليس له خبرٌ عن جهله، أو زنديقٌ مقصودُه إبطالُ شطر الدين، وما أعظمَ جهالةَ ناقصٍ جمع أحاديث معدودةً، وجعل أحكام الشَّريعة منحصرةً فيها، وطفق ينفي ما وراء معلومه، ويجعل ما لم يثبتْ عنده منفيّاً: (شعر)

وَلَيْسَ لِشَيْءٍ كَامِنٍ جَوْفَ صَخْرَةٍ   سِوَاهَا سَمَوَاتٌ لَدَيْهِ وَلَا أَرْضُ

ويلٌ لهم ألف مرةٍ على تعصباتهم الباردة وأنظارهم الفاسدة، فإنَّ باني الفقه هو أبو حنيفة، وقد سلَّموا له في ثلاثة أرباع الفقه، واشترك الباقون في الربع الباقي، وهو صاحبُ البيت في الفقه، وغيرُه كلُّهم عيالٌ له، ومع وجود التزام هذا المذهب كان لي مع الإمام الشَّافعيّ محبَّةٌ ذاتيّة، وأعتقدُه عظيماً، ولهذا أقلِّدُ مذهبه في بعض الأعمال النافلة، ولكن ماذا أصنع؟ أجد الآخرين في جنب الإمام أبي حنيفة مع وجود وفور العلم وكمال التقوى كالأطفال، والأمرُ إلى الله سبحانه المتعال.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: قد سبق أنَّ اختلافَ الأحكام الاجتهاديَّة ليست بمستلزمةٍ للنَّسخ، وإن صَدَرَ ذلك الاختلافُ من نبيٍّ، بخلاف الاختلاف الواقع في أحكام الكتاب والسنَّة، فإنَّه موجبٌ للنَّسخ كما مرَّ تحقيقه أيضاً، فتقرَّر أنَّ المعتبرَ في إثبات الأحكام الشَّرعيّة: هو الكتابُ والسنّةُ، وقياسُ المجتهدين وإجماعُ الأمة أيضاً مثبتان للأحكام، وبعد هذه الأدلَّة الأربعة الشَّرعيّة لا يكون شيءٌ من الدَّليل مثبتاً للأحكام أصلاً، لا يكون الإلهامُ مثبتاً للحلّ والحرمة، ولا كشفُ أرباب الباطن للفرض والسنة، وأربابُ الولاية الخاصَّة مساويةٌ لعامّة المؤمنين في تقليد المجتهدين، لا يوجبهم الكشوفُ والإلهاماتُ مزيةً على غيرهم في ذلك، ولا يخرجهم عن ربقة التَّقليد فيما هنالك، وذو النون والبسطاميُّ والجنيدُ والشبليُّ مساوون لزيدٍ وعمرو وبكرٍ وخالدٍ الذين هم من عوامّ المؤمنين في تقليد المجتهدين في الأحكام الاجتهادية.

نعم، إنَّ مزيةَ هؤلاء الأكابر في أمورٍ أخرى، وهم أصحابُ الكشوف والمشاهدات، وهم أيضاً أربابُ التجلِّيات والظهورات، قد انقطعوا بواسطة استيلاء محبَّة المحبوب الحقيقيّ عما سواه جلّ سلطانه، وعتقوا عن رؤية الغير وإدراك الغيريَّة، فإن كان لهم حاصلٌ؛ فهو هو سبحانه، وإن كانوا واصلين؛ فإليه تعالى، وهم في العالم بلا عالمٍ، ومع أنفسهم بلا أنفسهم، فإن عاشوا يعيشون لأجله، وإن ماتوا يموتون لأجله، ومبتدئهم يشاهد المطلوبَ بواسطة غلبة المحبَّة في مرآة كلِّ ذرةٍ من ذرات العالم، ويجد كلَّ ذرةٍ جامعاً لجميع الكمالات الأسمائية والصِّفاتية، فما أبدي من علامات منتهيهم، فإنَّهم لا علامةَ لهم؟ وأوَّلُ قدمهم نسيان السِّوَى، فما أُظْهِرُ من قدمهم الثَّاني، فإنَّه في خارج الآفاق والأنفس؟ والإلهامُ لهم،..

والكلامُ معهم، أكابرهم يأخذون العلومَ والأسرارَ من الأصل بلا توسُّطٍ، وكما أنَّ المجتهدَ تابعٌ لرأيه واجتهاده؛ هم أيضاً تابعون في المعارف والمواجيد لإلهامهم وفراستهم، كتب حضرة الخواجه محمد پارسا قدس سره: أنَّ روحانيَّةَ الخضر على نبينا وعليه الصلاة والسلام متوسِّطةٌ في إفاضة العلوم اللدنيَّة، والظَّاهرُ أنَّ هذا الكلامَ بالنِّسبة إلى الابتداء والتوسُّط، ومعاملةُ المنتهي شيءٌ آخر كما يشهد به الكشفُ الصريحُ، ويؤيد هذا التحقيقَ ما نقل عن الشَّيخ عبد القادر الجيلانيّ قدس الله تعالى سره من أنَّه كان يوماً يبيِّن العلومَ والمعارفَ على رأس المنبر، فمرَّ عليه الخضرُ في ذلك الأثناء، فقال له الشَّيخُ: أيُّها الإسرائيليُّ، تعال اسمع كلام المحمديّ[1]، يفهم من عبارة الشَّيخ هذه أنَّ الخضرَ ليس من المحمديين، بل من الملل السابقة، فإذا كان كذلك كيف يكون واسطةً للمحمديين؟

فتحقّق أنَّ العلومَ والمعارفَ شيءٌ آخر ما وراء الأحكام الشَّرعيّة، وأهلُ الله مخصوصون بها، وإن كانت تلك المعارفُ ثمراتِ هذه الأحكام ونتائجَها، والمقصودُ من غرس الأشجار: حصولُ الثمار، وما دامت الأشجارُ قائمةً الثمار متوقَّعةً، فإذا تطرَّقَ الخللُ إلى أصل الأشجار؛ فقد انعدم الأثمارُ، وما أعظم حماقةَ من يقلّع الشجر وتتوقَّع الثمرَ، وكلّما يحسنُ تربية الأشجار يحصل منها جيّد الأثمار أكثرَ وأوفرَ، والثمرةُ وإن كانت مقصودةً، ولكنَّها فرعُ شجرةٍ، فينبغي أن يقيس ملتزمُ الشَّريعة والمداهن في الشَّريعة على هذا المعنى، فالذي فيه التزامُ الشَّريعة؛ فهو صاحبُ معرفةٍ، وكلّما كان الالتزامُ أكثرَ تكون المعرفةُ أوفرَ، والذي هو مداهنٌ لا نصيبَ له من المعرِفة، وما فيه منها بزعمه الفاسد بالفرض، وإن لم يكن شيئاً في الحقيقة، فهو من قبيل الاستدراج الذي فيه شركةٌ للجوكية والبراهمة، كلُّ حقيقةٍ ردَّته الشَّريعة؛ فهي زندقةٌ وإلحادٌ، فيجوز أن يفهم خواصُّ أهل الله في معارف تتعلّق بذاته وصفاته وأفعاله تعالى بعضَ الأسرار والدقائق التي ظاهرُ الشَّريعة ساكتٌ عنها، وأن يجدوا الإذنَ وعدم الإذن منه تعالى في الحركات والسكنات، وأن يعرفوا مرضيَّه وغيرَ مرضيِّه سبحانه، وكثيراً ما يجدون أداءَ بعض العبادة النافلة غيرَ مرضيٍّ، ويكونون مأذونين بتركه، ويفهمون أحياناً أولويَّةَ النوم من اليقظة، الأحكامُ الشَّرعيّةُ مؤقَّتةٌ بالأوقات، والأحكامُ الإلهاميّةُ ثابتةٌ في جميع الأوقات، فإذا كان حركاتُ هؤلاء الأكابر وسكناتهم مربوطة بالإذن؛ تكون النوافلُ عند غيرهم فرائضَ عندهم، مثلاً: الفعلُ الواحدُ نفلٌ بالنِّسبة إلى شخصٍ بحكم الشَّريعة، وفرضٌ بالنِّسبة إلى شخصٍ آخر بحكم الإلهام، فالآخرون يؤدُّون النَّوافل أحياناً، ويرتكبون الأمورَ المباحةَ أحياناً، وهؤلاء الأكابرُ - لصدور أفعالهم بأمر المولى وإذنه - تكون أفعالُهم كلُّها من الفرائض، والمستحبُّ والمباحُ عند غيرهم فرضٌ عندهم، ليدرك علوُّ شأن هؤلاء الأكابر من ههنا، وعلماءُ الظَّاهر يخصُّون الإخبارات الغيبيّة في أمور الدُّنيا بالأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، لا يُشْرِكون غيرهم في تلك الإخبارات، وهذا المعنى منافٍ للوراثة، ونفيٌ لكثير من العلوم والمعارف الصحيحة التي تتعلّق بالدين المتين.

نعم، الأحكامُ الشَّرعيّةُ مربوطةٌ بالأدلَّة الأربعة، لا مجالَ فيها للإلهام، ولكنَّ الأمورَ الدينيةَ وراءَ الأحكام الشَّرعيّة كثيرةٌ، والأصلُ الخامسُ فيها إلهامٌ، بل يمكن أن يقال: الأصلُ الثَّالثُ إلهامٌ، وبعد الكتاب والسنَّة هذا الأصلُ قائمٌ وثابتٌ إلى انقراض العالم، فما تكون نسبةُ الآخرين لهؤلاء الأكابر؟ وربَّما تصدر العبادةُ عن..........

(١) نقل: أنَّ الخضر جاء منزل المظهر الشهيد، وقال له: ماذا تريد؟ فقال له المظهر الشهيدُ: لا حاجة لي إليك، فإنَّ شيخي السيدَ يكفيني في كلِّ ما أريد. من المعرب.

الآخرين وتكون غيرَ مرضيَّةٍ، وهؤلاء الأكابر يتركون العبادةَ في بعض الأحيان، ويكون ذلك التركُ مرضياً، فكانت تركُهم أفضلَ عند الحق جل وعلا من فعل غيرهم، والعوامُ حاكمون بخلاف ذلك، يعتقدون ذلك عابداً، وهذا مكّاراً ومعطلاً.

فإن قيل: لَمّا كان الدينُ كاملاً بالكتاب والسنة؛ فما الحاجةُ بعد الكمال إلى الإلهام؟ وأيُّ نقصانٍ بقي حتى يتكامل بالإلهام؟

أجيب: الإلهامُ مظهرُ الكمالات الخفية للدين، لا مثبت الكمالات الزائدة في الدين، كما أنَّ الاجتهادَ مظهرٌ للأحكام، الإلهام مظهرٌ للدقائق والأسرار التي فهمُ أكثر الناس قاصرٌ عنها، وإن كان بين الاجتهاد والإلهام فرقٌ واضحٌ لكون ذلك مستنداً إلى الرأي، وهذا إلى خالق الرأي جل سلطانه، فظهر في الإلهام قسمٌ من الأصالة ليس هو في الاجتهاد، والإلهامُ شبيهٌ بإعلام النبي الذي هو مأخذُ السنة كما مرّ، وإن كان الإلهامُ ظنيّاً والإعلامُ قطعيّاً؟ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠]. والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السادس والخمسون

إلى مولانا عَبدِ القادرِ الأَنْـبَالِيّ في بيانِ أنَّ مُعامَلَة العارفِ تَبلُغ مَرتَبةً يَكونُ حُكْمُ سيِّئاتِ الآخَرينَ بالنِّسبَة إليه حسَناتٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]، تبلغ معاملةُ العارف بعناية الله سبحانه وحرمة حبيبه عليه الصلاة السلام مرتبةً تصير سيئاتُ الآخرين في حقّه حسناتٍ، وتكون الصِّفةُ الرذيلةُ بالنِّسبة إلى غيره حميدةً بالنِّسبة إليه، مثلاً: الرِّياءُ والسُّمعةُ من السيئات، ومن رذائل الأوصاف، يعرض لهما في حقّه الحسنُ، وتأخذان حكمَ الحمد والشُّكر، فإنَّ ذلك الدَّرويشَ قد سلب عن نفسه جميع أقسام العظمة والكبرياء، ونسبها إلى جناب قدس الحق جلّ سلطانه، وأَبْعَدَ عن نفسه جميع أنواع الحسن والجمال والخير والكمال، وخصَّصَها به سبحانه وتعالى، لا يجد نفسه غيرَ شرٍّ ونقصٍ، ولا يرى في نفسه غيرَ ذلٍّ وافتقارٍ وانكسارٍ، فإن كان فردٌ من أفراد الكمال فرضاً متوجّهاً في الظَّاهر؛ يجده مرقاةً يترقّى منها إلى فوق، ويصل إلى جنابٍ يليق بالعظمة والكبرياء، وهكذا حالُ الحسنِ والجمال والخير والكمال ليس له نصيبٌ منها غير أن تكون هذه الأشياءُ مراقي لترقِّيه، والأماناتُ راجعةٌ إلى أهل الأمانات، ففي صورة الرياء والسُّمعة ليس مقصودُه الاشتهارَ والافتخارَ والرفعةَ والعظمةَ، بل إظهارُ نعمة الحق، وإعلامُ إحسانه سبحانه وتعالى إليه، فكان الرياءُ والسمعةُ عينَ حمد الحق وشكره تعالى وتقدس، وخرجا من الرذالة إلى المحمدة، وعلى هذا القياس سائر الصِّفات، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠]. والسلام.

المكتوب السابع والخمسون

إلى المُلّا غازِي النَّائبِ في بيانِ أنَّ ذكرَ الحَقِّ جلَّ وعلا أَوْلَى منَ الصَّلَواتِ على خَيرِ البَشرِ عليهِ وعلى آله الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكن بشَرطِ أن يَكونَ الذِّكرُ حَقيقاً بالقَبولِ، ومُتَلقّىً من شَيخٍ مقتَدىً، وما يُناسِبُ ذلك.

قد كنت أوقاتاً مشغولاً بصلاة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بأنواعها وأقسامها، ووجدتها تترتَّبُ عليها نتائجُ وثمرات عاجلةٌ، واهتديت بها لدقائق الولاية الخاصَّة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية وأسرارها، ولَمّا مضت مدّةٌ على هذا العمل........................

وقع الفتورُ في هذا الاشتغال اتفاقًا، وزال توفيقُ المواظبة عليه، ووقع الاقتصارُ على صلواتٍ مؤقتةٍ، واستحسن لي في هذا الوقت الاشتغالُ بالتسبيح والتقديس والتهليل بدل الصلوات، فقلتُ: ولعل في هذا الأمر حكمة، أنظر ماذا يظهر، فعلم أخيراً بعناية الله تعالى أنَّ الذِّكرَ في هذا الوقت أفضلُ من الصلوات في حقِّ من يصلي وفي حقِّ من يصلَّى عليه، وذلك من وجهين: أحدهما: ما ورد في الحديث القدسيّ: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»[(1)]، والوجهُ الثّاني: هو أنَّ الذِّكرَ مأخوذٌ من النبيّ ﷺ، فكما أنَّ ثوابَ ذلك الذِّكْر يصل إلى الذَّاكر؛ يصل إليه ﷺ أيضًا مثل ذلك الثواب، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**»، وكذلك كلُّ عملٍ صالحٍ حاصلٌ من الأمة، كما أنَّ أجرَه يصل إلى العامل؛ يصل أيضًا مقدارُ ذلك الأجر إلى النبيّ الذي هو واضعُ ذلك العمل وشارعُه، من غير أن ينقص من أجر العامل شيءٌ، ولا يلزم أن يعمل العاملُ عمله بنية النبي، فإنَّه عطاءُ الحق جل سلطانه، لا صنعَ للعامل فيه. نعم، إن وجدت النيةُ للنبيّ أيضًا من العامل يكون باعثًا على ازدياد أجر العامل، وهذه الزِّيادةُ أيضًا تعود إلى النبي. ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١]. ولا شكَّ أنَّ المقصودَ الأصليَّ من الذكر: هو تذكُّرُ الحقّ سبحانه، وطلبُ الأجر طفيليٌّ له، وفي الصلاة المقصودُ الأصليُّ: هو طلبُ الحاجة، شتّان ما بينهما، فالفيوضُ التي تصل إلى النبي ﷺ من طريق الذكر تكون زائدةً بأضعاف على البركات التي تصل إليه ﷺ من طريق الصلوات، ينبغي أن يعلم أنَّ هذه الرتبةَ ليست هي لكلِّ ذكرٍ، بل هي مخصوصةٌ بالذكر الذي حقيقٌ بالقبول، والذكرُ الذي ليس كذلك؛ فللصلاة مزيةٌ عليه، ووصولُ البركات منها حينئذٍ أكثرُ توقُّعًا، ولكنَّ الذكرَ الذي أخذه الطالبُ عن شيخٍ كاملٍ مكمّلٍ، وداوَمَ عليه بشرائط الطَّريقة أفضلُ من الصلاة، فإنَّ هذا الذِّكْرَ وسيلةُ ذاك الذكر، وما لم يشتغل بهذا الذكر لا يصل إلى ذاك الذكر، ومن ههنا لم يجوِّز مشائخ الطَّريقة قدس الله تعالى أسرارهم اشتغالَ المبتدئ بغير الذكر، وأمروه بالاقتصار على الفرائض والسنن، يعني: الرواتب، ومنعوه من الأمور النافلة، ولاح من هذا البيان أنَّه لا تحصلُ لفردٍ من أفراد الأمة - وإن بلغ في الكمالات درجةً عليا - مساواةٌ لنبيه، فإنَّ جميع تلك الكمالات التي حصلت له إنّما هي بواسطة متابعته لشريعة ذلك النبيّ، فتكون هذه الكمالاتُ كلُّها أيضًا ثابتةً لذلك النبيّ مع كمالات متابعيه الأُخَر، ومع كمالاته المخصوصة به عليه الصلاة والسلام، وكذلك لا يصل هذا الفردُ الكاملُ إلى مرتبةِ نبيٍّ أصلاً، وإن لم يتبع لهذا النبيّ أحدٌ، ولم يقبل دعوته، فإنَّ كلّ نبيٍّ صاحبُ دعوةٍ بالأصالة، ومأمورٌ بتبليغ الشَّريعة، ولا يستلزم إنكارُ الأمم قصوراً في الدعوة والتبليغ، ومن البيِّن الظَّاهر أنَّه لا يبلغ كمالٌ أصلاً مرتبةَ الدعوة والتَّبليغ، فإن أحبَّ عباد الله إلى الله من أحبَّ اللهَ إلى عباده، وأحبَّ عباد الله إلى الله، وهو الدَّاعي والمبلِّغ، ولعلَّك سمعتَ ما ورد في الخبر: أنَّه يوزن مدادُ العلماء يوم القيامة بدم الشهداء في سبيل الله، فيترجَّحُ مدادُ العلماء على دم الشهداء، وهذه الدَّولةُ لم تتيسّر للأمة، وما هو حاصلٌ فيهم؛ فهو طفيليٌّ وضمنيٌّ، الأصلُ أصلٌ، والفرعُ مستنبطٌ، ينبغي أن يدرك من ههنا فضلُ أعيان هذه الأمة ومبلغيهم، وإن كان في الدَّعوة والتَّبليغ درجاتٌ، والأعيان ....

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١١٥)، والبزار في «مسنده» (١٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٧) من حديث عمر بن الخطاب.

والمبلغون متفاوتون في الدَّرجات، العلماءُ مخصوصون بتبليغ الظَّاهر، والصوفيَّةُ يهتمون بالباطن، والذي هو عالمٌ صوفيٌّ كبريتٌ أحمرُ، ومستحقٌّ للدعوة والتَّبليغ ظاهراً وباطناً، ونائبُ النبيّ ووارثُه عليه وعلى آله الصلاة والسلام. واعتقد جماعةٌ أنَّ محدِّثي هذه الأمة الذين يبلغون الأحاديث النبوية عليه الصلاة والسلام أفضل هذه الأمة، فإن اعتقدوا أنَّهم أفضلُ مطلقاً؛ فمحلُّ خدشةٍ، وإن اعتقدوا ذلك بالنِّسبة إلى مبلغي الظَّاهر؛ فله مساغٌ، والفضلُ المطلقُ إنّما هو للمبلِّغ الجامع بين تبليغ الظَّاهر والباطن، والدَّعوةِ الظَّاهرة والباطنة؛ لأنَّ في الاقتصار قصوراً ينافي إطلاقَ الفضل. فافهم ولا تكن من القاصرين. نعم، إنَّ الظَّاهرَ وإن كان عمدةً ومناطاً للنجاة وكثيرَ البركة وعميمَ المنفعة، ولكنَّ كمالَه مربوطٌ بالباطن، والظَّاهرُ بلا باطنٍ غيرُ تامٍّ، والباطنُ بلا ظاهرٍ غيرُ معتدٍّ به، والذي يجمع بين الظَّاهر والباطن كبريتٌ أحمرُ. ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]. والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الثامن والخمسون

إلى الخواجه محمَّدٍ التَّقيِّ في جَوابِ استِفسَارِه عن عَالَمِ المِثالِ، وفي رَدِّ جَماعةٍ يَقولونَ بالتَّناسُخِ، وبَيانِ الكُمونِ والبُروزِ، ومَا يُناسِبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وآله الطاهرين.

قد تشرَّفنا بمطالعة الصَّحيفة الصَّادرة من حسن النَّشأة وعلوّ الفطرة على وجه الالتفات سلمكم الله تعالى، وكتبتم فيها أنَّه نقل الشَّيخُ محيي الدين ابن العربيّ قدس سره حديثاً في «فتوحاته المكية»: أنَّ النبيّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ مِائَةَ أَلْفِ آدَمَ**»، وأورد حكايةً في بعض مشاهدات عالم المثال أنَّه قد ظهر في وقت طواف الكعبة المعظمة أنَّ جمعاً يطوفون بالبيت وأنا لا أعرفهم، وأنشدوا في أثناء الطواف بيتين عربيين أحد هذين البيتين هذا: (شعر)

لَقَدْ طِفْنَا كَمَا طِفْتُمْ سِنِينَا ... بِهَذَا البَيْتِ طُرّاً أَجْمَعِينَا

ولما سمعتُ هذا البيت وقع في الخاطر أنَّ هؤلاء من عالم المثال، فنظر أحدهم إلى جانبي مقارناً لهذا الخطور، وقال: أنا من جملة أجدادك، فسألته: إنَّه كم مضى من فوتك؟ قال: أزيدُ من أربعين ألف سنةً، فقلت على وجه التعجُّب: إنَّه لم يتمَّ من ابتداء خلقة آدم أبي البشر على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى الآن سبعة آلاف سنة، قال: من أيّ آدم تقول؟ إنَّ هذا هو ذاك آدم الذي خلق في أوَّل دور سبعة آلاف، قال الشَّيخُ: فوقع في الخاطر في ذلك الوقت أنَّ الحديثَ النبويَّ الذي سبق ذكرُه مؤيّدٌ لهذا القول.

أيُّها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ ما ظهر لهذا الفقير في هذه المسألة بعناية الله سبحانه هو أنَّ جميع الأوادم الذين مضوا قبل وجود حضرة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان وجودُهم في عالم المثال، لا في عالم الشَّهادة، والذي وُجِدَ في عالم الشهادة، ونال الخلافةَ في الأرض، وصار مسجودَ الملائكة هو حضرةُ آدم أبو البشر فحسب.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ آدم لَمّا كان مخلوقاً على صفة الجامعية، وله في حقيقته لطائف وأوصافٌ كثيرةٌ؛ كان يوجد صفةٌ من صفاته أو لطيفةٌ من لطائفه في كلِّ وقتٍ من الأوقات قبل وجوده بشخصه بقرونٍ متطاولةٍ بإيجاد الحقّ سبحانه، وتظهر بصورة آدم، وتسمى باسمه، وكان يقع منها ما سيقع من آدم المنتظر حتى ظهر منها توالدٌ وتناسلٌ مناسبٌ لعالم المثال، ونالت كمالاتٍ صوريَّةً ومعنويةً مناسبةً لذلك العالم، وصارت مستحقّةً للثواب والعقاب، بل قامت القيامةُ في حقّها،............

وذهب الجنتيُّ إلى الجنَّة، والجهنميُّ إلى جهنم، ثم ظهرت بعد ذلك في وقتٍ من الأوقات بمشيئة الله سبحانه صفةٌ أخرى من صفاته أو لطيفةٌ أخرى من لطائفه على نبينا وعليه الصلاة والسلام في ذلك العالم، وظهر منها ما ظهر من الأولى، ولَمّا تمَّ دَوْرُها أيضـاً؛ ظهر ظهورٌ ثالثٌ من صفاته ولطائفه على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولما أتمَّ ذلك الظُّهورُ أيضـاً دَوْرَه؛ ظهر ظهورٌ رابعٌ، وهكذا إلى ما شاء الله تعالى.

ولما تمت دوائرُ ظهوراته المثاليَّة التي تتعلّقُ بصفاته ولطائفه؛ وُجِدَتْ آخرَ الأمر هذه النُّسخةُ الجامعةُ في عالم الشَّهادة بإيجاد الله جلّ سلطانه، وصارتْ معزَّزةً ومكرّمةً بعنايته تعالى، فإن وُجِدَ مائةُ ألف آدم؛ فليسوا إلا أجزاءَ آدم هذا ومواده ومقدّمات وجوده ومبادئه، وجدُّ الشَّيخ الأكبر الذي مضى من فوته أزيدُ من أربعين ألف سنة كان لطيفةً في عالم المثال من لطائف جدّه، فإنَّ الشَّيخَ الذي كان له وجودٌ في عالم الشَّهادة طاف بالبيت وقتئذٍ في عالم المثال، فإنَّ للكعبة المعظَّمة أيضاً صورةً وشبهـاً في المثال هي قبلةٌ لأهل ذلك العالم، والفقيرُ أرسلت نظري في هذا الباب بعيداً بعيداً، وتعمَّقتُ فيه كثيراً، فلم يقع نظري إلى آدم آخر في عالم الشهادة، ولم أَجِدْ غير شعابذة عالم المثال، وما قاله البدنُ المثاليّ - أعني: قوله: أنا من جملة أجدادك، ومضى من فوتي أزيدُ من أربعين ألف سنة - أدلُّ دليلٍ على أن الأوادم الذين كان وجودهم قبل وجود آدم أبو البشر عليه السلام كانوا من ظهورات صفات آدم ولطائفه عليه السلام، لا أنَّه كانت لهم خلقةٌ على حدةٍ مباينةٌ لخلقة آدم هذا، فإنَّه ما نسبةُ المباين لآدم هذا؟ وكيف يكون جدَّ الشَّيخ؟ فإنَّه لم يَتِمَّ سبعة آلاف سنة بعدُ من خلقة آدم، فأين المساغُ لأربعين ألف سنة؟ والذين في قلوبهم مرض يفهمون من هذه الحكاية تناسخـاً، ويكادون يقولون بقدم العالم، وينكرون القيامةَ الكبرى، وبعضُ الملاحدة الذين جلسوا في مسند الشَّيخوخة بالباطل يحكمون بجواز التناسخ، ويزعمون أنَّ النَّفسَ ما لم تبلغ حدَّ كمالها لا بُدَّ لها من التقلُّب في الأبدان، ويقولون: إنَّها إذا بلغت حدَّ الكمال؛ فقد فرغت من التقلُّب في الأبدان، بل من التعلّق بالأبدان، والمقصودُ من خلقتها كمالُها، فإذا تيسّر كمالها؛ فقد حصل المقصودُ، وهذا القولُ كفرٌ صريحٌ، وإنكار على ما ثبت من الدين بالتواتر، فإنه إذا بلغت كلُّ النفوس حدَّ الكمال في الآخر لمن تكونُ جهنَّم؟ ومن يكون معذَّبـاً؟

وقولهم هذا إنكارٌ لجهنم، وإنكارٌ للعذاب الأخرويّ، وإنكارٌ أيضـاً لحشر الأجساد، فإنَّه لم يبقَ للنَّفس - بزعمهم الفاسد - احتياجٌ إلى الجسد الذي هو آلةٌ لكمالاتها حتى تحشر الأجسادُ، واعتقادُ هذه الجماعة موافقٌ لاعتقاد الفلاسفة، فإنَّهم ينكرون حشرَ الأجساد، ويقولون بالثواب والعذاب الروحانيين، بل اعتقادهم أسوأُ من اعتقاد الفلاسفة، فإنَّهم ينكرون التناسخَ، ويردُّون قولَ من يقول به، ويثبتون العذابَ الروحانِيَّ، وهؤلاء يثبتون التناسخَ، وينكرون العذابَ الأخرويَّ، والعذابُ عند هؤلاء هو عذابُ الدنيا، وإنَّما يثبتونه لأجل تهذيب النَّفس.

فإن قيل: قد نقل عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وبعض أولياء الله أيضـاً غيره: أنَّه وقع عنهم بعض أعمال غريبةٍ وأفعال عجيبةٍ قبل وجودهم العنصريّ بقرونٍ متطاولةٍ في عالم الشهادة، فكيف يصحُّ ذلك بدون تجويز التَّناسخ؟

أجيب: إنَّ صدورَ هذه الأعمال والأفعال إنّما هو من أرواح هؤلاء الأكابر صارت متجسدةً بالأجساد بمشيئة الله تعالى، وباشرت الأفعالَ العجيبةَ، لا من أجسادٍ أخرَ.........................

تعلّقت أرواحهم بها، والتناسخُ هو تعلّقُ روحٍ قبل تعلّقه بهذا البدن ببدنٍ آخر مباينٍ ومغايرٍ لهذا البدن، فإذا تجسدت الروحُ بنفسه؛ كيف يكون تناسخاً؟ ألا ترى أنَّ الجنَّ يتشكَّلُ بأشكالٍ مختلفةٍ، ويتجسَّدُ بأجسادٍ متباينةٍ، ويقع عنهم في هذا الحال أعمالٌ عجيبةٌ مناسبةٌ لتلك الأشكال والأجساد، ولا تناسخَ فيه أصلاً ولا حلولَ؟ فإذا كان في الجنِّ بإقدار الله تعالى قدرةُ التشكُّل بالأشكال، ووقوع الأعمال الغريبة منهم، كيف يكون إعطاءُ تلك القدرة لأرواح الكُمَّل محلَّ تعجُّبٍ؟ وما الحاجةُ إلى بدنٍ آخر؟ ومن هذا القبيل ما نقل عن بعض أولياء الله تعالى من أنّهم يحضرون في أمكنةٍ متعددةٍ في ساعةٍ واحدةٍ، ويقع عنهم أمور متباينةٌ، وههنا أيضاً لطائفهم متشكلةٌ بأشكالٍ متباينةٍ ومتجسدةٌ بأجسادٍ مختلفةٍ، وكذلك حال من هو متوطّنٌ في الهند من الأعزة، ولم يخرج من وطنه، فجاء جماعةٌ من مكة المعظمة، وقالوا: رأينا الشَّيخَ الفلانيَّ في حرم مكة المكرّمة مشيرين إلى ذلك الشَّخص من الأعزة، وجرى بيننا وبينه كيت وكيت، وقالت جماعةٌ أخرى: نحن رأيناه في الروم، ورآه طائفةٌ أخرى في بغداد، كلُّ ذلك تشكُّلُ لطائف ذلك الشَّيخ بأشكال مختلفةٍ، وربما لا يكون لذلك الشَّيخ اطلاعٌ على هذه التشكلات، ولهذا يقول في جواب هذه الجماعات أحياناً: كلُّ ذلك تهمةٌ عليّ، أنا لم أخرج من البيت، ولم أرَ حرمَ مكة، ولا أعرف الرومَ وبغداد، ولا أدري من أنتم، وكذا أربابُ الحاجات يستمدُّون من الأعزة الأحياء والأموات في المخاوف والمهالك، ويرون أنَّ صورَ هؤلاء الأعزَّة قد حضرت ودفعت عنهم البليَّةَ، فأحياناً يكون لهؤلاء الأعزة اطّلاعٌ على ذلك، وأحياناً لا:

(ع) فهَلْ لَنا ولَكُمْ شَيْءٌ سِوَى نَسَبِ

وهذا أيضاً تشكُّلُ لطائف هؤلاء الأعزة، وهذا التشكُّلُ يكون أحياناً في عالم الشهادة، وأحياناً في عالم المثال، كما أنَّ ألفَ إنسانٍ يرون النبيَّ ﷺ في المنام في ليلةٍ واحدةٍ بصورةٍ مختلفةٍ، ويستفيدون منه ﷺ أشياء، هذا كلُّه تشكُّلُ صفاته ولطائفه ﷺ، وكذلك المريدون يستفيدون من صور الشيوخ المثالية أشياء، ويحلون المشكلات، والكمونُ والبروزُ اللذان نقلا عن بعض المشائخ لا مساسَ لهما بالتَّناسخ، فإنَّ تعلّقَ الروح بالبدن الثّاني في التناسخ إنّما هو لثبوت الحياة، ولأجل حصول الحسّ والحركة لذلك البدن، وفي البروز ليس تعلّقُ النَّفس ببدنٍ آخر لأجل حصول الغرض، بل المقصودُ من هذا التعلّق: هو حصولُ الكمالات لذلك البدن، ووصولُه إلى الدَّرجات، كما أنَّ جنيّاً إذا تعلّقَ بفرد من أفراد الإنسان، وبرز في شخصه؛ ليس ذلك التعلّقُ لأجل حصول الحياة لذلك الفرد، فإنَّه حيٌّ وحساسٌ ومتحرِّكٌ قبل ذلك التعلّق، والذي يحدث فيه من هذا التعلّق هو ظهورُ صفات ذلك الجنيّ وحركاته وسكناته، والمشائخ المستقيموا الأحوال لا يتفوهون بعبارة الكمون والبروز، ولا يرمون به النَّاقصين في البلاء والفتنة، لا حاجة عند الفقير إلى الكمون والبروز أصلاً، بل لو أراد كاملٌ أن يربِّي ناقصاً ينبغي أن يجعل بإقدار الله تعالى صفاته الكاملةَ منعكسةً في المريد الناقص، وأن يجعل ذلك الانعكاسَ ثابتاً ومستقرّاً؛ ليخرج المريدُ النَّاقصُ من النَّقص إلى الكمال، ويميلَ من الصِّفات الرَّذيلة إلى الصِّفات الحميدة، من غير أن يكون في البين كمونٌ وبروزٌ أصلاً، ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال بعضٌ آخر ....

بنقل الأرواح، يقولون: إنَّه يحصـلُ للروح بعد الكمال قدرةٌ بحيث تتركُ بدنها لو شـاء، وتدخلُ في بدنٍ آخر، نقل أنَّ واحداً من الأعزَّة الذي كان له هذا الكمالُ وهذه القدرةُ لَمّا توفي في جواره شابٌّ ترك بدن نفسه الذي كان قد أدرك سنَّ الشَّيخوخة، ودخل في بدن ذلك الشاب، فصار بدنُه الأوّلُ ميتاً، وبدنُ الشّابّ حيّاً، وهذا القولُ مستلزمٌ للتناسخ؛ لأنَّ تعلّقَ الروح بالبدن الثّاني على هذا التّقدير إنّما هو لحصول الحياة لذلك البدن، وإنَّما الفرق بين هذا وبين التناسخ: أنَّ القائلَ بالتناسـخ حاكمٌ بنقص النَّفس، ويثبت التَّناسـخَ لأجل تكميلها، والذي هو قائلٌ بنقل الروح يعتقد الروحَ كاملاً، ويثبت الانتقالَ بعد كمال الروح، وعند الفقير القولُ بانتقال الروح أسـقطُ من القول بالتَّناسـخ، فإنَّ القائلَ بالتناسخ اعتبر التناسخَ لأجل تكميل النفوس، وإن كان هذا الاعتبار باطلاً، وزعم انتقال الروح بعد حصول الكمال وإن لم يكن كمالٌ أصـلاً، فإذا تقرَّرَ كونُ تبدل الأبدان لأجل تحصـيل الكمالات؛ فلأيِّ شـيءٍ يكون الانتقالُ إلى بدن آخر بعد حصـول الكمال؟ وأهلُ الكمال ليسـوا بأرباب الهوس، بل همَّتُهم بعد حصـول الكمال التجرُّدُ عن الأبدان، لا التعلّقُ بالأبدان، فإنَّه قد حصل ما هو المقصودُ من التعلّق. وأيضـاً إنَّ في انتقال الروح إماتةَ البدن الأوّل، وإحياءَ البدن الثّاني، فلا بدَّ للبدن الأوّل من حصول أحكام البرزخ كعذاب القبر وثوابه، والبدنُ الثّاني لما أثبتوا له الحياةَ الثّانيةَ ثبت في حقّه الحشرُ في الدنيا، وأظنُّ أنَّ معتقدي انتقال الروح لا يقولون بعذاب القبر وثوابه، ولا يعتقدون الحشـرَ والنشـرَ، فآهٍ ألف آه، حيث إنَّ أمثالَ هؤلاء البطّالين جلسوا في مسند الشَّيخوخة، وصاروا مقتدىً بهم لأهل الإسلام، ضلُّوا فأضلوا. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

تذييلٌ في بيان بعض العلوم والمعارف التي تتعلّق بعالم المثال: ينبغي أن يعلم أنَّ عالمَ المثال أوسعُ من جميع العوالم، وكلُّما هو في جميع العوالم له صورةٌ في عالم المثال وللمعقولات والمعاني كلُّها صورةٌ فيه، قيل: إنَّ الحقَّ سبحانه ليس له مثلٌ، ولكن له مثالٌ، ولله المثل الأعلى، وقد كتب هذا الفقيرُ في مكاتيبه: كما أن لا مِثْلَ له تعالى في مرتبة التنزيه الصرف؛ ليس له سبحانه مثالٌ أيضـاً، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. وأنموذجُ عالم المثال في العالم الصغير هو الخيالُ، فإنَّ صورةَ جميع الأشياء متصورةٌ في الخيال، والخيالُ هو الذي يرى كيفيات أحوال السَّالك ومقاماته بالتَّصوير، ويجعله من أرباب العلم، فلو لم يكن الخيالُ أو كان قاصراً؛ لزم الجهلُ، ومن ههنا ليس فوق مرتبة الظِّلال غير الجهل والحيرة، فإنَّ جولانَ الخيال إنّما هو في مراتب الظِّلال، وحيث لا ظلالَ فيه لا مجالَ للخيال فيه، فإذا لم تكن الصُّورةُ التنزيهيّةُ في المثال كما مرّ؛ كيف تتصوَّرُ هي في الخيال الذي هو ظلُّ المثال؟ فلا جرم لا يكون ثمّةَ إلا الجهلُ والحيرةُ، وكلُّ محلٍّ ليس فيه علمٌ ليس فيه قيلٌ وقالٌ، (من عرف الله كلَّ لسانه) علامةُ ذلك، وكلّ محلٍّ فيه علمٌ فيه قيلٌ وقالٌ، (من عرف الله طال لسانه) بيانُ ما هنالك، فيكون طولُ اللسان في مقام الظلال، وكَلُّ اللسان فوق مراتب الظلال فعلاً كان أو صفةً، اسماً كان أو مسمّىً، وكلُّما هو منحوتُ الخيال؛ فهو من الظلال، وكلّما هو من الظلال؛ فهو معلولٌ، وبعلّة الجعل مجعولٌ، وليس هو غير أن يكون من آثار المطلوب وعلاماته المفيدة لعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كلاهما وراء الظلال والخيال،...

والخلاصُ من نحت الخيال إنّما يتيسَّرُ إذا ترك السَّيرَ الأنفسيَّ أيضـًا كالسير الآفاقيّ وراء الظهر، وجال في ما وراء الأنفس والآفاق، وهذا المعنى يتيسّر لأكثر الأولياء بعد الموت، وما دامت الحياةُ باقيةً؛ فالخيالُ متشبِّثٌ بأذيالهم، ويتيسّر للأقلِّين من الأكابر في هذه النَّشأة، فيخرجون من تصرف سلطان الخيال مع وجود الحياة الدنيوية، ويعانقون المطلوبَ بلا نحت الخيال وجعله، ففي هذا الوقت يصير التجلِّي البرقي دائميًّا في حقهم، وتظهر مبادئُ الوصل العريان: (شعر)

هَنِيئـًا لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا وَلِلعَاشِـقِ الْمِسْـكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

فإن قيل: قد يرى جماعةٌ في الواقعات والمنامات في المثال أو الخيال: أنَّهم صاروا سلاطين ويعاينون خدمهم وحشمهم، أو يرون أنَّهم صاروا أقطابـًا، وتوجّهَ إليهم جميعُ العالم، وفي عالم اليقظة والإفاقة الذي هو عالم الشهادة لا يظهر شيءٌ من تلك الكمالات، فهل لهذه الرؤية وجهٌ من الصدق أو باطلٌ محضٌ؟

أجيب: إنَّ لهذه الرُّؤية محلاًّ من الصدق، بيانه: هو أنَّ معنى السَّلطنة والقطبيَّة كائنٌ في تلك الجماعة، ولكنَّه ضعيفٌ فيهم غيرُ لائقٍ لأن يظهر في عالم الشهادة، ثم بعد ذلك لا يخلو عن أحد الحالين: إما أن تحدث لهذا المعنى بعناية الله سبحانه قوّةٌ، ويصير لائقـًا لأن يظهر في عالم الشهادة، فيصيرون بقدرة الله سبحانه سلاطين أو أقطابـًا، وإما أن لا تحدث له قوّةُ الظهور في عالم الشهادة، فيكتفى بذلك الظهور المثالي الذي هو أضعف الظهورات، ويظهر فيه على قدر قوته، ومن هذا القبيل ما يراه طالبوا هذا الطَّريق من الواقعات حيث يجدون أنفسهم في مقامات عاليةٍ، ويرون أنَّهم تشرَّفوا بمناصب أرباب الولاية، فإن ظهر هذا المعنى في الشهادة أيضـًا؛ فهو دولةٌ عظيمةٌ، وإن اكتفي بظهوره في المثال؛ فلا حاصلَ فيه، بل هو مصيبةٌ، فإنَّ كلَّ حائكٍ وحجامٍ يرى نفسه في المنام سلطانـًا، وليس له حاصلٌ غيرَ الخسارة والندامة، فلا ينبغي اعتبار الواقعات، وكلُّما يتيسّر في الشهادة؛ فهو الغنيمةُ: (شعر)

وَإِنِّي غُلَامُ الشَّمْسِ أَرْوِي مِنَ الشَّمْسِ وَمَا لِي وَلِـلَّـيْـلِ فَـأَرْوِي حَـدِيـثَـهُ

ومن ههنا لم يعتبر أكابر النقشبنديَّة الواقعات، ولا يتوجّهون إلى توجيه وقائع الطالبين وتعبيرها لكونها قليلَ الجدوى، وإنَّما المعتبرُ عندهم ما تيسّر في الإفاقة واليقظة، ولهذا اعتبروا دوامَ الشُّهود، واعتقدوا الدَّولة استمرارَ الحضور، والحضورُ الذي يقتفيه الغيبةُ ساقطٌ عن حيّز الاعتبار عند هؤلاء الأكابر، ومن ههنا صار نسيانُ ما سوى الله تعالى دائميًّا في حقّهم، وحضورَ الغير في قلبهم منفيًّا في جميع الأوقات. نعم، إذا كانت النهايةُ مندرجةً في بداية شخصٍ كيف يستبعدُ عنه هذه الكمالات، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. والسلام.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ والخَمْسُونَ

إلى الخواجه محمَّد عَبدِ اللهِ ولدِ شَيْخِهِ سَلَّمَه اللهُ في بيانِ أنَّ المَعقولَ والمَوهومَ والمَكشوفَ والمَشهودَ كلَّها داخِلةٌ في السِّوى، ومَا يُناسِبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ التي أرسلها قرَّةُ العين، وقد اندرج فيها أنَّ تلك الشَّعابذةَ قد زالت وارتفعت بكرم الله سبحانه وتعالى، ولم يبقَ منها شيءٌ، والهمَّةُ مصروفةٌ في أن لا يحصل شيءٌ من الإثبات، والمعقولُ والموهومُ كلُّه داخلٌ تحت..........

كلمة (لا) كذا وكذا، وكتبتم أنَّ هذا المعنى حاصلٌ بالتكلُّف، والمرجوُّ أن يكون نصيباً من غير تكلّفٍ.

أيُّها النجيبُ، إنَّ المعقولَ والموهومَ - بل المكشوفَ والمشهودَ، آفاقيّاً أو أنفسيّاً - كلَّه داخلٌ في السوى، ومن جملة اللهو واللعب، وليس التعلّقُ به غير التعلّق بالشعابذة، وزوالُ هذه التعلّقات لو كان بالتكلّف؛ فهو داخلٌ في الطَّريقة، ومن جملة علم اليقين، فإن تيسّرتْ هذه الدَّولة بعد اللتيا والتي بلا تكلّفٍ وتبدُّل حال التكلّف في نفي السوى بانتفائه بنفسه؛ فقد خرج من مضيق الطَّريقة، وسكّة العلم، وتشرَّف بالفناء، وهذا المعنى يسيرٌ في التكلّم، وعسيرٌ بحسب الوصول إليه، أي: عسيرٌ إلا من يسره الله سبحانه، والأمورُ التي تتعلّق بالحقيقة؛ فهي في الأمام وبعد المرور من النفي، بل بعد مجاوزة مقام الانتفاء مقام الإثبات، وما وراء العلم والعين، اعلم أنَّه لا اعتداد بالطَّريقة في جنب الحقيقة، ولا اعتبار للنفي بالنِّسبة إلى الإثبات أصلاً، فإنَّ متعلّقَ النفي هو الممكناتُ، ومتعلّقَ الإثبات هو الواجبُ سبحانه، والنفيُ يرى في النَّظَر في جنب الإثبات كقطرةٍ في جنب البحر المحيط، وبحصول هذا النفي وذاك الإثبات يوصل إلى الولاية الخاصَّة، وبعد حصول الولاية الخاصة: إما العروجُ، وإما النزولُ، وإن كان النزولُ لذلك العروج لازماً أيضاً. ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، السلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

المكتوبُ الستُّون

إلى محمَّد تَقيٍّ في بيانِ أنَّ اللَّازمَ صَرفُ العَنانِ عن فُضوليَّاتِ الدِّينِ، والاشتِغالُ بضَروريَّاتِ الدِّينِ، وما يُناسِبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد تشرَّفت بمطالعة الصحيفة الشَّريفة، وقد اندرجت فيها الدلائلُ التي وفقتم لإقامتها وترتيبها في باب خلافة الصديق ﷺ التي ثبتتْ بإجماع أهل الحَلِّ والعقد من الصدر الأوّل الذي هو خيرُ القرون، وفي باب فضليّة الخلفاء الرَّاشدين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين التي هي على ترتيب خلافتهم ونَعْتِها، وفي باب ملازمة السُّكوت عن منازعات أصحاب خير البشر ومشاجراتهم عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ، فأورث ذلك فرحاً وافراً، وهذا الاعتقادُ كافٍ في بحث الإمامة، وموافقٌ لاعتقاد أهل السنَّة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم.

أيُّها المخدومُ المشفقُ، إنَّ بحثَ الإمامة من فروع الدين لا من أصوله، وضرورياتُ الدين غيرُ ذلك الذي يتعلّق بالاعتقاد والعمل مما تكفَّل علمُ الكلام وعلمُ الفقه ببيانه، والاشتغالُ بالفضوليات بترك الضَّروريات صرفُ العمر فيما لا يعني، وقد ورد في الخبر: «**عَلَامَةُ إِعْرَاضِهِ تَعَالَى عَنِ العَبْدِ: اشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ**»، فلو كان بحثُ الإمامة من ضروريات الدين وأصول الشَّريعة كما زعمت الشيعةُ؛ لكان ينبغي أن يعيِّن الحقُّ تعالى في كتابه المجيد من يستحقُّ الاستخلافَ، وأن يشخِّصَ الخليفةَ، وأن يأمر النبيّ ﷺ أيضاً بخلافةِ واحدٍ، وأن يجعل الواحدَ خليفةً بالتَّنصيص والتَّصريح، ولَمّا لم يُفهم الاهتمامُ في هذا الأمر من الكتاب والسنة؛ علم أنَّ بحثَ الإمامة من فضول الدين لا من أصوله، والفضوليُّ يشتغل بالفضول، مع أنَّ أمامَه كثيراً من ضروريَّات الدِّين، بحيث لو اشتغل بها لَمَا وصلت النَّوبةُ إلى الفضول، أوَّلاً لا بُدَّ من تصحيح الاعتقاد الذي يتعلّق بذات الواجب وصفاته وأفعاله تعالى، وينبغي الاعتقادُ أيضاً أنَّ ما جاء به النبي ﷺ من عند الحق جل وعلا وما علم من الدين بالضَّرورة ....

والتواتر من الحشر والنَّشر والعذاب والثواب الأخرويَّيْن الدائميين وسائر السَّمعيات كلّه حقٌّ، ليس في شيءٍ منها احتمالُ التَّخلُّف، فإن لم يكن هذا الاعتقاد؛ فلا نجاةَ. وثانياً لا بدَّ من إتيان الأحكام الفقهية أيضاً من أداء الفرائض والواجبات، بل من أداء السُّنن والمستحبات، ينبغي حسنُ رعاية الحلّ والحرمة الشرعيين، والاحتياطُ في حفظ حدود الشَّريعة، حتى يرجى الفلاحُ والخلاصُ من عذاب الآخرة. فإذا صُحِّح الاعتقادُ والعملُ؛ وصلت النوبةُ إلى الدخول في طريق الصوفيَّة، ورجاء حصول كمالات الولاية، وبحثُ الإمامة بالنِّسبة إلى ضروريات الدين كالمطروح في الطَّريق.

غايةُ ما فِي البابِ: أنَّ المخالفين لَمّا غالوا في هذا الباب، وطعنوا في أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات؛ يورَدُ في ردِّهم بالضَّرورة مقدّماتٌ طويلةُ الذَّيل؛ لكون دفع لزوم الفساد من الدِّين المتين من ضروريات الدين. والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالسِّتُّون

في تَعزيَة أصحابِ المَرحومِ مولانا أحمَدَ البَرْكِيِّ، وفي نَصيحَتِهم، وجَعْلِ مولانا الحَسنِ رَئيسَ حَلقتِهم، وما يُناسِبُ ذلك.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ وجودَ المرحوم المغفور له مولانا أحمد عليه الرَّحمة في هذا الوقت كان للمسلمين آيةً من آيات الله جلَّ وعلا، ورحمةً من رحماته تعالى، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، الإمدادُ والإعانةُ للماضين مأمولٌ ومسؤولٌ من الأصحاب والأحباب، وخدمةُ أولاد المرحوم ومتعلّقاته واستمالةُ قلوبهم وتسليةُ خواطرهم واجبةٌ على المحبين، فينبغي سعيُهم في أن يقرأ أولادُ المرحوم، وأن يكونوا متحلِّين بالعلوم الشَّرعيّة، وليكافئوا إحسانَ المرحوم بالإحسان إلى أولاده، ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وينبغي رعايةُ أطوار المرحوم وأوضاعه وأحواله وأوقاته، وأن تشتغلوا بالذِّكْر والحلقة لئلا يقع الفتورُ، وأن يقعد الأصحابُ مجتمعين فانياً كلُّ واحدٍ في الآخر لِيَظهرَ أثرُ الصُّحبة، وقد كتب هذا الفقير قبل ذلك على سبيل الاتِّفاق بأنَّ مولانا لو اختار سفراً ينبغي أن ينصب الشَّيخ الحسن مكانه، فكان المرادُ منه على وفق القضاء هذا السفر، والآن أيضاً ألاحِظُ في هذا الأمر مكرراً، وأجد الشَّيخَ الحسن متعيّناً في هذا الأمر، ولا يثقل هذا المعنى على بعض الأصحاب، فإنَّه ليس باختيارنا ولا باختيارهم، والانقيادُ لازمٌ، ولطريق الشَّيخ الحسن مناسبةٌ كثيرةٌ بطريق مولانا، والنِّسبةُ التي أخذها مولانا من هذا الجانب في الآخر للشيخ الحسن شِرْكةٌ معه فيها، والأصحابُ الباقون قليلوا النَّصيب منها، وإن حصل لهم كشفٌ وشهودٌ، وصاروا متحلين بالتوحيد والاتحاد، ولكنَّ هذه الدَّولةَ أمرٌ آخرُ، لا يشترون الكشوفَ والشُّهودَ هناك على شعيرةٍ، ويستغفرون من ذلك التَّوحيد والاتحاد. وبالجملة ينبغي أن لا يتوقَّفَ الأصحابُ في تقديم الشَّيخ الحسن، وأن يشتغلوا بأمرهم، جاعلين إياه رئيس حلقتهم، وليُفْهِمْ أخونا الخواجه أويس هذا المعنى للأصحاب، وليدلَّهم على الاشتغال بعقد الحلقة والصحبة، ويرغِّبَهم في الشَّيخ الحسن، وينبغي للشيخ الحسن أيضاً حفظُ خواطر الشُّركاء والرفقاء، وأداءُ حقوق الأخوَّة، وأن لا يفارق مطالعةَ الكتب الفقهيَّة، وأن يجتهد في نشر الأحكام الشَّرعيّة، وأن يرغِّب في متابعة السنة السَنِيَّة، وأن يحذِّر عن البدعة الشَّنيعة، وأن لا يعدل عن طريق الالتجاء والتضرّع والانكسار؛ لئلا يلقي النَّفسَ الأمَّارةَ من جهة الرياسة والتقدُّم على الأقران........

في المهلكة والحالة السيِّئة، وليعتقدْ نفسَه في جميع الأوقات وسائر الحالات قاصراً وناقصاً، وليكن طالباً لكماله، والنَّفسُ والشيطان عدوَّان قويان في الكمين، فلا يخرجان من الطَّريق خائباً وخاسراً: (شعر)

وَذَلِكَ مِنْ نُصْحِي لَكُمْ إِنْ قَبِلْتُمُوا نَجَوْتُمْ وإِلَّا فافْعَلُوا مَا بَدَا لَكُمْ

وبلادُ الهند بعيدٌ عنكم، والقافلةُ تَرِدُ وتذهبُ بالأخبار في سنةٍ مرةً واحدةً، فينبغي كتابةُ الأحوال، فإن لم تقدروا على الوصول؛ فلا تغفلوا عن الكتابة، والشَّيخ يوسف قريبٌ منا، وكان هنا مدّةً، وأخذ فوائد جمَّةً، واطَّلع على حقيقة الفناء، ورجع إلى وطنه بميعاد المجيء ثانياً، وهو رجلٌ مستعدٌّ، وصادقُ الإخلاص، والله سبحانه الموفق.

وحيث نأيتم عنا يبالغُ في النَّصيحة، تيقَّظوا وتنبَّهوا، واعتقدوا الرياسةَ بلاءَ الروح، وكونوا خائفين ووجلين مشفقين من حدوث لذَّةٍ في هذه الرياسة، فتنجرّ إلى الهلاك الأبديّ. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

المكتوب الثاني والستون

إلى خان خانان في بيانِ أنَّ الإنسانَ مدنيُّ الطَّبعِ مَجبولٌ على التَّمدُّن، ومُحتاجٌ إلى بَنِي نَوعِه في تَعيُّشِه، وحُسن الإنسان أيضاً في هذا الاحتياجِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. نسأل الله سبحانه وتعالى ترقِّياتكم الصوريَّة والمعنويَّة، فإنَّ خيريَّتكم وصلاحَكم متضمِّنةٌ لجمعيَّة جميع المسلمين ورفاهيتهم، والدعاءُ لكم دعاءٌ لجميع المسلمين، سلمكم الله سبحانه عما لا يليق بجنابكم، بحرمة سيد المرسلين عليه وعليهم وعلى آل كل من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، وحيث أعلمُ أنَّ نسبةَ محبَّتكم وإرادتكم وإخلاصكم لأكابر النَّقشبنديَّة العليّة قدس الله تعالى أسرارهم على وجه الأتمِّ والأكمل؛ فبناءً على ذلك نصير باعثاً على تصديعكم.

أيُّها المخدومُ المكرَّمُ، إنَّ أهلَ هذه السِّلسلة العليّة وقعوا في هذه الديار غرباء، ومناسبةُ أهل هذه الديار لطريقة هؤلاء الأكابر الذين هم ملتزمون للسُّنَّة بواسطة شيوع البدعة في هذه الديار قليلةٌ، ومن ههنا اخترع بعضُ أهالي هذه السِّلسلة - بواسطة قصور نظره - في هذه الطَّريقة العليّة أيضاً بدعاتٍ، وجذب قلوبَ الناس بعلاقةِ ارتكاب تلك البدعات إلى جانبه، وظنَّ هذا العملَ - بزعمه - تكميلاً لهذه الطَّريقة العليّة، حاشاها من ذلك وكلا، بل هؤلاء الجماعة يجتهدون في تخريب الطَّريقة وتضييعها، ولم يُدْرِكوا حقيقةَ معاملة أكابر هذه الطَّائفة، هداهم الله سبحانه سواءَ الصراط. وحيث إنَّ أهلَ هذه السِّلسلة العليّة عزيزوا الوجود في هذه الديار ينبغي لمريدي هذه السِّلسلة ومحبيهم إمدادُ هؤلاء الأكابر وطلبةِ هذا الطَّريق وإعانتهم، فإنَّ الإنسانَ مدنيُّ الطَّبع مجبولٌ على التمدُّن، محتاجٌ في تعيشه إلى بني نوعه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، فإذا كان في كفاية مهمات خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات دخلٌ للمؤمنين؛ فما المضايقةُ على الآخرين؟ وأكثرُ أغنياء هذا الوقت يزعمون الدَّروشة في عدم الاحتياج، وليس كذلك، فإنَّ الاحتياجَ ذاتِيٌّ لجميع الممكنات، بل حُسْنُ الإنسان هو في هذا الاحتياج،........

وذلُّ العبوديّة ناشٍ من هذه الجهة، فإنّه لو زال الاحتياجُ فرضاً عن الإنسان، وحصل له الاستغناءُ؛ لا يكون فيه غيرُ العصيان والعناد والطغيان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧].

غايةُ ما في الباب: أنَّ الفقراءَ - لتخلصهم عن التعلّق بالأغيار - يُحيلون الاحتياجَ إلى الأسباب على مسبّب الأسباب، ويرون الدّولةَ المبذولةَ العامّةَ من خِوَان نعمته تعالى، ويعتقدون أنَّ المانعَ والمعطيَ في الحقيقة هو الله تعالى، وحيث أوردت الأسبابُ في البين بواسطة حِكَمٍ ومصالحَ، ونسب الحسن والقبح إليها يجعل هؤلاء الأكابر أيضاً الشُّكرَ والشكايةَ راجعين إليها، ويرون الحسنةَ والسيِّئةَ منها، فإنَّهم لو لم يعتبروا الأسبابَ لأبطلوا معاملةً عظيمةً، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ووجودُ معدن الحقائق والمعارف أخي الأعزّ السيد مير محمد نعمان مغتنمٌ في تلك الحدود، ودعاؤه وتوجّهُه كبريتٌ أحمرُ، وأظنُّ أنَّ بركات توجّهاته وفيوضها قوائمُ دولتكم، وأجده في الحضور والغيبة ممدَّكم ومعاونكم، وقد كتب المرقوم قبل هذا بسنةٍ من محاسنكم إلى الفقير، وأَدْرَجَ فيما كتب محبّتكم وإخلاصَكم للفقراء، وأظهر فيه أنّه قد فوَّض توليةَ هذه الولاية إلى آخر، فهذا الوقتُ وقتُ التوجّه والمدد، فحصل للفقير في أثناء مطالعة ذلك المكتوب توجّهٌ في هذا الباب، فوجدتكم في ذلك الوقت رفيعَ القدر، والظّاهر أنّه قد كان في تلك السّاعة شخصٌ متوجّهاً إلى تلك الجهة، فكتبت في جواب ذلك المكتوب هذه العبارة: إنَّ خان خانان يظهر في النظر رفيعَ القدر، والأمرُ عند الله سبحانه.

المكتوب الثالث والستون

إلى نُور محمَّدٍ الأَنْبَالِيِّ في جَوابِ استِفسارِه بأنّه إذا حَضرَ الطَّالبُ لطَلَبِ الحقِّ جلَّ وعَلا عِندَ شَيخٍ آخرَ مع وُجودِ شَيخِه: هل يَجوزُ له ذلك أو لا؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ المكتوبَ المرسلَ قد وصل، وسألتَ أنّه مع وجود حياة الشَّيخ إذا حضر الطالبُ عند شيخٍ آخر لطلب الحق جل وعلا، هل يجوز له ذلك أو لا؟

اعلم أنَّ المقصودَ هو الحقُّ سبحانه، والشَّيخ وسيلةُ الوصول إلى جناب الحقّ تعالى، فإن رأى الطَّالبُ رشدَه عند شيخٍ آخر، ووجد قلبه في صحبته حاضراً مع الحقّ؛ يجوز أن يحضرَ عنده في حياة شيخه الأوّل بلا إذنه، ويطلبَ منه رُشْدَه، ولكن ينبغي أن لا ينكرَ شيخَه الأوّل، ولا يذكره إلا بخيرٍ، خصوصاً في هذا الوقت، فإنّه لم يبقَ فيه المريدية والشَّيخوخة غيرُ الرسم والعادة، فإذا لم يكن لشيوخ هذا الوقت خبرٌ عن أنفسهم، ولا يقدرون أن يفرّقوا بين الإيمان والكفر؛ فكيف يكون لهم خبرٌ عن الله عز وجل؟ وعلى أيّ طريقٍ يدلون المريد؟ (شعر)

مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا خِبْرَةٍ عَنْ نَفْسِهِ ... لَا يَقْدِرُ الإِخْبَارَ عَنْ هَذَا وَذَا

يا ويحَ مريدٍ يقعد عند مثل هذا الشَّيخ معتقداً له، ولا يرجع إلى غيره، ولا يعرف طريقَ الحقّ جل وعلا، وهذا من الخطرات الشيطانية الواردة من جهة الشَّيخ الناقص لمنع الطَّالب عن طلب الحقّ سبحانه، كلُّ موضعٍ رأى الطَّالبُ رشدَه وجمعيَّةَ قلبه فيه ينبغي الرجوعُ فيه بلا توقُّفٍ، وأن تستعيذَ من الوساوس الشَّيطانية.

المكتوب الرابع والستون

إلى محمَّدٍ مؤمنٍ ولَدِ المَرحومِ الخواجه عَلِي خَان في بيانِ أنّه يَنبَغي أن لا يَضيقَ الصَّدرُ عن تلوُّنِ الأحوالِ، وعَدمِ حُصولِ الآمالِ الدُّنياويّة الدَّنيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلمكم الله سبحانه عما لا يليق بحالكم. اعلموا أنَّ الدنيا سجنُ المؤمن، والمناسبُ لحال السِّجن هو الوجعُ والألمُ والمصيبةُ، ولا ينبغي التضجُّرُ والجزعُ من تلوُّن الأحوال وعدم حصول الآمال، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥-٦]، فقَرَنَ الله سبحانه بعسرٍ واحدٍ يسرين، ويشبه أن يكون المرادُ منهما: يسرَي الدنيا والآخرة:

(ع) لَا عُسْـرَ فِـي أَمْرِ مَـعَ الـكِـرَامِ

وباقي أحوال هذه الحدود يبينها السيد عبد الباقي بالمشافهة، والمشارُ إليه متوجِّهٌ لملاقاتكم مراعاةً لحقوقكم، وإشفاقاً عليكم.

المكتوب الخامس والستون

إلى مولانا محمَّدٍ هاشِمِ الخادِمِ في التَّحذيرِ عنِ الاشتِغالِ بأُمورٍ لا طائِلَ فيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنَّهي أنَّكم ما كتبتم في هذه المدَّة عن أحوالكم الباطنيَّة خبراً معتدّاً به حتى يكون باعثاً على الفرح، وأمورُ الدنيا مما لا طائل فيها، ولا قدرَ للدنيا وما فيها حتى يشتغلَ الإنسان بحشوياتها تاركاً لتذكُّر أحوال الآخرة، وإن كانت نيَّتكم نيَّةَ خيرٍ، ولكنكم قد سمعتم أنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقربين، وعلى كلِّ حالٍ ينبغي التوجُّهُ إلى الأحوال، والاشتغالُ بالطفيليّ بقدر الضَّرورة، فإنَّ الضَّرورةَ تقدَّر بقدرها، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ، إنَّ فقراءَ هذه الحدود وإن لم يكن لهم رزقٌ معلومٌ، ولكنَّهم يصرفون الأوقاتَ بالفراغة والوسعة من غير سعيٍ في أمر الرزق ولا اجتهادٍ، ونصيبُهم يصيبهم زيادةً على قدر الكفاف، والرزقُ هو نقد الوقت، وباقي أحوال هذه الحدود مستوجبٌ للحمد، وفي هذه الأشهر عاد الوباءُ ثانياً، ومات من جاء أجلُه، وقد ارتفع الآن، لله سبحانه الحمد والمنة على جميع النعماء. والسلام.

المكتوب السادس والستون

إلى خان خانان في بيانِ التَّوبَةِ والإنابَةِ والوَرعِ والتَّقوى، وما يُناسبُ ذلِك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وحيث صرفنا العمرَ العزيزَ في المعاصي والزلات والتقصيرات والهفوات يستحسن أن نتكلَّمَ من التوبة والإنابة والورع والتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فالتَّوبةُ من الذُّنوب واجبةٌ وفرضُ عينٍ في حق كلِّ شخصٍ، لا يتصوَّر أن يستغني عنها أحدٌ من البشر، كيف والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام لم يستغنوا عن التوبة؟ قال خاتمهم وسيدهم عليه وعليهم صلوات الله وتحياته: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» فإن كانت المعاصي تتعلّق بحق الله تعالى، ولا تتعلّق بحقوق العباد من المظالم كالزنا وشرب الخمر وسماع الملاهي والنظر إلى غير مَحْرم ومسِّ المصحف بغير وضوءٍ واعتقاد بدعةٍ؛ فالتوبةُ عنها بالندم والاستغفار والتحسُّر والاعتذار إلى الله عز وجل، ولو تركُ فرضٍ من الفرائض لا بدَّ في التوبة من أدائه، وإن كانت المعاصي تتعلّق بمظالم العباد؛ فتوبتُها بردِّ المظالم إليهم، والاستحلال منهم، والإحسان إليهم، والدُّعاء لهم، وإن كان صاحبُ المال..

والعرض ميتاً؛ فالاستغفارُ والإحسانُ وردُّ المال إلى أولاده وورثته، وإن لم يعلم له وارثٌ؛ يتصدَّقُ بقدر المال والجناية على الفقراء والمساكين بنيَّة صاحب المال، والذي أوذي بغير حقٍّ قال علي كرم الله وجهه: سمعت أبا بكر ﷺ يقول وهو الصادقُ قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَامَ، فَتَوَضَّأَ، وَصَلَّى، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ»[1] لأنَّه يقول جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام في حديثٍ آخر: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ثُمَّ نَدِمَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ كَفَّارَةٌ»[2]، وفي الخبر: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَالَ: أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، ثُمَّ عَادَ، ثُمَّ قَالَهَا، ثُمَّ عَادَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ كُتِبَ فِي الرَّابِعَةِ مِنَ الكَبَائِرِ»، وفي الحديث النبويّ أنّه قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «هَلَكَ المُسَوِّفُونَ، يَقُولُونَ: سَوْفَ نَتُوبُ»[3]، أوصى لقمانُ الحكيم لابنه: يا بنيّ، لا تؤخّر التوبة إلى غدٍ، فإنَّ الموتَ يأتيك بغتةً، قال مجاهد: من لم يتب إذا أصبح وأمسى؛ فهو من الظالمين، قال عبد الله بن المبارك رحمه الله سبحانه: ردُّ فلسٍ من الحرام أفضلُ من مائةِ فلسٍ يتصدق به، وقيل: ردُّ دانقٍ من فضةٍ أفضل عند الله من ستمائة حجَّةٍ مبرورةٍ، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، عن النبي ﷺ أنّه قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: عَبْدِي، أَدِّ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَانْتَهِ عَمَّا نَهَيْتُكَ عَنْهُ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ، وَاقْنَعْ بِمَا رَزَقْتُكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»[4]، وقال ﷺ لأبي هريرة ﷺ: «كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ»[5]، وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله: مثقالُ ذرةٍ من الورع خيرٌ من ألف مثقالٍ من الصوم والصلاة. وقال أبو هريرة ﷺ: جلساءُ الله غداً أهلُ الورع والزهد، أوحى اللهُ إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: لا يتقربُ إليّ المتقربون بمثل الورع، قال بعضُ العلماء بالله: لا يتمُّ الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضةً على نفسه: أوّلُها: حفظُ اللسان عن الغيبة، والثّاني: الاجتنابُ عن السخرية، والثّالثُ: الاجتنابُ عن سوء الظنّ، والرّابعُ: غضُّ النظر عن المحارم، والخامسُ: صدقُ اللسان، والسادسُ: أن يعرف منّةَ الله كيلا يعجب بنفسه، والسابعُ: أن ينفق ماله في الحقّ، ولا ينفقه في الباطل، والثامنُ: أن لا يطلب لنفسه العلوّ والكبرَ، والتاسعُ: المحافظةُ على الصلوات، والعاشرُ: الاستقامةُ على السنة والجماعة، ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

أيُّها المخدومُ المكرّمُ المشفقُ الأكرمُ، إن تيسّرت التوبةُ عن جميع الذنوب، وحصل الورعُ والتقوى من جميع المحرمات والمشتبهات؛ فذلك نعمةٌ عظيمةٌ، ودولةٌ قصوى، وإلا؛ فالتوبةُ من بعض الذنوب والورعُ من بعض المحرمات أيضاً مغتنمةٌ، ولعلَّ بركات ذلك البعض وأنوارَه تسري في الأبعاض الأخر، ويتيسّر التَّوفيقُ للتَّوبة والورع من سائر المعاصي أيضاً، وما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه، اللهم وفّقنا لمرضاتك، وثبّتنا على دينك وعلى طاعتك، بحرمة سيد المرسلين، وقائد الغرّ المحجلين، عليه وعليهم وعلى آلِ كلٍّ من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالسِّتُّونَ

إلى خان خانان في بيانِ عَقائدِ أهلِ السُّنَّة والجَماعَة رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِم أجمَعينَ، مع بيانِ الأركانِ الخَمسَةِ الإسلاميَّة، والتَّحريضِ على إسماعِ الكَلِمَة الحقَّة - يعني: كَلِمَةَ الإسلام - على سَمعِ سُلطانِ الوَقتِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصَّحيفةُ الشَّريفةُ.........

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦) وحسنه، وأحمد في «مسنده» (٢) من حديث علي عن أبي بكر ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٣٧) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «من أخطأ بخطيئةٍ وأذنب ذنباً ثم ندم؛ فهو كفارته».
وأخرج البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعاً: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا؛ فهو كفارةٌ له».

(٣) قال الإمام أبو الليث السمرقندي في «تنبيه الغافلين» (ص١١٤): (وروي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنّه قال: هلك المسوِّفون، والمسوفُ: من يقول: سوف أتوب).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً».

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «يا أبا هريرة، كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكون مؤمناً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً»، قال البوصيري: إسناده حسن. انظر: «مصباح الزجاجة»: (٤/ ٢٤٠).

المرسلةُ باسم الفقراء المنقطعين على وجه الكرم والالتفات، حمداً لله سبحانه على حصول الالتفات والتَّواضع للأغنياء ذوي السَّعادة في مثل هذا الزَّمان المملوء من الشُّبَه والاشتباه إلى الفقراء الذين لا حاصلَ لهم مع عدم المناسبة، وحصول الإيمان لهم من حسن النَّشأة الذي فيهم بهذه الطَّائفة، يا لها من نعمةٍ عظيمةٍ، حيث لم تكن التعلّقاتُ الشَّتى مانعةً عن حصول هذه الدَّولة، ولم يعاوق التوجّهاتُ المتفرقةُ عن محبة هؤلاء القوم، ينبغي أداءُ شكر هذه النعمة العظمى كما حقّه، وأن يكون راجياً «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» حديثٌ نبويٌّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

أيُّها السعيدُ النجيبُ، لا بدَّ للإنسان من تصحيح العقائد بموجب آراء الفرقة النَّاجية أهل السنة والجماعة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين الذين هم السوادُ الأعظمُ والجمُّ الغفيرُ، حتى يتصور الفلاحُ الأخرويُّ والنجاةُ الأبديّةُ، وخبثُ الاعتقاد الذي هو مخالفةُ معتقدات أهل السنة سمٌّ قاتلٌ موصلٌ إلى الموت الأبديّ والعذاب السرمديِّ، والمداهنةُ في العمل والمساهلةُ فيه يرجى فيها المغفرةُ، وأما المداهنةُ في الاعتقاد؛ فلا مجالَ فيها للمغفرة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولنورد معتقدات أهل السنة بلسان الإيجاز والاختصار، ينبغي تصحيح الاعتقاد بمقتضاها، وأن يسأل الحقَّ سبحانه بالتضرّع والابتهال الاستقامةَ على هذه الدَّولة.

اعلم أنَّ اللهَ تعالى موجودٌ بذاته القديمة، وسائرُ الأشياء صارتْ موجودةً بإيجاده سبحانه، وخرجتْ من العدم إلى الوجود بتخليقه، وهو تعالى قديمٌ أزليٌّ، والأشياءُ كلُّها حادثةٌ وموجودةٌ بعد أن لم تكنْ، وكلُّما هو قديمٌ أزليٌّ؛ فهو باقٍ وأبديٌّ، وكلُّما هو حادثٌ ومسبوقٌ بالعدم؛ فهو فانٍ ومستهلكٌ، يعني: في شرف الزوال، وهو سبحانه واحدٌ لا شريكَ له لا في وجوب الوجود، ولا في استحقاق العبادة، لا يليق وجوبُ الوجود لغيره تعالى، ولا يستحقُّ العبادةَ سواه سبحانه، وله تعالى صفاتٌ كاملةٌ، فمنها: الحياةُ والعلمُ والقدرةُ والإرادةُ والسمعُ والبصرُ والكلامُ والتكوينُ، كلّها متَّصفةٌ بالقدم والأزليَّة، وقائمةٌ بحضرة الذات تعالت وتقدست، والتعلّقاتُ الحادثةُ لا تُورِثُ خللاً في قِدَم الصِّفات، وحدوثُ المتعلّق لا يصير مانعاً لأزليتها، واستدلَّت الفلاسفةُ - من نقصان عقولهم - والمعتزلةُ - من عمايتهم وغوايتهم - بحدوث المتعلّق على حدوث المتعلّق، ونفوا الصِّفات الكاملةَ، وعلمَه تعالى بالجزئيات؛ لاستلزامه التغيُّرَ الذي هو من أمارات الحدوث، ولم يعلموا أنَّ الصِّفات تكون أزليَّةً، وتكون تعلّقاتُها بالمتعلّقات الحادثة حادثةً. ونقائصُ الصِّفات مسلوبةٌ عن جناب قدسه تعالى، وهو تعالى منزَّهٌ عن صفات الجواهر والأجسام والأعراض ولوازمها، لا مجالَ للزَّمان والمكان والجهة في حضرته تعالى، وهذه كلُّها مخلوقاتُه تعالى، وزعم جماعةٌ ممن لا خبر لهم أنَّه تعالى فوق العرش، وأثبتوا له سبحانه جهة الفوق، والعرشُ وما سواه مما حواه كلُّها حادثةٌ ومخلوقاتُه تعالى، وكيف يكون للمخلوق الحادث مجال أن يكون مكاناً للخالق القديم ومقرّاً له؟ ولكنَّ العرشَ أشرفُ مخلوقاته، والنورانيَّةُ والصفاءُ أزيدُ فيه منها في غيره من الممكنات، فلا جَرَمَ له حكمُ المرآتيّة لأن يَظْهَرَ عظمةُ الخالق وكبرياؤه جلّ وعلا فيه ظهوراً بيّناً، وبعلاقة هذا الظهور يقال له: عرش الله، وإلا؛ فالعرشُ وغيره كلُّه متساوٍ بالنِّسبة إليه تعالى، وكلُّه مخلوقُه تعالى، ولكن للعرش قابليَّةُ الإراءة، وليست هي لغيره، ألا ترى أنَّ المرآةَ التي ترى صورة إنسان لا يقال: إنَّ ذلك الإنسانَ..

في المرآة، بل نسبةُ هذا الإنسان إلى المرآة ونسبتُه إلى غيره من الأشياء المتقابلة إليه متساويةٌ، وإنّما التفاوتُ من جهة القابليَّة وعدمها، حيث إنَّ في المرآة قابليَّةَ انطباع الصُّورة، وليست هذه القابليَّةُ في غيرها. وهو تعالى ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ، ولا جوهرٍ، ولا عرضٍ، ولا محدودٍ، ولا متناهٍ، ولا طويلٍ، ولا عريضٍ، ولا قصيرٍ، ولا ضيّقٍ، بل واسعٌ لا بالوسعة التي تدرك بأفهامنا، ومحيطٌ لا بالإحاطة التي تكون مدركـًا بإدراكنا، وقريبٌ لا بالقرب الذي يتعقّل بعقولنا، وهو تعالى معنا لا بالمعيَّة المتعارفة. نؤمن بأنَّه تعالى واسعٌ ومحيطٌ وقريبٌ، وأنَّه معنا، ولكن لا نعرف كيفيات هذه الصِّفات ما هي، وكلُّما نعرف من كيفيات هذه الصِّفات نعرف أنَّ له قدماً في مذهب المجسمة، وهو تعالى لا يتَّحدُ بشيءٍ أصلاً، ولا يتَّحد معه شيءٌ، ولا يحلُّ فيه تعالى شيءٌ قطعاً، ولا يكون هو تعالى حالّاً في شيءٍ، والتجزِّي والتبعُّض محالان في جناب قدسه تعالى، والتركيبُ والتحليلُ ممنوعان في حضرته تعالى، وليس له تعالى كفءٌ ولا مثلٌ ولا صاحبةَ له ولا ولدَ، وهو تعالى منزَّهٌ في ذاته وصفاته عن الكيف والشبه والمثال، ومبلغُ علمنا فيه أنَّه تعالى موجودٌ، وبالأسماء والصِّفات الكاملة التي وصف بها نفسه، وأثنى موصوف، ولكن كلُّما يدرك منها بأفهامنا وإدراكنا ويتصوَّرُ بعقولنا؛ فهو تعالى منزَّهٌ عنه ومتعالٍ كما مر، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: (شعر)

وَمَا فَاهَ أَرْبَابُ النُّهَى والحِجَى — بِمَا سِوَى أَنَّهُ المَوْجُودُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

ينبغي أن يعلم أنَّ أسماءَ الله تعالى توقيفيَّةٌ، يعني: أنَّ إطلاقها عليه تعالى موقوفٌ على السماع من صاحب الشرع، كلُّ اسمٍ ورد إطلاقُه في الشَّرع على حضرة الحق سبحانه يجوز إطلاقُه عليه تعالى، وما لا فلا وإن كان معنى الكمال مندرجـًا في ذلك الاسم، فيجوز إطلاقُ الجواد؛ لوروده في الشرع، ولا يجوز إطلاقُ السخيّ؛ لعدم وروده. والقرآنُ كلامُ الله تعالى أنزل على نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام متلبسـًا بلباس الحرف والصوت، وأمر به عباده ونهاهم، فكما نحن نظهرُ كلامنا النَّفسيّ بتوسط الفم واللسان في لباس الحروف والأصوات ونوردُ به مقاصدنا الخفيّةَ في عرصة الظهور؛ كذلك الحقُّ سبحانه أظهر كلامه النَّفسيَّ لعباده في لباس الحرف والصوت بقدرته الكاملة بلا توسُّط فمٍ ولسانٍ، وأجلى أوامره ونواهيه الخفية في ضمن الحرف والصوت على منصة الظهور، فكلا قسمي الكلام كلامُ الحقّ جل وعلا، يعني: النَّفسيَّ واللفظيَّ، وإطلاقُ الكلام على كلا القسمين بطريق الحقيقة، كما أنَّ كِلَا قسمي كلامنا النَّفسيّ واللفظيّ كلامٌ بطريق الحقيقة، لا أنَّ القسمَ الأوّلَ حقيقةٌ والثّاني مجازٌ، فإنَّ نفيَ المجاز جائزٌ، ونفيَ الكلام اللفظيّ وإنكار كونه كلام الله تعالى كفرٌ، وكذلك سائر الكتب والصحف الأخرى التي أنزلت إلى الأنبياء المتقدمين على نبينا وعليهم الصلوات والتسليمات كلُّها كلامُ الله سبحانه، وكلُّما اندرج في القرآن وفي تلك الكتب والصحف أحكامُ الله تعالى كلَّف بها عباده على وفق الأوقات والأزمان.

ورؤيةُ المؤمنين الحقَّ سبحانه في الجنَّة من غير جهةٍ ومقابلةٍ وبلا كيفٍ وإحاطةٍ حقٌّ، نؤمن بتلك الرؤية الأخرويَّة، ولا نشتغلُ بكيفيتها، فإنَّ رؤيته تعالى لا كيفيَّة، لا يظهرُ لأرباب الكيف والمثال في هذه النَّشأة من حقيقتها شيءٌ، ولا نصيبَ لهم منها غير الإيمان بها، فيا خسارة الفلاسفة والمعتزلة وسائر الفرق المبتدعة حيث ينكرون الرؤيةَ الأخرويَّةَ من العمى والحرمان، ويقيسون الغائبَ على الشَّاهد، ولا يشرَّفون..........................

بالإيمان بها. وهو تعالى كما أنَّه خالقُ العباد؛ كذلك هو تعالى خالقُ أفعالهم أيضـًا، خيراً كان فعلُهم أو شراً، وكلُّها بتقدير الله تعالى، ولكنَّه راضٍ عن الخير، غيرُ راضٍ عن الشرّ، وإن كان كلاهما بإرادته ومشيئته تعالى، ولكن ينبغي أن لا ينسبَ الشرُّ وحده إليه تعالى بواسطة الأدب، وأن لا يقول: خالق الشرّ، بل ينبغي أن يقول: خالق الخير والشرّ، كما قال العلماء: ينبغي أن يقول: إنَّه تعالى خالقُ كلّ شيءٍ، ولا ينبغي أن يقول: خالقُ القاذورات والخنازير؛ لرعاية أدب جناب قدسه تعالى، والمعتزلة من الثنوية التي فيهم يزعمون أنَّ خالقَ أفعال العباد هو العبادُ، وينسبون فعلَ الخير والشرّ إليهم، والشرعُ والعقلُ يكذِّبانهم. نعم، قد جعل علماءُ الحق دخلاً لقدرة العبد في فعله، وأثبتوا فيه الكسبَ، فإنَّ الفرقَ بين حركة المرتعش وحركة المختار واضحٌ؛ لأنَّه لا مدخلَ للقدرة والكسب في حركة الارتعاش، وفي حركة الاختيار مدخلٌ لهما، وهذا القدرُ من الفرق يكون باعثـًا على المؤاخذة، ومثبتـًا للثواب والعقاب، وأكثرُ الناس متردِّدون في وجود القدرة والكسب والاختيار في العبد، ويزعمون العبدَ مضطراً وعاجزاً، وهم لم يفهموا مراد العلماء، فإنَّ إثباتَ القدرة والاختيار في العبد لا بمعنى: أنَّه يفعل كلّما يريدُ، ولا يفعل كلّما لا يريد، فإنَّ التقوُّلَ بذلك بعيدٌ عن العبودية، بل بمعنى: أنَّ العبدَ يقدر أن يخرج عن عهدة جميع ما أمر به، مثلاً: أنَّه يقدر أن يؤدي الصلوات الخمس، ويقدر إعطاء الزكاة واحداً من الأربعين، ويقدر صومَ شهرٍ من اثني عشر شهراً، ويقدر أن يحجَّ مرةً واحدةً في عمره مع الاستطاعة إلى الزاد والراحلة، وعلى هذا القياس باقي الأحكام الشَّرعيّة، قد راعى الحقُّ سبحانه فيها من كمال الرأفة السُّهولةَ واليسرَ لضعف العبد وقلَّة اقتداره، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى أيضـًا: ﴿يُرِيدُ اللهُ اَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْۚ وَخُلِقَ الْاِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، يعني: يريد أن يخفف عنكم ثقلَ التكليفات الشاقَّة، وخلق الإنسانُ ضعيفـًا لا يصبر عن الشهوات، ولا يقدر أن يتحمل التكليفات الشاقة.

والأنبياءُ عليهم الصلوات والتسليمات رُسُلُ الحقّ سبحانه إلى الخلق ليدعوهم إليه تعالى، ويدلُّوهم من الضلالة على طريق الهداية، كلُّ من يقبل دعوتهم يبشرونه بالجنَّة، وكلُّ من ينكر يهددونه بعذاب جهنم، وما بلَّغوه من طرف الحقّ سبحانه وأعلموا به كلّه حقٌّ وصدقٌ، ليس فيه شائبةُ التخلُّف. وخاتمُ الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ودينُه ناسخٌ لجميع الأديان السابقة، وكتابُه أفضلُ الكتب المتقدمة، ولا ناسخَ لشريعته، بل هي قائمةٌ إلى قيام القيامة، وينزل عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويعمل بشريعته، ويكون من جملة أمته.

وما أخبر به ﷺ من أحوال الآخرة كلُّه حقٌّ، من عذاب القبر، وضغطة اللحد، وسؤال منكر ونكير فيه، وفناء العالم، وانشقاق السّموات، وانتثار الكواكب، وزوال الأرض والجبال واندكاكها، والحشر والنشر، وإعادة الروح إلى الجسد، وزلزلة الساعة، وأهوال القيامة، ومحاسبة الأعمال، وشهادة الجوارح بالأعمال المكتسبة، وإتيان دفاتر الحسنات والسيئات يمينـًا وشمالاً، ووضع الميزان ليوزن به الحسناتُ والسيئاتُ ليعرف نقصانُ الحسنة والسيّئة وزيادتُهما، فإن ثَقُلَت كفّةُ الحسنات؛ فعلامةُ النجاة، وإن خفَّت؛ فعلامةُ الخسران والشقاوة، وثقلُ ذلك الميزان وخفَّتُه على خلاف ثقل ميزان الدنيا وخفته، فإنَّ الكفَّةَ المرتفعةَ هي الثقيلةُ هناك، والمتسفِّلةَ هي الخفيفةُ.

وشفاعةُ الأنبياء والصلحاء عليهم الصلاة والتسليمات أوَّلاً وثانيـًا...

لعصاة المؤمنين بإذن مالك يوم الدين جل سلطانه ثابتةٌ، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

والصراطُ يوضع على متن جهنم، فيمرُّ منه المؤمنون، ويذهبون إلى الجنة، ويزلق منه أقدامُ الكافرين، فيسقطون في جهنَّم، والجنَّةُ التي أعدت لتنعُّم المؤمنين وجهنَّم التي أعدَّت لتعذيب الكافرين كلتاهما مخلوقتان الآن، وتبقيان إلى أبد الآباد، ولا تفنيان، فإذا دخل المؤمنون الجنَّةَ بعد المحاسبة يدومون فيها لا يخرجون منها، وكذلك الكفارُ إذا دخلوا النَّارَ يدومون فيها يعذَّبون فيها أبد الآباد، وتخفيفُ العذاب عنهم غيرُ جائزٍ، قال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]، ومن كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من الإيمان، فإن أدخل النارَ بسبب إفراطه في المعاصي؛ يعذَّبُ بقدر عصيانه، ثم يخرج من النار أخيراً، ولا يسودُّ وجهُه كما يسودُّ وجه الكفار، ولا يجعل فيه الأغلالُ والسَّلاسلُ لحرمة إيمانه كما تجعل للكفار.

والملائكةُ عبادُ الله سبحانه المكرّمون، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، مبرؤون من صفات الذُّكورة والأنوثة، والتوالدُ والتناسلُ مفقودٌ في حقّهم، اصطفى الله سبحانه بعضهم للرِّسالة، وشرَّفه بتبليغ الوحي، وهم الذين بلَّغوا الكتبَ والصحفَ الأنبياءَ عليهم الصلوات والتسليمات، وهم محفوظون عن الخطأ والخلل، ومعصومون عن كيد العدوّ ومَكْره، وما بلَّغوه من عند الحقّ سبحانه وتعالى كلُّه صدقٌ وصوابٌ، ليس فيه شائبةُ احتمال الخطأ والاشتباه، وهؤلاء الكبراء خائفون من عظمة الحقّ وجلاله سبحانه، لا شُغْلَ لهم غير امتثال أوامره تعالى.

والإيمانُ: تصديقٌ بالقلب وإقرارٌ باللسان بما بلغنا من الدين بالتواتر والضَّرورة إجمالاً وتفصيلاً، وأعمالُ الجوارح خارجةٌ من نفس الإيمان، ولكنَّها تزيد الكمالَ في الإيمان، وتُورِثُ فيه الحسنَ، قال الإمامُ الأعظمُ الكوفِيُّ عليه الرَّحمة: الإيمانُ لا يقبل الزيادةَ والنقصانَ، فإنَّ التَّصديقَ القلبيَّ عبارةٌ عن يقين القلب وإذعانه، ولا مجالَ فيه للتَّفاوت بالزيادة والنقصان، وما يقبل التفاوتَ؛ فهو داخلٌ في دائرة الظنّ والوهم، وكمالُ الإيمان ونقصانُه باعتبار الطاعات والحسنات، كلَّما زادت الطاعةُ؛ زاد كمالُ الإيمان، فلا يكون إيمانُ عامة المؤمنين مثلَ إيمان الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، فإنَّ إيمانَهم بلغ ذروةَ الكمال بواسطة اقتران الطَّاعات، وإيمانُ العوام بمراحلَ عن نفس الكمال، فضلاً عن ذروته، وإن كان إيمانُ كلٍّ منهما متشاركين في نفس التصديق، ولكنَّ إيمانَ الأنبياء عَرَضَ له بواسطة طوق الطاعات حقيقةٌ أخرى، وكأنَّ إيمانَ العوام ليس فرداً من ذلك الإيمان، والمماثلةُ والمشاركةُ مفقودةٌ بينهما، ألا ترى أنَّ عوامَّ الناس وإن كانوا شركاء للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في نفس الإنسانيَّة، ولكنَّ الكمالاتِ الأخرَ للأنبياء بلَّغتهم الدَّرجات العليا، وأثبتت لهم حقيقةً أخرى، وكأنَّهم خارجون عن الحقيقة المشتركة، بل هم الناسُ، والعوامُّ لهم حكمُ النسناس؟ قال الإمام الأعظم عليه الرَّحمة: أنا مؤمنٌ حقّاً، وقال الإمامُ الشافعيُّ عليه الرَّحمة: أنا مؤمنٌ إن شاء الله تعالى، ولكل وجهة، باعتبار الحال يجوز أن يقال: أنا مؤمنٌ حقّاً، وباعتبار الخاتمة والمآل يصحُّ أن يقال: أنا مؤمن إن شاء الله، ولكن الاجتنابَ عن صورة الاستثناء أفضلُ بأيّ وجهٍ قال.

ولا يخرج المؤمنُ بارتكاب المعاصي من الإيمان ولو كبيرة، ولا يدخل في دائرة الكفر، نقل أنَّ الإمامَ الأعظمَ كان يومـًا جالسا مع جمعٍ من العلماء، فجاء شخصٌ، فقال: ما تقولون في حقّ مؤمنٍ.........................

فاسقٍ قتل أباه بغير حقٍّ، وقطع رأسَه، وشرب الخمرَ في كأس رأسه، ثم زنى بأمّه، هل هو مؤمنٌ أو كافرٌ؟ فتكلّم كلُّ واحدٍ من العلماء في حقه بما ليس بصوابٍ، ووقعوا في غلطٍ، فقال الإمامُ الأعظمُ في ذلك الأثناء: إنَّه مؤمنٌ لم يخرج بارتكاب هذه الكبائر من الإيمان، فثقل قول الإمام هذا على العلماء، فأطالوا لسانَ الطَّعن فيه والتَّشنيع عليه، ولكن لَمّا كان قولُ الإمام حقّاً قبله كلُّهم أخيراً، واعترفوا بأنَّه الحقّ، فلو وُفِّقَ المؤمنُ العاصي للتوبة قبل الغرغرة؛ فنرجو له نجاةً عظيمةً لوعد قبول توبته، وإن لم يتشرَّفْ بالتوبة والإنابة؛ فأمرُه إلى الله سبحانه، فإن شاء عفا وأدخله الجنَّة، وإن شاء عذَّبه بقدر معصيته بالنار أو بغير النار، ولكن آخر أمره النجاة، ومآلُه الجنَّة، فإنَّ الحرمانَ من رحمة الله تعالى في الآخرة مخصوصٌ بأهل الكفر، وأما من فيه ذرّةٌ من الإيمان؛ فهو مستحقٌّ للرحمة والغفران، وإن لم تبلغه الرَّحمةُ في الابتداء بواسطة علّةِ المعصية، ولكنَّها تشمله أخيراً بعناية الله سبحانه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وبحثُ الإمامة والخلافة وإن لم يكن عند أهل السُّنَّة شكر الله تعالى سعيهم من أصول الدين ومتعلّقاً بالاعتقاد، ولكن لَمّا غالت الشيعةُ في هذا الباب وأفرطوا فيه وفرَّطوا؛ أَلْحَقَ أهلُ الحق ﷺ هذا المبحث بعلم الكلام بالضَّرورة، وبيَّنوا حقيقةَ الحال، والإمامُ على الحقّ والخليفةُ على الإطلاق بعد خاتم الرُّسُل عليه وعليهم الصلاة والسلام أبو بكر الصديقُ، ثم عمرُ الفاروقُ، ثم عثمانُ ذو النورين، ثم علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وأفضليّتُهم على ترتيب خلافتهم، وأفضليّةُ الشَّيخين ثابتةٌ بإجماع الصحابة والتابعين كما نقله أكابرُ الأئمة، واحدٌ منهم الإمامُ الشافعيُّ، قال رئيسُ أهل السنة الشَّيخ أبو الحسن الأشعريُّ: إنَّ أفضليّةَ الشَّيخين على باقي الأمة قطعيَّةٌ، لا يُنْكِرُها إلا جاهلٌ أو متعصِّبٌ، قال علي كرم الله وجهه: من فضَّلني على أبي بكر وعمر؛ فهو مفترٍ، أضربه بالسَّوط كما يضرب المفترون، قال الشَّيخ عبد القادر الجيلانيُّ قدس سره في كتابه «الغنية» نقلاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمّا عرج بي إلى السماء سألت الله سبحانه أن يجعل الخليفة من بعدي علي بن أبي طالب، فقال الملائكةُ: يا محمد، كلُّما يشاء الله يكن، الخليفةُ بعدك أبو بكر»، وقال حضرةُ الشَّيخ أيضـاً: قال عليٌّ كرم الله وجهه: ما خرج رسولُ الله ﷺ من الدنيا حتى أخذ عَلَيّ عهداً على أنَّ أبا بكر يلي من بعدي، ثم عمرُ، ثم عثمان من بعده، ثم أنت من بعده رضي الله تعالى عنهم أجمعين. والإمامُ الحسنُ أفضلُ من الإمام الحسين رضي الله عنه، وعلماءُ أهل السنة يفضِّلون عائشةَ رضي الله عنها على فاطمة رضي الله عنها في العلم والاجتهاد، والشَّيخُ عبد القادر الجيلانيُّ قدس سره يقدِّمُ عائشة على فاطمة رضي الله عنها في كتابه «الغنية»، وما هو معتقدُ الفقير أنَّ عائشةَ أسبقُ قدماً في العلم والاجتهاد، وفاطمةَ أقدمُ في الزهد والانقطاع، ولهذا قيل لفاطمة: بتولاً، وهو صيغة المبالغة في الانقطاع، وعائشةُ هي مرجع فتاوى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ما وقع على أصحاب النبي ﷺ مشكلٌ في العلم إلا كان حلُّه عند عائشة رضي الله عنها.

والمحارباتُ والمنازعاتُ التي وقعتْ بين الأصحاب الكرام عليهم الرضوان مثل محاربة الجمل ومحاربة الصِّفِّين ينبغي أن يحملها على محامل صحيحةٍ حسنةٍ، وأن يبعدَهم عن الهوى والتعصُّب، فإنَّ نفوسَ هؤلاء الأكابر كانت مزكَّاةً عن الهوى والهوس، ومطهَّرةً عن الحقد والحرص، في صحبة خير البشر عليه..........................

وعليهم الصلاة والسلام، فإن وقعت عنهم مصالحةٌ؛ فهي لأجل الحقّ، وإن ظهرت منهم منازعةٌ ومشاجرةٌ؛ فهي أيضاً للحقّ سبحانه، كلُّ فرقةٍ منهم عملوا بمقتضى اجتهادهم، ودفعوا المخالفَ عن أنفسهم بلا شائبة هوى وتعصُّبٍ، فكلُّ من هو مصيبٌ في اجتهاده؛ فله درجتان من الثَّواب، وفي قولٍ: عشرُ درجاتٍ، ومن هو مخطئٌ؛ فله درجةٌ واحدةٌ من الثواب، فالمخطئُ كالمصيب بعيدٌ عن الملامة، بل يتوقَّعُ له درجةٌ من درجات الثواب. قال العلماءُ: إنَّ الحقَّ في تلك المحاربات كان في جانب عليّ كرم الله وجهه، وكان المخالفون في طرفٍ من الصواب، ومع ذلك ليسوا بموارد للطعن، ولا مجالَ للملامة فيهم، فضلاً عن أن ينسب إليهم الكفرُ والفسقُ، قال عليّ كرم الله تعالى وجهه: إخواننا بغوا علينا، ليسوا بكفارٍ ولا فساقٍ، فإنَّ لهم تأويلاً يمنع عنهم الكفر والفسق، قال نبينا ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِي»، فينبغي تعظيم جميع أصحاب النبي ﷺ، وأن يذكر جميعهم بخيرٍ، وأن لا يسيء الظنَّ بأحدٍ منهم، وأن يرى منازعتهم أفضلَ من مصالحة غيرهم، هذا هو طريقُ النجاة والفلاح، فإنَّ حبَّ الأصحاب الكرام بواسطة حب النبيّ، وبغضهم ينجرُّ إلى بغضه عليه وعليهم الصلاة والسلام، قال واحدٌ من الكبراء: ما آمن برسول الله ﷺ من لم يوقِّرْ أصحابه.

وعلاماتُ القيامة التي أخبر عنها المخبرُ الصادقُ ﷺ كلُّها حقٌّ، ليس فيها احتمالُ التخلُّف، كطلوع الشمس من جانب المغرب على خلاف العادة، وظهور المهدي عليه الرضوان، ونزول روح الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وخروج دجّالٍ، وظهور يأجوج ومأجوج، وخروج دابة الأرض، ودخانٍ يظهر من السماء يغشى الناسَ كلَّهم، ويعذبهم بعذابٍ أليمٍ، ويقول الناسُ من الاضطراب: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]، وآخرُ العلامات نارٌ تخرج من عدن. وزعم جماعةٌ من الجهالة: أنَّ الشَّخصَ الذي ادعى المهدوية من أهل الهند هو المهديُّ الموعودُ، فالمهديُّ قد مضى بزعمهم وفات، ويقولون: إنَّ قبره في فره، وفي الأحاديث الصحيحة التي بلغت حدَّ الشهرة - بل حدَّ التواتر المعنويّ - ما يكذِّبُ هذه الطَّائفة، فإنه ﷺ بيَّن للمهدي علاماتٍ، وتلك العلاماتُ مفقودةٌ في ذلك الشَّخص الذي يعتقدونه مهدياً، ورد في الأحاديث النبوية: أنَّه يخرج المهديُّ وعلى رأسه قطعةُ سحابٍ فيها ملكٌ ينادي: إنَّ هذا الشَّخص مهديٌّ فاتبعوه[1]، وقال ﷺ: «مَلَكَ جَمِيعَ الْأَرْضِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاثْنَانِ مِنَ الْكَافِرِينَ: ذُو الْقَرْنَيْنِ وَسُلَيْمَانُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَمْرُودُ وَبُخْتُ نَصَّرَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَسَيَمْلِكُ الْأَرْضَ خَامِسٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي»[2] يعني: المهديّ، وقال عليه الصلاة والسلام: «لَا تَزُولُ الدُّنْيَا حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، اسْمُهُ يُوَافِقُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ يُوَافِقُ اسْمَ أَبِي، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً»[3]، وورد في الحديث أيضاً: أنَّ أصحابَ الكهف يكونون أعوان المهديّ[4]، وينزل عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام في زمانه، وهو يوافق عيسى عليه السلام في قتال الدَّجّال، وفي زمان ظهور سلطنته تنكسف الشمسُ في الرّابع عشر من رمضان، وينخسف القمرُ في أوّل ذلك الشهر على خلاف العادة، وخلاف حساب المنجمين، ينبغي أن ينظر بنظر الإنصاف هل كانت هذه العلاماتُ في ذلك الشَّخص الميت أو لا؟ وله علامات أخر كثيرةٌ أخبر بها المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وكتب الشَّيخ ابنُ حجر رسالةً في بيان علامات المهدي المنتظر تبلغ مائتي ......

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٣٧) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ مرفوعاً بلفظ: «يخرج المهدي وعلى رأسه ملك ينادي: إنَّ هذا المهديَّ فاتَّبعوه». وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (ص: ٥٨) بلفظ: «يخرج المهديُّ من قريةٍ باليمن يقال لها: كرعةٌ، وعلى رأسه عمامةٌ فيها منادٍ ينادي... ».

(٢) نقله ابن قتيبة في «المعارف» (ص: ٣٢) عن وهب بن منبه قولَه، وعزاه يوسف المقدسي في «عقد الدرر»: (ص: ٧٧) و(٢٨١) والسيوطي في «الحاوي» (٨/ ٩٧) لابن الجوزي في تاريخه مرفوعاً تاماً كلفظ الإمام الرباني. وأخرجه أبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (ص: ١١٠) من قول ابن عباس ﵄، والطبري في «تاريخه» (١/ ٢٣٤) عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٢١٧) عن مجاهد، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦) عن سفيان الثوريّ بدون ذكر الخامس المهديِّ لكلِّهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٨٣) من حديث علي ﵁ مرفوعاً بلفظ: «لو لم يبقَ من الدهر إلا يومٌ لبعث اللهُ رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً». وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٢١٩) من حديث ابن مسعود ﵁ مرفوعاً بلفظ: «لا يذهب الأيامُ والليالي حتى يملك رجلٌ من أهل بيتي يواطئ اسمُه اسمي، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً».

(٤) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ﵄ مرفوعاً كما في «الدر المنثور»: (٥/ ٣٧٠).

علامةٍ، وبقاءُ جماعةٍ في ضلالةٍ مع وضوح أمر المهديّ الموعود من نهاية الجهالة، هداهم الله سبحانه سواء الصراط، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْهَا، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً**»، قالوا: ومن هذه الفرقةُ النَّاجيةُ يا رسول الله؟ قال: «**هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(١). وهذه الفرقةُ النَّاجيةُ أهلُ السنَّة والجماعة، فإنَّهم هم الملتزمون متابعته ومتابعة أصحابه عليه وعليهم الصلوات والتسليمات. اللهم ثبِّتْنا على معتقدات أهل السنة والجماعة، وأمتنا في زمرتهم، واحشرنا معهم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وبعد تصحيح الاعتقاد لا بُدَّ من امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي الشرعيتين المتعلّقتين بالعمل، ينبغي أداءُ الصلوات الخمس من غير فتورٍ مع تعديل الأركان والجماعة، والفارقُ بين الإسلام والكفر: هو هذه الصَّلاةُ، فإذا تيسّر أداءُ الصلاة على الوجه المسنون؛ فقد حصل الاستمساكُ بالحبل المتين من الدين، فإنَّ الصلاةَ هي الأصلُ الثّاني من الأصول الخمسة الإسلامية: الأصلُ الأوّلُ: الإيمانُ بالله وبرسوله سبحانه، والأصلُ الثّاني: الصلاةُ، والثّالثُ: أداءُ الزكاة، والرّابعُ: صومُ شهر رمضان، والخامسُ: حجُّ بيت الله، الأصلُ الأوّلُ يتعلّق بالاعتقاد، والأصولُ الأربعةُ الباقيةُ تتعلّق بالأعمال، وأجمعُ جميع العبادات وأفضلها الصلاةُ، ويكون ابتداءُ المحاسبة يوم القيامة من الصلاة، فإذا تمّ أمرُ الصلاة؛ تمضي محاسبةُ الأخرى بعناية الله سبحانه بالسهولة، وينبغي الاجتنابُ عن المحظورات الشَّرعيّة مهما أمكن، وأن يرى ما لا يرضاه المولى سبحانه سمّاً مهلكاً، وأن يجعل موادَّ التقصيرات نصب العين، وأن يكون خجلاً ومنفعلاً من ارتكابها، وأن يكون متندماً ومتحسراً على فعلها واقترافها، هذا هو طريقُ العبوديَّة، والله الموفِّق. والذي يرتكب ما لا يرضى عنه مولاه بلا تحاشٍ، ولا يكون خجلاً ومنفعلاً عن ذلك العمل؛ فهو ماردٌ متمرِّدٌ، ويكاد يُخْرِجُ إصراره وتمرُّدُه رأسَه عن ربقة الإسلام، ويُدْخِله في دائرة الأعداء، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. والدَّولةُ التي جعلك الله سبحانه ممتازاً بها وأكثرُ الناس غافلون عنها – بل تكاد لا تُدرِكها أنت أيضاً – هي أنَّ سلطانَ الوقت مسلمٌ من جدّه السَّابع، ومن أهل السُّنَّة، وحنفيُّ المذهب، وإن تقرَّب بعضُ طلبة العلوم بشؤم الطَّمع الناشئ من خبث الباطن من منذ سنين في هذه الأوان التي هي أوانُ قرب القيامة وبُعْد العهد من زمان النبوَّة إلى الأمراء والسلاطين، وداخَلوهم من طريق المطايبة والمداهنة، وأوقعوا في الدين المتين تشكيكاتٍ، وأظهروا فيه شبهاتٍ، وأضلُّوا الأغبياء عن الطَّريق، ولكن لَمّا كان مثلُ هذا السلطان عظيم الشأن مُصْغياً إلى قولكم بحسن الاستماع، ومتلقياً إياه بالقبول؛ كان اللازمُ أن يَعُدَّ ذلك دولةً عظيمةً، وأن يبلّغَ الكلمةَ الحقّةَ – يعني: كلمة الإسلام – الموافقة لمعتقدات أهل السنة شكر الله تعالى سعيهم صراحةً أو إشارةً إلى سمع السلطان، وأن يعرضَ إليه كلام أهل الحقّ بقدر الإمكان، بل ينبغي أن يترصَّدَ وينتظرَ دائماً فرصة لإيراد كلام أهل المذهب الحقّ في البين حتى تظهرَ حقيقةُ الإسلام، ويبدوَ بطلانُ الكفر وشناعتُه، والكفرُ هو ظاهرُ البطلان لا يستحسنه عاقلٌ أصلاً، ينبغي أن يُظْهِرَ بطلانَه بلا تحاشٍ، وأن ينفيَ آلهتهم الباطلةَ من غير توقُّفٍ، وأن يثبت الإلهَ الحقَّ الذي هو خالقُ السّموات والأرض بلا تردُّدٍ، هل كان مسموعاً أصلاً..............................

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) واستغربه من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما.

أنَّ آلهتهم الباطلةَ خلقوا ذبابةً ولو اجتمعوا له كلُّهم؟ بل لو قرصهم الذبابُ وآذاهم لا يقدرون حفظَ أنفسهم منه فضلاً عن حفظ غيرهم، وكأنَّ الكفرةَ قالوا ملاحظاً لشناعة هذا الأمر: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وإنَّهم ليقربونا إلى الله زلفى، ولم يدر هؤلاء المجانين أنَّه ليس لهذه الجمادات مجالُ الشفاعة، وأنَّ الحقَّ سبحانه لا يقبل شفاعةَ الشركاء الذين هم في الحقيقة أعداؤه تعالى في حق عبدة أعدائه، مثل قيّم بستانٍ خرج على سلطانٍ، فجاء جماعةٌ من البلهاء يمدُّون القيِّم بزعم أنَّه يشفعهم عند السلطان وقت المضايقة، وأنَّهم يتقربون إلى السلطان بالتوسُّل به، ما أعظم حماقتهم، حيث يخدمون القيِّمَ، ويطلبون العفوَ من السلطان بشفاعته، ويتقربون إليه به، لِمَ لا يخدمون السلطان على الحق، ويكسرون القيِّمَ حتى يكونوا من أهل القرب وأهل الحقّ، ويكونوا في أمنٍ وأمانٍ؟ وهؤلاء المجانين ينحتون الحجرَ بأيديهم، ويعبدونه سنين، ويطمعون منه توقُّعاتٍ.

وبالجملة الكفرُ ظاهرُ البطلان، والذين بعدوا عن الطَّريق الحقّ والصِّراط المستقيم من المسلمين هم أهلُ الهوى والبدعة، وذلك الطَّريقُ المستقيمُ هو طريقُ النبيّ وطريقُ خلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، قال الشَّيخُ عبد القادر الجيلاني قدس سره في كتابه «الغنية»: إنَّ أديان المبتدعة الذين أصولهم تسعةُ طوائف: الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والمشبهة والجهمية والضرارية والنجارية والكلابية لم تكن في زمن النبي ﷺ، ولا في زمان خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين أيضاً، واختلافُ هذه الطوائف وتفرُّقُهم إنّما حدث بعد سنين من موت الصَّحابة والتابعين وموت الفقهاء السبعة رضي الله عنهم أجمعين، قال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ؛ فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيرًا، فعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، وتَمَسَّكُوا بِهَا، وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وكُلُّمَا حَدَثَ بَعْدِي فهُوَ رَدٌّ**»(١)، فالمذهبُ الذي حدث بعد زمان النبي وخلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ساقطٌ عن حيّز الاعتبار ليس بلائقٍ به.

ينبغي أداءُ شكر نعمة الحق سبحانه العظمى، حيث جعلنا من كمال كرمه وفضله داخلين في الفرقة النَّاجية الذين هم أهل السنة والجماعة، ولم يجعلنا من فرق أهل الهوى والبدعة، ولم يبتلنا باعتقادهم الفاسد، ولم يجعلنا من الذين يشركون العبد بالله في أخصّ صفاته تعالى، ويزعمون أنَّ خالقَ أفعال العبد هو العبدُ، وينكرون الرؤيةَ الأخرويَّةَ التي هي رأسُ بضاعة السعادات الدنيوية والأخرويَّة، وينفون الصِّفات الكاملة عن الواجب تعالى، ولم يجعلنا أيضاً من الطَّائفتين اللتين يبغضون أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، ويسيؤون الظنَّ بأكابر الدين، ويزعمون أنَّهم كانوا يعادون بعضهم بعضاً، ويتهمونهم بالبغض المضمر، والحقد المبطن، والله سبحانه وتعالى يقول في حقّهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٩]، وهاتان الطائفتان يكذبون كلام الحق جل وعلا، ويثبتون بينهم العداوةَ والبغضاءَ والحقدَ، رزقهم الله سبحانه التوفيقَ، وبصَّرهم الصراط المستقيمَ. ولم يجعلنا أيضاً من الذين يثبتون الجهة والمكان للحقّ تعالى، ويزعمونه جسماً وجسمانياً، ويثبتون في الواجب القديم جلّ شأنه أمارات الحدوث والإمكان، ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول:

معلومُكم أنَّ السلطان كالروح، وسائرَ الناس كالجسد، فإن كانت الروحُ صالحةً؛ فالبدنُ صالحٌ، وإن كانت الروحُ فاسدةً؛ فالبدنُ فاسدٌ، فالاجتهادُ والسعيُ في إصلاح السُّلطان اجتهادٌ وسعيٌ في إصلاح ....

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وصححه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه بدون قوله: «وكل ما حدث بعدي فهو رد».

جميع بني آدم، والإصلاحُ في إظهار كلمة الإسلام بأيّ طرزٍ كان يساعدُه الوقتُ، وبعد إظهار كلمة الإسلام ينبغي أن يوصل سمعَه معتقدات أهل السُّنَّة والجماعة أيضاً في بعض الأحيان، وأن يردَّ مذهبَ المخالف، فإن تيسّرت هذه الدَّولةُ؛ فقد حصلت الوراثةُ العظمى من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وهذه الدَّولةُ قد حصلت لكم مجاناً، فينبغي أن يعرف قدرها، وماذا أبالغ أزيد من ذلك وإن كانت المبالغةُ مستحسنةً؟ والله سبحانه الموفق.

المكتوب الثامن والستون

إلى الخواجه شَرفِ الدِّين الحُسينِ في بيانِ العَمودِ النُّورانيِّ، وكَوكبٍ ذي ذَنبٍ طَلَعَ من جانبِ المَشرقِ، وفي عَلاماتِ القيامَة، وأشراطِ السَّاعةِ، وما يُناسبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. عليهم الصلوات والتحيات. قد سرت الصحيفةُ الشَّريفةُ التي أرسلها الولدُ الأعزُّ صحبة مولانا أبي الحسن بوصولها، وقد استفسرتم مكرَّراً عن العمود النورانيِّ الذي طلع من جانب المشرق.

اعلم أنَّه قد ورد في الخبر: أنَّه إذا بلغ الملك العباسِّيُ الذي هو من مقدِّمات ظهور المهدي الموعود عليه الرضوان خراسانَ يَطْلُعُ في جانب المشرق قرنٌ ذو سنين، وكتب في الحاشية: يعني: يكون للعمود المذكور رأسان، وكان أَوَّلُ طلوعه في زمان هلاك قوم نوحٍ على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وطلع أيضاً في زمان إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حين رموه في النَّار، وظهر أيضاً وقتَ هلاك فرعون وقومه، وحين قتل يحيى على نبينا وعليه السلام، فمن رآه؛ فليستعذ بالله سبحانه من شرّ الفتن، وهذا البياضُ الذي حدث في جانب المشرق كان أَوَّلاً في صورة العمود المنوَّر، ثم عرض له اعوجاجٌ وشباهةٌ بالقرن، ويمكن أن يكون إطلاقُ الرأسين له باعتبار أنَّ كُلّاً من طرفيه صار دقيقاً شبيهاً بالسنّ، فاعتبر كلٌّ من طرفيه رأساً، كما أنَّ الرمحَ إذا كان كلٌّ من طرفيه دقيقاً؛ يعتبر كلٌّ منهما رأساً. جاء أخي الشَّيخ محمد طاهر البدخشي من جونپور وهو يقول: إنَّ هذا العمودَ كان له في طرف الفوق أيضاً رأسان شبيهان بسِنَّين، وكانت بينهما فاصلةٌ يسيرةٌ، حصل تشخيصُ هذا المعنى في الصحراء، وأخبر جمعٌ آخرُ أيضاً بمثل ذلك، وهذا الطلوعُ غيرُ ذاك الطُّلوع الذي يحدث حين ظهور المهديّ، فإنَّ ظهورَه يكون على رأس مائةٍ، والآن قد مضى من المائة ثمان وعشرون سنةً، وورد أيضاً في الخبر في علامات المهديّ: أنَّه يطلع في جانب المشرق كوكبٌ له ذنبٌ يضيءُ، وهذا الكوكبُ أيضاً قد طلع، هل هو ذاك أو مثله؟

ويمكن أن يكون إطلاقُ ذي ذنبٍ على هذا الكوكب لِمَا قالوا: إنَّ سيرَ الثوابت من المغرب إلى المشرق، فوجهُ ذلك الكوكب بحسب سيره نحو المشرق، وظهرُه نحو المغرب، فهذا البياضُ الطويلُ وراء ظهره، فناسب أن يسمّى: ذنباً، وارتفاعُه في كلِّ يومٍ من المشرق إلى المغرب إنّما هو بسيره القسريّ المربوط بسير الفلك الأعظم، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال. وبالجملة: إنَّ وقتَ ظهور المهدي قريبٌ، وكم من مقدماتٍ ومبادٍ تظهر إلى رأس المائة الذي هو أوانُ ظهوره، ومقدّماتُ ظهوره عليه الرضوان ومباديه مثلُ إرهاصات نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام التي ظهرت قبل ظهور نبوته عليه السلام، كما قالوا: إنَّ نطفةَ عبد الله التي كانت صورة محمد رسول الله ﷺ لَمّا استقرت في رحم آمنة؛ سقط جميعُ الأصنام في وجه الأرض على وجهها، وامتنع جميع الشياطين عن شغلها، وقلب الملائكةُ............

تحتَ إبليس ظهراً لبطنٍ، ورموه في البحر، وعذَّبوه أربعين يوماً، وتزلزل ليلةَ ولادته عليه الصلاة والسلام إيوانُ كسرى، وسقطت منه أربعة عشر شرافات، وانطفتْ نارُ مجوسٍ، وقد مضى من إيقادها ألف سنةٍ لم تنطفِ في تلك المدة قطُّ، وحيث إنَّ المهديَّ يكون عظيماً، ويحصل بسببه للإسلام والمسلمين تقويةٌ عظيمةٌ، ويكون لولايته تصرُّفٌ عظيمٌ في الظَّاهر والباطن، ويكون صاحبَ خوارق وكرامات كثيرةٍ، وتظهر في زمانه آياتٌ عجيبةٌ؛ يجوز أن يظهر قبل وجوده أشياءُ خوارقُ للعادات مثل إرهاصات النبي عليه الصلاة والسلام، وتكونَ من مبادئ ظهوراته كما يفهم ذلك من الأحاديث.

واعلم أنَّه قد ورد في الخبر: أنَّ المهديَّ لا يظهر حتى يستولي الكفرُ، وتجري أحكامُه على الملأ، فالمتوقَّعُ في هذا الوقت هو استيلاءُ الكفر وقوَّتُه، وضعفُ الإسلام والمسلمين، وهو ذاك الوقتُ الذي قال النبي ﷺ في حقّ غرباء أهل الإسلام فيه: «**طُوبَى لَهُمْ**»، وبشَّرهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «**العِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(١)، ومعلومُكم أنَّ العساكرَ إذا صدرت عنهم وقت استيلاء الفتنة والفساد جراءةٌ يسيرةٌ وحركة قليلة يحصل لهم اعتبارٌ كثيرٌ، وفي وقت تسكين الفتنة لا اعتبار لهم، ولو صدرت عنهم حركاتٌ كثيرةٌ، فوقتُ العمل ووقوعُه موقع القبول هو وقتُ الفتن، فينبغي بذلُ النَّفس بالتمام في مرضيات الله تعالى، وأن لا يختار شيئاً غير متابعة السنة السَنيَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية لو أردتم أن تحشروا من المقبولين، ألا ترى أنَّ أصحابَ الكهف بلغوا درجةً عليا بهجرةٍ واحدةٍ؟ وأنتم من المحمديين، وداخلون في زمرة أمته خير الأمم، فلا تضيِّعوا أوقاتكم باللَّهو واللَّعب، ولا تغتروا بالجوز والموز مثل الأطفال: (شعر)

وأَبْدَيْتُ مِنْ كَنْزِ المَرَامِ عَلَامَةً ... لَعَلَّكَ إِنْ تَحْظَى بِهِ أَنْ تُحَاوِلَ

والعمودُ النورانيُّ الذي طلع قبل ظهور هذا الكوكب ذي الذَّنَب لم يُرَ فيه ظلمةٌ وكدورةٌ، ولم يظهر في النظر غيرُ الخير، وأما الكوكبُ ذو الذنب؛ فقد كانت فيه شائبةُ الكدورة، لا بل النافعُ والضارُّ هو الله سبحانه، لا مدخلَ لشيءٍ من الكواكب في موت شخصٍ وحياته وولادته، وما يفهم من الكلام المجيد أنَّ الأغراضَ التي تتعلّق بالنُّجوم ثلاثةٌ، قال تعالى: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦] يعني: يهتدون بها إلى الطَّريق في أسفار البرّ والبحر، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك: ٥]، والغرضُ الثّالثُ: هو رجمُ الشياطين لئلا يسترقوا السمع، وكلُّما قيل وراء هذه الأغراض الثلاثة؛ فليس بثابتٍ، بل داخلٌ في الأوهام والخيالات، ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس: ٣٦]، بل نقول: إنَّ بعضَ الظن إثمٌ.

ويكتب للولد الأعز مكرَّراً أنَّه قد جاء وقتُ التوبة والإنابة، وزمانُ التبتُّل والانقطاع، فإنَّ هذا الزمانَ زمانُ ورود الفتن، يكاد يُصَبُّ الفتن مثل مطر النيسان، وتغشى جميع العالم، قال سيدنا ونبينا الصادق المصدوق عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً، وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِناً، وَيُصْبِحُ كَافِراً، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، والمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسِّرُوا فِيهَا قِسِيَّكُمْ، واقْطَعُوا فِيهَا أَوْتَارَكُمْ، واضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالحِجَارَةِ، فَإِنْ دُخِلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ؛ فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ**»، وفي روايةٍ: قالوا: فما تأمرنا؟ فقال: «**كُونُوا أَحْلَاسَ**(٢) **بُيُوتِكُمْ**»(٣)، وفي روايةٍ: «**وَالْزَمُوا فِيهَا أَجْوَافَ بُيُوتِكُمْ**»(٤)، ولعلَّه كان معلومكم أنَّ كفارَ دار الحرب في نواحي نكركوت ماذا فعلوا على المسلمين من الجور والجفاء في هذه الأيَّام، وماذا صنعوا في بلاد الإسلام، وأيَّةَ إهانةٍ........................

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ﵁.

(٢) في أكثر النسخ: «أجلاس» بالجيم، والأحلاسُ: جمعُ حِلس، وهو الكساءُ الذي يكون على ظهر البعير، وفلانٌ حلسُ بيته: يلزمه لا يفارقه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٩، ٤٢٦٣)، من حديث أبي موسى الأشعري ﵁.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٠٤) وحسنه من حديث أبي موسى الأشعري أيضاً ﵁.

أصابهم منه، خذلهم الله سبحانه. ومثلُ هذا الورد كريه الرائحة يتفتَّق كثيراً بمقتضى آخر الزمان[1]. ثبتنا الله سبحانه وإياكم وجميع المؤمنين، على متابعة سيد المرسلين، عليه وعليهم وآل كلّ وعلى الملائكة المقربين الصلاةُ والسلامُ.

المكتوبُ التاسعُ والستون

إلى محمَّدٍ مُرادٍ البدَخْشيِّ في بيانِ تَعديلِ أركانِ الصَّلاةِ والطُّمأنينَةِ، وتَسويَةِ الصُّفوفِ، ولُزومِ تَصحيحِ النِّيَّةِ عندَ الذَّهابِ إلى مُحاربَةِ الكُفَّارِ، والأمرِ بصَلاةِ التَّهجُّدِ، والاحتياطِ في اللُّقمةِ، وما يَتعلَّقُ به.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ التي أرسلتموها، ولَمّا كانت متضمِّنةً لثبات الأصحاب واستقامتهم أورثتْ فرحًا وافراً، زادكم الله سبحانه ثباتًا واستقامةً، واندرج فيها أنَّ الأمرَ الذي كنّا مأمورين به نداوم عليه مع جمعٍ من الأصحاب الذين دخلوا في الطَّريقة، ونؤدّي الصلوات الخمسَ بجماعةٍ مشتملةٍ على خمسين أو ستين نفراً، حمداً لله سبحانه على ذلك، يا لها من نعمةٍ عظيمةٍ إذا كان الباطنُ معموراً بالذكر الإلهيّ جلّ شأنه، والظَّاهرُ متحلّى بالأحكام الشَّرعيّة، ولَمّا كان أكثرُ الناس في هذه الأيام يتساهلون في أداء الصلاة، ولا يتقيدون بالطُّمأنينة وتعديل الأركان؛ أردت أن أكتب في هذا الباب بالتأكيد والمبالغة بالضَّرورة، فينبغي الاستماعُ والإصغاءُ. قال المخبرُ الصادقُ عليه الصلاة والسلام: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً: الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ**»، قالوا: يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا**»[2]، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام أيضاً: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى صَلَاةِ عَبْدٍ لَا يُقِيمُ فِيهَا صُلْبَهُ بَيْنَ خُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا**»[3]، ورأى النبيُّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام رجلاً يصلي ولا يتمُّ ركوعه ولا سجوده، فقال: «**أَمَا تَخَافُ لَوْ مُتَّ عَلَى ذَلِكَ؛ لَمُتَّ عَلَى غَيْرِ دِينِ مُحَمَّدٍ**»[4]، وأيضاً قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**لَا تَتِمُّ صَلَاةُ أَحَدِكُمْ حَتَّى يَقُومَ بَعْدَ رُكُوعِهَا بِالتَّمَامِ، وَيَثْبُتَ صُلْبُهُ، وَيَسْتَقِرَّ كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ فِي مَحَلِّهِ**»[5]، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا لَمْ يَقْعُدْ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، وَلَمْ يُقِمْ صُلْبَهُ وَيَثْبُتْ؛ لَا يَتِمُّ صَلَاتُهُ**»[6]، ومرَّ النبيُّ ﷺ بواحدٍ من المصلين، فرآه لا يتمُّ أحكامَ الصلاة وأركانها والقومة والجلسة، فقال: «**لَوْ مُتَّ عَلَى ذَلِكَ لَا يُقَالُ لَكَ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[7]، وقال في محلّ آخر: «**لَوْ مُتَّ عَلَى ذَلِكَ؛ مُتَّ عَلَى غَيْرِ دِينِ مُحَمَّدٍ**»[8]، قال أبو هريرة رضي الله عنه: يكون شخصٌ يصلي ستين سنةً، ولا تقبل واحدةٌ من صلواتها، وهو شخصٌ لا يتمُّ ركوعَه ولا سجودَه، قيل: رأى زيدُ بن وهب رجلاً يصلي ولا يتمُّ الركوعَ والسجودَ، فدعاه، وقال: منذ كم سنة تصلي هكذا؟ قال: منذ أربعين سنةً، قال: ما صَلَّيْتَ في هذه الأربعين سنةً، لو مِتَّ لمتَّ على غير سنة محمدٍ، نقل أنَّه إذا صلى المؤمنُ، وأحسن صلاتَه، وأتمَّ ركوعه وسجوده؛ يكون لصلاته بشاشةٌ ونورٌ، فتعرج بها الملائكةُ إلى السماء، وتدعو الصلاةُ للمصلي، وتقول: حفظك الله كما حفَظتني، فإن لم يحسن أداءَ الصلاة تكون تلك الصلاةُ ظلمانيّةً، فتكرهها الملائكةُ، ولا يعرجون بها إلى السماء، فتدعو الصلاةُ على المصلي دعاء الشرِّ، وتقول: ضيَّعك الله تعالى كما ضيعتني[9].

فينبغي إتمامُ أداء الصلاة، وتعديلُ الأركان، ورعايةُ القومة والجلسة، وينبغي دلالةُ الآخرين أيضاً على إتمام الصَّلاة بالطُّمأنينة وتعديل الأركان، وأكثرُ الناس محرومون من هذه الدَّولة، وهذا العملُ صار متروكاً بالكليَّة، وإحياؤه من أهمِّ مهمات الإسلام، قال رسول

---

(١) وقد وقع كل ذلك، ولا يزال يقعُ، ولا يزيد الأمر إلا شدَّةً، ولا يرى المسلمون إلا كربةً. من المعرِّب.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٦٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٨٣)، و«الأوسط» (٣٣٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٨٣٥) وصححه، ووافقه الذهبيُّ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه. قال الهيثمي (٢/ ١٢٠): رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٢٦١) من حديث طلق بن علي رضي الله عنه، وفيه: «ركوعها» بدل: «خشوعها». قال الهيثمي (٢/ ١٢٠): رجاله ثقات.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٥٨) من حديث حذيفة بن اليمان قولَه، وفيه: «لمت على غير الفطرة التي فطر عليها محمد ﷺ». وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٨٥) من حديث بلالٍ أنه قال: «لو متَّ الآن لمتَّ على غير ملَّة عيسى عليه السلام».

(٥) أخرجه أبو داود (٨٥٨) من حديث رفاعة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «إنَّها لا تتمُّ صلاةٌ لأحدٍ -وفي رواية: صلاة أحدكم- حتى يتوضأ، فيضع الوضوء - يعني: مواضعَه -، ثم يكبر، ويحمد الله جل وعزَّ، ويثني عليه، ويقرأ بما تيسر من القرآن، ثم يقول: الله أكبر، ثم يركع حتى تطمئنَّ مفاصلُه، ثم يقول: سمع الله لمن حمده حتى يستوي قائماً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يسجد حتى تطمئنَّ مفاصلُه، ثم يقول: الله أكبر، ويرفع رأسه حتى يستوي قاعداً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يسجد حتى تطمئنَّ مفاصلُه... ».

(٦) أخرجه ابن ماجه (٨٧٠) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجلُ فيها صلبه في الركوع والسجود»، وأخرجه أيضاً (٨٧١) من حديث علي بن شيبان رضي الله عنه مرفوعاً: «يا معشر المسلمين، لا صلاة لمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود». قال البوصيري (١/ ١٠٨): إسنادٌ صحيحٌ رجاله ثقاتٌ.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٨) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٨٤٠) من حديث أبي عبد الله الأشعري عن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم مرفوعاً: «لو مات هذا على حاله هذه مات على غير ملة محمدٍ ﷺ». قال الهيثمي (٢/ ١٢١): إسنادُه حسنٌ. وعزاه الهيثميُّ للطبرانيِّ من حديث بلال رضي الله عنه قولَه، وقال: رجالُه ثقاتٌ.

(٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه، والطيالسي في «مسنده» (٥٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٧١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الله ﷺ: «مَنْ أَحْيَى سُنَّتِي بَعْدَ أَنْ أُمِيتَتْ؛ فَلَهُ ثَوَابُ مِائَةِ شَهِيدٍ»(١). واعلم أيضاً أنَّه ينبغي تسويةُ الصُّفوف في صلاة الجماعة من غير أن يتقدَّم أحدٌ من المصلين ولا يتأخَّر، بل ينبغي السَّعيُ في تسوية الكلّ، كان رسول الله ﷺ أوَّلاً يسوّي الصفوف، ثم يشرع في الصلاة(٢)، وقال ﷺ: «تَسْوِيَةُ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»(٣). ربنا آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

أيها السعيدُ، العملُ إنّما يصحُّ بالنيَّة، وحيث ذهبتم إلى الجهاد مع كفار دار الحرب ينبغي أوَّلاً تصحيحُ النيَّة حتى يترتَّب عليه النَّتيجةُ، ينبغي أن يكون المقصودُ من هذا الحرب والجدال: إعلاءَ كلمة الله، وتوهينَ أعداء الدين وتخريبهم، فإنّا مأمورون بذلك، المقصودُ من جميع الجهاد هو هذا، فلا تبطلوا نيَّاتكم بأمورٍ أُخَرَ، وعلوفةُ الغزاة مقرَّرةٌ ومتعيّنةٌ من بيت المال، ليست بمنافيةٍ للجهاد في سبيل الله، ولا توجب النُّقصان في أجرة الغزاة، وإنَّما يبطل العملَ النياتُ الفاسدةُ، فينبغي تصحيحُ النيَّة، وأخذُ العلوفة من بيت المال، والجهادُ مع الكفار، وتوقُّعُ أجر الغزاة والشهداء، ونحن نغبط حالكم حيث إنَّكم مشغولون في الباطن بالحقّ سبحانه، وفي الظَّاهر تؤدُّون الصَّلاةَ مع جماعةٍ كثيرةٍ، ومع ذلك تشرَّفْتم بالجهاد مع الكفار، فمن سلم؛ فهو غازٍ، ومن هلك؛ فهو شهيدٌ، ولكن كُلُّ ذلك إنّما يتصوَّرُ بعد تصحيح النيَّة، فإن لم تتحقّقْ حقيقةُ النيَّة؛ ينبغي تحصيلُها بالتكلّف، وأن يكون ملتجئاً ومتضرّعاً إلى الله تعالى لتتيسَّرَ حقيقةُ النية، ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

والنَّصيحةُ الأخرى التي أنصح بها: التزامُ صلاة التهجُّد، فإنَّها من ضروريات الطَّريق، وقد قيل لكم في الحضور أيضاً: إذا تعسَّرَ عليكم هذا المعنى، ولم يتيسّر الانتباهُ على خلاف المعتاد؛ ينبغي أن يوكّل لهذا الأمر جمعاً من المتعلّقين ليوقظوكم وقت التهجُّد طوعاً أو كرهاً، ولا يتركوكم على نوم الغفلة، فإذا فعلتم ذلك أياماً يرجى أن تتيسّرَ المداومةُ على ذلك من غير تكلّفٍ.

والنصيحةُ الأخرى: الاحتياطُ في اللقمة، لا ينبغي للإنسان أن يأكل كلّما التقاه من أيّ محلٍّ كان من غير ملاحظة الحليَّة والحرمة الشرعيتين، فإنَّ الإنسانَ لم يُتْرَكْ سدى حتى يفعل كلَّما يريدُ، بل له مولى جل شأنه كلَّفَه بالأمر والنهي، وبيَّن مرضاه وغير مرضاه بتوسُّط الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين هم رحماتٌ للعالمين، والمحرومُ من السعادة من يقتضي خلافَ مرضي مولاه، ويتصرَّف في ملكه وملكوته بلا إذنه.

ينبغي الاستحياءُ حيث يراعون رضى الصاحب المجازيّ، ولا يريدون فوتَ دقيقةٍ في هذا الباب، ومولاهم الحقيقيُّ قد نهاهم عن الأمور الغير المرضيَّة بالتأكيد والمبالغة، وزجرهم زجراً بليغاً، وهم لا يلتفتون إليه أصلاً، فهذا هل هو إسلامٌ أو كفرٌ؟ فليتفكروا تفكُّراً جيداً، وما فاتت الفرصةُ، يمكن أن يتدارك ما سبق، «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»(٤) بشارةٌ للمقصرين، فلو أصرَّ شخصٌ على الذَّنب مع وجود ذلك، وفَرِحَ به؛ فهو منافقٌ، لا ترفع صورةُ إسلامه عقوبتَه، ولا تمنع عنه العذابَ، وماذا أبالغ زيادةً على ذلك؟ العاقلُ تكفيه الإشارةُ.

وقراءةُ سورة قريش في المخاويف ومحالّ استيلاء الأعداء مجرَّبةٌ للأمن والرفاهية، فينبغي قراءتُها في اليوم والليلة إحدى عشرة مرةً، لا أقلَّ من ذلك، وورد في الحديث المصطفويّ: أنَّ من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لا يضره شيءٌ حتى ارتحل من منزله ذلك(٥). والسلام على من اتبع الهدى.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد» (ص: ١١٨) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي؛ فله أجر مائة شهيد».

(٢) أخرج مسلم (٤٣٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يسوِّي صفوفنا حتى كأنَّما يسوِّي بها القداحَ).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٣)، ومسلم (٤٣٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي لفظ مسلم: «من تمام الصلاة».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» من حديث ابن مسعود ﷺ، قال الهيثمي (١٠/ ٢٠٠): رجاله رجالُ الصحيح، إلا أنَّ أبا عبيدة بن عبد الله لم يسمع من أبيه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم ﷺ.

المَكتُوبُ السَّبعُون

إلى مولانا عبدِ الواحِد اللَّاهُورِيِّ في بيانِ الأسرارِ والحَقائِقِ المُتعلِّقةِ بالكَعبَةِ المُعظَّمة، وكما أنَّ في الإنسانِ أُنموذَج العَرشِ؛ فيه أُنموذجُ الكَعبَة أيضًا، وما يُناسبُ ذلك.

اعلم كما أنَّ قلبَ الإنسان أنموذجُ عرش الرحمن جلّ سلطانه، والظُّهورُ القلبيُّ فيه مثلُ الظهور العرشيّ؛ كذلك من بيت الله أيضًا في الإنسان علامةٌ حيث إنَّه معتدلٌ، وعن اليمين والشمال ممتازٌ ومعتزلٌ، وبحسن الصِّفة متفرِّدٌ ومتجمِّلٌ، وأربابُ هذه الدَّولة العظيمة بالأصالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويشرَّفُ بها من أممهم بتبعية هؤلاء الأكابر ووراثتهم كلُّ من أريد له ذلك، وكانت هذه الدَّولةُ في أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والتحيات ببركة صحبة الأنبياء عليهم السلام أكثرَ وأزيدَ، وقلَّت بعد زمان الأصحاب، بحيث لو تشرَّف بها أحدٌ بعد قرونٍ متطاولةٍ بالتبعية والوراثة كانت مغتنمةً وكبريتًا أحمر، وهذا الشَّخصُ داخلٌ في زمرة الأصحاب الكرام عليهم الرضوان(1)، ومن جملة السَّابقين، وصاحبُ هذه النِّسبة العليّة ممتازٌ بدولة مركز المطلوب، وإن كان في نفس المركز أيضًا مراتبُ، ولكنَّه مشرَّفٌ بدولة السَّبقة، وما أكشف من هذا المعمّى زيادةً على ذلك؟ وما أشرح بغير هذه الرموز؟ فإذا ظهرت هذه النِّسبةُ العليّة بفضل الله سبحانه تزول النسبُ السَّابقةُ كلُّها، لا يبقى منها اسمٌ ولا رسمٌ، سواءٌ كانت نسبة القلب أو غيرها، إذا جاء نهرُ الله بطل نهرُ عيسى علامةُ ذلك الموطن، وأصحابُ هذه الدَّولة على الصِّراط المستقيم الذي وقع محاذيًا بوصول المطلوب، والذي هو من هذا الصِّراط على يمينٍ وشمالٍ، فوصولُه إلى ظلٍّ من الظِّلال، وإن كانت المراتبُ في الظِّلال أيضًا متفاوتةً، ولكن كلّها متّسمةٌ بسمة الظِّلِّيَّة: (شعر)

وَمَا قَلَّ هِجْرَانُ الحَبِيبِ وإنْ غَدَا — قَلِيلاً، ونِصْفُ الشَّعْرِ فِي العَيْنِ ضَائِرُ

ومن فارَقَ الصراطَ المستقيمَ مقدار خردلةٍ؛ فكلَّما يمشي ويسير ينأى عنه، ويتباعدُ عن الوصول إلى المطلوب: (شعر)

لَنْ تَبْلُغَ الكَعْبَةَ العَلْيَاءَ يَا بَدَوِي — إنَّ الطَّرِيقَ الذي تَمْشِي إلَى الخَتَنِ

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على الصراط المستقيم، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالسَّبعُون

إلى حَضرَة المَخدومِ زَادَه جامِعِ العُلومِ العَقليَّة والنَّقليَّة الخواجه محمَّدٍ سعيدٍ سَلَّمه اللهُ تعالى.

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) الكلمةُ الأولى متضمِّنةٌ لإثبات مرتبة الذات تعالت وتقدست ظهور مرتبة الوجوب في الصورة المثاليَّة بصورة النُّقطة، يشاهد أقرب من ظهور تلك المرتبة بصورة الطول والعرض، وإن لم يكن في تلك المرتبة مجالٌ للنُّقطة ولا للدَّائرة، ولا للطول ولا للعرض ولا للعمق، فلا جرم ترى الكلمةَ المثبتةَ في الصُّورة الكشفيَّة كالنقطة، وكلمة (محمد رسول الله) لَمّا كانت منبئةً عن دعوة الخلق التي تتعلّق بالأجسام والجواهر، وللطول والبسط فيها قدمٌ راسخٌ؛ فلا جرم تظهر صورةُ هذا المقام المثالية في النظر الكشفيّ طويلةً عريضةً، وفي هذا المقام يجد السَّالكُ الكلمةَ الثّانيةَ بواسطة بقية السُّكر فيه كالبحر، ويتخيَّلُ الكلمةَ الأولى كالنقطة في جنب ذلك البحر، ومن ههنا حكم هذا الفقيرُ بواسطة بقية السُّكر فيه، وكتب أنَّ الكلمةَ..........................

(١) يعني: في حصول هذه الفضيلة فقط، لا من جميع الوجوه. من المعرِّب.

الثّانية بحرٌ، والكلمةَ الأولى كالنقطة في جنبه، وقال صاحبُ «الفتوحات المكية» أيضـاً في هذا المقام: إنَّ الجمعَ المحمديَّ أجمعُ من الجمع الإلهيّ اللامتناهي، فإذا بَدَتْ وسعةُ مرتبة الوجوب اللاكيفيّة تعالت وتقدست بعناية الله سبحانه، وظهرت إحاطةُ تلك المرتبة المقدسة اللاكيفية أيضـاً، وصار حكمُ العالم بالتمام بهذا الطول والعرض حكمَ الجزء الذي لا يتجزّأ بالنِّسبة إلى بحرٍ لا نهاية له؛ يجد السَّالكُ في ذلك الوقت الشَّيء الذي وجده أوّلاً نقطةً بحراً لا نهاية له، ويرى البحرَ المحيطَ أصغرَ من الجزء الذي لا يتجزَّأُ، ولا يظنَّنَ أحدٌ هنا أنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة لكون الولاية مناسبةً للكلمة الأولى، والنبوَّة ملائمة للكلمة الثّانية؛ لأنّا نقول: إنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عن محصول كلتا الكلمتين المقدستين، عروجُ النبوَّة يتعلّق بالكلمة الأولى، ونزولُها بالكلمة الثّانية، فيكون مجموعُ الكلمتين حاصل مقام النبوَّة، لا أنَّ الكلمةَ الثّانيةَ فقط حاصلُ النبوَّة كما ظنَّ البعضُ، وزعم أنَّ الكلمةَ الأولى مخصوصةٌ بالولاية، وليس كذلك، بل كلتا الكلمتين حاصلُ مقام الولاية باعتبار العروج والنزول، وحاصلُ مقام النبوَّة أيضـاً كذلك باعتبار العروج والنزول.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ مقامَ الولاية ظلُّ مقام النبوَّة، وكمالاتُ الولاية ظلالٌ لكمالات النبوَّة، وكلُّما يقال في مقام السُّكر معذورٌ ومعفوٌّ عنه، وهذا الفقيرُ أيضـاً شريكٌ لهم في السُّكريات، ولهذا كتب في بعض مكاتيبه: إنَّ الكلمةَ الأولى مناسبةٌ لمقام الولاية، والكلمةَ الثّانيةَ مناسبةٌ لمقام النبوَّة، والسُّكرُ أيضـاً نعمةٌ عظمى إن تيسّرَ الخروجُ منه إلى الصَّحو، ومن كفر الطَّريقة إلى إسلام الحقيقة، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] بحرمة حبيبك عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالسَّبْعُونَ

إلى المَخدومِ زَادَه الخواجه محمَّدٍ مَعصومٍ في بيانِ أنَّ مُعامَلة بيتِ اللهِ المقدَّسِ المطهَّر فوقَ التَّجلّياتِ والظُّهوراتِ، وفوقَ الظُّهورِ العَرشيِّ، وفي بيانِ اللَّحاقِ، والوصولِ إلى حقيقةِ الكعبةِ، وشَوقِ الصُّورة إلى زِيارَة صورةِ الكعبةِ المعظَّمةِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

الظُّهورُ العرشيُّ وإن كان فوق جميع الظُّهورات، ولكنَّ المعاملةَ المربوطةَ بيت الله المقدس المطهَّر فوق الظهورات والتجلّيات، حتى إنَّ ذكر اسم الظهور والتجلّي عارٌ في ذاك المحلّ، والتجلّياتُ والظهوراتُ حكمُها حكمُ محيط الدَّائرة، وهذه المعاملةُ في حكم مركز تلك الدَّائرة، ولا شك أنَّ محيطَ الدَّائرة مع وجود وسعته ظلُّ مركز الدَّائرة، فإنَّ نقطةَ المركز هي التي وسعتْ ظلَّها، وظهرت في صفة مائةِ نقطةٍ، وصارت محيطَ الدَّائرة، والتَّعبيرُ بالنُّقطة فيما نحن فيه من قبيل التَّعبير عن الشَّيء بأقرب الأشياء إليه، وإلا؛ فالنُّقطةُ أيضـاً هناك كالدَّائرة مفقودةٌ لا مجالَ هناك للظَّاهر ولا للمظهر، ولا مساغَ للأصل ولا للظلِّ، فإنَّ الأصلَ أيضـاً باقٍ في الطَّريق من الوصول إلى قصر تلك الدَّولة كالظلّ: (كالشعر)

وَمَـا أُبْـدِيـكَ مِـنْ طَـيْـرِي عَـلَامَـهْ   وأَضْـحَـى كَـعَـنْـقَـاءَ وهَـامَـهْ
وَلِـلْـعَـنْـقَـاءِ بَـيْـنَ الـنَّـاسِ اسْـمٌ   وَلَيْسَـتْ لِاسْـمِ طَيْرِي اسْـتِدَامَـهْ

وكعبةُ أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام التي هي صخرةُ بيت المقدس يكون رجوعُ..............

كمالاتها وظهوراتها في الآخر إلى كمالات هذه الكعبة المعظَّمة، وتكون تلك الكمالاتُ ملحقةً بهذه الكمالات، فإنَّه لا بدَّ للأطراف من اللحوق بالمركز، وما لم يتَّصل الطرفُ بالمركز الذي هو الطَّريقُ المستقيمُ؛ لا يجد سبيلاً إلى المطلب، واشوقاه إلى لقاء الكعبة المعظمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وإن تيسَّر اللحاقُ بحقيقة الكعبة بفضل الله سبحانه، وحصل بعد اللحاق بها ترقِّياتٌ بلا نهايةٍ، ولكنَّ شوقَ ملاقاة الصُّورة إلى الصُّورة موجودٌ، وقد صار الحجُّ فرضاً، وتحقّق أمن الطَّريق أيضاً بغلبة السَّلامة والشَّوق أزيدُ وأكملُ أيضاً من فرضية الحجّ، ومع ذلك تسويفٌ في تسويفٍ، لا تساعد الاستخارةُ على السفر، كلَّما كنت متوجّهاً بحسن التوجّه لا ينكشف المسيرُ في الطَّريق، ولا يظهر الوصولُ إلى الكعبة في النظر، وماذا نصنعُ؟ وكلُّ هذه الأعذار لا تجدي في تأخير أداء الفرض، ينبغي أن نخرج من البيت بقصد أداء فرض الحجّ بتوفيق الله تعالى على أيِّ حالٍ كان، وأن نسير لقطع المراحل، فإن تيسّر الوصولُ؛ فنعمةٌ عظمى، وإن بقينا في الطَّريق؛ فالرجاءُ نقدُ الوقت. ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، وصلّى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المكتوب الثالث والسبعون

إلى حضرة المخدومِ زاده مَجدِ الدِّينِ الخواجه محمَّدٍ معصومٍ سلَّمه اللهُ في بيانِ ظاهرِ الإنسانِ الكامِلِ وباطِنِه، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ الإنسانَ عبارةٌ عن مجموع عالم الأمر وعالم الخلق، عالمُ الخلق هو صورةُ الإنسان وظاهرُه، وعالمُ الأمر هو حقيقةُ الإنسان وباطنُه، وإنَّما قالوا للأعيان الثَّابتة: حقائق الممكنات باعتبار أنَّ الممكنات ظلالُ تلك الأعيان، وتلك الأعيانُ أصولُها، فإنَّ حقيقةَ الممكنات وماهيّتَها هي نفسُ ظلال تلك الأعيان؛ لأنَّ الممكناتِ صارت ممكناتٍ بتلك الظِّلال، وحصل لها بها وجودٌ ظلّيٌّ، بخلاف الأعيان التي يثبتون فيها تعيّناتٍ وجوبية، ويرونها فوق مراتب الإمكان، فإنَّ تعيّن الوحدة وتعيّن الواحديَّة اللذين هما في مرتبة الأعيان الثابتة قالوا: إنَّ كلاً منهما تعيّنٌ وجوبيٌّ، واعتقدوا التعيّنات الثلاثةَ الباقيةَ - أعني: التعيّنَ الروحيَّ والتعيّنَ المثاليَّ والتعيّنَ الجسميَّ - تعيّنات إمكانية، فالقولُ بكون التعيّن الوجوبيّ حقيقةً للتعيّن الإمكانيّ على سبيل التجوُّز؛ لأنَّ الحقيقةَ الإمكانيَّةَ إنّما تكون من عالم الإمكان، لا من مرتبة الوجوب، وكأنَّ أصلَ الشيء هو حقيقةُ الشيء، فما قالوا من أنَّ الصوفيَّ كائنٌ بائنٌ يعني: بظاهره مع الخلق، وبباطنه مفارقٌ عنهم، وكائنٌ مع الحق سبحانه، وأرادوا بظاهره: عالمَه الخلقيَّ، وبباطنه: عالمَهُ الأمريَّ، وقالوا في حقّ هذا المقام الذي هو مقامُ الجمع بين التوجّهين: إنَّه عالٍ جداً، واعتقدوه مقامَ التَّكميل والإرشاد، وظنُّوه مرتبةَ الدَّعوة، ولهذا الفقير في ذلك الموطن معرفةٌ خاصَّةٌ، وهي أنَّه يكون شخصٌ من أخصّ الخواصّ، ويكون مجموعُ عالم الخلق والأمر بالنِّسبة إليه صورةً وظاهراً، وتكون حقيقتُه وباطنُه الاسمَ الذي هو مبدأُ تعيّنه مع أسماءٍ وشؤوناتٍ أخر هي كالأصل لذلك الاسم حتى تنتهي إلى حضرة الذَّات المجرَّدة عن الشُّؤون والاعتبارات، وهذا العارفُ التامُّ المعرفة إذا تيسَّر له الوصولُ إلى الاسم.........

الذي هو قيُّومُه بعد طيّه جميعَ المراتب الإمكانية، وصار قولُه: (أنا) منقلعـًا عن المراتب الإمكانيَّة، ومنطبقًا على ذلك الاسم، وانطبق على مراتب فوق ذلك الاسم التي هي كالأصول لذلك الاسم آنـًا فآنـًا بالتَّرتيب على سبيل العروج، وبلغ بهذا النَّمط مرتبةَ الأحديَّة المجرَّدة تصيرُ تلك المراتبُ التي انطبق عليها قوله (أنا) كلُّها حقيقتَه، ويكون عالمُه الأمريُّ كعالمه الخلقيِّ صورةَ تلك الحقيقة، وتلك الصُّورةُ مثلُ الكسوة لتلك الحقيقة، وهي كالشَّخص اللابس لتلك الكسوة، وحيث كان إطلاقُ (أنا) في الآخرين مقصوراً على عالم الخلق والأمر؛ لا جرم تكون صورتُهم وحقيقتُهم عينَ عالم الخلق والأمر، والأسماءُ التي هي مبادئُ تعيّناتهم ليست غير أن تكون قيوماتٍ لهم.

فإن قيل: إنَّ العارفَ وإن حصل كمال المعرفة من جملة الممكنات لا يخرج من الإمكان، ولا يتصفُ بالوجوب، فالاسمُ الذي هو قيُّومُه ومن مرتبة الوجوب كيف يكون حقيقتَه وجزءه؟

أجيب: إنَّ هذه الحقيقةَ باعتبار الشُّهود لا باعتبار الوجود حتى يلزم المحذور كما قالوا: البقاءُ بالله، وهذا الشُّهودُ ليس مجرَّدَ تخيُّلٍ، بل تتفرَّعُ عليه ثمراتٌ ونتائجُ: (شعر)

خَلِيلَيَّ مَا هَذَا بِهَزْلٍ وإِنَّهُ حَدِيثٌ عَجِيبٌ مِنْ بَدِيعِ الغَرَائِبِ

فتحقّق أنَّ ما هو مجموعُ الصُّورة والحقيقة للآخرين صورةُ هذا العارف التي هي بالنِّسبة إلى الحقيقة كالثوب العديم نظيره بالنِّسبة إلى شخصٍ لابسٍ إياه، فماذا يدركُ الآخرون من حقيقته؟ وماذا يفهمون؟ وماذا يتصورون غير كونه مماثلاً لهم في صورهم وحقائقهم؟ ومعرفةُ مثل هذا العارف مستلزمةٌ لمعرفة الحقّ سبحانه، (إذا رؤوا ذكر الله سبحانه) علامتهم، إلهي ما هذا الذي جعلت أولياءَك بحيث من عرفهم وجدك، ومن لم يجدك لم يعرفهم، وما كتبه الفقيرُ في بعض كتبه ورسائله من أنَّ العارفَ التامَّ المعرفة يكون بعد رجوعه للدَّعوة متوجّهـًا بكليَّته إلى العالم؛ لأنَّ ظاهره مع الخلق، وباطنَه مع الحقّ سبحانه؛ فالمرادُ من تلك الكليَّة: عالميه الخلقيَّ والأمريَّ كما هو متعارفُ القوم، يعني أنه يكون متوجّهـًا للدَّعوة بعالم الخلق وعالم الأمر كليهما، وأما تلك الحقيقةُ والباطنُ اللذان كتبهما هذا الفقير فيما سبق مراداً بهما الاسمُ القيومُ وما فوقه؛ فلا معنى لتوجّهه إلى الحقّ جل وعلا، فإنَّهما من عالم الوجوب كما مرَّ، فعلى كلِّ تقدير توجّه العارف الكامل إلى جانب الخلق بالتمام، والذي له وجهٌ إلى الخلق ووجهٌ آخرُ إلى الحقّ جل وعلا؛ فهو في توسط السَّير، ولكنَّه أعلى من الشَّخص الذي توجّهُه إلى الحق جلّ وعلا بالتَّمام، فإنَّ هذا الشَّخصَ ناقصٌ في أداء حقوق العباد، وذلك يكمل أداء كلٍّ من حقّ الخالق وحقّ المخلوق مهما أمكن، ويدعو الخلقَ إلى جانب الحقّ سبحانه، فيكون أكملَ بالنِّسبة إليه، ينبغي أن يعلم أنَّ التوجّهَ إلى الحقِّ جل سلطانه يستدعي بعداً، والبعدُ في حقّ هذا العارف صار نصيبَ الآخرين الذين يحتاجون إلى التوجّه، هل رأيت أحداً يكون متوجّهـًا إلى نفسه؟ فكيف إلى شيءٍ هو أقربُ من نفسه؟ فإنَّه لا يتصوَّرُ توجّهُه إليه، وعدمُ التوجّه هذا من خصائص كمالات هذا العارف، يكاد القاصرون يظنونه نقصـًا، ويزعمون التوجّهَ كمالاً بالنِّسبة إلى عدم التوجّه، رزقهم الله سبحانه الإنصافَ حتى لا يحكموا بجهلهم المركَّب، ولا يزعموا الحسنَ عيبـًا.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ

إلى الخواجه هاشمٍ في تأويلِ قَوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾

الآية، وبيانِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ﴾ الآية، وبيانِ خلافةِ الإنسانِ الكامِل، وأنَّ معامَلتَه تبلُغ مَبلغًا يجعَل قيُّومًا لجَميع الأشياءِ وهو ظالمٌ لنفسِه، وعبَّر عنِ المقتَصِد بالنَّديمِ والخَليلِ، وعنِ السَّابقِ بالمُحبِّ والمَحبوبِ، ورَأسُ حَلقتِهم محَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ.

قال الله تعالى وتعاظم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، المرادُ من الآيتين ما أراده الله سبحانه وتعالى، ونحن نؤوِّلهما بما ظهر لنا، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ينبغي أن يعلم أنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته، وهو تعالى منزَّهٌ عن الصورة ومتعالٍ، فيمكن أن يكون معنى خلق آدم على صورته سبحانه: أنَّه لو فرض لمرتبة التَّنزيه صورةٌ في عالم المثال؛ لكانت تلك الصُّورةُ جامعةً، والإنسانُ الجامعُ صار موجوداً على تلك الصُّورة، وليست لصورٍ أخر قابليَّةٌ لأن تكون تمثالاً لتلك المرتبة المقدسة ومرآةً لها، ومن ههنا صار الإنسانُ مستحقّاً لخلافته تعالى، فإنَّ الشيءَ ما لم يخلق على صورةِ شيءٍ لا يكون مستحقّاً لخلافة ذلك الشيء، فإنَّ خلافةَ الشيء خَلَفُ ذلك الشيء، ونائبُ منابه، ولَمّا صار الإنسانُ خليفةَ الرحمن تعيَّنَ بالضَّرورة لتحمُّل ثقل الأمانة، **(لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه)**، من أين ينال السّموات والأرضون والجبال الجامعية حتى تخلَّقوا على صورته تعالى، وتكونوا مستحقين لخلافته، وتتحملوا ثقل أمانته سبحانه، وقد يحسُّ أنَّه لو أحيلت ثقلةُ هذه الأمانة على السّموات والأرضين لصِرْنَ قِطَعًا قطعًا، ولم يبق منهنَّ أثرٌ أصلاً، وتلك الأمانةُ - بزعم هذا الحقير - قيوميَّةُ جميع الأشياء على سبيل النِّيابة التي هي مخصوصةٌ بكُمَّل أفراد الإنسان، يعني: أنَّ معاملةَ الإنسان الكامل تبلغ مبلغًا يجعل قيومًا لجميع الأشياء بحكم الخلافة، وتحصل إفاضةُ الوجود، وبقاءُ سائر الكمالات الظَّاهرية والباطنيَّة للكلّ بتوسطه، فإن كان ملكٌ؛ فبه متوسِّلٌ، وإن كان إنسٌ أو جنٌّ؛ فبه متشبِّثٌ، وفي الحقيقة توجّهُ جميع الأشياء إلى جانبه، والكلُّ مائلٌ إليه، عرفوا هذا المعنى أو لا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]: كثيرُ الظلم على نفسه، بحيث لا يبقي من وجوده ولا من توابع وجوده أثراً ولا حكمًا، وما لم يظلم نفسه بمثل هذا لا يكون مستحقّاً لتحمُّل ثقل الأمانة، ﴿جَهُولًا﴾: كثيرَ الجهل بحيث لا يكون له علمٌ ولا إدراكٌ بالمطلوب، بل عجزٌ عن الإدراك، وجهلٌ عن العلم بالمقصود، وهذا العجزُ والجهلُ في ذلك الموطن كمالُ المعرفة؛ لأنَّ أجهلهم أعرفُهم ثمَّةَ، ولا شك أنَّ أعرفَهم أليقُ بحمل الأمانة، وهذان الوصفان كأنَّهما علَّتان لحمل ثقل الأمانة، وهذا العارفُ الذي تشرَّف بمنصب قيوميَّة الأشياء حكمُه حكمُ الوزير حيث فوِّضتْ كفايةُ مهمات المخلوقات إليه، والإنعاماتُ وإن كانت في الحقيقة من السُّلطان، ولكن وصولها إلى أربابها مربوطٌ بتوسُّط الوزير، ورئيسُ أهل هذه الدَّولة أبو البشر آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهذا المنصبُ مخصوصٌ بالأنبياء أولي العزم عليهم الصلاة والتحيات أصالةً، ويشرَّفُ به بتبعيَّة هؤلاء الأكابر ووراثتهم كلُّ من أريد له ذلك:

لَا عُسْـــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

والطَّائفةُ الأولى من وارثي الكتاب الذين هم المصطفون من عباده تعالى هم هؤلاء الظالمون لأنفسهم الذين تشرَّفوا بمنصب الوزارة والقيومية، والطَّائفةُ الثَّانيةُ من هؤلاء المصطفين الذين عبّر الله تعالى عنهم بالمقتصد.........

من تشرَّفوا بدولة الخلَّة، وصاروا أصحابَ سرٍّ ومشورةٍ، ومعاملةُ الملك والسلطنة وإن كانت مربوطةً بالوزير، ولكنَّ الخليلَ نديمٌ وصاحبُ أنسٍ وألفةٍ، هذا لأجل فرح نفسه، وذاك لأجل مهمات الآخرين، شتان ما بينهما، ورأسُ أرباب هذا المقام العالي إبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويشرَّفُ به كلُّ من أريد له ذلك، وفوق مقام الخلَّة مقامُ المحبَّة الذي تشرَّف به الطَّائفةُ الثَّالثةُ الذين هم السَّابقون بالخيرات بإذن الله، وفرقٌ بين الأصحاب والنديم، والمحب والمحبوب، والأسرارُ والمعاملاتُ التي تمرّ وتمضي على المحبّ والمحبوب لا مدخل فيها للأحباب والنديم، وإن كان يمكن إيرادُ أسرار حقيقة المحبَّة في البين في وقت كمال الأنس والألفة مع الخليل الجليل القدر، ويمكن أن يجعله محرماً لأسرار المحبّ والمحبوب، ورئيسُ حلقة المحبين كليمُ الله على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ورئيسُ زمرة المحبوبين خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتحيات والتسليمات، ويشرَّفُ بهذين المقامين بتبعية أصحاب هاتين الدولتين ووراثتهم كلُّ من أريد له ذلك، والمقاماتُ التي فوق مقام المحبَّة قد ذكرت في مكتوبٍ من مكتوبات الجلد الثّاني للفقير، والصَّدارةُ فيها أيضاً لمحمّدٍ رسول الله ﷺ، وكلُّها داخلةٌ في مقام السَّابقين الذي هو نصيبُ الفرقة الثّالثة من وارثي الكتاب، ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب الخامس والسبعون

إلى الميرزا مظفَّرٍ في بيانِ أنَّ المِحَن والبَليّات كفَّاراتٌ لِزلَّاتِ الأحبابِ، وأنَّه يَنبَغي طَلَبُ العفوِ والعافيَة بالتَّضرُّع والابتِهالِ إلى اللهِ المُتعالِ.

سلمكم الله سبحانه عما لا يليق بجنابكم، إنَّ الألمَ والمحنَ والبليات في الأحباب كفاراتٌ لزلاتهم، ينبغي طلبُ العفو والعافية من جناب قدسه تعالى بالتضرّع والابتهال والالتجاء والانكسار إلى أن يفهم أثرُ الإجابة، ويعلم تسكينُ الفتن، وإن كان الأحبابُ والنَّاصحون في هذا الأمر، ولكن صاحبَ المعاملة أحقُّ به، فإنَّ شربَ الدَّواء والاحتماءَ شغلُ صاحب المرض، والآخرون من الإخوان ليسوا غير أن يكونوا من الأعوان في إزالة المرض، وحقيقةُ المعاملة: هي أن كلَّما يصيب من المحبوب الحقيقيّ ينبغي أن يقبله ببشاشة الوجه وانشراح الصدر، بل ينبغي أن يتلذَّذ به، وحصولُ العار الذي هو مرادُ المحبوب أفضلُ عند المحبّ من زواله الذي هو مرادُ نفسه، فإن لم يكن هذا المعنى حاصلاً في المحبّ؛ فهو ناقصٌ في المحبَّة، بل كاذبٌ فيها: (شعر)

وَأَتْرُكُ مَا أَهْوَى لِمَا قَدْ هَوِيتَهُ وَأَرْضَى بِمَا يَرْضَى وَإِنْ هَلَكَتْ نَفْسِي

ولما رجع جنابُ مرجع الشَّريعة من الخدمة بين أحوال السفر، وضيق أحوال المسافرين، فقرأنا الفاتحةَ لسلامتهم وعافيتهم، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

المكتوب السادس والسبعون

إلى مولانا فَرخ حُسَينٍ في بيانِ حَقيقَة العَرشِ الذي هو بَرزخٌ بين عالَم الخَلقِ وعالَم الأمرِ، وله وَصفٌ من كلَيهما، ولَيسَ من جنسِ الأرضِ والسَّماءِ، وبيانِ الكُرسيّ ووُسعتِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ العرشَ المجيدَ من عجائب مصنوعات الحقّ سبحانه، وبرزخٌ بين عالم الخلق وعالم الأمر في العالم الكبير، وفيه وصفٌ من هذا ووصفٌ من ذاك، وعالمُ الخلق الذي خلق في ستَّة أيام، والأرضُ والسّمواتُ والجبالُ التي وقع ذكرها في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآية إيجادُ العرش مقدَّمٌ على خلق هذه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، بل يفهم تقدُّمُ خلقه من هذه الآية أيضـًا، فالعرشُ المجيدُ كما أنَّه ليس من جنس الأرض ليس من جنس السّموات أيضـًا، فإنَّ له حظًّا وافراً من عالم الأمر أيضـًا ليس شيءٌ منها لهؤلاء.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ مناسبتَه للسموات أزيدُ منها للأرض؛ فلا جرم عُدَّ من السّموات، وإلا فكما أنَّه ليس من الأرض ليس من السّموات في الحقيقة، فلا جرم تكون آثارُ الأرض والسّموات وأحكامهما مغايرةً لآثار العرش وأحكامها، بقيت معاملةُ الكرسيّ، والذي يفهم من قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: أنَّ الكرسيَّ أيضـًا مغايرٌ للسَّموات والأرض، وأوسعُ منهما، ولا شكَّ أنَّ الكرسيَّ ليس من عالم الأمر، فإنَّه قيل: إنَّه تحت العرش، ومعاملةُ عالم الأمر فوق العرش، فإذا كان من عالم الخلق يكون خلقُه مغايراً لخلق السّموات، وينبغي أن يكون خلقُه في ما وراء الأيّام الستة، ولا يلزم من هذا المعنى محذور أصلاً، فإنَّه تعالى لم يخلقْ تمامَ عالم الخلق في هذه الأيّام الستة، فإنَّ خلقَ الماء كان فيما وراء هذه الأيّام الستة ومقدَّمـًا عليها كما مرَّ، ولما لم تكن معاملةُ الكرسيّ مكشوفةً لنا كما ينبغي أخَّرنا تحقيقه إلى وقتٍ آخر راجيـًا من كرم الحقّ جل وعلا، ﴿رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ومن هذا التَّحقيق ارتفع اعتراضان قويان:

أحدهما: أنَّه إذا لم تكن السّموات والأرض من أين كان تعيينُ الأيّام الستة وتشخيصُها؟ وكيف افترق يومُ الأحد من يوم الاثنين؟ وكيف امتاز يومُ الثلاثاء من يوم الأربعاء؟ وبأيِّ وجهٍ صار يومُ الخميس متميزاً من يوم الجمعة؟ ولَمّا عُلِمَ سبقةُ خلق العرش على خلق الأرض والسّموات؛ صار حصولُ الزمان متصوراً، واتَّضح ثبوتُ الأيّام، واندفع الاعتراضُ، ومن أين يلزمُ كونُ امتياز الأيّام مخصوصـًا بطلوع الشمس وغروبها؟ ألا ترى أنَّ الجنَّةَ ليس فيها طلوعٌ ولا غروبٌ، وامتيازُ الأيّام ثابتٌ كما ورد في الأخبار.

والاعتراضُ الثّاني الذي اندفع مخصوصٌ بعلوم الفقير، وهو أنَّه قد ورد في الحديث القدسيّ: «**لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»، فإنَّه يفهم من هذا الحديث: أنَّ الظهورَ الأتمَّ مخصوصٌ بقلب المؤمن، وأنَّ هذه الدَّولةَ غيرُ ميسَّرةٍ لغيره، وأنت قد كتبت في مكتوباتك خلافه، حيث قلت: إنَّ الظهورَ الأتمَّ للعرش المجيد، والظهورَ القلبيَّ لمعةٌ من الظهور العرشيّ، وعلم من التَّحقيق السَّابق من أنَّ آثارَ العرش المجيد وأحكامَه مغايرةٌ لأحكام الأرض والسّموات، لا وسعةَ في الأرض والسّموات، وفي العرش وسعةٌ. نعم، إنَّ الأرضَ والسّموات مع ما فيهنَّ ليست لهنَّ قابليَّةُ الوسعة غير قلب المؤمن، فإنَّه مستعدٌّ لهذه الدَّولة، فكان حصرُ الوسعة على القلب باعتبار الأرض والسّموات، لا بالنِّسبة إلى جميع المصنوعات التي تكون شاملةً للعرش المجيد أيضـًا حتى يتصوَّرَ خلافُ مفهوم الحديث القدسيّ، فاندفع الاعتراضُ الثّاني أيضـًا.

ينبغي أن يعلم أنَّ العرشَ المجيدَ الذي هو محلُّ الظُّهور التامّ إذا رمينا الأرضَ والسّموات..........

مع ما فيهما في مقابلته تكون متلاشيةً ومضمحلّةً بلا توقفٍ، ولا يبقى أثرٌ منها أصلاً إلا القلب الإنسانيّ الذي هو منصبغٌ بلونه، فإنَّه يبقى ولا يكون متلاشياً محضاً، وكذلك الظُّهورُ في جانب الفوق الذي يتعلّق بما وراء العرش الذي هو من عالم الأمر الصِّرْف حكمُ العرش بالنِّسبة إلى تلك المرتبة حكمُ الأرض والسّموات بالنِّسبة إلى العرش، وهكذا حكمُ كلّ فوقٍ بالنِّسبة إلى ما تحته هو هذا الحكمُ بعينه إلى أن ينتهي عالمُ الأمر، وبعد تمام هذه الدَّائرة تنجرُّ المعاملةُ إلى الجهل والحيرة، فإن كانت معرفةً؛ فهي أيضاً مجهولةُ الكيفية ليست مما يحصل في حوصلة العقل الحادث، ولنبيِّنْ شمَّةً من الكمالات الإنسانية والقلب الإنساني أيضاً: (شعر)

وَقَدْ أَطْنَبْتُ فِي عَيْبِهِ   فَبَيِّنْ حُسْنَهُ أَيْضـاً

العرشُ المجيدُ وإن كان أوسعَ ومظهراً أتمّ، ولكن ليس فيه علمٌ بحصول هذه الدَّولة، ولا شعورَ له بهذا الكمال، بخلاف القلب الإنسانيِّ، فإنَّه صاحبُ شعورٍ، وبالعلم والمعرفة معمورٌ، والمزيّةُ الأخرى للقلب هي ما نبينه، ينبغي أن يستمع كمالَ الاستماع: إنَّ مجموعَ الإنسان الذي يسمونه عالماً صغيراً، وإن كان مركباً من عالم الخلق والأمر، ولكن له هيئةٌ وحدانيةٌ حقيقة، والآثارُ والأحكامُ مترتِّبةٌ لتلك الهيئة، والعالمُ الكبيرُ ليست له تلك الهيئةُ، فإن كانت؛ فهي اعتباريةٌ، فالفيوضُ التي تَرِدُ من جهة هذه الهيئة الوحدانيَّة على الإنسان وبتوسُّطه على قلب الإنسان لا يحصل منها للعالم الكبير والعرش المجيد الذي هو بمثابة القلب للعالم الكبير سوى النزر اليسير، فإنَّهما قليلا النَّصيب من تلك الفيوض والبركات. وأيضاً إنَّ الجزءَ الأرضيَّ الذي هو في الحقيقة خلاصةُ الموجودات، ومع وجود بعده أقربُ الظهورات قد سرت كمالاته في مجموعة عالم الصغير، ولما لم تكن تلك المجموعةُ في العالم الكبير في الحقيقة؛ فقدت فيه هذه السرايةُ، فلقلب الإنسان هذه الكمالات أيضاً بخلاف العرش المجيد.

ينبغي أن يعلم أنَّ هذه الفضائلَ والكمالاتِ التي أثبتناها في القلب إذا لاحظنا ملاحظةً جيدةً نجدها داخلةً في فضل جزئيٍّ، والفضلُ الكليُّ إنّما هو للظهور العرشيّ، ونجد مثلَ العرش والقلب كمَثَل نارٍ وسيعةٍ نوَّرت جميع البراري والصحارى، وأوقدت من تلك النار مشعلةٌ حصلت له بواسطة لحوق بعضِ الأمور نورانيةٌ أخرى ليست هي في تلك النار، ولا شك أنَّ تلك الزيادةَ لا يثبت لها غيرُ الفضل الجزئيِّ، والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلِّها. ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبارك على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين أجمعين.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ

إلى مولانا الحَسنِ البَرْكِيِّ في جَوابِ عَريضتِه التي اعتَرَض فيها على كلِماتِ الصُّوفيَّة باعتِراضاتٍ كثيرةٍ، وَسائِر استِفساراتِه الأُخَر التي كَتَبها.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۖ﴾ [النمل: ٥٩]. قد وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ من أخينا الشَّيخ حسن أحسن الله حاله، ولما كانت فيها رائحةٌ من التشرُّع والاستقامة أورثت الفرحَ والمسرةَ، وكتبتم أنَّ السُّلوكَ الذي هو مشهورٌ ومعتقدٌ للسَّالكين بحسب فهمنا هو أنَّه ينبغي للمبتدئ أن يشتغل بالذكر إلى أن جرى القلبُ بالذكر، ثم إلى أن يتوقف عن الذكر، ويكون محلّاً للإلهامات ....

والتجلّيات، وأن يصل السَّالكُ إلى مقام الفناء الذي هو أوَّلُ قدمٍ في الولاية، وقالوا: إنَّ الفناءَ هو أن يزول عن نظر السَّالك وعلمه ما هو مسمّى بالغير، ولا يبقى في نظره وعلمه غير الواجب تعالى وتقدس، وقيل لهذه الحالة شهوداً ومشاهدةً وغيرهما، والمقصودُ أنّه يرى الحق تعالى بزعمه، ولا يرى المسمّى بالغير، ويسمون رأي الاثنين: مشرك الطَّريقة، وكتبتم أنَّ هذه المعارفَ وأمثالَها تُزَعْزِعُ الفقيرَ عن محلّه، فإنَّه لو كان مقصودُهم: أنّه يرى الحقَّ جل وعلا في الدنيا بالبصر أو بالبصيرة، فإن كان لهم شعورٌ بهذا الشُّهود والرؤية؛ فهم أيضـًا مشركوا الطَّريقة، وإن لم يكن لهم شعورٌ بهذا المعنى؛ فمن أيّ شيءٍ يخبرون؟ ومن يخبر؟ وكتبتم أنَّ كلَّما يرونه بكلّ وجهٍ من الوجوه، سواءٌ كان تجلّيـًا صوريـًا أو معنويـًا أو نوريـًا أو غير ذلك، ويعتقدون ذلك المرئيَّ ذات الحق جلَّ وعلا من حيث هي، ويعتقدون ما هو المسمى بالغير ظهوره تعالى عند هذا الفقير الذي لا حاصلَ له بعيدٌ عن المعاملة، وخلاف نصّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وآية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] شاهدةٌ لهذا المعنى، فهذا القوم ماذا يرون؟ وماذا يدركون؟ حيث يقولون: لا نرى غيرَ الحقّ جل وعلا، ولا ندري، وعبروا عنها بالشُّهود والمشاهدة، وهذه الأفكارُ في تدبير أنفسهم وتدبير الأهل والعيال، هل هي موسومةٌ بالغير أو لا؟

اعلم وتنبَّه أنَّ كلَّ ذلك النَّفي والاعتراضات الطويلة الغير الملائمة على مشائخ الطَّريقة قدس الله تعالى أسرارهم العليّة منشأها عدمُ الاطِّلاع على مراد هؤلاء الأكابر، والتوحيدُ الشُّهوديُّ الذي هو رؤيةُ الواحد ومربوطٌ بنسيان السِّوى من ضروريات طريقة هؤلاء الكبراء، وما لم يحصل ذلك لا يتيسّرُ الخلاصُ عن التعلّق بالأغيار، وأنتم تسخرون بهذه الدَّولة وبأرباب هذه الدَّولة، والشُّهودُ والرؤيةُ اللذان وقعا في عبارة أكابر المشائخ قدس الله أسرارهم كنايتان عن حضوره تعالى وتقدس اللاكيفيّ المناسب لمرتبة التَّنزيه الخارج عن حيطة الإدراك الذي هو من عالم الكيف، وخصَّصوا دولةَ هذا الحضور في الدنيا بالباطن، ولا بُدَّ للظَّاهر من رؤية الاثنين في جميع الأوقات، ولهذا قالوا: كما أنَّ في العالم الكبير مشركـًا وموحداً في العالم الصغير أيضـًا المشركُ مجتمعٌ بالموحّد، باطنُ الكامل موحِّدٌ في جميع الوقت، وظاهرُه مشركٌ، فيكون باطنُه بالله جلّ وعلا وظاهره في تدبير الأهل والعيال، ولا يلزم محذورٌ أصلاً، والاعتراضُ من عدم الفهم. وإياكم وأمثال هذه الكلمات، واحذروا من غيرة الحقّ جلّ سلطانه، والظَّاهرُ أنَّ مدَّعي هذا الوقت هم الذين يوردونكم على ذلك، لا بُدَّ من ملاحظة جانب الأكابر، فإنَّها ضروريةٌ، فإن تتكلّموا في محدثات المدعين ومخترعاتهم؛ فله مساغٌ، وأما ما هو مقرَّرٌ عند القوم ولا بدَّ منه؛ فالتكلّمُ فيه غيرُ مناسبٍ، ولقد رأيتم في رسائل الفقير ومكتوباته كم كتب من التَّوحيد الشُّهوديّ وقرَّره من ضروريات الطَّريق، وكان اللازم عليكم أن تستفسروا عن هذا المعنى، وأن تسألوا بحسن الأدب، وهذا زهرٌ تفتَّقَ من مفارقة المرحوم مولانا أحمد عليه الرَّحمة، ولم يظهر منكم مثلُ هذا الكلام في حياة مولانا أصلاً، وقد وقعت كتابتكم هذه موقع الحسن حيث وجدتم التَّنبيه، وكلُّما يقع بعد ذلك ينبغي أن تكتبوه من غير ملاحظة صحته وسقمه، فإنَّه لو كان صحيحـًا يكون باعثـًا للمسرة، وإن كان سقيمـًا يكون سببـًا للانتباه، وعلى كلِّ حالٍ ينبغي أن لا نتقاعد عن الكتابة، وكتابُكم إنّما يجيء بعد سنةٍ مع القافلة، والنصائحُ الضروريةُ ضروريةٌ في كلّ سنةٍ مرةً واحدةً، وما لم تكتبوا من ذاك الطرف........

ولم تسألوا عن أشياء لا ينفتح طريقُ القيل والقال. وسألتم أنَّ القلبَ هل هو من جملة الظَّاهر أو هو من جملة الباطن؟ وقد بيّنتُ ظاهرَ العارف وباطنَه في مكتوبٍ بالتَّفصيل، وآمُرُ الملا عبد الحي بإرسال نقله إليكم، فتراجعوا فيه. وسألتم أيضاً أنَّ الطَّريقَ الآخرَ الذي يكون من غير تجلّياتٍ وكشفياتٍ ما طريقُ معرفة المتوسط والمنتهي فيه؟

اعلم أنَّ هذا السَّالكَ الذي لا عِلْمَ له بأحواله إذا كان في خدمة شيخٍ كاملٍ ومكملٍ عالمٍ بالطَّريق وبصيرٍ به؛ فعلم ذلك الشَّيخ بحاله كافٍ له يعرف التوسُّطَ والانتهاءَ بإعلامه، وأيضاً إذا أجازه الشَّيخُ بإرشاد الخلق نوعَ إجازةٍ تكون أحوالُ مريديه مرايا كمالاته، ويطالعُ منها نقصَه وكمالَه، وعلامةٌ أخرى لمعرفة الانتهاء هي أن لا يبقى في السَّالك مقتضى غير الحقّ سبحانه وتعالى أصلاً، وأن يكون صدرُه خالياً وصافياً من جميع المقتضيات المتعلّقة بالسوى، وللنهاية مراتبُ كثيرةٌ بعضها فوق بعضٍ، والقدمُ الأوّلُ في النهاية هو الذي ذكر، والله سبحانه الموفق.

وكتبتم أنَّ المعارفَ التي تسلي هذا الفقيرَ القليل البضاعة هي المعارفُ الشَّرعيّةُ، وكأنَّ كلَّ حكمٍ من الأحكام الشَّرعيّة طريقٌ موصلٌ إلى منزل المقصود، وعلامةٌ من الملك الذي ليست له علامةٌ، وهذا البيتُ نصب العين: (شعر)

ما به فر ميرويم، عزم تماشا كـراست　　　ما بِر او ميرويم، كز همه عالَم وراست

ومعرفتكم هذه أصليةٌ جداً وعاليةٌ، ومورثةٌ للرجاء، وقد جعلني مطالعةُ هذه المعرفة محظوظاً جداً، وأزالت عدمَ ملائمة صدر المكتوب، أوصل الله سبحانه وتعالى إلى المقصود من هذا الطَّريق.

وسألتم أنّه قد يجيءُ بعض الرجال والنساء، ويلتمسون الطَّريقةَ، ولكن لا يحترزون من الأكل واللبس الحاصلين من الربا، هل نعلمهم الطَّريقةَ أو لا؟ ويقولون: نحن نصلح بالحيل الشَّرعيّة، ينبغي أن يعلمهم الطَّريقةَ، وأن يرغِّبَهم في الاجتناب من المحرم، ولعلَّهم يتخلَّصون من ذلك الاشتباه ببركة الطَّريقة.

واستفسرت أيضاً عن العلمين اللذين ظهر كلٌّ منهما عقيب الآخر من جانب المشرق، وقد كتب الفقيرُ مكتوباً في هذا الباب باستفسار الأصحاب، نأمر الملا عبد الحي بإرسال نقله أيضاً إليكم إن شاء الله تعالى.

وسألتم أيضاً أنّه هل الأفضلُ إهداءُ ثواب ختم القرآن، وأداءُ صلاة النفل والاشتغال بالتسبيح والتهليل إلى الوالدين، أو إلى الأستاذ، أو الإخوان، أو عدمُ الإعطاء لأحدٍ؟

فاعلم أنَّ الأفضلَ الإهداءُ، فإنَّه نفعٌ للغير ونفعٌ للعامل، وفي عدم الإهداء النَّفعُ مخصوصٌ بالعامل، وأيضاً يرجى في الإهداء قبولُ العمل المهدى ثوابه ببركة الآخرين. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالسَّبْعُونَ

إلى داراب خان في بيانِ أنَّ مَحبَّة هذه الطَّائفَة العَليَّة وإخلاصَهم وَسيلَة الفَناءِ في اللهِ والبَقاءِ باللهِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد يحسُّ في طائفتكم دولةٌ هنيئةٌ، وهي التَّواضعُ للفقراء، والخدمةُ لهذه الطبقة العليا مع وجود أسباب الغناء، وحصول موادّ الاستغناء، وهذا منبئٌ عن محبَّة هذه الطَّائفة العليّة والإخلاص لهم، ومشعرٌ بمودَّة هذه الفرقة النَّاجية والاختصاص بهم، وحديث «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» كافٍ لأن تكون بشارةً لمحبي هذه الطَّائفة، وحديث «**وهُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ**» وافٍ لمسرَّةِ جلساء هذه الطبقة، فإذا استولت هذه المحبَّةُ بعناية الله سبحانه وغلبت على نهجٍ لا تترك.........

غيرها في القلب، وزالت التعلّقاتُ الأخر عن القلب بالتمام، وظهرت لوازمُ المحبَّة التي هي إطاعةُ المحبوب والقيامُ بمراده والتخلُّقُ بأخلاقه وأوصافه؛ فحينئذٍ يحصل الفناءُ في المحبوب شبيه الفناء في الشَّيخ الذي هو الدَّرجة الأولى في هذا الطَّريق، وهذا الفناءُ - يعني: الفناءَ في الشَّيخ - يصير ثانياً وسيلةً إلى الفناء في الله الذي البقاء بالله مترتِّبٌ عليه، وهو المحصِّلُ للولاية. وبالجملة إذا تيسّرت محبَّةُ المحبوب الحقيقيّ في الابتداء من غير توسُّطِ أحدٍ؛ فهي دولةٌ عظيمةٌ محصّلةٌ للفناء والبقاء، وإلا لا بُدَّ من توسُّطِ كامل مكمّلٍ، فينبغي أولاً أن يجعل جميع مراداته تابعةً لمرادات شيخه، وأن يصير فانياً فيه ليكون ذلك الفناءُ وسيلةً إلى الفناء في الله وليخلِّصه من تعلّقات السوى بالتمام، وليوصله إلى درجات الولاية: (شعر)

وعَلَيْكُمْ بِالسُّكْرِ يَا أَهْلَ صَفْـــ ... ـرَاءَ عَلَى رَغْمِ ذَوِي السَّـوْدَاءِ

وأمثالُ هذه الكلمات إنّما تُورَدُ لترغيب الطالبين والمهوسين وتشويقهم، والله سبحانه الموفق للصواب.

بقيةُ المرام: أنَّ رافعَ رقيمة دعاء الفقراء محمد قاسم من أولاد الكبار، وكان في خدمة الفقراء، ولكنه كَبُرَ في حجر تربية أخيه الأكبر بأنواع التربية والنعم، ورأى مِحَنَ الأيّام قليلاً، وفيه شوقُ ملازمتكم، فإن جعلتموه داخلاً في ملازمي الأمراء وراعيتم الالتفات في حاله لا يكون بعيداً عن الكرم، والزيادةُ تصديعٌ. والسلام.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالسَّبْعُونَ

إلى الشَّيخِ يوسُفَ البَرْكِيِّ في جَوابِ رِسالَتِه التي كَتَبَها مُشتَمِلةً على الإعراضِ عنِ الكُفرِ الحَقيقيِّ، ومُشعِرةً بالإقبالِ على الإسلامِ الحَقيقيِّ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

إنَّ الرسالةَ المسطورةَ التي أحلتموها على مولانا عبد الحي ليريها لم يرها في هذه المدَّة، ويوم سافَرَ مولانا بابو أحضرها، ولَمّا طالعناها صارت باعثةً على الفرح لكونها مشتملةً على الإعراض عن الكفر، ومشعرةً بالإقبال على الإسلام، كما أنَّ الإسلامَ المجازيَّ أفضلُ من الكفر المجازيّ؛ إسلامُ الطَّريقة أيضاً أفضلُ من كفر الطَّريقة، وكفرُ الطَّريقة كلُّه سُكْرٌ، وإسلامُ الطَّريقة كلُّه صحوٌ، وكما أنَّ الصَّحوَ المجازيَّ أفضلُ من السُّكر المجازيِّ؛ صحوُ الطَّريقة أيضاً أفضلُ من سكر الطَّريقة، ثمرةُ كفر الطَّريقة تشبيهٌ، ونتيجةُ إسلام الطَّريقة تنزيهٌ، والفرقُ الذي بين التَّشبيه والتَّنزيه هو فرقُ ما بين كفر الطَّريقة وإسلام الطَّريقة، والذين اختاروا الجمعَ بين التَّشبيه والتَّنزيه، واعتدوه كمالاً؛ ذاك التَّنزيهُ أيضاً من جملة تشبيهٍ رأوه تنزيهاً، وإلا فأين المجالُ للتَّشبيه حتى يجتمع مع التنزيه الحقيقيّ؟ ولا يصير مضمحلاً ومتلاشياً في تشعشع أنواره: (شعر)

وَمَتَى بَدَتْ أَنْوَارُ بَدْرٍ فِي الدُّجَى ... مَا لِلسُّهَى مِنْ حِيلَةٍ سِوَى الِاخْتِفَا

شرَّف الله سبحانه وتعالى بحقيقة الإسلام الحقيقيّ بالنبي وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، وحيث كان مولانا بابو مهيّئاً للسَّفر وقع الاختصارُ على كلماتٍ، والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المَكْتُوبُ الثَّمَانُونَ

إلى الشَّيخ حَامِدٍ التَّهارِيِّ في جوابِ سُؤالِه عن قولِ عَينِ القُضاةِ في «تَمهيداتِه»: إنَّ الذي تَعتقِدونَه إلهاً هو عندَنا محمَّدٌ ﷺ، والذي تَعتَقدونَه محمَّداً هو عندَنا إلهٌ جلَّ سُلطانُه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصَّحيفةُ الشَّريفةُ المرسلةُ من كمال المحبَّة والإخلاص، ووفور المودة والاختصاص، وأورثت فرحًا وافراً، رزق الله سبحانه الاستقامةَ على هذه الدَّولة، فإنَّ محبَّ كلِّ طائفةٍ مع هذه الطَّائفة، «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» حديثٌ نبويٌّ عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ.

واستفسرتَ عن معنى عبارةِ تمهيدات عين القضاة أنَّه قال: إنَّ الذي تعتقدونه إلهـًا هو عندنا محمدٌ عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والذي تعتقدونه محمداً ﷺ هو عندنا إلهٌ جلَّ سلطانه.

أيُّها المخدومُ، إنَّ أمثالَ هذه العبارة المنبئة عن التَّوحيد والاتحاد تصدر عن المشائخ قدس الله أسرارهم في غلبات السُّكر التي هي مرتبةُ الجمع، والمعبَّرة عنه بكفر الطَّريقة، فإنَّهم - لارتفاع الامتياز والاثنينية عن نظرهم - يجدون الممكنَ عينَ الواجب تعالى، بل لا يجدون الممكنَ أصلاً، ولا يبقى في شهودهم غيرُ الواجب تعالى، فمعنى هذه العبارة على هذا التَّقدير: أنَّ الامتيازَ الحاصلَ بين الله جل وعلا وبين محمد عليه الصلاة والسلام عندكم ليس هذا الامتيازُ بثابتٍ عندنا، ولا مغايرةَ بينهما، بل ذاك الواحدُ الذي هو منزَّهٌ عن الواحديَّة عينُ ذاك الآخر، فإنَّه إذا ارتفعتْ نسبةُ المغايرة إلى سائر الممكنات كيف تكون نسبةُ الامتياز ثابتةً لمحمد رسول الله ﷺ الذي هو المظهرُ الأتمّ لكمالاته تعالى؟ وهذه الرُّؤيةُ مخصوصةٌ بمرتبة الجمع، فإذا ترقَّى السَّالكُ من هذا المقام، وفتح عينه من إفراط السُّكر؛ يَجِدُ محمداً صلّى الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام عبدَه ورسولَه تعالى كما وجده في الابتداء كذلك، ولعلك سمعت قولهم: النِّهايةُ هي الرُّجوع إلى البداية، اعلم أنَّ الاشتراكَ بين المبتدئ والمنتهي في الصُّورة فقط التي هي قبابُ المنتهي، وإلا:

(ع) مَـا نِسْـبَـةُ الـعَـرْشِـيِّ لِـلْفَـرْشِـيِّ

فإذا لم تكن للمتوسِّط نسبةٌ مع المنتهي؛ كيف تكون للمتبدئ البعيد عن المعاملة نسبةٌ معه؟ ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالثَّمَانُونَ

إلى محمَّدٍ مُرَادٍ القُورْبَيْگيِّ في النَّصائحِ، والتَّحذيرِ عنِ الاغترارِ بمُزخرَفاتِ الدُّنيا الدَّنيَّة، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أخشى من أن ينخدع الأصحابُ أولو الألباب مثل الأطفال بمزخرفات الدُّنيا الدنيَّة التي لها طراوةٌ وحلاوةٌ في الظَّاهر، وأخاف ميلانهم من المباح إلى المشتبه، ومن المشتبه إلى المحرَّم، فيبقون خجلين منفعلين من مولاهم، ينبغي أن يكون في التَّوبة والإنابة قدمٌ راسخٌ، وأن يعتقدَ المنهيات الشَّرعيّة سمّـًا قاتلاً: (شعر)

وهَذَا لَكُمْ نُصْـحِي صِـحَابِي فإنَّكُمْ   كَـطِفْـلٍ ودُنْـيَـانَـا كَـبَـيْـتٍ مُـزَخْـرَفِ

وقد جعل الله سبحانه وتعالى بكرمه دائرة المباح وسيعةً، فما أشقى من يظنُّ كلَّ هذه الوسعة ضيقةً من ضيق صدره، ويضع قدمه فيما وراء هذه الدَّائرة الوسيعة، ويتجاوز الحدودَ الشَّرعيّة، ويقع في المشتبه والمحرَّم، ينبغي للعاقل أن يلتزم الحدودَ الشَّرعيّةَ، وأن لا يتجاوزها مقدارَ شعرةٍ، المصلون والصائمون بحسب الرَّسم والعادة كثيرٌ، ولكن المتَّقون المتورِّعون المحافظون على الحدود الشَّرعيّة أقلُّ قليلٍ، والفارقُ المميِّزُ بين المحقّ والمبطل هو هذا الاتِّقاءُ والتورعُ، فإنَّ الصومَ والصَّلاةَ بحسب الصُّورة يصدران من كليهما، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «مِلَاكُ دِينِكُمُ الوَرَعُ»، وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «لَا تَعْدِلْ بِالرِّعَةِ..

شَيْئًا، والأصحابُ وإن كانوا يأكلون أطعمةً لذيذةً ويلبسون ألبسةً جميلةً، ولكنَّ الالتذاذَ والانتفاعَ في طعام الفقراء ولباسهم ذلك للملوك وهذا للصعلوك، والفرقُ بينهما كثيرٌ، فإنَّ ذاك بعيدٌ عن رضى المولى جلّ سلطانه، وهذا قريبٌ من رضاه تعالى، وأيضاً محاسبةُ ذاك ثقيلةٌ، ومحاسبةُ هذا خفيفةٌ. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. وقد وفّق المحظوظ سلطان مراد للتوبة والإنابة، وأخذ الطَّريقة، والمسؤول من الله سبحانه الثباتُ والاستقامةُ، والسلام عليكم وعلى سائر الإخوان.

المَكتُوبُ الثَّاني والثَّمانُون

إلى الخواجه شَرَفِ الدِّينِ الحُسَينِ في التَّحذيرِ عنِ الدُّنيا الدَّنيَّة، والتَّحريضِ على الشَّريعَة الغَرَّاء، وما يُناسبُ ذلك.

اللهم صغّر الدنيا بأعيننا، وكبِّر الآخرة في قلوبنا، بحرمة حبيبك محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

أيُّها الولدُ العزيزُ صاحبُ التميز، إياك والرغبةَ في زخارف الدنيا الدنية، والانخداعَ بالشوكة الفانية، وعليك بالسعي في العمل بمقتضى الشَّريعة الغراء في جميع الحركات والسكنات، والمعيشةَ على وفق الملة الزهراء، فلا بُدَّ أولاً من تصحيح الاعتقاد بمقتضى آراء علماء أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، فإنَّه ضروريٌّ، وبعد ذلك يصرفُ عنان الهمة إلى إتيان الأحكام الفقهية العمليَّة، فينبغي الاهتمامُ التامُّ في أداء الفرائض، والاحتياطُ في الحلّ والحرمة، والعباداتُ النافلةُ في جنب الفرائض كالمطروح في الطَّريق، وساقطةٌ عن الاعتبار، وأكثرُ الناس في هذا الوقت في ترويج النوافل وتخريب الفرائض، يهتمون في إتيان نوافل العبادات، ويعدُّون الفرائض حقيرةً وعديمةَ الاعتبار، يعطون مبلغاً كلياً للمستحقّ وغيرِ المستحقّ بتقريبٍ وبغير تقريبٍ، ولكن إعطاء فلسٍ في أداء الزكاة للمصرف متعسِّرٌ عليهم، ولا يدرون أنَّ إعطاءَ فلسٍ من الزكاة للمصرف خيرٌ لهم من إعطاء ألوفِ صدقةٍ نافلةٍ، فإنَّ في إعطاء الزكاة مجرَّدَ امتثال أمر المولى جلّ سلطانه، وفي الصدقة النافلة كثيرٌ ما يكون المنشأُ الهواءَ النَّفسانِيَّ، ولهذا لا مساغَ للرياء في الفرض، وأما النفلُ؛ ففيه مجالٌ للرياء، ومن ههنا كان الأولى في أداء الزكاة الإظهار لنفي التهمة، وفي الصدقة النافلة الإخفاء لكونه أليقَ بالقبول.

وبالجملة لا بُدَّ من التزام الأحكام الشَّرعيّة حتى يتصور الخلاصُ من مضرة الدنيا، فإن لم تتيسّر حقيقةُ ترك الدنيا ينبغي أن لا يقصِّر في الترك الحكميِّ، وهو التزامُ الشَّريعة في الأقوال والأفعال، والله سبحانه الموفق، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ والثَّمانُون

إلى المِير مَاهْ مَحمودٍ في بيانِ أنَّ مَحبَّة هذه الطَّائفَة العَليَّة رأسُ بِضاعَة جَميعِ السَّعاداتِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أحوالُ فقراء هذه الحدود وأوضاعُهم مستوجبةٌ للحمد، والمسؤولُ من الله سبحانه سلامتكم وعافيتكم وثباتكم واستقامتكم على جادة الشَّريعة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام والبركة والتحية. الطَّريقةُ التي أخذها الأخُ الأعزُّ الأرشدُ من هذا الفقير وإن لم تترتَّب على ذلك الأخذ بواسطة قلَّة نيل الصُّحبة التي هي أصلٌ عظيمٌ عند هؤلاء الأكابر بركاتٌ وثمراتٌ لائقةٌ، ولكن إذا بقيت شمَّةٌ من الارتباط الحبّي الذي هو من لوازم تعليم الطَّريقة؛ فهي دولةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ المرءَ مع من أحبَّ، ....

والبركةُ الأولى التي تحصل في أوّل صحبةٍ لمبتدئٍ رشيدٍ من هذه الطّريقة العليّة دوامُ توجّه القلب إلى المطلوب الحقيقيّ جلّ سلطانه، ودوامُ التوجّه هذا يُوصِلُ في فرصةٍ يسيرةٍ إلى نسيان السِّوى، بحيث لو وفى عمرُ السّالك فرضاً ألف سنةٍ لا يخطر على قلبه غيرُ الحقّ سبحانه بواسطة حصول نسيان السوى له، بل لو ذكّروه بالسوى بالتكلّف والتعمُّل لا يكاد يتذكّرُ، فإذا حصلت هذه النِّسبة؛ فقد وُضِعَ قدمٌ أوّلُ في الطّريقة، فماذا أكتب من القدم الثّاني والثّالث والرّابع إلى ما شاء الله تعالى؟ القليلُ يدلُّ على الكثير، والقطرةُ تنبئ عن الغدير، المقصودُ ترغيبُ الأحبَّة نفع الله عز وجل، وأوردنا في هذا القيل والقال الميان عبد العظيم ببيان محبتكم، والإخبار عن إخلاصكم. السلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المكتوب الرابع والثمانون

إلى الشّيخ حميدٍ البَنْگاليّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد اختار أخي الشّيخ ميان حميد انزواءً عجيباً بحيث إنّ المجالَ فيه للكلام والسلام أيضاً قليلٌ، حتى لم يصل في مدة سبع سنين أو ثماني سنين من جانبكم إلا كتابٌ واحدٌ، وهو أيضاً غيرُ تامٍّ، ولا يعلم أنّه هل تصل المكاتيبُ المرسلةُ من هذا الجانب إليكم أو لا؟ ولَمّا كان أخي الأعزُّ الشّيخُ عبد الحي في صدد التوجّه إلى وطنه أَمَرْتُه أن يوصل نفسه إليكم، وأن يطّلع على أحوالكم، والشّيخُ عبد الحي كان في الخدمة قريباً من خمس سنين، وكان أكثرُ خدمات الحضور متعلّقاً به، وهو ريّان من علوم الفقير ومعارفه، وخبيرٌ بأحوال السلوك والجذبة، وأمرتُ المشارَ إليه بأن يقيم في منزلكم أياماً، وأن يورد في البين ما يناسب الوقتَ والحالَ من العلوم والمعارف، وينبغي لكم أن تُطْلِعوا المشارَ إليه على أحوالكم الماضية، وما هو نقدُ الوقت من الأحوال والمواجيد كلّها، وأن تقبلوا كلّما ينصح به، وباقي الأحوال يبيّنُه المشارُ إليه لكم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى.

المكتوب الخامس والثمانون

إلى الشّيخ نور محمّد.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أحوالُ فقراء هذه الحدود وأوضاعُهم مستوجبةٌ للحمد، والمسؤولُ من الله سبحانه استقامتكم، وأخي الشّيخ ميان عبد الحي من بلادكم، ونازلٌ في جواركم، وهو نسخةُ العلوم والمعارف الغريبة، وضرورياتُ هذا الطّريق مودعةٌ عنده، وملاقاتُه مغتنمةٌ للأصحاب النّائين، فإنّه قريبُ عهدٍ بالصُّحبة، واستصحب معه أشياء جديدةً، وعنده علامةٌ من الفناء والبقاء، وبيانٌ من السُّلوك والجذبة، بل هو خبيرٌ من ما وراء الفناء والبقاء المتعارفين والجذبة والسُّلوك المقرَّرين، بل يمكن أن يقال: إنَّ له ممرّاً فيها، وأكثرُ معارف المكتوبات الغريبة قد قرعت سمعَهُ، وأدركها بالاستفسار مهما أمكن، والله سبحانه الموفِّق، ويعلم الأحوال من المشار إليه بالتّفصيل، فلا نشتغلُ بالزوائد. والسلام.

المكتوب السادس والثمانون

إلى الشّيخ طاهرٍ البدَخْشيّ في جوابِ كِتابِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصّحيفةُ الشّريفةُ من الأخ الأعزّ، واتّضح ما اندرج فيها من بيان الأحوال والمعارف، وأورثَ السُّرورَ والفرحَ، ما أعظم دولةَ توجّه........................

المحبِّين والمخلصين إلى جناب قدسه تعالى نافضين أيديهم من الكلّ، وإقبالهم عليه سبحانه بكليَّتهم، ضاربين السِّوى بأرجلهم، وباقي كيفيات هذه الحدود لعلَّ الأخ الشَّيخ عبد الحي يبيِّنُها، والعلومُ اللِّسانيَّة والمعارفُ الكتابيّةُ كثيرةٌ عند هذا المشار إليه، ولهذا لم نكتب شيئاً من تلك المقولة، جعل الله عواقب جميع الأمور بالخير بالنبي وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلاة والسلام والتحية.

المكتوب السابع والثمانون

إلى الفَتحِ خان الأفغَانِيِّ في النَّصائح.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المنبئُ عن كمال محبَّة الفقراء وإخلاصهم، رزق الله سبحانه الاستقامةَ على محبَّة هؤلاء الفقراء، والنَّصيحةُ التي أنصحُ بها الأحبَّة ذوي السعادة: اتِّباعُ السُّنَّة السَنِيّة على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيّةُ، والاجتنابُ عن البدعة الغير المرضيَّة، فإنَّ من أحيى سنةً من السُّنن التي صارتْ متروكة العمل بها؛ فله ثوابُ مائة شهيدٍ، فكيف من أحيى فرضاً من الفرائض أو واجباً من الواجبات؟ فتعديلُ الأركان في الصَّلاة - الذي هو واجبٌ عند أكثر العلماء الحنفيَّة وفرضٌ عند الإمام أبي يوسف والإمام الشافعيِّ وسنَّةٌ عند بعض العلماء الحنفية - صار متروكاً عند أكثر الناس، فأجرُ إحياء هذا العمل الواحد يكون أزيدَ من ثواب مائة شهيدٍ في سبيل الله، وعلى هذا القياس سائرُ الأحكام الشَّرعيّة من الحلّ والحرمة والكراهة وغيرها، وقالوا: إنَّ رَدَّ نصف دانقٍ إلى شخص أخذه عنه ظلماً بلا وجهٍ شرعيٍّ أفضلُ من أن يتصدَّق مائتي درهمٍ، وقالوا: لو كان لشخصٍ من العمل الصالح مثلُ عمل نبيٍّ، وبقي في ذمَّته حقُّ شخصٍ مقدار نصف دانقٍ؛ لا يدخل الجنَّةَ حتى يؤدي ذلك. وبالجملة ينبغي أن يكون متوجّهاً إلى الباطن بعد جعل الظَّاهر محلّى بإتيان الأحكام الشَّرعيّ؛ لئلا يكون العملُ مختلطاً بالغفلة، والتحلِّي بالأحكام الشَّرعيّة بدون إمداد الباطن متعذِّرٌ، وظيفةُ العلماء الإفتاءُ، وشغلُ أهل الله العملُ، والاهتمامُ في الباطن مستلزمٌ للاهتمام في الظَّاهر، والذي يهتمُّ بالباطن ويعجز عن الظَّاهر؛ فهو ملحدٌ، وأحوالُه الباطنيَّةُ استدراجاتُه، وعلامةُ صحَّة حال الباطن: تحلِّي الظَّاهر بالأحكام الشَّرعيّة، وطريقُ الاستقامة هو هذا. والله سبحانه الموفق.

المكتوب الثامن والثمانون

إلى الـمُلَّا بَديعِ الدِّينِ في بيانِ الرِّضاءِ بالقَضاءِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. العبدُ المقبولُ: من يكون راضياً بفعل مولاه، والذي هو تابعٌ لرضاء نفسه؛ فهو عبدُ نفسه، فلو أمرَّ المولى سكيناً على حلقوم العبد ينبغي أن يكون العبدُ مسروراً ومبتسماً في ذلك الوقت، وأن يجد فعلَ مولاه ذلك مرضيّاً لنفسه، بل ينبغي أن يكون متلذِّذاً به، فلو حصلت له الكراهةُ من ذاك الفعل - عياذاً بالله سبحانه - وضاق منه صدرُه؛ فهو بعيدٌ عن دائرة العبوديَّة، ومطرودٌ عن قرب المولى ومهجورٌ، وحيث كان الطَّاعونُ مرادَه سبحانه وتعالى ينبغي أن يَعُدَّه مرادَ نفسه، وأن يكون مسروراً به ومتبسِّماً، وأن لا يكون عبوساً وضيِّقَ الصَّدْر من استيلاء الطاعون، بل ينبغي أن يكون متلذذاً به؛ لكونه فعلَ المحبوب، ولكلِّ أحدٍ أجلٌ مسمّىً لا احتمال فيه للزِّيادة والنُّقصان، فما معنى الاضطراب؟

غَايةُ ما فِي البابِ: ينبغي أن يطلب العافيةَ من البليَّة، والالتجاء إليه سبحانه من السُّخْط، فإنَّ رضاهُ تعالى في.........

دعاء العبد وسؤاله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. جاء مولانا عبد الرشيد، وبيَّن أحوالَ تلك البقعة، عافاكم الله سبحانه عن البليات الظَّاهرة والباطنة.

المكتوب التاسع والثمانون

إلى السَّيِّد مِير مُحبِّ اللهِ في النَّصيحَة.

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على جادة آبائكم الكرام بحرمة حبيبه سيد الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام، أحوالُ فقراء هذه الحدود وأوضاعهم مستوجبةٌ للحمد، لله سبحانه الحمدُ والمنةُ دائماً، وعلى نبيه الصلاة والسلام سرمداً، والمسؤولُ من الله سبحانه سلامتُكم وعافيتُكم وثباتكم واستقامتكم. أيُّها المخدومُ المكرّمُ المشفقُ، قد تمضي أوقاتُ الاشتغال بالعمل، كلَّما يمرُّ آنٌ ينقص شيءٌ من العمر، ويقرب الأجلُ المسمّى، فلو لم يحصل التنبُّهُ اليومَ لا يكون نقدُ الوقت غداً غيرَ الحسرة والندامة، ينبغي الاهتمامُ في المعاملة على وفق الشَّريعة الغراء في هذه الأيَّام المعدودة حتى تتصوَّرَ النجاةُ، وهذا الوقتُ وقتُ العمل لا وقتُ الراحة، فإنَّ الرَّاحةَ التي هي ثمرةُ العمل أمامنا، والاستراحةُ في وقت العمل تضييعٌ للزراعة، ومنعٌ لها عن الثمرات، والزيادةُ على ذلك تصديعٌ، نسأل الله سبحانه حصولَ الدَّولة الصورية والمعنوية.

المكتوب التسعون

إلى المِيرزا عَرَبْ خان في تَفويضِ شَخصٍ.

أيَّدكم الله سبحانه، ونصركم على الأعداء الآفاقيّة والأنفسيّة، ونجَّاكم عن البليات الصوريَّة والمعنويَّة، قال رسول الله ﷺ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ: مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عِيَالِهِ»[1]، وقد تكفَّل الحقُّ سبحانه بأرزاق الخلائق، فتكون الخلائقُ بمنزلة عياله تعالى، ومن واسى عيالَ شخصٍ وتحمَّل ثقله؛ يكون محبوبَ صاحبِ العيال ألبتَّة، حيث خفَّف عنه برفع مؤنته، بناءً على ذلك نجترئ على التَّصديع، إنَّ الحافظَ حامد رجلٌ صالحٌ، وتالي القرآن المجيد، وقد يشوِّشُه كثرةُ العيال، وإنَّه لا يقدر الخروجَ عن عهدة تربيتهم، والمسؤولُ من كرمكم إمدادُ المشار إليه وإعانتُه، ويكفي الكرماءَ للكرم علّةٌ جزئيةٌ. والسلام.

المكتوب الحادي والتسعون

إلى المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّدٍ سعيدٍ في بيانِ أسرارِ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اسمع سرّاً عظيماً في ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾: إنَّ الإنسانَ الكاملَ إذا تحقق بالسَّير في الله بعد السَّير إلى الله، وتخلَّقَ بأخلاق الله، وأتمَّ هذا السَّيرَ أيضاً بطريق الإجمال، وأتمَّ دوائرَ ظهور عكوس الأسماء والصِّفات التي تمامُها مربوطٌ بالسَّير في الله؛ يصير لائقاً ومستحقّاً لأن يظهر فيه المعشوقُ بالأصالة بلا شائبة الظليَّة، وبلا توهُّم الحاليَّة والمحلِّية، وحيث لا انفكاكَ لصفات المعشوق الذاتيّة عن ذاته يكون ظهورُ الذات مع الصِّفات في عين العاشق بالضَّرورة، ويحصل القوسان - يعني: قوسَ الصِّفات وقوسَ الذات -، وهذا المقامُ الأعلى مقامُ قاب قوسين الذي هو متعلّقٌ بظهور الأصل بلا شائبة الظلّ، وإذا ظهر في العاشق الصَّادق - بعناية الله سبحانه- كمالُ الارتباط والتعلّق بذات المعشوق على حدٍّ لا يريد شيئاً من الاسم والصفة؛ ففي هذا الوقت يستترُ الاسمُ والصفةُ بفضل الله جل سلطانه عن نظره بالتَّمام، ولا يبقى ملحوظُه ومشهودُه شيئاً غيرَ الذات، وإن كانت الصِّفاتُ.........

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٤٨) واللفظ لهما من حديث ابن مسعود ﷺ.

موجودةً، ولكنَّها لا تكون مشهودةً له، فيظهر في هذا الحال سرُّ (أو أدنى)، ولا يبقى أثرٌ من القوسين، **فإذا وقع الهبوطُ** من هذا المقام الأعلى يقع وضعُ القدم الأوّل في عالم الخلق، بل يجلس في عنصر التراب، **وهذا العنصرُ الطاهرُ مع وجود بُعْده** عن عالم القدس، وكونه مهجوراً عنه؛ أقربُ إلى عالم القدس من الكلّ، وإذا نظرنا **إلى النزول والهبوط؛ نجد دولةَ القرب** نصيبَ عالم الخلق، بل نصيب عنصر التُّراب. نعم، إذا لاحظنا النقطةَ الأولى من الدَّائرة في **جانب العروج نجد أقربَ النُّقَطِ** إلى ذلك الجانب النقطةَ الثَّانيةَ من تلك الدَّائرة، وإذا لاحظنا في جانب الهبوط نجدُ **أقربَ النُّقط إلى النقطة الأولى النقطةَ** الأخيرةَ مقبلةً ومتوجّهةً إلى النقطة الأولى، وشتَّان ما بين المقبل والمعرض، والنقطةُ الثّانيةُ لها **ميلٌ إلى ظهورات النقطة** الأولى، والنقطةُ الأخيرةُ مخلِّفةٌ للظُّهورات وراء ظهرها، ومريدةٌ للذات الظَّاهرة، فأين هو من ذاك؟ ﴿رَبَّنَا اٰتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوبُ الثَّاني والتِّسعُون

إلى المِير محمَّدٍ نُعمانَ في بيانِ أنَّ الولايَة عبارَةٌ عن قُربٍ إلهيٍّ جلَّ سُلطانُه، ولَيسَتِ الخَوارِقُ والكَراماتُ مِن شَرطِها، وبيانِ حكمِ سجدَةِ التَّحيَّة للسَّلاطينِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰىۜ﴾ [النمل: ٥٩].

ليطبْ وقتُ الأخ الأعزّ السيد مير محمد نعمان، وليعلم أنَّ ظهورَ الخوارق والكرامات ليس من شرط الولاية، وكما أنَّ العلماءَ ليسوا مكلَّفين بحصول الخوارق؛ الأولياءُ أيضاً ليسوا مكلَّفين بظهور الخوارق، فإنَّ الولايةَ عبارةٌ عن قربٍ إلهيٍّ جلَّ سلطانه يُكْرِمُ به أولياءَه بعد نسيان السِّوَى، شخصٌ يعطى هذا القربَ، ولا يعطى الاطلاعَ على أحوال المغيبات والمحدثات، وشخصٌ ثانٍ يعطى هذا القربَ، ويعطى الاطِّلاعَ أيضاً على المغيبات والمحدثات، وشخصٌ ثالثٌ لا يعطى من القرب شيئاً، ويعطى الاطِّلاعَ على المغيبات، وهذا الشَّخصُ الثّالثُ من أهل الاستدراج، وجعله صفاءُ النَّفس مبتلى بكشف المغيبات، وألقاه في الضلالة، وآية ﴿وَيَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ عَلٰى شَيْءٍۜ اَلَٓا اِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَاَنْسٰيهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِۜ اُولٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِۜ اَلَٓا اِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨-١٩] علامةُ حالهم، والشَّخصُ الأوّلُ والشَّخصُ الثّاني اللَّذان مشرَّفان بدولة القرب من أولياء الله تعالى لا يزيد كشفُ المغيبات شيئاً في ولايتهم، ولا ينقصُ عدمُ الكشف شيئاً من ولايتهم، والتَّفاوتُ بينهم إنّما هو باعتبار درجات القرب، وكثيراً ما يكون صاحبُ عدم كشف الصُّور الغيبيَّة أفضلَ من صاحب كشف تلك الصور، وأسبقَ منه قدماً بواسطة مزيَّة القرب الحاصل له، صرَّح بهذا المعنى صاحب «العوارف» الذي هو شيخُ الشيوخ، ومقبولُ جميع الطوائف في كتابه «العوارف»، فمن لم يصدِّقْ هذا الكلام مني؛ فليراجع ذلك الكتابَ، فإنَّه ذكر فيه بعد ذكر الكرامات والخوارق: وكلُّ هذه مواهبُ الله تعالى، وقد يكاشَفُ بها قومٌ ويعطى، وقد يكون فوقَ هؤلاء من لا يكون له شيءٌ من هذا؛ لأنَّ هذه كلَّها تقويةُ اليقين، ومن مُنِحَ صِرْفَ اليقين لا حاجةَ له إلى شيءٍ من هذا، فكلُّ هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذِّكْر في القلب، ووجود ذكر الذات. انتهى. قال إمامُ هذه الطَّائفة الخواجه عبد الله الأنصاري الملقب بشيخ الإسلام في كتابه «منازل السائرين»: إنَّ الفراسةَ على نوعين: فراسةُ أهل المعرفة، وفراسةُ..

أهل الجوع والرياضة، ففراسةُ أهل المعرفة في تمييزهم من يصلح لحضرة الله جلّ وعلا ممن لا يصلح، ومعرفتُهم أهلَ الاستعداد الذين اشتغلوا بذكر الله سبحانه، ووصلوا إلى حضرة الجمع، وفراسةُ أهل الرياضة وأرباب الجوع مخصوصةٌ بكشف الصُّوَر، والإخبار عن المغيبات المختصَّة بالمخلوقات، ولَمّا كان العالمُ أكثرهم أهلَ انقطاعٍ عن الله سبحانه واشتغالٍ بالدنيا؛ مالت قلوبُهم إلى أهل كشف الصُّوَر والإخبار عما غاب من أحوال المخلوقات، فعظَّموهم، واعتقدوا أنَّهم من أهل الله وخاصته، وأعرضوا عن كشف أهل الحقيقة، واتَّهموهم فيما يخبرون عن الله سبحانه، وقالوا: لو كان هؤلاء أهلَ الله كما يزعمون؛ لأخبرونا عن أحوالنا الغيبية، وأحوال سائر المخلوقات، وإذا كانوا لا يقدرون على كشف أحوال المخلوقات؛ فكيف يقدرون على كشف أمورٍ أعلى من هذه؟ وكذَّبوهم في فراستهم المتعلّقة بذات الواجب وصفاته جلّ وعلا بهذا القياس الفاسد، وعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ الصحيحةُ، ولم يعلموا أنَّ اللهَ قد حمى هؤلاء عن ملاحظة الخلق، وخصَّهم بجناب قدسه، وشغلهم عما سواه حمايةً لهم، وغيرةً عليهم، ولو كانوا ممن يتعرَّضون لأحوال الخلق ما صَلُحوا للحق سبحانه. انتهى كلامه. وقال كلماتٍ أخر أيضاً أمثالَ ذلك، وأنا سمعتُ حضرة شيخي قدس سره يقول: كتب الشَّيخ محيي الدين ابن العربي: إنَّ بعضَ الأولياء الكرام الذي ظهرت منه كراماتٌ وخوارقُ كثيرةٌ ندم في آخر النَّفس من ظهور تلك الكرامات، وقال تمنّياً: يا ليت هذه الكرامات لم تظهر منّي، فلو كان التَّفاضلُ باعتبار كثرة ظهور الخوارق لا يكون للنَّدامة على ذلك الطَّور معنىً.

فإن قيل: إذا لم يكن ظهورُ الخوارق شرطاً في الولاية، كيف يتميَّزُ الوليّ من غير الوليّ؟ وكيف يتبيَّنُ المحقُّ من المبطل؟

أجيب: لا يلزم التَّمييزُ، بل يكون المحقُّ ممتزجاً بالمبطل، فإنَّ اختلاطَ الحقِّ بالباطل لازمٌ لهذه النَّشأة الدُّنيويَّة، والعلمُ بولاية وليٍّ ليس بلازمٍ أصلاً، وكثيرٌ من أولياء الله تعالى لا اطِّلاعَ لهم على ولايتهم، فكيف يكون الاطلاعُ على ولايتهم لازماً لغيرهم؟ وفي النبيّ لا بُدَّ من الخوارق ليتميَّزَ النبيُّ من غير النبيِّ، فإنَّ العلمَ بنبوَّةِ نبيٍّ واجبٌ، والوليُّ لما كان داعياً إلى شريعة نبيه؛ كفاه معجزةُ نبيه، فلو كان الوليُّ يدعو إلى ما وراء الشَّريعة؛ لَمَا كان له بُدٌّ من خارقٍ، وحيث كانت دعوتُه مخصوصةً بشريعةِ نبيٍّ لا يلزم الخارقُ أصلاً، العلماءُ يدعون إلى ظاهر الشَّريعة، والأولياءُ يدعون إلى ظاهر الشَّريعة وباطن الشَّريعة، يدلُّون المريدين والطَّالبين أوّلاً على التَّوبة والإنابة، ويرغبونهم في إتيان الأحكام الشَّرعيّة، ويَهْدُونهم ثانياً إلى طريق ذكر الحق جلّ وعلا، ويؤكدون في استغراق جميع أوقاتهم بالذِّكْر الإلهيّ جلّ سلطانه إلى أن يستولي الذِّكرُ، ولا يبقى في القلب غيرُ المذكور أصلاً ليحصل النسيانُ عن جميع ما سوى المذكور، حتى لو كُلِّفَ بتذكُّر الأشياء لا يكاد يتذكَّرُ، ومن اليقين أنَّه لا حاجةَ للوليّ لأجل هذه الدَّعوة التي تتعلّقُ بظاهر الشَّريعة وباطنها إلى الخوارق أصلاً، والشَّيخوخةُ والمريديّةُ عبارتان عن هذه الدَّعوة التي لا تعلُّقَ لها بالخوارق، ولا مساسَ لها بالكرامة، مع أنّا نقول: إنَّ المريدَ الرشيدَ والطالبَ المستعدَّ يحسُّ في كلِّ ساعةٍ في أثناء سلوك الطَّريق خوارقَ شيخه وكراماته، ويستمدُّ منه في المعاملة الغيبية في كلِّ زمانٍ، ويجد منه فيها مدداً، وظهورُ الخوارق بالنِّسبة إلى الأغيار ليس بلازمٍ، وأما بالنِّسبة إلى المريدين؛ فكراماتٌ في كراماتٍ، وخوارقُ في خوارقَ، وكيف لا يحسُّ المريدُ خوارقَ الشَّيخ.........

فإنَّ الشَّيخَ أحيى القلبَ الميّتَ، وأوصلَ إلى المكاشفة والمشاهدة؟ فإذا كان عند العوام الإحياءُ الجسديُّ عظيمَ الشأن؛ فعند الخواصِّ الإحياءُ القلبيُّ والروحيُّ برهانٌ رفيعُ البنيان، كتب الخواجه محمد پارسا قدس سره في «الرسالة القدسية»: ولَمّا كان الإحياءُ الجسديُّ معتبراً عند أكثر الناس؛ أَعْرَضَ عنه أهلُ الله، واشتغلوا بالإحياء الروحيِّ، وتوجّهوا إلى إحياء القلب الميت، والحقُّ أنَّ الإحياءَ الجسديَّ بالنِّسبة إلى الإحياء القلبيِّ والروحيِّ كالمطروح في الطَّريق، وداخلٌ في العبث بالنَّظَر إليه، فإنَّ هذا الإحياءَ سببُ حياة أيام معدودةٍ، وذاك الإحياءُ وسيلةٌ للحياة الدَّائميَّة، بل نقول: إنَّ وجودَ أهل الله في الحقيقة كرامةٌ من الكرامات، ودعوتَهم الخلقَ إلى الحقّ جل سلطانه رحمةٌ من رحمات الله تعالى، وإحياؤُهم القلوبَ الميتةَ آيةٌ من الآيات العظمى، وهم أمانُ أهل الأرض، وغنائمُ الأيَّام، بهم يمطرون، وبهم يرزقون، واردٌ في شأنهم: كلامهم دواءٌ، ونظرُهم شفاءٌ، هم جلساءُ الله، و«**هُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ**»، ولا يخيبُ أنيسهم، والعلامةُ التي يتميَّزُ بها محقُّ هذه الطَّائفة من مبطلهم هي أنَّه إذا كان شخصٌ له استقامةٌ على الشَّريعة، ويحصل للقلب في مجلسه ميلٌ وتوجّهٌ إلى الحقّ سبحانه وتعالى، ويفهم حصولُ برودةٍ عما سواه تعالى؛ فذلك الشَّخصُ شخصٌ محقٌّ، ولأن يُعَدَّ من الأولياء على تفاوت الدَّرجات مستحقٌّ، وهذا أيضاً بالنَّظَر إلى أرباب المناسبة، والذي لا مناسبةَ له؛ فهو محضُ محرومٍ مطلقٍ: (شعر)

مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِـــهِ مَيْلُ الْهُدَى   فَشُـــهُودُهُ وَجْهَ النَّبِيِّ لَا يَنْفَعُهْ

وقد اندرجت في المكتوب الشَّريف شمةٌ من طلب سلطان الوقت لله تعالى من حسن النشأة، ووقع رمزٌ إلى العدالة، والتزام الأحكام الشَّرعيّة، فأورثت مطالعةُ ذلك فرحاً وافراً وذوقاً، كما أنَّ الحق سبحانه نوَّر العالمَ بنور عدل سلطان الوقت وعدالته؛ نصر الشَّريعةَ المحمديةَ، وأعزَّ الملَّةَ المصطفويَّةَ أيضاً بحسن اهتمامه.

أيّها المحبُّ بحكم (الشَّريعة تحت السيف) رواجُ الشَّريعة الغراء مربوطٌ بحسن اهتمام السلاطين العظام، وهذا المعنى قد طرأ عليه الضَّعفُ من منذ أوقاتٍ، فصار الإسلامُ ضعيفاً بالضَّرورة، وطفق كفارُ الهند يهدمون المساجدَ بلا تحاشٍ، ويعمرون في مواضعها معابدهم، كان في تانيسر في داخل حوض كركيهت مسجدٌ وقبرُ واحدٍ من الأعزة، فهدموه، وبنوا موضعه ديراً كبيراً، وأيضاً الكفارُ يُجْرُون مراسم الكفر على الملأ كما شاؤوا، والمسلمون عاجزون عن إجراء أحكام الإسلام، ويومُ الكادس للهنود الذين يتركون فيه الأكلَ والشربَ يهتمون في أن لا يطبخَ ولا يبيعَ أحدٌ من المسلمين خبزاً في أسواق بلاد المسلمين، وفي شهر رمضان المبارك يطبخون الخبزَ والطعامَ في الملأ، ويبيعون، ولا يقدر أحدٌ من ضعف الإسلام على منعه، يا أسفاً على ذلك مائة ألف أسفٍ سلطان الوقت منا، ونحن الفقراءُ بهذا الضَّعف والوهن، وقد قَوِيَ الإسلامُ بإكرام أصحاب الدَّولة وإعزازهم إياه، وكان العلماءُ والصوفيَّةُ معزَّزين ومحترمين، وكانوا يجتهدون في ترويج الشَّريعة بتقوية هؤلاء، وسمعت أنَّ الأميرَ تيمور عليه الرَّحمة كان يوماً يمرُّ من بعض أزقة بخارى، وكان دراويشُ خانقاه الخواجه النقشبند ينفضون فرشَ خانقاه الخواجه اتِّفاقاً، فتوقَّف الأميرُ في ذلك المحلّ من حسن نشأته الإسلاميَّة حتى جعل ....

غبارَ الخانقاه عنبراً لنفسه وصندلاً يتشرَّفُ ببركات فيوض الدراويش، ولعلَّه بهذا التَّواضع والانكسار تشرَّف بحسن الخاتمة، نقل أنَّ حضرة الخواجه النقشنبد قدس سره قال بعد وفاة الأمير تيمور: أمير مرد وإيمان يرد، يعني: مات الأميرُ، واستصحب إيمانَه، هل تعلم ما وجهُ نزول الخطباء إلى درجةٍ سفليَّةٍ عند ذكر أسامي السَّلاطين في خطبة الجمع؟ هو تواضُعُ السَّلاطين العظام بالنِّسبة إلى نبينا وخلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولم يجوِّزُوا أن تذكرَ أساميهم مع أسامي أكابر الدِّين في درجةٍ واحدةٍ، شكر الله تعالى سعيهم.

تذييلٌ: أيُّها الأخُ، إنَّ السَّجدةَ التي هي عبارةٌ عن وضع الجبين على الأرض متضمِّنة لنهاية التَّذلُّل والانكسار، ومشتملة على كمال التواضع والافتقار، ولهذا جعلوا هذا القسمَ من التواضع مخصوصاً بعبادة واجب الوجود جلّ سلطانه، ولم يجيزوه لغيره تعالى، نقل أنَّ رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي على طريقٍ، فجاء أعرابيٌّ، فطلب منه معجزةً حتى يؤمن، فقال له ﷺ: «**قُلْ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ يَطْلُبُكَ**»، فتحركت، وانقلعت عن محلِّها، وجاءت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فلما شاهد الأعرابيُّ هذا الحالَ أسلم، وقال: ائذن لي أسجد لك يا رسول الله، قال: «**لَا تَجُوزُ السَّجْدَةُ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى، لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**»[1]، وبعضُ الفقهاء وإن جوَّزوا سجدة التَّحيَّة للسَّلاطين، ولكنَّ اللَّائقَ بحال السَّلاطين العظام أن يتواضعوا في هذا الأمر لحضرة الحقّ سبحانه وتعالى، وأن لا يجوِّزوا نهايةَ التذلُّل والانكسار هذه لغيره تعالى، وقد سخَّر لهم الله سبحانه العالَمَ، وأحوجهم إليهم، فينبغي أداءُ شكر هذه النِّعمة العظمى، وأن يخصِّصوا مثل هذا التَّواضع المنبئ عن كمال العجز والانكسار بجناب قدسه تعالى، وأن لا يجوِّزوا الشَّركة معه تعالى في هذا الأمر، وإن جوّز جمعٌ هذا المعنى، ولكن ينبغي - لحسن تواضعهم - أن لا يجوِّزوه، ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وحيث إنَّ سلطانَ الوقت نزل إلى دار الخلافة راجعاً من أقصى ممالكه يحتمل أن يوصل هذا الفقيرُ نفسه عن قريبٍ إلى دار الخلافة بمشيئة الله تعالى، والباقي عند التلاقي، والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والتسليمات العلى.

المكتوب الثالث والتسعون

إلى الخواجه هاشِمٍ البدَخْشيِّ الكَشْمِيِّ في بيانِ أنَّ لكلٍّ من لطائِف عالَمِ الخَلقِ وعالَمِ الأمرِ ظاهراً وباطناً، ولُحوقِ هذا الباطِنِ باسمٍ هو قيُّومُ العَارِفِ، وبَيانِ أنَّ العارِفَ في وَقتِ النُّزولِ إلى القَلبِ متوجِّه إلى دَعوَة العبادِ ظاهراً وباطِناً.

اعلم أنَّ عالَمَ الخلق وعالَمَ الأمر للعارف التامِّ المعرفة وإن كان كلاهما داخلين في الظَّاهر والصورة بالنِّسبة إلى الاسم القيوم الذي هو وجهه الخاصُّ وفي الحقيقة هو باطنُه وحقيقتُه كما حرِّر تحقيقه في مكتوبٍ، ولكن إذا لاحظنا هذا الظَّاهرَ والصورةَ بحدَّة النَّظر التي هي صارت موهبةً بمحض فضل الله جل سلطانه؛ يظهر هنا أيضاً ظاهرٌ وباطنٌ، وتبدو صورةٌ وحقيقةٌ، لا أنّه نجد عالمَ الخلق بالتَّمام ظاهراً، وعالمَ الأمر باطناً كما ظنَّ جماعةٌ، بل في كلِّ لطيفةٍ من لطائف عالم الخلق والأمر صورةٌ وحقيقةٌ، عنصرُ التراب له ظاهرٌ وباطنٌ، وكذلك الأخفى له ظاهرٌ وباطنٌ، وهذا الباطنُ الذي يتعلَّقُ بعالم الخلق وعالم الأمر يكون يوماً فيوماً بتوسُّط........................

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الحاكم في «المستدرك» (٧٣٢٦) وصححه، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ٣٩٠) من حديث بريدة ﷺ، والدارمي (١٥٠٥) عنه أيضاً بدون ذكر الشجرة، والترمذي (١١٥٩) وحسنه من حديث أبي هريرة ﷺ بدون الجملة الأولى وبدون القصة.

الأعمال الصالحة، بل بمحض موهبة الله جلّ سلطانه ملحقاً بذاك الباطن الذي هو مربوطٌ بالاسم القيوم شيئاً فشيئاً إلى حدٍّ لا يبقى من هذا الباطن أثرٌ أصلاً، وكلّما هو غيرُ الظّاهر الصِّرْف يصيرُ مختفياً، ولحاقُ هذا الباطن بالاسم القيوم ليس هو بمعنى أنَّ هذا الباطنَ يكون في ذلك الاسم، وأنَّه يتّحدُ معه، فإنَّ ذلك إلحادٌ، سبحان من لا يتغيَّر بذاته ولا بصفاته ولا بأسمائه بحدوث الأكوان، بل بمعنى: أنَّه تحصل لهذا الباطن نسبةٌ إلى ذلك الاسم مجهولة الكيفيَّة تكون موهمةً للحلول والاتحاد، وفي الحقيقة لا حلولَ ولا اتحادَ، فإنَّ ذلك مستلزمٌ لقلب حقيقة الإمكان إلى حقيقة الوجوب تعالت وتقدست، وهو محالٌ عقليٌّ، وزندقةٌ في الشَّريعة، وذاك الظَّاهرُ الصرفُ الذي يبقى وإن كان من عالم الشَّهادة، فإنَّه مشهودٌ ومرئيٌّ، ولكنَّه منصبغٌ بلون الباطن، وإن كان الباطنُ خارجاً من حيطة الشُّهود والإدراك، وصار ملحقاً بالغيب، وأخذ لونَه، فإنَّ الكيفيَّ ما لم يأخذ لونَ اللاكيفي، ولم يخرج من حيطة الإدراك الكيفيّ، ولم يحمل حمولَةً من الشَّهادة إلى الغيب؛ لا ينال نصيباً من اللاكيفيّ الحقيقيّ، ولا يكون مطَّلعاً على غيب الغيب، ينبغي أن يعلم أنَّ هذا الظَّاهرَ الذي بقي على حاله متميزاً من الباطن وجهُه إلى الخلق بالتمام، والطاعاتُ والعباداتُ الشَّرعيّةُ مربوطةٌ به، ومعاملةُ الدَّعوة والتَّكميل أيضاً منوطةٌ به، وباطنُ هذا العارف صاحب التَّكميل - سواء كان متعلّقاً بالمراتب الإمكانية أو بالمقامات الوجوبيَّة أيضاً - متوجّهٌ إلى الظَّاهر، وإلى أيِّ شيءٍ يتوجّه الظَّاهرُ يتوجّهُ الباطنُ أيضاً إلى تلك الجهة لأجل التكميل والتربية وتتميم العبادة، فإنَّ هذه الدارَ دارُ العمل، وهذا الموطنَ موطنُ الدعوة، وحقيقةُ الشُّهود والمشاهدة إنّما هي في الآخرة، ومعاملةُ الكشف والمعاينة أمامنا، وعبادةُ المعبود جلّ سلطانه في هذا الموطن أفضلُ من الاستغراق في المعبود تعالى، وانتظارُ المطلوب الذي هو ناشٍ من المحبّة خيرٌ من الاستهلاك في المطلوب، يصدق أرباب السُّكر ذلك أو لا، وتوجّهُ الظَّاهر والباطن هذا الذي حصل لعارف صاحب تكميلٍ إلى جانب الخلق هو إلى بلوغ الأجل المسمى الذي هو منتهى مقام الدعوة، فإذا بلغ الأجلُ يطَّلع على جسر الموت، ويضع قدمه في منزل وصال المحبوب، ويشرَّف بدولة الوصل والاتِّصال بلا مزاحمة الأغيار: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيـمِ نَعِيمُهَـا ... وَلِلْعَاشِـقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]، والصلاةُ والسلامُ والتحيةُ والبركةُ على خير خلق الله وعلى إخوانه الكرام وعلى آله وصحبه العظام إلى يوم القيام.

المكتوبُ الرابعُ والتسعونَ

إلى مولانا عبدِ القادرِ الأنْبَالِيِّ في بيانِ حَقيقةِ الفناءِ والبقاءِ، وانفِكاكِ العدمِ مِن حَقيقةِ العارفِ وصورَتِه، وتَكميلِ نِسبَةِ المُجاورَة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين. اعلم أنَّ حقائقَ الممكنات بعلم هذا الفقير كما كتب في بعض المكاتيب عبارةٌ عن العدمات التي هي منشأُ جميع الشرّ والنقص مع عكوس الصُّور العلميَّة للأسماء والصِّفات الإلهيّة جل شأنه التي ظهرت في تلك العدمات.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ تلك العدمات مثل الهيولى، وتلك العكوسَ كالصورة الحالة في الهيولى تشخُّصُ تلك العدمات وتميُّزُها بتلك العكوس الظَّاهرة فيها، وقيام تلك العكوس بتلك العدمات المتميزة، وهذا القيامُ ليس هو كقيام العرض بالجوهر، بل كقيام الصورة..

بالهيولى على ما قالوا: إنَّ قيامَ الصورة بالهيولى وتشخيصَ الهيولى بالصُّورة، فإذا كان السَّالكُ متوجّهـاً بتوفيق الله سبحانه إلى جناب قدس الحق جلّ شأنه بالذِّكر والمراقبة، وأعرض عما سواه سبحانه ساعةً فساعةً؛ تحصل لتلك الصُّور العلميَّة للصفات الواجبة جلّ شأنه في كلِّ آنٍ قوةٌ وغلبةٌ، وتستولي على قرينها الذي هو العدماتُ وتتسلَّطُ، ألا إن حزب الله هم الغالبون، وتبلغ المعاملةُ مبلغاً تشرع العدمات التي هي كالأصل والهيولى لتلك العكوس في الاستتار، بل تكون مختفيةً عن نظر السَّالك بالتمام، ولا يبقى في نظره غيرُ العكوس والأصول وأصول الأصول، بل تكون العكوسُ التي هي مرايا أصولها مختفيةً عن النَّظَر، فإنَّه لا بدَّ للمرايا من الاختفاء، وهذا المقامُ مقامُ الفناء وعالٍ جداً، فإنْ شرِّف هذا السَّالكُ الفاني بالبقاء بالله، وأرجع إلى العالم؛ يجد عدمَه كالجلد الضيّق الذي هو لوقاية البدن، ويكاد يعبِّر عنه من غاية عدم مناسبته له بقميصٍ من شعرٍ، ويجده مبايناً لنفسه، ولكن ما كان العدمُ مبايناً له في هذا الموطن في الحقيقة، بل هو داخلٌ في مظانِّ أنانيته، وبالجملة أنَّ العدم في هذا المقام جزؤه المغلوبُ والمستورُ، ومتنزّلٌ عن الحالة التي كانت له فيما قبلُ، وصار تابعاً - بل قائماً - بتلك العكوس التي كان قيامُها به، وهذا الفقيرُ كان في هذا المقام سنين، ووجد عدمه مبايناً لنفسه كقميص من شعرٍ، ولَمّا كانت عنايةُ الله سبحانه التي لا غايةَ لها شاملةً لحاله بعد اللتيا والتي؛ رأى أنَّ ذلك الجزءَ المغلوبَ انحلَّ من هذا التَّركيب وفارَقَه، وفقد التشخُّصَ الذي كان عارضاً له بحصول تلك العكوس، وكأنَّه صار ملحقاً بالعدم المطلق كصورةٍ تجعل في قالبٍ، ويجعل قيامها به، فإذا كملتْ وحصل لها ثباتٌ ورسوخٌ؛ يكسر ذلك القالبُ، وتخرج الصورةُ منه، ويجعل قائمةً بنفسها، وفيما نحن فيه أيضاً العكوسُ التي كان قيامها به حصل لها قيامُها بنفسها، بل بأصولها، ففي هذا الوقت لم يبق إطلاقُ (أنا) على غير العكوس وأصول تلك العكوس، وكان الجزءُ العدميُّ لم يكن له مساسٌ بها، ووجدانُ حقيقة الفناء إنّما حصلت في هذا الموطن، وكأنَّ الفناءَ السابقَ كان صورة هذا الفناء، ولما أخرج إلى البقاء من هذا المقام، وأرجع إلى العالم؛ أعيد ذلك العدمُ الذي كانت له نسبةُ الجزئية، وكانت له الأصالةُ والغلبةُ، وجعل مجاوراً وقريناً له، ومبايناً عن حقيقته وصورته، وأبعد عن إطلاق لفظ (أنا) عليه، وألبس هو إياه كقميص الشعر ثانياً لأجل حكمٍ ومصالحَ، وفي هذه الحالة وإن أعيد العدمُ، ولكن لم يجعل قيامُ تلك العكوس مربوطاً به، بل جعل قيامُ العدم بتلك العكوس كما مرَّ في البقاء السَّابق، فإذا كان في ذلك البقاء هذه النِّسبةُ تكون هذه النِّسبةُ في تلك الحالة التي هي حقيقةُ البقاء على الوجه الأتمّ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ للثوب تأثيراً في صاحب الثوب بعد لبسه، فإنَّه إذا كان الثوبُ حارّاً يتأثَّرُ اللابسُ بالحرارة، وإن كان بارداً؛ يتأثَّرُ بالبرودة، وكذلك هذا العدمُ المشابهُ بالثوب وجد له تأثيراً في نفسه، ورأى أثره سارياً في جميع بدنه، ولكن يعرف أنَّ هذا التَّأثيرَ والسِّرايةَ ظاهريٌّ لا باطنيٌّ، عرضيٌّ لا ذاتيٌّ، حاصلٌ من المجاور الخارج لا من المجانس الداخل، وإن وجد الشرُّ والنقصُ اللذان ناشئان من ذلك العدم؛ فهما أيضاً عرضيان خارجيان، لا ذاتيان أصليان، وصاحبُ هذا المقام وإن كان مشاركاً لسائر الناس في البشريَّة، ومساهماً مع غيره في صدور الصِّفات البشريَّة، ولكنَّ ظهورَ الصِّفات البشريَّة منه ومن أبناء..

جنسه عرضيٌّ ناشٍ من المجاور، ومن الآخرين ذاتيٌّ وأصليٌّ، شتان ما بينهما، والعوام يتصوّرون الخواصَّ - بل أخصَّ الخواصّ - كأنفسهم ملاحظين المشاركة الصوريَّة، ويكونون في مقام الإنكار عليهم، ويحرمون بركاتهم، قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا﴾ [التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٦] علامةُ حالهم، وكلَّما أرى في نفسي من الصِّفات البشريَّة أجد بعناية الله سبحانه أنَّ حاملَ تلك الصِّفات هو ذلك العدمُ المجاورُ الذي جرى في كليتي وسرى، وأجد نفسي بالتمام والكمال طاهراً ومبرَّأً من تلك الصِّفات، ولا أحسُّ في نفسي نبذةً من تلك الصِّفات، لله سبحانه الحمدُ والمنّةُ على ذلك، وهذه الصِّفاتُ التي تظهر بسبب المجاورة كحمرةٍ تظهر من شخصٍ لابسٍ لباساً أحمر بسبب حمرة اللباس المجاور، والحُمقاءُ لعدم تمييزهم يظنُّون حمرةَ مجاورِ شخصٍ حمرةَ ذلك الشَّخص، وينسبون إليه أحكاماً مخالفة للواقع: (شعر)

خَابَ الذِي قَد يَرَى ذَا الْقُبْحِ كَالْحَسَنْ ... وَفَازَ مَنْ كَانَ فِيهِ حِدَّةُ الْبَصَرِ
النِّيلُ كَانَ دَماً لِلْقِبْطِ وَلِبَنِي ... يَعْقُوبَ مَاءً وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالتِّسْعُون

إلى مقصودٍ عليٍّ التّبريزيِّ في جَوابِ سُؤالِه عنِ الكُفرِ الحَقيقيِّ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الصحيفةُ الشَّريفةُ، ووقع فيها الاستفسارُ عن بعض كلمات الصوفيَّة.

أيُّها المخدومُ، وإن لم يقتض الوقتُ والمكانُ قولاً وكتابةً، ولكن لا بُدَّ للسؤال من الجواب، فحرَّرتُ بالضَّرورة كلماتٍ، ومجملُ الكلام في حلِّ جميع تلك المسائل: هو أنَّه كما أنَّ في الشَّريعة كفراً وإسلاماً؛ في الطَّريقة أيضاً كفرٌ وإسلامٌ، وكما أنَّ كفرَ الشَّريعة شرٌّ ونقصٌ، والإسلامَ كمالٌ؛ كذلك كفرُ الطَّريقة أيضاً نقصٌ وشرٌّ، وإسلامُها كمالٌ، وكفرُ الطَّريقة عبارةٌ عن مقام الجمع الذي هو محلُّ الاستتار، وتميُّز الحقّ من الباطل مفقودٌ في هذا الموطن، فإنَّ مشهودَ السَّالك فيه في المرايا الجميلة والرذيلة هو جمالُ وحدة المحبوب، فلا يجد الخيرَ والشرَّ والكمالَ والنقصَ غيرَ مظاهر لتلك الوحدة وظلالها، فلا جرم يكون نظرُ الإنكار الذي ناشٍ عن التمييز معدوماً في حقه، فبالضَّرورة يكون مع الكلّ في مقام الصلح، ويجد الكلَّ على صراطٍ مستقيمٍ، ويترنَّمُ بهذه الآية الكريمة: و﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وأحياناً يرى المظهرَ عين الظَّاهر، فيظنُّ الخلقَ عينَ الحقّ، والمربوبَ عينَ الربّ، وكلُّ هذه أزهارٌ تتفتَّقُ من مرتبة الجمع، قال الحلاجُ في هذا المقام: (شعر)

كَفَرْتُ بِدِينِ اللهِ والكُفْرُ وَاجِبٌ ... لَدَيَّ وعِنْدَ المُسْلِمِينَ قَبِيحُ

ولكفر الطَّريقة هذا مناسبةٌ تامَّةٌ بكفر الشَّريعة، وإن كان كافرُ الشَّريعة مردوداً ومستحقّاً للعذاب، وكافرُ الطَّريقة مقبولاً ومستوجباً للدَّرجات، فإنَّ هذا الكفرَ والاستتارَ ناشٍ من غلبة محبّة المحبوب الحقيقيّ، ونسيان غيره كلّه، فيكون مقبولاً، وذاك الكفرُ حاصلٌ من استيلاء الجهل والتمرُّد، فيكون مردوداً بالضَّرورة، وإسلامُ الطَّريقة عبارةٌ عن مقام الفرق بعد الجمع الذي هو مقامُ التَّمييز، والحقُّ والخيرُ متميزان هنا من الباطل والشرّ، ولإسلام الطَّريقة هذا مناسبةٌ تامّةٌ........

بإسلام الشَّريعة، بل إذا بلغ إسلامُ الشَّريعة كمالَه؛ تحصل له نسبةُ الاتخاذ بهذا الإسلام، بل كلا الإسلامين إسلامُ الشَّريعة، والفرقُ بينهما بظاهر الشَّريعة وباطن الشَّريعة، وبصورة الشَّريعة وحقيقة الشَّريعة، ومرتبةُ كفر الطَّريقة أعلى من مرتبة إسلام صورة الشَّريعة، وإن كانت أَدْوَنَ بالنِّسبة إلى إسلام حقيقة الشَّريعة: (شعر)

مَتَى قِسْنَا السَّمَا بِالعَرْشِ يَنْحَطُّ ... ومَا أَعْلَاهُ إِنْ قِسْنَا بِأَرْضِ

وكلُّ من تكلّم من المشائخ قدس الله أسرارهم بالشطحيات من الكلمات المخالفة لظاهر الشَّريعة كلُّ ذلك في مقام كفر الطَّريقة الذي هو موطنُ السُّكر وعدم التَّمييز، والكبراءُ الذين تشرفوا بدولة إسلام الحقيقة؛ فهم منزَّهون ومبرَّؤون من أمثال هذه الكلمات، ومقتدون بالأنبياء ومتابعون لهم ظاهراً وباطناً، فالشَّخصُ الذي يتكلّمُ بالشَّطحيات ويكون في مقام الصُّلْح مع الكلّ، ويظنُّ الجميعَ على صراطٍ مستقيم، ولا يثبت التَّمييزَ بين الحقّ والخلق، ولا يقول بوجود الاثنينية، فإن وَصَلَ هذا الشَّخصُ إلى مقام الجمع، وتحقَّقَ بكفر الطَّريقة، ونسي السِّوَى؛ فهو مقبولٌ، وكلماتُه ناشئةٌ من السُّكر، ومصروفةٌ عن الظَّاهر، وإن تكلّم بهذه الكلمات بدون حصول هذا الحال، وبلا وصولٍ إلى الدَّرجة الأولى من الكمال، وزعم الكلّ على حقٍّ وعلى صراطٍ مستقيمٍ، ولم يميِّز الباطلَ من الحقِّ؛ فهو من الزنادقة والملاحدة الذين مقصودُهم إبطالُ الشَّريعة، ومطلوبُهم رفعُ دعوة الأنبياء الذين هم رحمة للعالمين عليهم الصلوات والتحيات، فهذه الكلمات الخلافية تصدر من المحقّ، وتصدر من المبطل، وهي للمحقّ ماءُ الحياة، وللمبطل سمٌّ قاتلٌ كماءِ نيلٍ، حيث كان لبني إسرائيل ماءً زلالاً، وللقبط دماً ونكالاً، وهذا المقامُ من مزلَّة الأقدام، قد انحرف جمٌّ غفيرٌ من أهل الإسلام عن الصراط المستقيم بتقليد كلمات أكابر أرباب السُّكر، ووقعوا في بوادي الضَّلالة والخسارة، وجعلوا دينهم هباءً منثوراً، ولم يعلموا أنَّ قبولَ هذا الكلام مشروطٌ بالشَّرائط، وهي موجودةٌ في أرباب السُّكر، ومفقودةٌ في هؤلاء، ومعظمُ هذه الشَّرائط: نسيانُ ما سوى الحقّ سبحانه الذي هو دهليزُ القبول، ومصداقُ امتياز المحقّ من المبطل: الاستقامةُ على الشَّريعة وعدمُ الاستقامة عليها، والذي هو محقٌّ لا يرتكب خلاف الشَّريعة مقدار شعرةٍ مع وجود السُّكر وعدم التَّمييز، كان الحلاجُ مع صدور قول: أنا الحقّ عنه يصلّي كلَّ ليلةٍ في السجن خمسمائة ركعةٍ مع قَيْدٍ ثقيلٍ، وكان لا يأكل الطَّعامَ الذي مسَّه يدُ الظلمةِ ولو كان من وجهٍ حلالٍ، والذي هو مبطلٌ يكون إتيانُ الأحكام الشَّرعيّة ثقيلاً عليه مثلَ جبل قاف، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] علامةُ حالهم. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالتِّسْعُونَ

إلى الخواجه أَبِي الحَسَنِ بَهاءِ البدَخْشيِّ الكَشْمِيِّ في حلِّ مَنعِ الفاروقِ إتيانَ القِرطاسِ حينَ طَلَبَه النَّبيُّ ﷺ في مَرَضِ مَوتِه لِيكتُبَ شيئًا بوُجوهٍ شَتى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

سؤالٌ: إنَّ حضرةَ خاتم الرُّسل والرِّسالة عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ طلب قرطاساً في مرض موته، وقال: «**ائْتُونِي بِقِرْطَاسٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي**»[1]، ومَنَعَ الفاروقُ مع جمعٍ آخر من الأصحاب رضوان الله.........

(١) تقدَّم تخريجه سابقاً.

عليهم إتيانَ القرطاس، وقال: حسبنا كتابُ الله، وقال أيضـاً: أَهَجَرَ استفهموه، وما قال النبيُّ ﷺ قاله بطريق الوحي كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰىۜ ۝ اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحٰىۙ﴾ [النجم: ٣-٤]، ومنعُ الوحي وردُّه كفرٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأيضـاً إنَّ تجويزَ الهجر والهذيان للنبي ﷺ مستلزمٌ لرفع الاعتماد على الأحكام الشَّرعيّة، وهو كفرٌ وإلحادٌ وزندقةٌ، فما حَلُّ هذه الشُّبهة القويَّة؟

اعلم - أرشدك الله وهداك سواء الصراط - أنَّ هذه الشُّبهةَ وأمثالها التي يوردها جماعةٌ على حضرات الخلفاء الثلاثة وعلى سائر الصحابة الكرام ﷺ، ويريدون بهذه التشكيكات ردَّهم، لو أنصفَ هؤلاء الجماعةُ، وقَبِلوا شرفَ صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، وعلموا أنَّ نفوسهم كانت مزكَّاةً في صحبة خير البشر من الهوى والهوس، وصارت صدورُهم صافيةً عن الحقد والعداوة، وعلموا أنَّهم أكابرُ الدين، وكبراءُ الإسلام، وأنَّهم بذلوا جهدَهم في إعلاء كلمة الإسلام، ونصرة سيد الأنام، وأنفقوا أموالهم في تأييد الدين المتين ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، وتركوا في محبّة رسول الله ﷺ عشائرهم وقبائلهم وأولادهم وأزواجهم وأوطانهم ومساكنهم وعيونهم وزروعهم وأشجارهم وأنهارهم، وآثروا نفسَ رسول الله ﷺ على نفوسهم، واختاروا محبّةَ رسول الله على محبّة أنفسهم ومحبّة أولادهم وأموالهم، وأنَّهم الذين شاهدوا الوحي والملكَ، ورأوا المعجزاتِ والخوارقَ حتى صار غيبُهم شهادةً، وعلمُهم عيناً، وهم الذين أثنى اللهُ تعالى عليهم في القرآن المجيد: ﴿رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرٰيةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْاِنْجِيلِ﴾ [محمد: ٢٩]، فإذا كان جميعُ الأصحاب الكرام شركاءَ في هذه الكرامات؛ فماذا أُظْهِرُ من جلالة شأن أكابر الأصحاب الذين هم الخلفاءُ الراشدون؟ والفاروقُ هو الذي قال الله سبحانه وتعالى في شأنه لرسوله: ﴿يَٓا اَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّٰهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، قال ابنُ عباس ﷺ: إنَّ سببَ نزول هذه الآية إسلامُ عمر ﷺ، فبعد حصول نظر الإنصاف، وقبول شَرَف صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاةُ والتحياتُ، وبعد عِلْم جلالة شأن أصحابه الكرام، وعلوّ درجاتهم عليهم الرضوان؛ يكاد يتصوَّرُ المعترضون والمشكِّكون هذه الشبهات مثل المغالطات والسَّفسطة المزخرفة، ويُسْقِطونها عن درجة الاعتبار، وإن لم يشخِّصوا مادَّةَ الغلط في تلك الشُّبهات، ولم يعيِّنوا محلَّ السَّفسطة، فلا أقلَّ من أن يعرفوا مجملاً أنَّ مؤدَّى هذه التَّشكيكات وحاصلَ هذه الشبهات مما لا حاصلَ له، بل هي مصادمةٌ للبداهة والضَّرورة الإسلاميَّة، ومردودةٌ بالكتاب والسنة النبوية، ومع ذلك نكتب في جواب هذا السُّؤال وتعيين مواد تلك الشبهة مقدّماتٍ بعون الله تعالى.

اسمع إنَّ حلَّ هذا الإشكال على وجه الكمال مبتنٍ على مقدّمات، وإن كان كلُّ مقدّمةٍ جواباً على حدةٍ.

المقدَّمةُ الأولى: جميعُ منطوقاته ومقولاته صلّى الله عليه وعلى آله وسلم لم تكن بموجب الوحي، وآيةُ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰىۜ﴾ [النجم: ٣] مخصوصةٌ بالنطق القرآنِيّ كما قاله أهلُ التَّفسير، وأيضـاً لو كان جميعُ منطوقاته ﷺ بموجب الوحي؛ لَمَا ورد الاعتراضُ من عند الحقّ جل شأنه على بعض مقولاته عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولما كان للعفو عنه معنى، قال الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿عَفَا اللّٰهُ عَنْكَۚ لِمَ اَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

والمقدّمةُ الثّانيةُ: أنَّ الأصحابَ الكرامَ...

كان لهم مجالُ القيل والقال في الأحكام الاجتهادية والأمور العقليَّة مع النبي ﷺ بموجب قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكان لهم في هذه الأمور مساغٌ للردِّ والتَّبديل، فإنَّ الأمرَ بالاعتبار والمشورة لا يتصوَّرُ من غير حصول رَدٍّ وتبديلٍ، وقد وقع الاختلافُ في قتل أسارى بدرٍ وأخذ الفدية عنهم، وحكم الفاروقُ بالقتل، فورد الوحيُ موافقًا لرأي فاروق، ونزل لأخذ الفدية وعيدٌ، فقال النبي ﷺ: «لَوْ نَزَلَ الْعَذَابُ لَمَا نَجَا غَيْرُ عُمَرَ وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»(١)، فإنَّ سعداً أيضًا كان أشار إلى قتل الأسارى.

والمقدّمةُ الثّالثةُ: أنَّ السَّهوَ والنِّسيانَ جائزان للنبيّ ﷺ، بل واقعان، وقد ورد في حديث ذي اليدين: أنَّه ﷺ سلم في رباعي الفرض على ركعتين، فقال له ذو اليدين: أقصرت الصلاةُ أم نسيتَ يا رسول الله، وبعد ثبوت صدق ذي اليدين قام رسول الله ﷺ، وضمَّ إليهما ركعتين أخريين، وسجد للسهو(٢)، فإذا كان السهوُ والنسيانُ جائزين في حالة الصِّحَّة والفراغة بمقتضى البشرية؛ فصدورُ الكلام منه ﷺ من غير قصدٍ واختيارٍ في مرض الموت ووقت استيلاء الوجع بمقتضى البشريَّة لم لا يكن جائزاً؟ ولم يرتفع الاعتمادُ عن الأحكام الشَّرعيّة، فإنَّ الحقَّ سبحانه أطلعه ﷺ على سهوه ونسيانه بالوحي القطعيّ، وميَّز الصوابَ من الخطأ، فإنَّ تقريرَ النبيّ ﷺ على الخطأ ليس بجائزٍ لكونه مستلزمًا لرفع الاعتماد عن الأحكام الشَّرعيّة، فثبت أنَّ موجبَ رفع الاعتماد ليس نفس السهو والنسيان، بل التَّقريرُ على السهو والنسيان، ومن المقرَّر أنَّ ذلك التَّقديرَ ليس بمجوَّزٍ.

المقدّمةُ الرّابعةُ: أنَّ حضرةَ الفاروق - بل الخلفاء الثلاثة - مبشَّرون بالجنة بالكتاب والسنة، والأحاديثُ الواردة في باب بشارتهم بالجنة بخصوصها يمكن أن يقال من كثرة الرواة الثقات: إنَّها بلغت حدَّ الشهرة، بل حدَّ التواتر المعنويِّ، فإنكارها إما من الجهل أو من العناد، ورواةُ الأحاديث الصِّحاح والحسان أهلُ السنة أخذوها من أسانيدهم من التَّابعين والصحابة، ورواةُ جميع الفرق المخالفة لو جمع كلُّها لا يعلم أنَّهم يبلغون عشرَ عشير أهل السنة أو لا كما لا يخفى على المتتبع المتفحِّص المنصف، وكتبُ أهل السنة مشحونةٌ ببشارة هؤلاء الأكابر بالجنة، ولا غمَّ لو لم تَرِدْ هذه البشارةُ في كتب الأحاديث المخصوصة ببعض الفرق المخالفة، فإنَّ عدمَ رواية البشارة لا يدلُّ على عدم البشارة، وأما ثبوت بشارة هؤلاء الأكابر بالجنة في القرآن المجيد بآيات متكثرةٍ فكافٍ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١١] الآية، فإذا كان جميعُ الصحابة الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح وبعده مبشَّرين بالجنة؛ فما نقول في أكابر الصحابة الذين هم الأسبقون في الإنفاق والمقاتلة والمهاجرة؟ وماذا نقدر أن نقول؟ وكيف نُدْرِكُ أعظميَّة درجاتهم أنَّها ما هي؟ قال أهلُ التفسير: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾ الآية نزل في حق الصديق رضي الله عنه الذي هو أسبقُ..

(١) أخرجه ابن مردويه في «تفسيره» من حديث ابن عمر رضي الله عنه باستثناء عمر. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السَّابقين في الإنفاق والمقاتلة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] الآية، نقل الإمامُ البغويُّ محيي السُّنَّة في «معالم التنزيل» عن جابر رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»[1]، وهذه البيعةُ يقال لها: بيعة الرضوان؛ لأنَّ الحقَّ سبحانه رضي فيها عن هؤلاء القوم، ولا شكَّ أنَّ تكفيرَ شخصٍ مبشَّرٍ بالكتاب والسنَّة كفرٌ ومن أقبح القبائح.

المقدّمةُ الخامسةُ: أنَّ توقُّفَ الفاروق في إتيان القرطاس لم يكن على وجه الردِّ والإنكار عياذاً بالله سبحانه من ذلك، كيف يصدر هذا القسمُ من سوء الأدب من وُزَراء النبيّ ﷺ الذي هو متَّصفٌ بالخلق العظيم، وندمائِه ﷺ؟ بل لا يتوقَّعُ هذا المعنى من أدنى الصَّحابة الذي تشرَّف بشرف صحبة خير البشر مرَّةً أو مرتين، بل لا يتوهَّمُ مثلُ هذا الردِّ والإنكار من عوامِّ أمته ﷺ الذي استسعد بدولة الإسلام، فكيف يتخيَّلُ هذا المعنى فيمن كان من أكابر الوزراء والندماء، ومن أعاظم المهاجرين والأنصار؟ رزقهم الله سبحانه الإنصافَ حتى لا يسيؤوا الظنَّ بأكابر الدين، ولا يؤاخذُ بكلّ كلمةٍ وكلامٍ بلا فهمٍ، بل كان مقصودُ الفاروق الاستفهامَ والاستفسارَ كما قال: استفهموه، يعني: لو طلب القرطاسَ بالجدِّ والاهتمام يُجاءُ به، وإن لم يطلب بالجدّ لا يصدَّعُ في مثل هذا الوقت، فإنَّه لو طلب القرطاسَ بالوحي والأمر لكان يطلبه بالمبالغة والتأكيد، ويكتب ما كان مأموراً بكتابته، فإنَّ تبليغَ الوحي واجبٌ على النبي ﷺ، وإن لم يكن هذا الطَّلبُ بالأمر والوحي، بل أراد أنَّه يكتب شيئاً على وجه الاجتهاد والفكر؛ فالوقتُ لا يساعد ذلك، ومرتبةُ الاجتهاد باقيةٌ بعد ارتحاله ﷺ، والمستنبطون من أمَّته يستنبطون الأحكامَ الاجتهاديَّةَ من الكتاب الذي هو أصلُ أصول الدين، فإذا كان لاستنباط المستنبطين مجالٌ في حضوره الذي هو أوانُ نزول الوحي؛ فبعد ارتحاله الذي هو زمانُ انقطاع الوحي يكون استنباطُ أولي العلم واجتهادهم مقبولاً بالطَّريق الأَوْلى، ولَمّا لم يهتمَّ النبيُّ ﷺ في هذا الباب ولم يَجِدَّ، بل أعرضَ عن هذا الأمر؛ علم أنَّه لم يكن على وجه الوحي، والتوقُّفُ لمجرَّد الاستفسار ليس بمذمومٍ، وقد عرض الملائكةُ الكرامُ على وجه الاستفسار والاستعلام من وجه خلافة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام على الملك العلام بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال زكريا حين بُشِّرَ بيحيى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وقالت مريم رضي الله تعالى عنها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، فما المضايقةُ لو توقَّف الفاروقُ أيضاً في إتيان القرطاس لأجل الاستفهام والاستفسار؟ وأيُّ شرٍّ وأيُّ ضررٍ فيه؟

المقدّمةُ السَّادسةُ: أنَّ حصولَ حسن الظنِّ بصحبة خير البشر وبأصحابه عليه وعليهم الصلاة والسلام لازمٌ، ومعرفةُ أنَّ خيرَ القرون قرنه ﷺ، وأنَّ أصحابه أفضلُ بني آدم بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيضاً لازمةٌ حتى يحصل اليقينُ بأنَّ الجماعةَ الذين هم أفضل بني آدم بعد الأنبياء عليهم السلام لا يجتمعون في خير القرون على عملٍ باطلٍ بعد ارتحاله ﷺ، وأنَّهم لا يُجْلِسون مكانه ﷺ فسقةً ولا كفرةً، وإنَّما قلت: إنَّ الأصحابَ أفضلُ بني آدم، فإنَّ هذه ....

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رضي الله عنها.

الأمةَ خيرُ الأمم بنصّ القرآن، وهم أفضلُ هذه الأمة؛ لأنّه لا يبلغ وليٌّ مرتبةَ صحابيٍّ أصلاً، فينبغي الرُّجوعُ إلى الإنصاف قليلاً، وأن يفهم أنَّ منعَ إتيان القرطاس لو كان كفراً من الفاروق؛ لَما نصّ الصديقُ الذي هو أتقى هذه الأمة التي هي خير الأمم بنصّ القرآن بخلافته، ولما بايَعَه المهاجرون والأنصارُ الذين أثنى عليهم الحقُّ سبحانه وتعالى في القرآن المجيد ورضي عنهم، ووعدهم بالجنة، ولما أجلسوه مكانه ﷺ، فإذا حصل حسنُ الظنّ بصحبته وأصحابه ﷺ الذي هو مقدّمة المحبّة؛ فقد تيسّرَ النجاةُ من مزاحمة أمثال هذه الشبهات، وحصل حدسُ بطلان هذه التشكيكات، فإن لم يحصل - عياذاً بالله سبحانه - حسنُ الظنّ بصحبته وبأصحابه عليهم الصلاة والسلام، بل انجرَّ الأمرُ إلى سوء الظنّ؛ يكون ذاك الظنُّ السوءُ منجرّاً إلى صاحب تلك الصحبة، وصاحب الأصحاب بالضَّرورة، بل ينجرُّ إلى مولى ذاك الصاحب أيضاً، ينبغي وجدانُ شناعة هذا الأمر كما ينبغي، ما آمن برسول الله من لم يُوَقِّرْ أصحابه، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام في شأن أصحابه الكرام عليهم الرضوان: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»، فصارت محبّةُ الأصحاب مستلزمةً لمحبته، وبغضُ الأصحاب مستلزماً لبغضه عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ.

فإذا عَلِمْتَ هذه المقدّمات؛ حصل جوابُ هذه الشبهة وأمثال هذه الشبهة بلا تكلف، بل حصلت أجوبةٌ متعددةٌ، فإنَّ كلَّ مقدّمةٍ من هذه المقدّمات يمكن أن يقال: إنّها جوابٌ من أجوبةٍ معتدٌّ بها كما مرَّ، ومجموعُ هذه المقدّمات تحسمُ مادة هذه الشبهة بعون الله سبحانه، وتخرج دفعَ هذا التَّشكيك من النظر إلى الحدس كما لا يخفى على الفطن المنصف، ولفظُ الحدس إنّما يجري على اللّسان مقحماً، وإلا؛ فأمثالُ هذه التَّشكيكات بديهيَّةُ البطلان، والمقدّماتُ التي أوردت في بيان بطلان تلك الشُّبهات إنّما هي من قبيل التَّنبيهات على تلك البديهة، بل أمثال هذه الشُّبهات والتَّشكيكات عند الفقير كصنعة ذي فنون جاء عند قومٍ حمقاء، وأخذ حجراً محسوساً لهم، وأثبت بالدَّلائل والمقدّمات المزخرفة أنّه ذهبٌ، وحيث كان هؤلاء الحمقى عاجزين عن دفع تلك المقدِّمات المموهة، وقاصرين في تعيين موادِّ غَلَط تلك الدَّلائل؛ يقعون في الاشتباه، بل يعتقدون ذهبيَّتَه يقيناً، وينسون حسَّهم، بل يتّهمونه، والذكيُّ ينبغي أن يعتمد على ضرورة الحسِّ، وأن يتّهم المقدّمات المموهة، وفيما نحن فيه أيضاً إنَّ جلالةَ شأن الخلفاء الثلاثة وعلوَّ درجاتهم - بل جلالةَ جميع أصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام - بمقتضى الكتاب والسنَّة محسوسةٌ ومشهودةٌ، وقدحُ القادحين وطعنُ الطَّاعنين فيهم بدلائلَ مموهةٍ كالقدح والطَّعن في وجود ذلك الحجر ومغالطتهم فيه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. فيا ليت شعري ما حملهم على سبّ أكابر الدين، وطعن كبراء الإسلام؟ وليس طعنُ أحدٍ وسبُّ شخصٍ من الفسقة والكفرة مما يعدُّ في الشرع عبادةً وكرامةً وفضيلةً ووسيلةً إلى النجاة، فكيف سبُّ هداة الدين، وطعنُ حماة الإسلام؟ ولم يرد في الشرع أنَّ سبَّ أعداء الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام كأبي جهل وأبي لهب مثلاً وطعنَهم مما يعدُّ عبادةً وكرامةً، بل الإعراضُ عنهم وعن أحوالهم أَوْلى وأنسبُ وأسلمُ عن تضييع الوقت والاشتغال بما لا يعنيه، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، قال الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد في صفة أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩]، فظنُّ ....

العداوة والشحناء في حقّ هؤلاء الأكابر منافٍ لنصّ القرآن، وأيضـاً إنَّ إثباتَ العداوة والحقد في هؤلاء الأكابر يستلزم القدحَ في كِلَا الفريقين، ويرفع الأمانَ من الطَّائفتين، فيلزم أن يكون كلا الفريقين من الأصحاب مطعونـاً فيهم عياذاً بالله سبحانه من ذلك، فيكون أفضلُ الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرَّ الناس، ويكون أفضلُ القرون شرَّ القرون، فإنَّ أهلَ ذاك القرن كانوا كلُّهم متَّصفين بالعداوة والحقد، ولا يجترئُ على التَّفوُّه بذلك أحدٌ من المسلمين، ولا يجوِّز هذا المعنى، أيُّ جلالةٍ وأيُّ عظمةٍ لعلي كرم الله وجهه في كون الخلفاء الثلاثة معادين له، ويكون فيه عداوةٌ مبطنةٌ لهؤلاء الحضرات؟ وما ذاك إلا قدحٌ في الطرفين، لِمَ لا يكون بعضهم مع بعض كاللبن مع السُّكر؟ ولا يكون بعضهم فانياً في البعض، ولم يكن أمرُ الخلافة مرغوباً فيه عندهم ومطلوباً لهم حتى يكون سبباً للعداوة والحقد، كيف وقولُ: أقيلوني معروفٌ ومشهورٌ من الصديق؟ وقال الفاروقُ: لو وجدت من يشتري الخلافةَ لبِعْتُها على دينار، ومحاربةُ عليٍّ كرم الله وجهه مع معاوية ومنازعَتُه معه لم تكن بواسطة الميل إلى أمر الخلافة والرغبة فيه، بل لكون القتال مع البغاة فرضـاً، ودفعِهم ضرورياً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّٰى تَفِىٓءَ اِلٰىٓ اَمْرِ اللّٰهِ﴾ [الحجرات: ٩].

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ محاربي علي لما كانوا باغين مؤولين وأصحابَ رأيٍ واجتهادٍ - وإن كانوا مخطئين في هذا الاجتهاد - كانوا مبرئين عن الطعن والملامة، وبعيدين عن التفسيق والتكفير، قال عليّ في شأنهم: إخواننا بغوا علينا، ليسوا كفرةً ولا فسقةً لِمَا لهم من التأويل، قال الشافعيُّ - وهو منقولٌ عن عمر بن عبد العزيز -: تلك دماءٌ طهر الله عنها أيدينا، فلنطهِّرْ عنها ألسنتنا. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِاِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْاِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ اٰمَنُوا رَبَّنَآ اِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. والصلاةُ والسلامُ على سيد الأنام، وعلى آله وأصحابه الكرام، إلى يوم القيام.

المَكتُوبُ السَّابعُ والتِّسعُونَ

إلى الخواجه محمَّدٍ هاشمٍ الكَشْمِيِّ في جوابِ طَلَبِه حلَّ ما في المَكتوبِ السَّادسِ.

﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفٰى﴾ [النمل: ٥٩].

قد سألتم: أنَّه ما معنى هذه العبارة الواقعة في المكتوب السَّادس: أظنُّ أنَّ المقصودَ من خلقتي: هو أن تنصبغ الولايةُ المحمديَّةُ بالولاية الإبراهيميَّة عليهما الصلاة والسلام، وأن يكون حسنُ ملاحة هذه الولاية ممتزجـاً بجمال صباحة تلك الولاية، وأن يبلغَ مقامُ المحبوبيَّة المحمديَّة بهذا الانصباغ والامتزاج درجةً علياء.

اعلم أنَّ منصبَ الدّلالة والمشاطة ليس بممنوعٍ، ولا محذورَ فيه أصلاً، والدّلَّالُ الذي يجعل بحسن الدّلالة كُلّاً من المحبوبين صاحبي الجمال والكمال مختلطـاً بالآخر، ويجعل حُسْنَ كلٍّ منهما مقترنـاً بحسن الآخر؛ فعلُه هذا من كمال خدمته، ونهاية شرفه وسعادته، ولا يلزم من هذا المعنى نقصٌ ولا قصورٌ في شأنهما أصلاً، وكذلك إذا زاد في حسنهما وجمالهما بالمشاطة، وحصلت لهما بسببه طراوةٌ وزينةٌ أخرى، فذلك شرافتُه وسعادتُه، ولا يلزم من ذلك نقصٌ وقصورٌ لهما أصلاً: (شعر)

فِي مَجْدِكُمْ لَا يَلْحَقُ النُّقْصَانُ مِنْ هَذَا   وَلِي فِي ذَاكَ أَلْفُ شَرَافَةٍ

وبالجملة إنَّ حصولَ الانتفاع والاستفادة لأصحاب الدَّولة من جهة الغلمان والخدمة ليس............

بممنوعٍ، ولا محذورَ فيه أصلاً؛ لأنَّه ليس بمستلزمٍ للقصور والنُّقصان، بل كمالُ أصحاب الدَّولة في خدمة الغلمان والخدمة، وقاصرُ الدَّولة: من لا يكون منتفعاً ومتمتِّعاً بالخدمة، ويَعُدُّ الانتفاعَ والتمتُّعَ بهم نقصاناً، والاستمدادَ والاستفادةَ منهم قصوراً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ سببَ نزول هذه الآية إسلامُ الفاروق رضي الله عنه، ومن البديهيِّ أنَّ خدمات الأصاغر والأسافل موجبةٌ لمزيَّة مرتبة الأكابر والأعالي، فمن لم يهتدِ لأمرٍ بديهيٍّ؛ فما قصورُ العبارة؟ ألا ترى أنَّ السَّلاطينَ والأمراءَ محتاجون إلى الخدم والحشم في التَّجمُّل والتسلُّط، ويرون أنَّ كمالاتهم مربوطةٌ بهم، ولا قصورَ ولا نقصانَ من هذا المعنى في مراتبهم أصلاً كما هو معلومٌ للوضيع والشَّريف؟ ومنشأُ هذا الاشتباه: عدمُ الفرق بين التمتُّع والانتفاع الحاصل من جانب الأصاغر والتمتُّع والانتفاع الحاصل من جانب الأعالي، وقد تبيَّن أنَّ الأوَّلَ موجبٌ للكمال، والثَّاني يزيد في النُّقصان، والأوَّلُ مجوَّزٌ، والثَّاني ممتنعٌ. والله سبحانه الملهمُ للصواب، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالتِّسْعُونَ

إلى المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّدٍ سعيدٍ، والمَخدومِ زادَه جامعِ الأسرارِ والعُلومِ الخواجه محمَّدٍ مَعصوم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

قد سألتم: أنَّ العلماءَ قالوا: إنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى ليس داخلَ العالَمِ ولا خارجَ العالَم، ولا متَّصلاً بالعالم ولا منفصلاً عن العالم، فما تحقيقُ هذا المبحث.

الجوابُ: إنَّ حصولَ نسبة الدُّخول والخروج والاتِّصال والانفصال إنَّما يتصوَّرُ بالنَّظَر إلى الموجودين، فإنَّ أحدَ الموجودين لا يخلو من إحدى هذه النِّسَب بالنَّظر إلى الآخر، ولا تحقّقَ للموجودين فيما نحن فيه حتى يتصوَّرَ حصولُ نسبةٍ من هذه النسب، فإنَّه تعالى موجودٌ، والعالمَ الذي هو ما سواه تعالى موهومٌ ومتخيَّلٌ، وإن حصل للعالم بصنعه سبحانه وتعالى إتقانٌ واستحكامٌ على نهجٍ لا يرتفع بارتفاع الوهم والخيال، وكانت معاملةُ التَّنعيم والتَّعذيب الأبديّين مربوطةً به، ولكنَّ ثبوتَه في مرتبة الحسّ والوهم، ولا مقرَّ له خارج الحسّ والوهم، ومن كمال قدرته سبحانه وتعالى أعطى للموهوم المتخيَّل حكمَ الموجود في حقّ الثبات والاستقرار، وأجرى عليه أحكامَ الموجود، ولكنَّ الموجودَ موجودٌ، والموهومَ موهومٌ، وإن تصوَّرَه من قصر نظرهم على الظَّاهر موجوداً نظراً إلى ثباته واستقراره، وحكموا بأنَّه موجودٌ، وتحقيقُ هذا المعنى مكتوبٌ في كتبي ورسائلي بالتَّفصيل، فإن وقع الاحتياجُ فليراجع هناك. فلا شيءَ يثبت للموجود من هذه النسب بالنِّسبة إلى موهومٍ، بل يمكن أن يقال: إنَّ الموجودَ ليس داخل الموهوم ولا خارجَه، ولا متَّصلاً به ولا منفصلاً عنه، فإنَّ هناك موجودٌ فقط، لا اسمَ للموهوم ولا رسمَ حتى تتصوَّرَ النِّسبةُ معه، ولنوضِّحْ هذا المبحث بمثال أنَّ النقطةَ الجوالةَ تتوهَّمُ من سرعة سيرها بصورة الدَّائرة، والموجودُ هناك هو تلك النُّقطةُ فقط، وصورةُ الدَّائرة لا ثبوتَ لها في غير الوهم، والمحلُّ الذي فيه النُّقطةُ لا اسمَ فيه من الدَّائرة الموهومة ولا رسمَ، ففي هذه الصُّورة لا يمكن أن يقال: إنَّ النُّقطةَ في داخل الدَّائرة، ولا إنَّها في خارجها أيضاً، وكذا لا يتصوَّرُ بينهما الاتِّصالُ والانفصالُ أيضاً، فإنَّه لا دائرةَ في تلك المرتبة حتى تتصوَّرَ النِّسبةُ، ....

أَثْبِتِ الجدارَ أولاً، ثم انقش.

فإن قيل: أنَّ الحقَّ سبحانه أثبتَ نسبةَ قربه وإحاطته بالعالم، والحالُ أنَّه ما نسبةُ قرب الموجود إلى الموهوم؟ وأيُّ إحاطةٍ له به؟ فإنَّه لا اسمَ من الموهوم ولا رسمَ فيما فيه الموجودُ حتى يتصوَّرَ المحيطُ والمحاطُ به.

أجيب: إنَّ ذاك القربَ والإحاطةَ ليس من قبيل قربِ جسمٍ من جسمٍ، وإحاطةِ جسمٍ بجسمٍ، بل هما من النِّسب المجهولة الكيفيَّة والمعلومة الآنية، نثبت القربَ والإحاطةَ له سبحانه، ونؤمن بهما، ولكن لا نعرف كيفيتهما ما هي، بخلاف النِّسَب الأربع التي نفيناها فيما سبق، فإنَّها كما أنَّها مجهولةُ الكيفيَّة غيرُ معلومة الآنية أيضـاً؛ فإنَّ الشَّرعَ لم يَرِدْ بثبوت هذه النِّسب حتى نثبتها، ونقولَ: إنَّها مجهولةُ الكيفية، وإن أمكن تجويزُ معنى اتِّصالٍ لا كيفيٍّ فيه سبحانه وتعالى، مثل معنى قربٍ وإحاطةٍ لا كيفيٍّ، ولكن لَمّا لم يَرِدْ إطلاقُ لفظ الاتِّصال كما ورد لفظُ القرب والإحاطة لا ينبغي أن يقول: متّصلاً، ويجوز أن يقول: قريباً ومحيطاً، وإطلاقُ الانفصال والخروج والدخول أيضـاً لم يَرِدْ مثل إطلاق الاتِّصال، وفي المثال المذكور أيضـاً لو أثبتنا للنُّقطة الجوَّالة إحاطةً وقرباً ومعيَّةً بالنِّسبة إلى الدَّائرة الموهومة تكون تلك المذكوراتُ مجهولةَ الكيفيَّة، فإنَّه لا بُدَّ للنِّسبة من المنتسبين، وليس الموجودُ إلا النُّقطةَ الجوالةَ، وكذلك الاتِّصالُ والانفصالُ والخروجُ والدخولُ اللاكيفيَّةُ متصوَّرةٌ فيما نحن فيه، وإن لم يثبت المنتسبين، فإنَّ لزومَ وجود الطرفين إنّما هو لنسبةٍ معلومة الكيفيَّة لكونها متعارفةً ومعتادةً، وما هو مجهولُ الكيفية؛ فهو خارجٌ عن حيطة العقل، والحكمُ فيها بلزوم وجود الطرفين من الأحكام الوهمية التي هي ساقطةٌ عن حيِّز الاعتبار؛ لكونه قياسَ الغائب على الشاهد.

تنبيهٌ: وقولنا: إنَّ العالمَ موهومٌ ومتخيَّلٌ بمعنى: أنَّ العالمَ واقعٌ في مرتبة الوهم والخيال، ووضعُه حاصلٌ في درجة الحسّ والإراءة، كما إذا خلق القادرُ المتصفُ بالكمال بصنعه الكامل الدَّائرةَ الموهومةَ التي لا نصيبَ لها غيرَ اختراع الوهم والخيال في مرتبة الوهم والخيال، وجعلها في تلك المرتبة متقنةً ومستحكمةً على نهجٍ لو ارتفع الوهمُ والخيالُ بالكليَّة لا يتطرَّقُ الخللُ إلى ثبوتها، ولا يطرأ القصورُ على بقائها، وهذه الدَّائرةُ الموهومةُ وإن لم يكن لها ثبوتٌ في الخارج، والموجودُ في الخارج هو تلك النُّقطةُ فقط، ولكن لها انتسابٌ إلى وجودٍ خارجيٍّ، واستنادٌ إلى موجودٍ خارجيٍّ، فإنَّه لو لم تكن النُّقطةُ من أين تكون الدائرةُ ناشئةً؟ (شعر)

إنِّـي أُوَرِّي لِغَـيْـرِي حِـيـنَ أَذْكُـرُهَـا   بِـذِكْـرِ زَيْـنَـبَ عَـنْ لَـيْـلَـى فَـأُوهِـمُـهُ

ويجوز أن نقول لهذه الدَّائرة: إنَّها نقابُ تلك النُّقطة، ويسوغ أيضـاً أن نقول: إنَّها مرآةٌ لشهود النُّقطة، ولو قلنا: إنَّها دليلٌ على تلك النُّقطة وهادٍ إليها؛ فله وجهٌ أيضـاً، إطلاقُ النِّقاب بالنَّظر إلى العوامّ، وإطلاقُ مرآة الشُّهود والظُّهور مناسبٌ لمقام الولاية، وملائمٌ للإيمان الشُّهوديّ، وإطلاقُ الدَّليل والهادي مناسبٌ لمرتبة كمالات النبوَّة، وملائمٌ للإيمان الغيبيّ الذي هو أتمُّ وأكملُ من الإيمان الشُّهوديّ، فإنَّه لا بُدَّ في الشُّهود من التَّعلّق بالظِّلّ، وفي الغيب فراغةٌ من هذا التعلّق، وفي الغيب وإن لم يكن حاصلٌ بالفعل، ولكن فيه وصولٌ وتعلّقٌ بالأصل، وفي الشُّهود وإن كان حاصلٌ، ولكن ليس فيه وصولٌ؛ لأنَّ فيه تعلّقاً بالغير، وهو ظلُّ الأصل. وبالجملة إنَّ الحصولَ نقصٌ، والوصولَ كمالٌ، وهذا الكلامُ ليس مما يحصل في حوصلة قاصرٍ وناقصٍ، بل...

يكادون يزعمون الحصولَ أفضلَ من الوصول، والسوفسطائيُّ يقول - من عدم عقله -: العالمُ موهومٌ ومتخيَّلٌ بمعنى: أنَّه لا ثبوتَ له ولا تحقّقَ بغير اختراع الوهم ونحت الخيال، فإذا تبدَّلَ الوهمُ والخيالُ يتغيَّرُ ذلك الثُّبوتُ والتحقّقُ أيضاً، مثلاً: إذا تصوَّرَ الوهمُ شيئاً بالحلاوة؛ فهو حلوٌ، وإذا تصوَّرَ عينَ ذلك الشيء في وقتٍ آخر بالمرارة؛ فهو مرٌّ، وهؤلاء المخذولون غافلون عن خلق الله سبحانه وصنعه تعالى، بل منكرون، وبانتسابه إلى وجودٍ خارجيٍّ واستناده إلى موجودٍ خارجيٍّ جاهلون، يريدون بهذه البلاهة رفعَ الأحكام الخارجيَّة التي هي مربوطةٌ بالعالم، ودفع العذاب والثواب الأخرويين الدائميين، وقد أخبر عنهما المخبرُ الصادقُ عليه الصلاة والسلام، ولا احتمالَ فيه للتَّخلُّف، ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فإن قيل: حيث أثبت الثباتُ والاستقرارُ للعالم ولو في مرتبة الوهم والخيال، وأثبت في حقِّه معاملةُ التَّعذيب والتَّنعيم الأبديّين أيضاً، فلِمَ لا تجوز إطلاقاتُ الوجود عليه، ولا نقول: إنَّه موجودٌ، والحالُ أنَّ الثُّبوتَ والوجودَ مترادفان كما هو مقرَّرٌ عند المتكلّمين.

أجيب: أنَّ الوجودَ عند هذه الطَّائفة العليَّة أشرفُ الأشياء وأكرمُها وأعزُّها، ويعتقدون أنَّه مبدأُ كلِّ خيرٍ، ومنشأُ كلِّ كمالٍ، فلا يجوِّزون إطلاقَ مثل هذا الجوهر النَّفيس على ما سوى الحقّ سبحانه الذي هو نقصٌ وشرٌّ من القدم إلى الرأس، ولا يرضون بإعطاء الأشرف إلى الأخسّ، ومقتداهم في هذا الأمر الكشفُ والفراسةُ، وقد صار مكشوفاً ومحسوساً لهم أنَّ الوجودَ مخصوصٌ بحضرة الحق سبحانه وتعالى، وإذا قالوا لغيره تعالى موجودٌ؛ فإنَّما هو باعتبار أنَّ لذلك الغير نسبةً وارتباطاً بالوجود، وإن كانت مجهولةَ الكيفيَّة، وإنَّه قائمٌ بذلك الوجود قيامَ الظلّ بالأصل، وأيضاً إنَّ الثُّبوتَ الذي حصل له في مرتبة الوهم والخيال هو ظلٌّ من ظلال ذلك الوجود، ولَمّا كان ذلك الوجودُ خارجيّاً، والحقُّ سبحانه موجودٌ في الخارج، لو قيل لمرتبة الوهم بعد صنعه تعالى وإتقانه: إنَّها ظلٌّ من ظلال ذلك الخارج؛ لجاز، ولو قيل لهذا الثبوت الوهميِّ باعتبار هاتين الظليتين أيضاً: وجوداً خارجياً؛ لساغ، بل لو قيل للعالم باعتبار هذه الظليَّة أيضاً: موجوداً خارجيّاً لكان جائزاً. وبالجملة إنَّ كلَّما هو في الممكن مستفادٌ من حضرة الوجود تعالى وتقدَّس ما جاء بشيءٍ من بيت أبيه، والقولُ بأنَّه موجودٌ خارجيٌّ بدون ملاحظة الظليَّة أمرٌ عسيرٌ، وإشراكٌ له مع الحقّ تعالى في أخصِّ أوصافه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وما كتبه الفقيرُ في بعض مكاتيبه ورسائله من أنَّ العالمَ موجودٌ خارجيٌّ ينبغي إرجاعُه إلى هذا البيان، وحملُه إلى اعتبار الظليَّة، وما قال المتكلّمون من ترادف الوجود للثُّبوت والتَّحقّق لعلَّه باعتبار المعنى اللغويِّ، وإلا؛ فأين الوجودُ؟ وأين الثُّبوتُ؟ قال جمٌّ غفيرٌ من أرباب الكشف والشُّهود ومن أهل النَّظر والاستدلال في حقّ الوجود: إنَّه عينُ حقيقة واجب الوجود تعالى، والثُّبوتُ من المعقولات الثانويَّة، شتَّان ما بينها.

فائدةٌ: كما أنَّ الوجودَ مبدأُ كلِّ خيرٍ وكمالٍ، ومنشأُ كلِّ حسنٍ وجمالٍ؛ كذلك العدمُ الذي هو مقابله يكون ألبتَّة مبدأَ كلِّ شرٍّ ونقصٍ، ومنشأَ كلِّ قبحٍ وفسادٍ، فإن كان وبالٌ؛ فمنه ناشٍ، وإن ضلالٌ؛ فمنه كائنٌ، ومع ذلك فيه محاسن مودعةٌ، وحِرَفٌ مكنونةٌ، فمن محاسنه: جعلُه نفسه في مقابلة الوجود عدماً مطلقاً، ولا شيئاً محضاً، ومن حرفه المستملحة: جعلُ نفسه وقايةً للوجود، وأخذُه الشُّرورَ.........................

والنَّقصَ لنفسه، وأيضـاً إظهارُه لكمالات الوجود وتمييزُه كلَّ واحدٍ من تلك الكمالات من الأخرى في خارج موطن العلم، وإيرادُه إياها من الإجمال إلى التَّفصيل من صفاته المستحسنة. وبالجملة إنَّه قائمٌ بخدمات الوجود، وحسنُ الوجود وجمالُه وكمالُه ظاهرٌ من قبحه وشرّه ونقصه، واستغناءُ الوجود من افتقاره، وعزُّه من ذلِّه، وثبوتُ العظمة والكبرياء للوجود بواسطة تسفُّله ودناءته، وشرافةُ الوجود من خسَّته، وسيادةُ الوجود من عبوديَّته: (شعر)

أَنَا الَّذِي جَعَلَ الْأُسْتَاذَ أُسْتَاذاً ... عَبْدٌ وَلَكِنَّنِي أَعْتَقْتُ مَوْلَايَا

وإبليسُ اللَّعينُ الذي هو منشأُ كلِّ فسادٍ وضلالٍ شرٌّ من العدم أيضـاً، والحرفُ التي هي كائنةٌ في العدم هذا المخذولُ محرومٌ عنها أيضـاً، وصدورُ قول ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] حسم مادَّةَ الخيريَّة منه، ودلَّ على شرارته الصِّرفة، وحيث قابَلَ العدمُ الوجودَ بلا شيئيَّةٍ وعدميّةٍ؛ فلا جرم صار مرآةً للوجود، ولما عارضه اللعينُ بوجوده وخيريته كان مردوداً ومطروداً بالضَّرورة، ينبغي أن يتعلَّمَ حسن التَّقابل من العدم، حيث قابل الوجوديّةَ بالعدميّة، والكمالَ بالنَّقص، وحيث وقع على طرفٍ من العزَّة والجلال ظهر بذُلِّه وانكساره، وكأنَّ اللعينَ جرَّ جميع قباحة العدم على نفسه بعلَّة التَّكبُّر والتمرُّد اللذي كانا فيه، ويتخيَّلُ أنَّه لم يبق في العدم شيئـاً غير الخير. نعم، لولا الخيرُ لَمَا يكون مرآةً ومظهراً للخير، (**لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه**) مَثَلٌ مشهورٌ، وعلم أنَّ إبليس كان لازمـاً في هذا الموطن العالي ليأخذ مزابل الكلّ على رأسه بكناسيته، وليطهِّرَ غيره، ولكن لَمّا جاء المخذولُ من طريق التَّكبُّر والترفُّع، وأَوْرَدَ خيريَّته في نظره، وحبط عمله، وحرم الأجر؛ كان ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] علامةَ حاله في الحقيقة، بخلاف العدم، فإنَّه مع وجود الشرّ والنَّقص واللاشيئيَّة الذاتيّات فيه خرج من الحرمان، وشُرِّف بمرآتية حضرة الوجود.

فإن قيل: من أين نشأت كثرةُ الشرِّ في إبليس، فإنَّ فيما وراء العدم وجوداً، ولم يتطرَّقْ إليه شرٌّ؟

أجيب: كما أنَّ العدمَ مرآةٌ للوجود، ومظهرٌ للخير والكمال؛ الوجودُ أيضـاً مرآةٌ للعدم، ومظهرٌ للشرّ والنَّقص، وإبليسُ عليه اللعنة كما أنَّه أخذ الشرَّ في جانب العدم من العدم الذي هو موطنُ الشرّ؛ أخذ في جانب الوجود الخباثةَ المتوهمةَ التي ظهرت في مرآة الوجود من جهة مرآتيته ومظهريته للعدم، فكان حاملاً لشرِّ الطرفين الذاتيّ والعرضيّ، والأصليّ والظليّ، فبالضَّرورة جعله ماليخوليا الوجود المشابه بالشرّ محرومـاً من العدميّة واللاشيئيَّة التي من الصِّفات الحسنة للعدم، ومع ذلك كان الشرُّ المتوهَّمُ في جانب الوجود من مرآتيَّته للعدم أيضـاً نصيبه، فأوصله بالضَّرورة إلى الخسارة الأبديّة، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلاة وأكمل التسليمات.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالتِّسْعُونَ

إلى المِير محمَّدٍ نُعمانَ في جوابِ أسئِلتِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

قد سألتم: أنَّ السَّالكَ يرى نفسه أحيانـاً في وقت العروج في مقامات أصحاب الأنبياء عليهم الصلواتُ والتحياتُ الذين هم أفضلُ منه بالإجماع، بل ربّما يجد نفسَه في مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فما حقيقةُ هذه المعاملة؟ وبعضُ........

الناس هنا يتوهَّمون مساواةَ ذلك السَّالك لأرباب تلك المقامات، ويتخيَّلون شِرْكَتَه في تلك المقامات مع أرباب تلك المقامات، وبهذا التوهُّم والتخيُّل يردُّونه، ويطعنون فيه، ويطيلون في حقِّه لسانَ الملامة والشكاية، ينبغي كشفُ الغطاء عن وجه هذا المعمَّى.

جوابه: هو أنَّ وصول الأسافل إلى مقامات الأعالي يكون أحيانـًا من قبيل وصول الفقراء والمحتاجين إلى أبواب أصحاب الدول، وأمكنة أرباب النِّعم الخاصة بهم؛ ليطلبوا من هناك حاجةً، ويسألوا من دولهم ونعمهم مجاجةً، والقاصرُ في أمره يزعم هذا الوصولَ مساواةً وشركةً لهم، وكثيراً ما يكون هذا الوصولُ من قبيل النَّظارة والتنزُّه في الأماكن الخاصَّة بالأمراء والسَّلاطين بالوسائط والوسائل؛ لينظر بنظر الاعتبار، وليحصل له رغبةٌ في علوِّ الأنظار، وأين المجالُ لتوهُّم المساواة في هذا الوصول؟ وكيف يتصوَّرُ تخيُّل الشَّركة من هذا التنزُّه والنظارة؟ ووصولُ الخادمين إلى أمكنةٍ خاصَّةٍ بالمخدومين لأداء حقوق الخدمة محسوسٌ، الوضيعُ والشَّريفُ والأبله يتوهَّمُ من هذا الوصول المساواةَ والشَّركة، وكلُّ فراشٌ، وذابُّ ذبابٍ، وسيّافُ قرناء السلاطين، وحاضرون في أخصّ أمكنتهم، فمن توهَّم الشَّركةَ والمساواةَ من ههنا؛ فقد كشف عن غاية خبطه:

(ع) بَلَاءُ ذَوِي الْآلَامِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

والناسُ يطلبون العلَّةَ لملامة غريبٍ، ويخترعون الحيلةَ لطعنه وتشنيعه، رزقهم الله سبحانه وتعالى الإنصافَ، وكان اللائقُ بهم أن يطلبوا محملاً لرفع الشُّرور، ودفع الملامة عن الضَّعيف، وأن يجتهدوا في حفظ عرض الإسلاميَّة، وأمرُهم في الطعن لا يخلو عن أحد الحالين: إما أن يعتقدوا أنَّ صاحبَ هذا الحال معتقدٌ للشركة والمساواة لأرباب تلك المقامات أو لا، فإن اعتقدوا ذلك؛ فقد حكموا عليه بالكفر والزندقة، وأخرجوه من زمرة أهل الإسلام، فإنَّ اعتقادَ الشركة للأنبياء والمساواة معهم عليهم الصلوات والتسليمات كفرٌ، وكذلك اعتقادُ المساواة للشيَّخين عليهما الرضوان الذين ثبتت أفضليّتُهما بإجماع الصحابة والتابعين كما نقله جماعةٌ من أكابر الأئمة واحدٌ منهم الإمامُ الشافعيُّ عليهم الرضوان، بل الفضلُ لجميع الصَّحابة على باقي الأمَّة، فإنَّه لا تكون فضيلةٌ من الفضائل أصلاً عديلةً لفضل صحبة خير البشر عليه الصلاة والسلام، والفعلُ اليسيرُ الذي صدر من الأصحاب الكرام عليهم الرضوان وقتَ ضعفِ الإسلام وقلَّة المسلمين لتأييد الدين المتين ونصرة سيد المرسلين عليه وعليهم الصلوات والتسليمات لو صَرَفَ غيرهم جميعَ عمرهم في الطَّاعات بالرِّياضات والمجاهدات لا يبلغُ ذلك مرتبةَ ذاك الفعل القليل من الأصحاب، ولهذا قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: **«لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا لَا يَبْلُغُ مُدَّ شَعِيرِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»**، وأفضليّةُ الصِّدّيق رضي الله تعالى عنه إنّما هي من جهة أنَّه أسبقُ السَّابقين في الإيمان، وإنفاق الأموال الكثيرة والخدمات اللائقة، ولهذا نزل في شأنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] الآية.

وصرف جماعةٌ نظرهم إلى كثرة فضائل غيره ومناقبه، وتوقَّفوا في أفضليّته، ولا يعلمون أنَّ سببَ الأفضليّة لو كان كثرةَ الفضائل والمناقب؛ يكون كثيرٌ من آحاد الأمَّة الذين فيهم هذه الفضائلُ أفضلَ من نبيِّهم الذي ليست فيه هذه الفضائلُ، فما به التَّفاضُلُ شيءٌ آخرُ وراء هذه الفضائل والمناقب؟ وهو في زعم هذا الفقير........................

الأسبقيَّةُ في تأييد الدِّين، والأقدميَّةُ في إنفاق الأموال، وبذلُ الأنفس لنصرة أحكام دين رب العالمين، وحيث كان النبيُّ أسبقَ من الكلّ يكون أفضلَ من الكلّ، وكذلك كلُّ من هو أسبقُ في هذا الأمر؛ فهو أفضلُ من المسبوقين، وكأنَّ السَّابقَ أستاذُ اللَّاحقين ومعلِّمُهم في أمر الدِّين، واللاحقون يقتبسون من أنوار السَّابقين، ويستفيدون من بركاتهم، وصاحبُ هذه الدَّولة العظمى في هذه الأمة بعد نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام الصديقُ الأكبرُ رضي الله تعالى عنه، فإنَّه أسبقُ السَّابقين في إنفاق الأموال الكثيرة، والمقاتلة والمجاهدة الشديدة، وبذل العرض والجاه، ورفع الفساد والاشتباه لتأييد الدين المتين، ونصرة سيّد المرسلين عليه وعليهم الصلاةُ والسلامُ، فالأفضليّةُ على غيره مسلَّمةٌ إليه.

وحيث طلب النبيُّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام عزَّةَ الإسلام وغلبَتَه بإمداد عمر، وكفى الله سبحانه في نصرة حبيبه في عالم الأسباب به، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، قال ابن عباس ﷺ: سببُ نزول هذه الآية إسلامُ عمر؛ تتعيّنُ الأفضليّةُ بعد الصِّدِّيق ﷺ له، ولهذا انعقد إجماعُ الصَّحابة والتَّابعين على أفضليّة هذين الشَّيخين المعظمين كما مرّ، وقال عليٌّ كرم الله وجهه أيضـًا: إنَّ أبا بكر وعمر أفضلُ هذه الأئمَّة، فمن فضَّلني عليهما؛ فهو مفترٍ، أضربه بالسِّياط كما يضرب المفترون. وتحقيقُ هذا المبحث مندرجٌ في كتبي ورسائلي بالتَّفصيل، لا مجالَ للزِّيادة على ذلك في هذا المقام.

والأبلهُ من يجعل نفسه عديلاً لأصحاب خير البشر عليه وعليهم الصلواتُ والتسليماتُ، والجاهلُ بالأخبار والآثار من يتصوَّرُ نفسه من السَّابقين، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ دولةَ تلك السَّبقة التي هي باعثةٌ على الأفضليّة مخصوصةٌ بأهل القرن الأوّل الذين تشرَّفوا بشرف صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ، وهذا المعنى مفقودٌ في قرنٍ آخَر، بل يكون لاحقوا بعض القرون أفضلَ من سابقي قرونٍ أُخَر، بل يجوز أن يكون اللَّاحقُ في قرنٍ أفضلَ من السَّابق في ذلك القرن، بصَّر الله سبحانه الطاعنين بشناعة طعنِ مسلمٍ وطردِ مؤمنٍ بمجرد التوهُّم والتخيُّل، وبقباحة تكفير مسلمٍ وتضليله بمحض التعنُّت والتعصُّب، فما العلاجُ؟ لو لم يكن المقولُ فيه قابلاً للتَّكفير ومستحقّـًا للتَّضليل؛ يرجع ذاك الكفرُ والضلالُ بالضَّرورة إلى أرباب ذاك القول، ويتَّصل من المرميّ بالكفر إلى الرامي به كما ورد في الحديث النبوي عليه وعلى آله الصلاة والسلام[1]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ولنرجع إلى أصل الكلام فنبين الشقّ الثّاني، ونقول: لو لم يكن للطَّاعنين هذا الاعتقاد في حقّ صاحب هذا الحال، ولا يوصلون معاملته إلى حدّ الكفر؛ فحالُهم أيضـًا لا يخلو من أحد الحالين: إما أن يحملوا واقعته على الكذب والبهتان، فهذا عينُ سوء الظنّ بالمسلم، وهو محظورٌ عنه شرعـًا، وإما أن لا يحملوا على الكذب والبهتان، وأن لا يظنُّوه معتقداً للشَّركة والمساواة، فحينئذٍ ما وجهُ الطعن والملامة؟ وما سببُ تشنيعه وتعييبه؟ فإنَّ اللائقَ بالواقعة الصَّادقة أن يحمل على محامل صحيحةٍ، لا أن يشنَّع صاحبها ويقبَّح.

فإن قيل: ما وجهُ إظهار مثل هذه الواقعة الموجبة للفتنة؟

نقول: إنَّ ظهورَ مثل هذه الأحوال من مشائخ الطَّريقة كثيرُ الوقوع، وذلك عادةٌ مستمرَّةٌ لهم، وليس هذا أوَّل قارورةٍ كسرت في الإسلام، ولا يكون بلا نياتٍ حقانيةٍ، وإرادةٍ صادقةٍ، والمقصودُ من هذه الكتابة أحيانـًا: إظهارُ..............

---

(١) أخرج البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعـًا: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما». ورواه البخاري (٦١٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أحواله الموهوبة عند شيخه ليبيّن صحَّة حاله وسقمه، وليطلعه على تعبيره وتأويله، وأحياناً ترغيب الطُّلّاب والتلامذة وتحريضهم، وأحياناً لا يكون مقصودٌ من الكتابة لا هذا ولا ذاك، بل يورده في هذا القيل والقال مجرَّدُ السُّكر وغلبةُ الحال ليتنفَّسَ مما به قليلاً، وليخفِّفَ عن نفسه لمحةً، ومن كان مقصودُه من إظهار أمثال هذه الأحوال الشُّهرةَ وقبولَ الخلق؛ فهو مدَّعٍ بطَّالٌ، وهذه الأحوالُ استدراجٌ عليه ووبالٌ، ومتضمِّنةٌ لخذلانه وأنواع الأهوال. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿وَمَا اُبَرِّئُ نَفْسِي اِنَّ النَّفْسَ لَاَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي اِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وسألتم أيضاً: أنّه ما السَّببُ في أنَّ الأنبياءَ عليهم الصلوات والتسليمات والأولياءَ عليهم الرضوان يُبْتَلون في الدُّنيا بأشدّ البلاء والمصائب والمحن، كما قيل: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَوْلِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ**»[1]، وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿وَمَا اَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ اَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّ كلَّ من يكون اكتسابُه للسيئات أكثرَ يكون مَوْرِداً للمصيبة في الأكثر، فينبغي أن يبتلى بأشدّ البلاء والمصيبة، غير الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، وغيرُ الأولياء عليهم الرضوان دون الأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والسلام، وأيضاً إنَّ هؤلاءَ الكبراء محبوبو الحقّ سبحانه أصالةً وتبعاً، ومن خواصّ مقرَّبيه تعالى، فكيف يصحُّ إحالةُ البليات والمحن إلى المحبوبين وخواصّ المقربين؟ وبأيِّ وجهٍ يجوز أذاهم؟ وكيف يستقيم كونُ الأعداء في راحةٍ ونعيمٍ، وإقامةُ الأحباء في بلياتٍ وعذابٍ أليمٍ؟

اعلم - أرشدك الله وهداك سواء الصراط - أنَّ الدنيا ليست بموضوعةٍ للتَّنعُّم والتلذُّذ، وإنَّما المعدُّ للتَّنعُّم والتلذُّذ هي الآخرةُ، وحيث كان بين الدُّنيا والآخرة نسبة الضديَّة والنقاضة، ورضاءُ إحداهما مستلزمٌ لسخط الأخرى؛ يكون التلذُّذُ في إحداهما مستلزماً للتألُّم في الأخرى بالضَّرورة، فمن يكون تلذُّذه وتنعُّمُه في الدنيا أوفرَ يكون تألُّمُه وتندُّمُه في الآخرة أكثرَ، وكذلك من كان ابتلاؤه بالبليات والمحن في الدنيا أكثرَ يكون احتظاظُه وسرورُه في الآخرة بالتنعُّمات والتلذذات أزيدَ وأوفرَ، وليت لبقاء الدنيا بالنِّسبة إلى بقاء الآخرة حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط. نعم، ماذا تكون نسبةُ المتناهي إلى غير المتناهي؟ فلا جرم كان اللائقُ بمقتضى الكرم ابتلاءَ الأحباب بمحنة أيامٍ في هذه الدار ليحتظوا ويفرحوا بتنعماتٍ أبديَّةٍ، وكان المناسبُ بموجب المكر والاستدراج احتظاظَ الأعداء بتلذذاتٍ قليلةٍ ليبتلوا بتألماتٍ كثيرةٍ.

فإن قيل: إنَّ الكافرَ الفقيرَ الذي هو محرومٌ في الدُّنيا والآخرة لم يكن تألُّمُه في الدُّنيا مستلزماً لتلذُّذه في الآخرة، فما وجه ذلك؟

نقول: إنَّ الكافرَ عدوُّ الله جل سلطانه، ومستحقٌّ للعذاب الدائميّ، ورفعُ العذاب عنه في الدنيا وتركُه على وضعه وحاله عينُ التلذُّذ والتنعُّم، ونفسُ الإحسان في حقّه، ولهذا قيل لنفس الدنيا في حق الكافر: إنَّها جنةٌ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ بعضَ الكفار يرفع عنه العذابُ في الدنيا، ويعطى بعض التلذُّذات الأخرى أيضاً، وبعضٌ أخر يرفع عنه العذابُ، ولا يعطى له شيءٌ من تلذذاتٍ أخرى، بل يكتفى في حقِّه بالتذاذ إعطاء الفرصة والمهلة، ورفع العذاب، لكلٍّ ذلك حكمٌ ومصالح.

فإن قيل: إنَّ الله تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ومقتدرٌ لإكرام أوليائه بتلذذاتٍ دنياويةٍ، وتنعماتٍ أخرويَّةٍ، من غير أن يكون التلاذ في إحداهما مستلزماً للتألم في الأخرى في حقِّهم؟ أجيب بوجوهٍ:........

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) وصححه، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد رضي الله عنه بدون ذكر «الأولياء».
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٤٥) من حديث فاطمة بنت اليمان مرفوعاً بلفظ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، ثم الأمثل».

الأوَّل: أنَّهم لو لم يذوقوا في الدنيا بليات أيامٍ قليلةٍ ومحن أويقاتٍ يسيرةٍ لا يعرفون قدرَ تلذذاتٍ وتنعماتٍ أبديّةٍ، ولا يدركون قدرَ نعمة الصِّحَّة والعافية الدائمة كما ينبغي. نعم، من لم يَجُعْ بطنه لا يجد لذَّةَ الطعام، ومن لم يكن مبتلىً لا يعرف قدر الفراغة، وكأنَّ المقصودَ من تألُّمهم المؤقَّت تحصيلهم لكمال التلذُّذ الدائميّ، وظهر الجمالُ في حقّ هؤلاء الأكابر بصورة الجلال لابتلاء العوامّ، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

والثَّاني: أنَّ البليات والمحن وإن كانت عند العوامّ من أسباب التألم، ولكن كلُّما يصيبُ من الجميل المطلق؛ فهو من أسباب التنعُّم والالتذاذ عند هؤلاء الأكابر، وهم يجدون من التلذُّذ بالبلايا ما يجدون من التنعُّم بالنعماء، بل احتظاظُهم من البلايا أكثر؛ لكونها خالصَ مراد المحبوب، وليس هذا الخلوصُ في النَّعماء، فإنَّ النَّفسَ أيضـًا مريدةٌ لها، وهاربةٌ من البلايا، فيكون البلاءُ عند هؤلاء الأكابر أفضلَ من النِّعمة، ويكون التذاذُهم من البلاء أكثرَ من التذاذهم من النعمة، وحظّهم في الدنيا من البليات والمصائب، فلو لم يكن هذا الملحُ في الدنيا؛ لَمَا ساوتْ عندهم بشعيرةٍ، ولو لم تكن هذه الحلاوةُ فيها لكانت عبثـًا في نظرهم: (شعر)

أَلَا إِنَّ قَصْـدِي مِنْ هَـوَاكَ تَـأَلُّـمِي وَإِلَّا فَـأَسْـبَـابُ الـنَّـعِـيـمِ كَـثِـيـرَةٌ

فأولياؤه تعالى متلذِّذون في الدُّنيا، ومحتظون ومسرورون في الآخرة، ولذَّتُهم هذه في الدُّنيا لا تنافي حظَّهم في الآخرة، والتلذُّذُ الذي ينافي حظَّ الآخرة هو غيرُ ذلك مما هو حاصلٌ للعوامّ، إلهي ما هذا الذي جعلت أولياءك بحيث إنَّ ما هو سببُ تألُّم الآخرين سببٌ لالتذاذهم؟ وما هو زحمةٌ على الآخرين رحمةٌ لهؤلاء الأكابر، ونقمةُ الآخرين نعمةٌ لهم، الناسُ مسرورون في السُّرور، ومغموممون في الغمِّ، وهؤلاء الكبراء مسرورون في السُّرور، وفرحون في الغمِّ، فإنَّ نظرهم مصروفٌ عن خصوصيات الأفعال الجميلة والرذيلة، ومقصورٌ على جمال فاعل تلك الأفعال الذي هو جميلٌ مطلقٌ، وكانت الأفعالُ عندهم أيضـًا محبوبةً بحبّ الفاعل، ومورثةً للالتذاذ، كلُّما يصدر في العالم بمراد الفاعل الجميل جلّ سلطانه وإن كان من إيلامهم وإضرارهم؛ فهو عينُ مرادهم المحبوب لهم وسبب التذاذهم، إلهي ما هذا الفضلُ والكرامةُ، حيث أعطيتَ مثلَ هذه الدَّولة الخفيَّة والنعمة الهنيئة لأوليائك مخفيـًا إياها من نظر الأغيار، وأقمتهم بمرادك دائمـًا محتظين ومتلذذين، ورفعت عنهم الكراهةَ والتألمَ، وجعلتَها نصيبَ غيرهم، وجعلت العارَ والفضيحةَ اللذين من عيوب الآخرين جمالَ هذه الطَّائفة العليّة وكمالهم، وأودعتَ مرادهم في عين عدم حصول المراد، وجعلتَ التذاذهم وسرورَهم العاجلين سببـًا لزيادة حظوظهم الأخرويَّة على عكس الآخرين؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

والثّالث: أنَّ هذه الدَّارَ دارُ ابتلاءٍ، والحقُّ ممتزجٌ فيها بالباطل، والمحقُّ مختلطٌ بالمبطل، فلو لم يُعْطَ الأولياءُ المحنَ والبلاءَ، بل أعطيهما الأعداءُ؛ لَمَا يتميَّزُ الأولياءُ من الأعداء، ولتبطل حكمةُ الاختبار والامتحان، وذلك منافٍ للإيمان بالغيب الذي السَّعادةُ الدنيويَّةُ والأخرويَّةُ مودعةٌ في ضمنه، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] شاهدٌ لهذا المعنى، فجعل الله سبحانه أولياءه مبتلين بصورة البلاء والمحن، ورمى في عيون الأعداء الترابَ لتتمَّ بذلك حكمةُ الابتلاء والامتحان، وليكون أولياؤه متلذذين في عين البلاء، وليكون الأعداءُ مطموسوا البصيرة خائبين وخاسرين غافلين عن هذا الابتلاء، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وكانت معاملةُ الأنبياء..............................

مع الكفار أن تكون الغلبةُ أحياناً في هذا الجانب وأحياناً في ذاك الجانب، كانت النُصرةُ في البدر في جانب أهل الإسلام، وكانت الغلبةُ في الأحد في جانب الكفار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

والرّابع: أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى وإن كان قادراً على كلِّ شيءٍ، ومقتدراً على إكرام أوليائه بالتنعُّم الدنيويِّ والأخرويِّ، ولكنَّ هذا المعنى منافٍ لحكمته وعادته سبحانه وتعالى، وهو تعالى يحبُّ أن يجعل قدرته مستورةً تحت حكمته وعادته، وأن يجعل العللَ والأسبابَ نقابَ جناب قدسه، فبحكم النَّقاضة بين الدُّنيا والآخرة لا بُدَّ للأولياء من مِحَن الدُّنيا وبليتها حتى تكون لهم تنعُّماتُ الآخرة هنيئةً مريئةً، وقد مرَّ في جواب أصل السُّؤال رمزٌ إلى هذا المعنى.

ولنرجع إلى أصل الكلام، ونبيِّن تتمة الجواب من أصل السؤال، ونقول: إنَّ سبب الألم والبلاء والمصيبة وإن كان كسبَ الذنوب والسيئات، ولكن البلياتِ مكفرةٌ في الحقيقة للسيئات والمصيبات، مزيلةٌ لظلمات الذنوب والخطيئات، فالكرمُ في زيادة محن الأولياء وبلياتهم؛ لتكون كفارةً لسيئاتهم، ومزيلةً لظلمات ذنوبهم وزلاتهم، ولا ينبغي أن تتصوَّرَ سيئاتُ الأولياء وذنوبُهم مثلَ سيئات الأعداء وذنوبهم، ولعلكم سمعتم قولهم: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين، فلو صدر عنهم الذنبُ والعصيانُ لا يكون ذلك كذنب غيرهم وعصيانه، بل يكون من قسم السَّهو والنِّسيان بعيداً من العزم والجد والطغيان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فكثرةُ الآلام والمصائب والبليات تدلُّ على كثرة كفارة السيئات، لا على كثرة كسب السيئات، فيعطى أكثرُ البلاء للأولياء؛ ليكفر عنهم سيئاتهم، فيَقْدُمون إلى ربهم طاهرين مطهرين، ويكونون محفوظين من محنة الآخرة ومصونين، نقل أنَّ في حين احتضار النبيِّ ﷺ ظهر فيه قلقٌ واضطرابٌ، فلما شاهدت فاطمةُ رضي الله عنها منه ﷺ ذلك صارت من كمال شفقتها وتحنُّنها لرسول الله ﷺ ولقوله ﷺ: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي» مضطربةً ومنزعجةً، فلما شاهد النبيُّ ﷺ ذاك الاضطرابَ والانزعاجَ من فاطمة الزهراء في ذلك الوقت قال لتسليتها رضي الله عنها: «إِنَّ مِحْنَةَ أَبِيك هِيَ هَذِهِ فَقَطْ، لَا مَكْرُوهَ بَعْدَ ذَلِكَ»[1]، ما أعظم دولةً لو ارتفع العذابُ الأشدُّ والأبقى بمحنة أيامٍ قليلةٍ، وإنَّما يعامَلُ بهذه المعاملة الأولياءُ دون غيرهم، فإنَّ ذنوبَ غيرهم لا تكفَّر هنا كما ينبغي، بل يؤخَّرُ مجازاتهم إلى الآخرة، فيكون الأولياءُ أحقَّاءَ بكثرة الآلام والبليات الدنيوية، وليس غيرهم مستحقِّين لهذه الدَّولة، فإنَّ ذنوبَهم كبيرةٌ، ومشغوليَّتهم بالالتجاء والتضرّع والاستغفار والانكسار قليلةٌ، ونفوسَهم على كسب المعاصي جسورةٌ، يكتسبون الذنوبَ بالجدِّ والعزم، ولا يخلون من التمرُّد والطغيان والرجم، بل يكادون يستهزؤون ويسخرون بآيات الله عز وجلّ، والجزاءُ على قدر الجريمة، فإن كانت الجريمةُ خفيفةً وصاحبُها ملتجئاً ومتضرّعاً إلى الله تعالى؛ فهي قابلةٌ للكفارة بالبلاء الدنيويّ، أما إذا كانت غليظةً وصاحبُ الجريمة متمرِّدٌ ومتكبِّرٌ؛ فهي حَرِيَّةٌ بالجزاء الأخرويّ الذي هو أشدُّ وأدومُ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وكتبتم أيضاً: أنَّ الناسَ يستهزؤون ويسخرون، ويقولون: إنَّ...

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: (لما ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جعل يتغشّاه، فقالت فاطمةُ عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»).

الحقَّ سبحانه لِمَ يبتلي أولياءه بالمحنة والبلاء؟ ولم لا يجعلهم في التلذُّذ والتنعُّم دائماً؟ ويريدون نفيَ هذه الجماعة بهذا القيل والقال.

نعم، قد قال الكفارُ أمثال هذه الكلمات في حقه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٦-٧] الآية، ومدارُ أمثال هذه الكلمات على إنكار الآخرة وإنكار العذاب والثواب الدائمين، وعلى الاعتداد بالتلذُّذات الفانية العاجلة، والذي يؤمن بالآخرة ويذعن بالثواب والعذاب الدائمين لا يُورِدُ محنةَ أيامٍ قليلةٍ على نظره أصلاً، بل يتصوَّرُ هذه المحنَةَ المؤقَّتَةَ التي هي سبب راحةٍ مؤبَّدةٍ عينَ الراحة، لا ينبغي الإصغاءُ إلى قيل الناس وقالهم، والألمُ والبلاءُ والمحنةُ من شواهد المحبّة، فإن زعمها مطموسُو البصيرة منافيةً للمحبّة؛ ماذا نصنع؟ لا علاجَ غيرُ الإعراض عن الجاهلين ومقالتهم، ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

جوابٌ آخر عن أصل السؤال: إنَّ البلاءَ سَوْطُ المحبوب، يمنع المحبَّ من الالتفات إلى ما سوى المحبوب، ويجعله متوجّهاً بكليَّته إلى جناب قدسه، فيكون المستحقُّ للألم والبلاء الأولياءَ ليكون هذا البلاءُ مكفراً لسيِّئة التفاتهم إلى ما سواه، ولا يكون غيرُهم لائقاً بهذه الدَّولة، وكيف لا يجاء بهم إلى جناب المحبوب بلا اختيارٍ؟ فإنَّ كلَّ من سبقت له العنايةُ الأزليَّةُ يجاء به إلى جانب المحبوب بالجرّ والضرب، ويجتبى للمحبوبيَّة، ومن لا؛ فيُتْرَك على اختياره، فإن أدركته السعادةُ الأبديَّةُ يسلك طريقَ الإنابة، ويصل إلى المقصد بإمداد الفضل والعناية، وإلا؛ فإياه وحالَه، اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ. فعلم من هذا أنَّ البلاءَ في المرادين يكون أكثرَ منه في المريدين، ولهذا قال رسول الله ﷺ الذي هو رئيسُ المرادين والمحبوبين: «مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ»، فظهر في البلاء معنى الدَّلاليَّة، حيث إنَّه أَوْصَلَ الحبيبَ إلى الحبيب بحسن دلالته، وجعله صافياً من الالتفات إلى غير الحبيب، والعجبُ أنَّ الأولياءَ لو وجدوا ألوفاً لاشتروا بها البلاءَ، وغيرُهم يريدون دفعَ البلاء بإعطاء ألوفٍ.

فإن قيل: قد يفهم الاضطرابُ والكراهةُ في الأولياء أيضاً وقت إصابة الألم والبلاء في بعض الأحيان، فما وجهُ ذلك؟

أجيب: أنَّ ذلك الاضطرابَ صوريٌّ يصدر عنهم أحياناً بمقتضى الطينة البشريَّة، وفي إبقائه حِكَمٌ ومصالح، فإنَّ الجهادَ مع النَّفس لا يتصوَّرُ بدونه، وقد سمعت ما ظهر من سيد الأوّلين والآخرين عليه وعلى آله الصلاة والسلام من الاضطراب والقلق في سكرات الموت، وكان ذلك بقيَّةَ الجهاد مع النَّفس ليكون خاتمةُ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام على الجهاد مع أعداء الله تعالى، وشدَّةُ المجاهدة تحسم موادَّ الصِّفات البشريَّة، وتوصل النَّفسَ إلى كمال الانقياد وحقيقة الاطمئنان، وتجعلها صافيةً زاكيةً، فصار البلاءُ دلَّالَ سوق المحبّة، ومن لا محبّةَ له لا شُغْلَ له بالدَّلَّال، ولا يحتاج إلى الدلالية، ولا يكون لها عنده قدرٌ ولا قيمةٌ.

ووجهٌ آخرُ للألم والبلاء: حصولُ الامتياز بين المحبّ الصَّادق وبين المدَّعي الكاذب، فإنَّ من كان صادقا يكون ملتذّاً ومحتظّاً بالبلاء، ومن كان مدَّعياً لا يكون نصيبُه من البلاء غيرَ التألُّم والكراهة، ولا يهتدي إلى هذا التَّمييز إلا من كان فيه شائبةٌ من الصدق حتى يميِّزَ بين حقيقة التألُّم وصورته، ويفرِّق بين حقيقة الصِّفات البشريَّة وصورتها، الوليُّ يعرف الوليَّ رمزٌ إلى هذا البيان، والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد. وسألتم..............................

أيضاً: أنَّ العدمَ لا شيءٌ محضٌ كما قالوا، فلا يكون له وجودٌ، فإذا لم يكن له وجودٌ كيف تكون له آثارٌ وترقّياتٌ مع الوجود الذي عرض له في الذهن؟ فإن كانت تكون ذهنيَّةً، فكيف تخرج عن دائرة الخيال؟

اعلم أنَّ العدمَ وإن كان لا شيئاً، ولكن معاملةَ الأشياء كلِّها قائمةٌ به، ومنشأُ تفصيل الأشياء وكثرتُها مرآتيّته، والصورُ العلميّةُ للأسماء الإلهيّة جلّ شأنه التي انعكست في مرآة العدم جعلته متميزاً، واستلزمته ثبوتاً علميّاً، فبالضّرورة أخرجته أيضاً من اللاشيئيَّة المحضة، وصيَّرته منشأً للآثار والأحكام، وهذه الآثارُ والأحكامُ أيضاً كائنةٌ في خارج موطن العلم، وثابتةٌ في مرتبة الحسّ والوهم، وحيث حصل لها في تلك المرتبة باستحكام صنع الله جلّ شأنه ثباتٌ واستقرارٌ بحيث لا ترتفع بزوال الحسّ والوهم.

يمكن أن يقال: إنَّ هذه الآثارَ والأحكامَ خارجيَّةٌ، وأنتم كيف تتعجبون من ترقّيات العدم، فإنَّ جميعَ معاملة الكائنات مبتنيةٌ على العدم، ينبغي أن يشاهد كمالُ قدرة الله جلّ شأنه، حيث وسَّع دائرةَ المعاملة هذه كلِّها من العدم، وأظهر كمالات الوجود بنقائصه، ووجه ترقّيه في كمال الوضوح، فإنَّ الصورَ العلميَّةَ للأسماء الإلهيّة جلَّ سلطانه متمكِّنةٌ فيه، وكائنةٌ به، ومن الصُّور إلى الحقيقة، والظِّلال إلى الأصل طريقٌ سلطانيٌّ، ومن لم يحسَّ ذلك؛ فهو مطموسُ البصيرة، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ولفظُ الذهّن والخيال لا يوقعنَّك في الاشتباه والاحتمال، ولا يجعلنَّ صدور الآثار والترقّيات عسيراً في نظركم، فإنَّه ما من معاملةٍ إلا وهي في العلم والخيال ليست بخارجةٍ منهما.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ بين خيالٍ وخيالٍ فرقاً كثيراً، فإنَّ الخلقَ في مرتبة الوهم والخيال غيرُ اختراع الوهم والخيال، فإنَّ الأوّلَ واقعيٌّ وكائنٌ في نفس الأمر، ويمكن أن يقال: إنَّه موجودٌ خارجيٌّ، والثّاني قليلُ النَّصيب من هذه الدَّولة، وقليلُ الحظّ من الثَّبات والاستقرار. وقد كتبتُ بعضَ خصائص العدم في معرفةٍ على حدةٍ، وأخذ نقلها المير محب الله، فإن أردتم الاطِّلاعَ عليها ينبغي المراجعةُ إليها.

وسألتم أيضاً عن الفناء والبقاء، وقد كتب هذا الفقيرُ معنى هاتين الكلمتين في مواضع كثيرةٍ من كتبه ورسائله، ومع ذلك لو بقي الخفاءُ فيه؛ فعلاجُه الحضورُ والمشافهةُ، فإنَّ تمامَ الحقيقة لا يحصل بالكتابة، فإن حصل ربّما يكون إظهارُه بعيداً عن المصلحة، فإنَّه لا يدري ماذا يفهم منه الإنسانُ؟ وماذا يدرك؟ الفناءُ والبقاءُ شهوديّان لا وجوديّان، العبدُ لا يكون متلاشياً ومتحداً بالحق تعالى.

الـعَـبْـدُ عَـبْـدٌ أَبَـدَا   والـرَّبُّ رَبٌّ سَـرْمَـدَا

زنادقةٌ من يزعمون الفناءَ والبقاءَ وجوديّين، ويظنون أنَّ العبدَ يرفع عن نفسه تعيّنات وجوده، ويتَّحد مع أصله الذي منزَّهٌ عن التعيّنات والقيودات، ويصير مضمحلاً ومتلاشياً وباقياً بربّه، كقطرةٍ تكون فانيةً عن نفسه، وتلحق بالبحر، وترفع عن نفسه القيدَ، وتتَّحد بالمطلق، أعاذنا الله سبحانه من معتقداتهم السوء. وحقيقةُ الفناء عبارةٌ عن نسيان ما سواه تعالى، وعدم التعلّق بغيره، وتطهير ساحة الصَّدْر عن جميع مرادات النَّفس ومقتضياتها الذي هو مناسبٌ لمقام العبوديَّة، والمناسبُ لمقام البقاء هو قيامُ العبد بمرادات مولاه جلَّ سلطانه، وأن يجد مراداته سبحانه عينَ مرادات نفسه، وذلك بعد شهود الآيات الأنفسيّة.

وسألتم أيضاً: أنَّه قد أثبتم سيراً فيما وراء الأنفس، والسيرُ في المراتب العشرة لعالم الخلق وعالم الأمر، وسيرُ الهيئة

الوحدانيّة داخلٌ في السَّير الأنفسيّ، فما يكون السَّيرُ فيما وراء الأنفس؟

اعلم أنَّ الأنفسَ كالآفاق ظلالُ الأسماء الإلهيّة جل سلطانه، فإذا نسي الظلُّ بفضل الله جل سلطانه نفسه، وتوجّه إلى أصله، وحصل له تمامُ محبّة الأصل؛ فبحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» يجد نفسه عين أصله، ويصرف لفظ (أنا) الذي كان يطلقه على نفسه إليه، وكذلك لهذا الأصل أصلٌ أيضاً، فيتوجّهُ من هذا الأصل إلى ذاك الأصل، بل يجد نفسه عين ذاك الأصل، وهلمَّ جراً إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وهذا السَّيرُ سيرٌ فيما وراء الأنفس والآفاق، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ جماعةً من القوم قالوا للسير الأنفسيّ: إنَّه سيرٌ في الله، وذاك السَّيرُ الذي بيَّناه آنفا غيرُ هذا السَّير الذي قاله بعض المشائخ، فإنّ هذا السَّيرَ حصوليٌّ، وذاك السَّيرُ وصوليٌّ، والفرقُ بين الحصول والوصول مذكورٌ في مكاتيب متعددةٍ بالتَّفصيل، فليعلم من هناك.

وسألتم أيضـًا عن أقربيَّة ذاته وصفاته وأفعاله جلَّ سلطانه. بيانه أيضـًا متعلّقٌ بالحضور، فإنَّه لا مصلحة في كتابته، ولئن كتبناه يكون مغلقـًا لا يعلم انفهامُه، بل لو فهم بالتَّقرير في الحضور؛ فهو أيضـًا مغتنمٌ.

وسألتم أيضـًا عن كمالات مرتبة النبوَّة قائلاً بأنَّ الفناءَ والبقاءَ والتجلِّي ومبدئيةَ التعيّن كلَّها في مراتب كمالات الولايات الثلاثة، فبأيِّ كيفيةٍ يكون السَّيرُ في مراتب كمالات النبوَّة؟

اعلم أنَّ مراتبَ العروج ما دام بعضُها متميزاً عن بعضٍ، ويحصل السَّيرُ من أصلٍ إلى أصلٍ؛ فكلُّ كمالاتٍ حاصلةٍ فيها داخلةٌ في دائرة الولايات، فإذا زال ذلك التميُّزُ، وانعدم التَّفصيلُ، ووقعت المعاملةُ في الإجمال والبساطة؛ يقع الشُّروعُ في كمالات مرتبة النبوَّة، وإن كان في تلك المرتبة أيضـًا وسعةٌ، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ولكن تلك الوسعةُ وسعةٌ أخرى، فإن كان فيها تميُّزٌ؛ فهو أيضـًا تميزٌ آخر، وماذا أكتب زيادةً على ذلك؟ وماذا يفهم منه؟ ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وسألتم أيضـًا عن بعض أسرار الصلاة، فأخَّرنا جوابه إلى وقت آخر، فإنَّ الوقتَ الآن ضيقٌ جداً، وإنَّما نكتب بعض المعارف بسرقة الوقت من يد الزمان وأهله، ارحموا الفقير، ولا تجاسروا في الاستفسار. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاةُ والتحيةُ على رسوله دائمـًا وسرمداً، وعلى آله الكرام، وصحبه العظام، إلى يوم القيام.

تم الجزءُ الثَّاني، ويليه الجزء الثَّالث أوّلُه: أما بعد فهذه كلمات... إلخ